٢
شتاء ٢٠٢٥م
١٤٤٦هـ

الاستعمار
COLONIALISM

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار
تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م

الافتتاحية
الاستعمار سياسة الإبادة واستلاب المقدرات

حوارات

التنمية المستدامة ٢٠٣٠ خطوةٌ نحو الاستعمار الجديد — د. السيّد هاشم الميلاني

بحوث و دراسات

المواجهة بين إنجلترا والعلماء في نهضة المشروطة — السيّد عبّاس الرضوي
إرهاصات الاحتلال البريطاني للعراق — د. ياسين شهاب شكري
جيوبولتيك سورية وأهميّتها من منظار الاستعمار الفرنسي — د.إبراهيم أحمد سعيد
الغزوات البريطانيّة الثلاث لمصر — د. محمود شوقي
الوجه الخفي للتعليم الاستعماريّ الفرنسيّ في الجزائر — د. عبد القادر بوحسون

قراءات علمية

مصاديق الجهاد ضد الاستعمار وفقًا لرؤية السيد هبة الدين الشهرستاني — د.محمد باقر البهادلي
قراءةٌ في كتاب نحن وأزمنة الاستعمار (الحلقة الأولى) — أ. علي رعد

ترجمات

علمُ الإنسانِ والهَيْمَنةُ العقلانيّةُ — بِينْوَا دُوليتْوَالْ

وثائق

ما بعثه المجاهدون الليبيّون إلى المرجعيّة الشيعيّة في النجف الأشرفّ

٢

الاستعمار
Colonialism

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار

تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م.

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تُعبّر بالضرورة عن توجّهات المركز

صور جديدة للاستعمار

كان الشرق بأجمعه يعاني كابوسين من الاستعمار. إنكليزي وفرنسي وفي كل برهة ينتفض قطر من المستعمرات انتفاضة يحاول التخلص من البلية الاستعمار، فيخدعونه بإعطاء الاستقلال المزيّف، في استعمار مغلّف، ويبدلون الصيغ والعناوين، استعمار فانتداب فحماية، الحقيقة واحدة لا تتغير، والعبارات شتى.

حتى نزلت إلى ميدان الاستعمار الدنيا الجديدة فجاءت بلون من الاستعمار جديد، الدفاع المشترك، المساعدات العسكرية، المساعدات الفنية، الحلف العسكري، وكلّها خداع وصراع، واختلاسات وأطماع، خداع مغلّف وطمع مزيّف.

المرجع الديني الشيخ كاشف الغطاء (ت: ١٩٥٣م) ، المثل العليا في الإسلام ١/ ١٤.

الاستعمار
Colonialism

مجلة فصلية تعنى بتحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد وما بعد الاستعمار

تصدر عن المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م.

رئيس التحرير

د.هـــاشم الميلاني

مدير التحرير

د. عمار عبد الرزاق الصغير

سكرتير التحرير

د. فرقان الحسيني

هيئة التحرير

أ. الشيخ جمال عمار	أستاذ الفكر المعاصر/ تونس.
د. حسّان عبد الله حسّان	أستاذ العلوم التربوية والنفسية/ مصر.
أ. الشيخ حسن الهادي	باحث في الفكر الاسلامي واستاذ في الحوزة العلمية/ لبنان
د. محمود حيدر	أستاذ الفلسفة الفكر المعاصر/ لبنان.
د. ياسين شهاب البيجواني	أستاذ التاريخ المعاصر/ العراق.
د. يحيى أبوزكريا	أستاذ الحضارة الاسلامية/ الجزائر

تدقيق اللغة العربية

د. فضاء ذياب

تدقيق اللغة الانكليزية

د. حامد فياضي

للتواصل

ـ موقع المركز: http://www.iicss.iq

ـ موقع المجلة: colonialism.iicss.iq

ـ إيميل المجلة: info@colonialism.iicss.iq

رسالة المجلة

دراسة حقبات الاستعمار الغربي القديم والجديد للدول والشعوب، وما بعد الاستعمار، وتعزيز ذلك بالوثائق. وبيان الدوافع والغايات الاستعماريّة من النواحي السياسيّة، والاقتصاديّة، والتربويّة، والثقافيّة، والفكريّة.

والكشف عن الطبيعة الهمجيّة والمتوحّشة للحروب الاستعماريّة العسكريّة، وآثارها التدميريّة، على البلاد المستعَمرة وقتل أهلها، وآثار الغزو الثقافيّ على الهوية الثقافيّة والدينيّة والاجتماعيّة والإضرار بالمواطنة، والتشكيك بالقيم، وتغريب الوعي، وتمزيق الوحدة بإيجاد الاختلافات وتنمية الانقسامات وبثّ الفرقة، وتعميق الاختلاف الطائفي والعنصري والقومي والديني وافتعال الأزمات، وآثار ذلك حتى الوقت الراهن؛ للخروج بصورة واضحة عن السياسة الاستعمارية، وما تُخلِّف من خراب مُستدام في واقع الشعوب؛ ممّا يسهم في فهم الآخر والواقع، وتكوين وعيٍ وطنيٍّ مستقلٍ للحاضر والمستقبل.

ولا تُغْفِل المجلةُ دورَ المقاومة الدينيّة والفكريّة والعلميّة والأدبيّة والميدانيّة والسياسيّة في مناهضة مشروع الاستعمار، وتأريخ نهضة الشعوب وجهادها في مواجهة المدّ الاستعماري الغربي.

ضوابط النّشر

تُرحّب مجلّة (الاستعمار) بنشر الأبحاث العلميّة الأصيلة، وفقًا للشروط والضوابط العلمية والمنهجية الآتية:

١.تنشر المجلّة الأبحاث العلميّة والدراسات الرصينة - ذات العلاقة بهوية المجلة - التي تلتزم بمنهجيّة البحث العلمي وخطواته المتعارف عليها عالميًّا.

٢. العناية بنقد الاستعمار القديم والجديد ومابعد الاستعمار ، وبيان الصورة المظلمة التي خلّفها، وعدم الاكتفاء بالعرض والوصف.

٣.ألاّ يكون البحث قد نُشر سابقًا في مجلّةٍ أو كتابٍ أو موقعٍ الكتروني...، وليس مقدّمًا إلى أيّة وسيلة نشرٍ أخرى، وعلى الباحث تقديم تعهّدٍ مستقلٍّ بذلك. وعليه أنْ يُشير فيما إذا كان البحث قد قُدّم إلى مؤتمرٍ أو ندوة، وأنّه لم يُنشر ضمن أعمالهما.

٤.تعبّر جميع الأفكار المنشورة في المجلة عن آراء كاتبيها، ولا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر جهة الإصدار، ويخضع ترتيب الأبحاث المنشورة إلى موجبات فنيّة، ولا علاقة له بمكانة الكاتب وأهميّة البحث.

٥.أنْ يُكتب البحث باللّغة العربيّة، ويُرسل منه نسخة إلكترونيّة بصيغتي Word و pdf، بحدود (٥,٠٠٠-٧,٠٠٠) كلمة، بخط (Simplified Arabic)، على أن تُرقّم الصفحات ترقيمًا متسلسلاً.

٦.تقديم ملخّصٍ للبحث باللّغة العربيّة، يُوضع في أوّل البحث، ولا يزيد على (١٥٠) كلمة، على أنْ يتضمّن عنوان البحث، واسم المؤلّف، وتخصصه، وجهة العمل (باللغتين العربيّة والإنكليزيّة)، ورقم الهاتف، والبريد الإلكتروني.

٧.تكون هوامش كلّ صفحةٍ في أسفلها، والمصادر والمراجع في نهاية البحث. أما طريقة كتابة المصادر والمراجع فتكتب على وفق الصيغة العالميّة المعروفة بـ (Chicago)، وهي على النحو الآتي: اللقب، اسم المؤلف، عنوان الكتاب، اسم المُحقِّق أو المُترجِم أو المُراجِع أو المُصحِّح -إنْ وجد- ، الطبعة ، المجلد أو الجزء، مكان الطبع، اسم المطبعة، سنة الطبع. وفي المقالات تكون على الترتيب الآتي: اسم المؤلف، عنوان المقال، اسم المجلّة العلميّة، جهة الصدور، رقم العدد، تأريخه، ورقم الصفحة.

٨.يُزوَّد البحث بقائمة المصادر منفصلةً عن الهوامش، وفي حالة وجود مصادر أجنبيّة يُفرد لها قائمةٌ مستقلّةٌ عن قائمة المصادر العربيّة، ويُراعى في إعدادها الترتيب الألفبائي لأسماء المؤلفين.

٩.يجب أنْ يُرفق الباحث تعهّدًا خطّيًّا ببحثه، هذه صيغته:

جانب مدير تحرير مجلة الاستعمار المحترم

أقرّ أنا الموقّع على هذا أدناه وأتعهّد .... (يذكر اسم الباحث) ....(الصفة العلمية للباحث) بأنّ هذه المادة وعنوانها :.....(العنوان الكامل للبحث)، هي من إنتاجي العلمي؛ ولهذا فهي تدخل في ملكيتي الفكريّة، ولم يسبق نشرها، وإنّي أُعطي مجلّتكم الكريمة حقّ الطبع والنّشر والتّرجمة، وإعادة النّشر والتوزيع الورقي أو الالكتروني.

١٠.لا يحقّ للباحث أنْ يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيأة التّحرير.

١١.تخضع الأبحاث المستلمة لبرنامج الاستلال العلمي Turnitin. وتخضع كذلك لتقويم سرّيّ لبيان صلاحيّتها للنشر، ولا تُعاد الأبحاث إلى أصحابها سواء أقُبِلت للنشر أم لم تُقبل.

١٢.الأبحاث التي يرى المقوِّمون وجوب إجراء تعديلاتٍ عليها قبل نشرها تُعاد إلى أصحابها، مع الملاحظات المحدّدة، كي يعملوا على إعدادها نهائيًّا للنشر.

المحتوى

الافتتاحية ٨

الحوارات

التنمية المستدامة ٢٠٣٠، خطوةٌ نحو الاستعمار الجديد
د. السيّد هاشم الميلاني ١٢

بحوث ودراسات

المواجهة بين إنجلترا والعلماء في نهضة المشروطة
السيد عباس الرضوي ٢٦

إرهاصات الاحتلال البريطاني للعراق
د. ياسين شهاب شكري ٥٦

جيوبولتيك سورية وأهميّتها من منظار الاستعمار الفرنسي
د. إبراهيم أحمد سعيد ٨٨

الغزوات البريطانيّة الثلاث لمصر، وقائع الاحتلال وطرائق المقاومة الشعبيّة
د. محمود شوقي عثمان ١٢٢

الوجه الخفي للتعليم الاستعماريّ الفرنسيّ في الجزائر
د. عبدالقادر بوحسون ١٤٢

قراءات علمية

مصاديق الجهاد ضدّ الاستعمار وفق رؤية السيّد هبة الدين الشهرستاني
د.محمد باقر البهادلي ١٦٢

قراءة في كتاب نحن وازمنة الاستعمار (الحلقة الاولى)
علي رعد ١٨٨

ترجمات

علمُ الإنسانِ و(الهَيْمَنةُ العقلانيّةُ)
بِينْوَا دُو ليتْوَالْ ٢٢٢

وثائق

ما بعثه المجاهدون الليبيّون إلى المرجعيّة الشيعيّة في النجف الأشرف
رئيس اللجنة الطرابلسية بمصر ٢٧٠

ترجمة ملخّصات المحتوى بالإنكليزيّة ٢٨٥

الافتتاحية

الاستعمار سياسة الإبادة واستلاب المقدرات

حفزّت مجموعةٌ من العوامل قوى الشرّ العالميّة لتوجيه اهتمامها إلى المنطقة العربيّة والتسابق للسطوة عليها منذ بدأ الاستعمار على يد الإسبان والبرتغال في نهايات القرن الخامس عشر الميلادي، ولعل الباعث الأكبر على الاستعمار كان هو العامل الاقتصادي؛ فهو الأكثر حضورًا، إذ إنّ بوساطة السيطرة على مقدرات الشعوب تتولّد قوة السيطرة على القرار السياسي، وتتوسّع دائرة التفوّق والاقتدار، ومن ثم الهيمنة والتحكم والاستعباد.

ومنذ عصر النهضة والثورة الصناعية وظهور الشعور بالفوقية على العالم تحولت اهتمامات القوى الكبرى ودول الاستكبار العالمي لاستغلال ثروات الشعوب ومواردها واحتكار أسرار العلوم منعًا لانتشارها؛ لتبقى هي الوحيدة من يتحكم بمستقبل عالم الانسان تمهيدا لامتلاك قوة التقدم في شتى المجالات، وضمانًا لبقاء الشعوب مستضعفة متأخرة.

ومن هنا أسرعت القوى الاستعمارية بشراهة تتحرى ضمانات ديمومة انتعاشها الاقتصادي في الاوطان المتأخّرة والمنشغلة في وضعها الداخلي، لتنمية مجالاتها العلمية والعسكرية وغيرها، حتى أنجزت تقدمًا سريعًا في المجالات كافة لاسيما الصناعية والعسكريّة؛ وهذا مكّنها من زيادة في قوة التسلّط على دول الشرق الأوسط والأدنى وأفريقيا، التي تمتلك موقعًا جغرافيًا استراتيجيًا، والثروات الطبيعيّة المتنوعة، ممّا يجعلها مواطن غنيّة بالمواد الخام الرخيص لصناعات الدول الاستعمارية، وأسواقًا سهلة لتصدير صناعاتها إليها، فضلاً عن امتلاك هذه الدول المستهدفة الهوية الدينية القويّة، التي تمثّل تهديدًا مستقبليًّا على الدول الاستكباريّة ومشاريع تمدّدها؛ فعمدت إلى تدمير تلك الدول، أو إضعافها، وضمان عدم نهوضها بسهولة.

هذا المشروع الظلامي الذي نعيش آثاره وصوره الجديدة جيلاً بعد آخر قام منذ شروعه على إستراتيجيات الإعلام المضلّل، وتعميق الفرقة، وإيجاد الخصومة بين البلدان المتجاورة أو بين أبناء البلد الواحد، والعدوان عليهم؛ لتنشغل الشعوب ببعضها، فتبقى تحت وطأة قوة الاستعمار متأخرةً مستضعفةً.

وقد تأسست مجلة الاستعمار وهي تحمل همّ بيان صور تلك الحقبة السوداء، وأسبابها وآثارها الممتدّة في الواقع الراهن، لأيقاظ الضمير الجمعي، وتعزيز الهويّة الأصيلة، وتكوين وعيٍ وطنيٍّ غير مستغفلٍ،

يميّز الصديق من العدو.

في هذا العدد من (مجلّة الاستعمار) التي يصدرها المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيّة ـ أحد التشكيلات الفكريّة للعتبة العباسيّة المقدّسة ـ مجموعةٌ من الأبحاث التي تتناول شؤون الاستعمار في العالم الاسلامي.

تفتتح المجلة بحوثها بحوارٍ حول مشروع التنمية المستدامة الذي أطلقته الأمم المتحدة عام ٢٠١٥ م، بمدةٍ تنفيذية قدرها ١٥ عامًا، حينما رسمت ١٧ هدفًا لجدول أعمال التنمية المستدامة لأعمال عام ٢٠٣٠م، تمهيدًا لتطبيقه على جميع البلدان، وقد قُوبل بمخاوف كبيرة؛ لأنّ ظاهر المشروع إيجاد حلولٍ للعالم بتحقيق الإنصاف الاجتماعي، والتوازن البيئي، وتحسين استثمار الموارد الطبيعية، وصولاً إلى الانتعاش الاقتصادي؛ لكنه يضمر تهديداتٍ خطيرةً على الطبقات الاجتماعية، تعزّز من سيطرة الرأسمالية الليبرالية، واستمرار هيمنة الدول المتقدمة الانتاجية على حساب الدول النامية الاستهلاكية.

حوار التنمية لرئيس تحرير مجلة الاستعمار السيّد هاشم الميلاني جاء بعنوان (التنمية المستدامة ٢٠٣٠ خطوة نحو الاستعمار الجديد) تعرّض فيه إلى بنية هذا المشروع الداخليّة والخارجيّة، والمخاطر المودعة فيه، وكيف أنّه يمثّل وجهًا للاستعمار الجديد، وطرق الهيمنة على العالم، تم صياغته وتنظيره بأسلوبٍ قانونيّ وفلسفيّ وبمقاييس غربيّةٍ لا تنطبق على سائر بلدان العالم، ولا تراعي خصوصيّتها وأبنيتها الفكريّةً، ولا هويّتها الدينيّة والثقافيّة، ولا تركيبتها الاجتماعيّة.

في محور (الدراسات والبحوث) يتصدّر بحثٌ في نهضة المشروطة، ذلك المبدأ القانوني الذي ينصّ على أنّ القوانين التي توضع في إدارة البلاد من اللازم ألّا تتخّطى أو تتقاطع مع قوانين وتشريعات المذهب الرسمي للأكثرية فيه، وهو شرط يقيّد السلطة ويحدّ من فوضى التحرّر في سنّ القوانين، ويمنعها من الاستبداد وإقصاء حقوق الأكثرية، ويلزمها باحترام إرادتها. والمشروطة تمثّل نوعًا من المواجهة بين الاستعمار الإنجليزي والروسي مع علماء الدين في إيران.

والبحث الآخر حول نهاية حقبة الاحتلال العثمانية، وبداية حقبة الاحتلال البريطاني للعراق الذي كان مهتمًا بموقع العراق المحوري بين عالمَي الشرق والغرب، وتوسّطه بحرَي الخليج والمتوسّط، وطبيعة خطّ الملاحة والنقل البري والسككي، ممّا كان باعثًا مهمًّا للتحرّك في السيطرة عليه من قبل دول ألمانيا وفرنسا مستغلين ضعف الدولة العثمانية وانشغالها بالحرب العالمية، فكان مشروع احتلال العراق من قبل بريطانيا الذي واجهت فيه مقاومةً عظيمةً لمدة أربع سنوات قبل السيطرة.

هذا الدافع الاستعماري تشترك فيه الدول المستعمرة كافة، فهو غير بعيدٍ عن التفكير الاستعمار الفرنسي، الذي استغل موقع سوريا وقربها من مقر الدولة العثمانية، وأهمية الساحل البحري، ناهيك عن

تراجع قوة السلطة العثمانية التي انشغلت بالملذّات والتوافه فضعفت وانهارت بنيتها الداخلية، وتهرّأت أنظمتها العسكرية والقانونية لتأتي فرنسا باتفاقٍ بريطانيّ لاحتلال سوريا، ووضع أسس اتفاق سايكس بيكو ووعد بلفور، وهكذا أخذ البحث بتناول مجمل الأحداث التي عاشتها سوريا ما قبل الحرب العالمية الأولى، وما بعدها من اضطرابٍ وتنازعٍ وتطرّفٍ داخليّ وخارجيّ على يد العثمانيين ضدّ العرب.

وفي هذا العدد بحثٌ أيضًا عن الغزوات البريطانية الثلاث على مصر عام (١٨٠١-١٨٠٧-١٨٨٢م)، تطرق لذكر هذه المراحل وأسبابها وشخصياتها، ومن ثَمّ تعرّض الباحث فيه إلى بدايات الحركة الوطنيّة المصريّة، والإخفاقات التي مرّت بها لتنتهي إلى مرحلة اليقظة والنهوض على يد مصطفى كامل. كما تعرّض لملامح جهود أحمد عرابي وسعد زغلول، وبعض معاهدات تلك الحقبة في مصر.

وقد تمادت دول الاستعمار فلم تكتفِ بالسيطرة على الشعوب ومقدّراتها، حتى تدخّلت في تحديد شكل الهويّة الدينيّة والعلميّة والتربويّة والثقافيّة للشعوب المستعمَرة، فحاولت مثلاً فرنسا بمشروعٍ همجيّ ضاغطٍ فرض تغيير اللغة المتداولة في الجزائر، وإلزام اللغة الفرنسيّة لغةً أساسيةً في التربية والتعليم، في سبيلٍ القضاء على البناء الدينيّ والتربويّ والثقافيّ للجزائريين، وجعلهم تبعًا لأنظمتها ولغتها.

وفي العدد بحوثٌ أخرى في محور (قراءات علميّة)، منها بحث حول السيّد هبة الدين الشهرستاني (رح)، ودوره في التعبئة الجماهيريّة ومقاومة الاحتلال البريطاني. ومنها قراءة في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) الذي أصدره المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية عام ٢٠١٨ بمشاركة نخبةٍ من الباحثين وبواقع ٤ أجزاء. فضلاً عن بحوثٍ أخرى تجري في سياق موضوع المجلّة نفسه.

نأمل أنْ يقدّم العددُ الثاني من (مجلّة الاستعمار) في مطلع العام الجديد ٢٠٢٥م، المعرفةَ المناسبةَ لقرائها الكرام في موضوع تخصّصها. واللهُ وليُّ التوفيق.

د. عمار عبد الرزاق الصغير

مدير التحرير

الثاني من رجب ١٤٤٦

٢٠٢٥/٢/١

الحوارات

يتناول هذا الباب حوارات هادفة حول الاستعمار القديم والجديد ونظريات ما بعد الاستعمار مع المختصين بهذا الشأن في الشرق والغرب

حوار مع الدكتور السيّد هاشم الميلاني حول التنمية المستدامة

حاوره الدكتور فرقان الحسيني

التنمية المستدامة 2030، خطوةٌ نحو الاستعمار الجديد

حوارٌ مع الدكتور السيّد هاشم الميلاني [١]

حاوره

د. فرقان الحسيني

السيد الدكتور هاشم الميلاني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ادعوا ان تكون بخير وعافية، ونبدأ على بركة الله بحوارية هذا العدد، في امل وضع الاجابات المناسبة مما يسهم في تقديم مادة علمية نافعة للقراء الكرام.

السؤال الأول: هناك سجالٌ في الوسط النخبوي حول (خطّة التنمية المستدامة ٢٠٣٠) التي أقرّتها الأمم المتّحدة عام ٢٠١٥م، هل هي خطّةٌ تنمويّةٌ حقيقيّةٌ أم أنّها خطوةٌ كبيرةٌ تُصبّ في صالح الغرب، وتُؤرشَف ضمن المشروع الاستعماري الجديد؟

الجواب: قبل الإجابة عن سؤالكم المهمّ والحيوي، أودّ الإشارة إلى نبذةٍ تعريفيّةٍ لخطّة (التنمية المستدامة)، وخلفيّاتها وأهدافها، ثمّ أُعرّج على جواب سؤالكم.

على أعتاب الدخول في القرن الواحد والعشرين وانتهاء الألفيّة الثانية والدخول في الألفيّة الثالثة، اجتمعت بعض الدول المهيمنة على العالم، ووضعت منشورًا يتكوّن من ثمانية بنودٍ ليعمّم على العالم ويكون فاتحة الألفيّة الثالثة، أطلقوا عليه عنوان: (الأهداف الإنمائيّة للألفيّة)، لينفّذ خلال خمسة عشر عامًا إلى عام ٢٠١٥م، ولكن بعد ظهور بوادر الفشل والإخفاق في تحقّقه جلسوا مرةً ثانيةً واستفادوا من نقاط القوّة والضعف، وعملوا لمدّة سنتين كانت حصيلتها خطّة التنمية المستدامة ٢٠٣٠ لتبدأ من ٢٠١٦ وتنتهي في ٢٠٣٠. تحتوي هذه الخطّة على ١٧ هدفًا، و١٦٩ غايةً في شرح تلك الأهداف، وتعتمد هذه الخطّة على ثلاثة أبعادٍ عامّةٍ هي: البعد الاقتصادي، والبعد الاجتماعي، والبعد البيئي، وتمّ تصويت جميع الدول عليها، هذا هو الإطار العامّ للخطّة.

---

١. المشرف العام على المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

السؤال الثاني: ما هو تقييمكم لخطّة التنمية المستدامة؟

الجواب: إذا أردنا أنْ نكون منصفين وموضوعيّين، لا بدّ من تقييم الخطّة على مستويين، المستوى الأوّل النظر إلى الخطّة كمنظومةٍ متكاملةٍ كتبت بأيادي غربيّة، والمستوى الثاني النظر إليها بشكلٍ تجزيئي لتقييم كلّ مفردةٍ وكلّ هدفٍ وكلّ غاية، وهنا في المستوى الثاني نجد أمورًا إيجابيّةً كثيرةً لو تحقّقت على أرض الواقع من دون مؤثّراتٍ استعماريّةٍ لخدمت البشريّة، طبعًا مع اختلافنا معهم في جزئيّاتٍ وأهدافٍ وغاياتٍ جزئيّةٍ أخرى تخالف الشريعة الإسلاميّة، وحتّى تعاليم الأديان التوحيديّة.

أمّا مع لحاظ المستوى الأوّل والنظر إلى الخطّة في كلّيتها نقول، ونعتقد بأنّها خطّةٌ استعماريّةٌ تهدف إلى هيمنة المنظومة الغربيّة على العالم أجمع.

إنّ المنظومة الغربيّة بعد نجاحاتها الاقتصاديّة والسياسيّة والعلميّة قد جعلت نفسها المركز والميزان والمحك وجعلت الباقي أطرافًا؛ لذا ترى لنفسها الحقّ في تعميم ثقافتها المادّيّة على جميع العالم، وإجبار الكلّ على متابعة هذه الثقافة، وهذا ما شاهدناه من خلال الغزو الاستعماري ونهب ثروات البلاد مع تطعيمه بالتنظير الفلسفي، وتفوّق العرق الأوروبي، وما شاكل، ولكن ما بعد أصبح الاستعمار المباشر أمرًا مُكلّفًا لدول الغرب ولا جدوى فيه أبدلوه بالاستعمار الجديد من خلال الأيادي التي زرعوها في سائر البلدان، أمّا اليوم، فقد تحوّل الاستعمار الجديد بلونٍ آخر، وتبلور في خطّة التنمية المستدامة ٢٠٣٠م، ليأخذ بعدًا عالميًّا على جميع الدول النامية وغير النامية.

السؤال الثالث: كيف يمكن استنتاج ذلك ولم يرد التصريح في متن الخطّة أو الإشارة إلى أيّ هدفٍ استعماري؟ بل الخطاب خطابٌ إنسانيّ وخدميّ؟

الجواب: عندما نتعامل مع المنظومة الغربيّة لا بدّ أنْ نلحظ عدّة أُمورٍ كي لا تختلط علينا الأوراق:

١. المنظومة الغربيّة في كلّيتها منظومةٌ علمانيّةٌ مادّيّةٌ نفعيّةٌ تنطلق في تعاملها مع الغير من منطلق النفع والمصلحة التي تعود إليها، وكذلك من منطلق التفوّق والهيمنة.

٢. الموقف الأوّل تّجاه هذه المنظومة المادّيّة هو موقف سوء الظنّ وعدم الاعتماد، إذ التجارب أثبتت مكر هذه المنظومة وعدم إرادتها الخير لباقي الدول والشعوب إلّا بمقدار ما يصبّ في مصالحها.

٣. سياسة الحيطة والحذر وقراءة ما وراء السطور، وهذا ما التفت اليه علماؤنا في تعاملهم مع الغرب وتقييم أعماله، وعلى سبيل المثال يقول العلاّمة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في وصف المنظومة الغربية تجاه الاسلام: «لم تدع حيلةً إلاّ سلكتها، ولا ملاك خدعةٍ إلا امتلكتها، ولا قوى مكرٍ إلاّ استعملتها، ولا ربوة غدرٍ إلاّ افترعتها، ولا مظنّة باب عدوان إلاّ قرعتها، ولا سيطرة سلطةٍ إلاّ ضربتها». ومن هذا المنطلق وهذه البصيرة واجه العلاّمة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء السفير الاميركي عندما زاره في النجف، فعتب الشيخ على موقف أميركا تجاه فلسطين، فقال له السفير الأميركي: «هذه أمةٌ ضعيفةٌ ظلمها هتلر، وشرّدها من أوطانها؛ فأصبحت بلا وطنٍ ولا مأوى، ونحن عادتنا الشفقة والرحمة ننصر المظلوم، ونعطف على الضعيف»! فقال له الشيخ غاضبا: «تعسًا وبؤسًا لهذه الرحمة؛ تنصرون المظلوم بما هو أفظع ظلمًا وأشد هضمًا! ترحمونهم بأنْ تظلمونا وتسكنونهم في بيوتنا وتشردونا! هلا أسكنتموهم في بلاد أمريكا وأراضيها الواسعة؟» .

٤. علينا ألاّ ننخدع بالكلمات والعبارات البرّاقة والدعايات الجميلة في ظاهرها، إذ قاموس المعاني في المنظومة الغربيّة يختلف عنه عندنا، فالمصطلح والمفهوم الذي يقصدون منه يخالف ما نفهمه نحن، فبعد دراسة المصطلحات والمفاهيم الواردة في الخطّة وتفسيرها وفق المنظومة الغربيّة تنكشف الخطوة والخطوات الاستعماريّة الناعمة المدرجة في الخطّة.

٥. ورد التصريح في خطّة التنمية المستدامة أنّها عالميّةٌ جاءت لتغيّر حياة الإنسان، وجعلها الموقع الإلكتروني للأمم المتّحدة ثاني خطوةٍ مهمّةٍ وكبيرةٍ بعد تأسيس الأمم المتّحدة، ممّا يعني أنّها خطّةٌ تصبّ مصبّ عولمة قيم الغرب، تمّ تدوينها بمعزلٍ عنّا، ولم نطّلع عليها، وعلى تفاصيلها، إلاّ بعد الإعلان عنها، وطلب التصويت عليها.

هذه الأمور كلّها مؤشّراتٌ واضحةٌ على كونها في امتداد الاستعمار الغربي الجديد.

السؤال الرابع: عادةً ما نرى في القرارات واللوائح الدوليّة الصادرة من الأمم المتّحدة تحفّظ بعض الدول على القرارات أو المفردات، فدول العالم الثالث أو الدول الإسلاميّة بإمكانها التحفّظ على بعض بنود هذه الخطّة لئلاّ تقع في مخالفات مع الدين أو الشرع أو القانون الداخلي، وبهذا نخرج عن بعض الإلزامات أو الهواجس التي ذكرتموها؟

الجواب: هذا في الواقع أمنيةٌ وحُلمٌ لا يمكن تأويله ولا تفسيره؛ لأنّ من دوّن هذه الخطّة ملتفتٌ إلى هذا المخْلَص فحاول سدّه نهائيًّا؛ لذا أورد في أكثر من مكان بعدم إمكان التحفّظ

ولزوم الالتزام بجميع البنود؛ لأنّها كلٌّ منسجمٌ غير قابلٍ للتجزئة. ورد في مقدّمة الإعلان: «فهذه أهدافٌ وغاياتٌ عالميّةٌ تشمل العالم أجمع... وهي متكاملةٌ غير قابلةٍ للتجزئة، تحقّق التوازن بين أبعاد التنمية المستدامة». وفي مكان آخر: «أنّنا نعلن اليوم عن إرساء ١٧ هدفًا من أهداف التنمية المستدامة و١٦ غاية مرتبطة بها، وهي أهداف وغايات متكاملة وغير قابلة للتجزئة». وهذا النصّ أيضًا أو قريب منه يتكرّر في أماكن أخرى من الإعلان، وعليه حتى لو تحفّظت بعض الدول فإنّ تحفّظها لا اعتبار له، ولا يحقق لها مأمنًا ومفرًّا من الإلزامات القانونية والحقوقية التي تترتب على مخالفة بنود هذه الخطة.

السؤال الخامس: تفضلتم بإمكان تقييم الخطّة على مستويين، تطرّقتم إلى المستوى الأوّل، وكان التقييم أنّها خطّةٌ استعماريّةٌ غربيّةٌ للسيطرة على العالم، وتمرير نمط سلوك غربيّ في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، فما هو تقييمكم على المستوى الثاني، أي المفردات والبنود الجزئيّة؟

الجواب: ربّما لا يسعنا الوقت لتسليط الضوء على جميع المفردات، وتفكيكها، ولكن يمكن الحديث عن الأبعاد الأساسيّة الثلاثة التي ذكرها الإعلان وهي: البعد الاقتصادي، والاجتماعي، والبيئي، والإشارة إلى بعض المفردات في كلّ بُعدٍ من هذه الأبعاد.

ولكن قبل الخوض في ذلك لا بدّ من الالتفات إلى ما ذكرته في بداية الحوار من اختلاف قاموس المعاني الغربيّة معنا، فالمفاهيم والمصطلحات المستخدمة هنا لها حمولاتٌ خاصّةٌ لم تترجم في هذا الإعلان، ولم يُفصح عنها هنا، بل لها مرجعيّةٌ تمّ التصويت عليها وتفسيرها في قرارات ولوائح أخرى صدرت من الأمم المتّحدة. وهذا ما يصرّح به هذا الإعلان نفسه، فقد ورد ذيل عنوان (مبادئنا والتزاماتنا المشتركة) ما نصّه: «يُسترشد في الخطّة الجديدة بمقاصد ميثاق الأمم المتّحدة ومبادئه، بما فيها الاحترام التامّ للقانون الدولي، وترتكز الخطّة على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والمعاهدات الدوليّة لحقوق الإنسان، وإعلان الألفيّة ... ونحن نؤكّد من جديد نتائج جميع المؤتمرات الرئيسة، ومؤتمرات القمّة التي عقدتها الأمم المتّحدة، والتي أرست أساسًا متينًا للتنمية المستدامة، وأسهمت في تشكيل الخطّة الجديدة، وهي تشمل إعلان ريو بشأن البيئة والتنمية، ومؤتمر القمّة العالمي للتنمية المستدامة، ومؤتمر القمّة العالمي للتنمية الاجتماعيّة، وبرنامج عمل المؤتمر الدولي للسكّان والتنمية، ومنهاج عمل بيجين...».

فهذه القرارات واللوائح تعدّ قاموس معاني هذه الخطّة، وتفسّر المفردات في ضوئها، وعلى

سبيل المثال عندما يقال في ذيل عنوان (رؤيتنا) في هذه الخطّة: «عالم يستثمر في أطفاله، وينمو فيه كلّ طفلٍ بعيدًا عن إسار العنف والاستغلال». فهي عبارةٌ جميلةٌ عامّةٌ نتّفق معهم في ظاهرها، غير أنّ سائر اللوائح حدّدت معنى العنف ضدّ الأطفال ليشمل حتّى ولاية الأب على الابن، وعدم حقّ التّدخل في شؤون الطفل الخاصّة وإنْ احتوت على إدمان أو شرب الكحول أو قضايا جنسيّة محرّمة.

كما أنّ المنظومة الغربيّة حينما تدعو إلى السلام ونبذ العنف، تقصد منه نفي أنواع المقاومة وحقّ الدفاع عن النفس؛ لتكون هي راعية السلام، وإذا صادف وقامت بقتل آلاف من الأبرياء لا يكون ذلك عنفًا، بل دفاعًا عن السلام والبشريّة، أمّا لو قمت أنا بالدفاع عن نفسي ووطني فهذا عنف يجب التخلّي عنه. فمن الخطر البالغ ترسيخ هذه الأدبيّات في أذهاننا، وهذا ما يحاول العدوّ من تمريره بشكلٍ ناعم، فترانا نتكلّم بكلّ حماسٍ عن نبذ العنف والسلام والشراكة العالميّة، ولا نعلم ما وراء الأكمة، ولم نلتفت إلى تعاليم الدين، وقوله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾، فالأدبيات التي يمرّرها الغرب على ألسنتنا تهدف إلى انسلاخنا من جميع أنواع الحمية والدفاع عن المعتقدات والصمود أمام العدو، والاستعداد له، وما شاكل ذلك.

أو عندما نـأتي الى موضوع حقوق الإنسان وكرامة الإنسان، فمفهوم الإنسان في المنظومة الغربيّة يختلف عن معناه في المنظومة الدينيّة؛ الإنسان عندهم في الدرجة الأولى هو الإنسان الغربي، فله الحقّ التامّ والكرامة التامّة وإنْ ارتكب الموبقات وقتل الأبرياء، وقد التفت إلى هذا الأمر الناقد الخبير بشأن الاستعمار السيد جمال الدين الأفغاني حيث قال بشأن الإنجليز: «الانجليز كأمة ليس من ينكر أنّها من أرقى الأمم، تعرف معاني العدل وتعمل بها، ولكن في بلادها ومع الإنجليز أنفسهم، وتنصف المظلوم إذا كان من الإنجليز، تعلم أنّ للإنسان حقًّا في الحياة، وهذا الإنسان في عرفهم هو الإنجليزي، وغيره من البشر ليس بإنسان». أمّا الإنسان في المنظومة الدينيّة إذا ارتكب الموبقات وقتل النفس المحترمة سوف يفقد كرامته وإنسانيّته، ولا بدّ من الاقتصاص منه، ويصبح أضلّ من الأنعام، حتى لو كان مسلمًا في الظاهر.

ومثال آخر: ينصّ الهدف الخامس من أهداف التنمية المستدامة على حقوق المرأة وتمكينها وورد في الفقرة السادسة منه: «ضمان حصول الجميع على خدمات الصحّة الجنسيّة والإنجابيّة، وعلى الحقوق الإنجابيّة على النحو المتّفق عليه وفقًا لبرنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية ومنهاج عمل بيجين». وعندما نأتي إلى منهاج عمل بيجين ليفسّر لنا هذه الفقرة نراه يفسح

المجال أمام البغاء وممارسة الجنس عند المراهقين، والإجهاض بشرط رعاية الصحّة الجنسيّة والإنجابيّة. يقول منهاج بيجين في المادّة ٩٤: «تعني الصحّة الإنجابيّة قدرة الناس على التمتّع بحياةٍ جنسيّةٍ مرضيّةٍ ومأمونة...». من دون فرق بين البغاء والزواج والشذوذ الجنسي، كما يدعو المنهاج إلى تعليم المراهقين استعمال الواقي للحدّ من الأمراض الجنسيّة، وكذلك تعليم النساء ومساعدتهن على الإجهاض في الحمل غير المرغوب فيه، هذه الأمور كلّها تدخل ضمن الصحّة الجنسيّة والإنجابيّة عندهم.

والخلاصة التي أُريد أنْ أصل إليها أنّنا عند تحليل مفردات إعلان التنمية المستدامة لا بدّ من عدم الانخداع بالدعايات البرّاقة والمصطلحات الجميلة، بل لا بدّ من الالتفات إلى معنى هذه الجمل والمفاهيم في المنظومة الغربيّة الماديّة والعلمانيّة.

السؤال السادس: ذكرتم أنّ التنمية المستدامة تعتمد على ثلاثة أبعادٍ أساسيّة: اقتصاديّة، واجتماعيّة، وبيئيّة، فما هو تقييمكم للبعد الاقتصادي وما يندرج تحته من مفردات وقرارات جزئيّة؟

الجواب: لا بدّ من التنويه **أوّلًا:** الى أنّ مصطلح التنمية ولد في الغرب واختصّ بالوضع الاقتصادي، فعندما يقال التنمية يتبادر إلى الذهن التنمية الاقتصاديّة، أمّا اليوم فقد تمّ تعميمه ليشمل جميع الأمور بما فيها الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة وغيرها، ولكن مع هذا تبقى الغلبة للوضع الاقتصادي، وهذا ما نراه ونشهده في خطّة التنمية المستدامة أيضًا حيث إنّ معظمها يتعلّق بالوضع الاقتصادي ومكافحة الفقر والجوع وما شاكل.

إنّ المفردات والمفاهيم الاقتصادية المستعملة في هذا الإعلان إيجابيّة، ونحن أيضًا ندعو إليها، ونتمنّى إزالة الجوع والفقر وازدهار العمل والصناعة في جميع الدول، كما أنّ الإسلام من أول المنادين بمكافحة الفقر والجوع من خلال تعاليمه، ولكن نقول: **أوّلًا:** هذه المفاهيم المستعملة هنا تتناقض مع السياسات الاقتصاديّة المتبعة في المنظومة الغربيّة المبتنية على الليبراليّة، والعولمة، وسياسات صندوق النقد الدولي، والشركات التجاريّة العملاقة التي لا همّ لها سوى زيادة الأرباح، وهذه السياسات هي التي سبّبت الطبقيّة في المجتمع وأنواع الفقر والجوع.

وثانيًا: إنّ سياسات هذه المؤسّسات الكبرى لم تكن بريئةً، بل أُنشئت لتصبّ في مصالح الدول الكبرى، وحتّى لو قامت بتقديم مساعداتٍ ومعوناتٍ للدول الفقيرة، فإنّ الهدف الأساس هو النفع

العائد إلى الدول المانحة لا الدول المستفيدة، وبهذا الصدد قرأت بحثًا للدكتور كيشور محبوباني الباحث السنغافوري الشهير في مجلة الاستغراب حول تقييم مساعدات الغرب يشير فيه إلى أنّ منظّمة التعاون الاقتصادي والتنمية قد تحوّلت إلى نادٍ للأثرياء؛ لذا يرى أنّ المساعدات الغربيّة لم تُصمّم لمساعدة المستفيدين بشكل رئيس، بل جاءت لمصلحة المانحين أوّلًا، وينقل عن ريتشارد هولبروك مساعد وزير الخارجيّة لشؤون آسيا والبحر الهادئ أنّه قال: «أخبرني أنّ إحدى مسؤوليّاته الرئيسة هي تعليم مسؤولي الوكالة الأميركيّة للتنمية الدولية وتذكيرهم بأنّ الهدف الأساس من المساعدات الأميركية هو تعزيز المصالح الوطنيّة الأميركيّة، وليس الإحسان إلى العالم». كما يذكر محبوباني أنّ ما يقدّر بسبعين بالمئة من المساعدات المرسلة إلى أفغانستان بين عامي ٢٠٠٢ و٢٠٠٤ م، قد أُنفقت على النفقات الداخليّة لوكالة الأمم المتّحدة، ويضيف قائلاً إنّ المساعدات الغربيّة قد صُمّمت لكي تكون آليةً لرشوة الدول النامية ودفعها لدعم المصالح الغربيّة، بينما كانت مصالح الدول المستفيدة هامشيّة في أفضل الأحوال.

وينقل محبوباني عن كريستوفر باريت الخبير الاقتصادي في جامعة كورنيل أنّ الهدف من المساعدات الأميركيّة الغذائيّة إنّما هو بالأساس دعم المزارع المحلّية ودعم الصادرات الزراعيّة التجاريّة، وتعزيز أهداف أميركا الجيوستراتيجيّة، والتخلّص من الفائض، ودعم الصناعة البحريّة، ليس الهدف الرئيس إطعام الجائعين، ولكن هكذا يتمّ ترويجه.

وإلى الأمر نفسه يشير هشام شرابي في كتابه (المثقّفون العرب والغرب)، بأنّ المشروعات العصرية التي بدأتها الامبريالية في الدول المستعمرة من إنشاء الطرق، وسكة الحديد، وتسهيلات المرافئ، والمؤسسات الإدارية والتعليمية والصحية والزراعية، لم تكن لتنفّذ لولا انهّا تخدم المصالح الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية للاستعمار.

وتأييدًا لما قلته يشير السيد جمال الدين الأفغاني إلى الأزمة المالية التي أصابت مصر آنذاك، فقامت بريطانيا بتنقيص فوائد الدين الذي أعطته لمصر؛ ممّا أدّى إلى اعتراض باقي الدول الأوروبية التي أقرضت مصر أيضًا. ثم يقول جمال الدين إنّ هذه الخطوة من بريطانيا لم تكن رحمةً وشفقةً على مصر وأهلها، وإنما لكي تسود على مصر، إذ كانت ترى أنّ بقاء الفشل المالي لمصر يرجع بنفعه على سائر الدائنين من الأمم الغربية المختلفة، فلا يكون حظّ الخزينة الإنجليزية الخاصة من ثروة مصر وافرًا؛ ولذا بادرت إلى تخفيض فائدة الديون لتستأثر فيما بعد بما تزعم التفضل به الآن على المصريين، فهي تسعى إلى فائدتها الخاصة ليس إلّا.

ونقرأ في كتاب بالغ الأهميّة اسمه (الاغتيال الاقتصادي للأمم) أنّ مؤلّفه جون بركنز كان قرصانًا اقتصاديًّا، ويشرح أنّ مهمّة هؤلاء القراصنة أنْ يسلبوا ملايين الدولارات بالغشّ والخداع من دولٍ عديدةٍ في سائر أنحاء العالم، ويحوّلون المال من البنك الدولي، وهيئة المعونة الأمريكيّة وغيرها من مؤسّسات المساعدة الدوليّة ليصبّوه في خزائن الشركات الكبرى، وجيوب حفنة من العائلات الثريّة التي تسيطر على الموارد الطبيعيّة، فيقومون بإعطاء قروضٍ كبيرةٍ للدول ممّا يسبّب عجز الدول المستدينة عن أداء الديون، وهنا يقومون بإملاء متطلّباتهم على تلك الدول من قبيل السيطرة على تصويت الدول لصالحهم في الأمم المتّحدة، أو إنشاء قواعد عسكريّة، أو الهيمنة على موارد الثروة، كالبترول، وإلّا يتمّ تفعيل الديون وعجز الدولة عن تسديدها مع الأرباح الكبيرة المترتّبة عليها، ممّا يسبّب غلاء المعيشة والتضخّم وسائر المشاكل الاقتصاديّة.

ثالثًا: أنّ تقديم المعونات لا بدّ أنْ تكون على نحو تقديم التقنيّة وطرق التنمية الصحيحة للدول الفقيرة؛ لتتمكّن من الاستفادة من مواردها الطبيعيّة الداخليّة، ومكافحة الفقر من خلال تهيئة فرص العمل والزراعة والصيد، وما شاكل، ولكن نرى الأمر خلاف ذلك؛ إذ المساعدات زادت الفقر فقرًا، وأصبح الناس في الدول الفقيرة بلا عمل، ولا خبرة، ينتظرون المساعدات فقط. وبهذا الصدد يقول كيشور محبوباني: «يوثّق كتاب (المساعدات الميّتة) كيف أعاقت المساعدات الغربيّة تطوّر أفريقيا من خلال سحب حوافز التنمية الذاتيّة؛ فأصبحت الدول الإفريقيّة مدمنةً على المساعدات ومرتبطةً بسلسلة إعادة دفع الفوائد على ديونها، وعوضًا من حلّ مشاكل أفريقيا أسهمت المساعدات في تفاقمها!».

رابعًا: أنّ المنظومة الغربيّة رسمت الخارطة الاقتصاديّة على نحوٍ ماكرٍ، فلا يمكن للدول النامية التي تريد النموّ والتنمية أنْ تجتاز هذه الخارطة، فالمصانع والتقنيّات والإعلام والأموال والمصارف كلّها بيد الغرب، يتحكّم فيها كيفما يشاء، فلا يسمحون بالاستقلال الاقتصادي والوصول إلى العلوم والمعارف المحوريّة، بل هي حكرٌ عليهم، وأداةٌ للسيطرة والهيمنة، فترى أنّ جميع الخيوط الماليّة ترجع إليهم فالحصول على المياه الصحّيّة، والتخلّص من الجوع والصحة والطاقة الآمنة والأمن الغذائي وغيرها من الدعايات الإنسانيّة البرّاقة، لا بدّ أن تُدار جميعها من خلال الشركات الغربيّة الكبيرة.

ومن الطريف ما ورد في رقم (٣٠) تحت عنوان (الخطّة الجديدة) من إعلان التنمية المستدامة: «ونحثّ الدول على الامتناع عن سنّ وتطبيق أيّ تدابير اقتصاديّة أو ماليّة أو تجاريّة أُحاديّة الجانب

تتنافى مع القانون الدولي وميثاق الأمم المتّحدة، وتعرقل التنمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة الكاملة ولا سيّما في البلدان النامية». فهذه الفقرة تؤكّد بصراحة الاستعمار الاقتصادي الغربي حيث لا يسمح للدول بتخطّي مفردات وقوانين المؤسّسات الماليّة الكبيرة التي أسّسها الغرب لرعاية مصالحه، فإذا أرادت دولة الوصول إلى الاستقلال الاقتصادي والمالي والتجاري الحرّ، وبمنأى عن تسلّط هذه المؤسّسات، فإنّه يمنع ولا يسمح لها وإنْ بلغ ما بلغ. هذه هي المصداقيّة والموضوعيّة والإنسانيّة التي ملؤوا الدنيا بها، وهي لا تعدو مصالحهم الخاصّة وإنْ تجاوزت ذلك فمرفوضة ومحاربة. فمن المضحك ما ورد في رقم ٥٢ من هذه الخطّة: «فهي خطّة الناس وضعت على أيدي الناس لصالح الناس». نعم الناس هم الغربيّون والباقون هم ناس ما داموا يعملون في مصالح الغرب، وإلّا لم تكن لهم أيّ كرامةٍ، وأيّ احترام.

فهذه الأمور وغيرها تدعونا إلى التأمّل والتريّث وعدم الانخداع بما ورد في إعلان التنمية المستدامة ٢٠٣٠م، في بعدها الاقتصادي وأنْ ننظر إليها ببصيرة.

السؤال السابع: البعد المهمّ الثاني الذي تؤكّد عليه خطّة التنمية المستدامة هو البعد الاجتماعي، وأهمّ المفردات والأهداف المذكورة في هذا البعد موضوع التعليم وتمكين المرأة، كيف تنظرون إلى هذين الأمرين؟

الجواب: نتطرّق في البداية إلى التعليم، ثمّ نعرّج على مسألة المرأة. يُعدّ التعليم أمرًا مهمًّا في زماننا الحاضر، ومكافحة الأمّية واجبٌ وطنيٌّ ودينيٌّ لا بدّ أنْ يسعى له الجميع، وقد أكّد الإسلام كثيرًا على العلم والتعلّم، حتّى ورد في الحديث أنّ أجنحة الملائكة تُفرش لطالب العلم. ولكن التعليم اليوم وفق المنظومة الغربيّة فيه ما هو إيجابي وما هو سلبي، ونحن لا نستنكف من تعلّم العلم حتّى أنّ الإسلام حثّ على تعلّم الحكمة ولو كانت من المنافق أو الكافر، وقد قال بعض العلماء: «لا ضير في التتلمذ عند الآخرين، ولكن المشكلة أنْ نبقى تلاميذ إلى الأبد»، نعم التلمذة لا بدّ أنْ تكون مقدّمةً للإبداع الوطني والتقدّم وتبيئة العلوم بما يتوافق مع المصالح الوطنيّة والدينيّة. فتعلّم التقنية وسائر العلوم الصناعيّة والطبيّة وغيرها أمرٌ مستحسنٌ لا نستنكف منه.

أمّا الأمر السلبي في هذه الخطة، والذي لا نوافقه:

١. قد أدخلوا في نظام التعليم التعليم الجنسي للأطفال والمراهقين، والتعليم الجنسي عندهم لا يعني الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وتقبيح الرذائل والفواحش، ولزوم كفّ النفس عن الشهوات

إلّا بالطرق الشرعيّة، بل يعني إطلاق الشهوات وممارسة الجنس كيفما شاء، ومتى شاء، ومع أأأ أيّ شخص شاء، شريطة أنْ يكون آمنًا!

٢. انظر إلى ما ورد في منهاج عمل بيجين ج٣ (الهدف الاستراتيجي) (ك): «إيلاء الاهتمام الكامل لتعزيز قيام علاقات بين الجنسين تهتم بالإنصاف والاحترام المتبادل... تصميم برامج محدّدة موجّهة إلى الرجال من جميع الأعمار وإلى المراهقين... تهدف إلى توفير معلوماتٍ كاملة ودقيقةٍ عن السلوك الجنسي والإنجابي المأمون والمسؤول، بما في ذلك الاستخدام الطوعيّ لوسائل الوقاية الذكريّة المناسبة والفعّالة بغية الوقاية من فيروس نقص المناعة...».

٣. الدعوة إلى تعليم حقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين ونبذ العنف والمواطنة العالميّة وما شاكل، وهي مفاهيم ومصطلحات لها حمولاتها الخاصّة في المنظومة الغربيّة لا سيّما موضوع المساواة بين الجنسين.

السؤال الثامن: إذًا نظام التعليم بحسب رأيكم منحازٌ أيضًا، ويلبّي سياسات الغرب، وينتهي إلى الاستعمار الثقافي أو الاستعمار التعليمي، حاله حال الاقتصاد؟

الجواب: نعم، مائة بالمائة. انظروا هل يسمحون لنا بالاستقلال العلمي والإبداع، لماذا يصرّون على البعثات العلميّة؛ لأنّهم من خلالها يتعرّفون على النخب، ويفتحون لهم أبواب التعليم عندهم، ولا يسمحون لهم بالرجوع إلى أوطانهم بشتّى الوسائل من قبيل الإغراء وإعطاء الوظائف، وحتّى التهديد والاغتيال، وإذا سمحوا لهم بالرجوع يجعلونهم أداةً طيّعةً بأيديهم تخدم مصالحهم بعد رجوعهم، ويهيئون لهم فرص العمل في المواقع الحساسة لتبقى التبعية للغرب والتحكم في مقدرات البلاد والعباد.

وهنا استذكر مقولةً للباحث المغربي محمّد نور الدين أفايه حيث قال في كتابه (في النقد الفلسفي المعاصر) ما نصّه: «فمنذ بداية القرن التاسع عشر والغرب يعمل على إجهاض كلّ محاولات النهوض العربيّة والإسلاميّة إلى الآن... عمليّة الخصي التي يقوم بها الغرب للعرب والمسلمين تتمّ بطرقٍ وأساليب غير مباشرة من خلال العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة بواسطة الثقافة والإعلام...».

السؤال التاسع: فكيف الأمر في شأن المرأة وما ذاع اليوم في الوسط الاجتماعي من موضوع المساواة وتمكين المرأة؟

الجواب: ينصّ الهدف الخامس من خطّة التنمية المستدامة على: «تحقيق المساواة بين الجنسين، وتمكين كلّ النساء والفتيات». ثمّ يشرح هذا الهدف بعدّة فقراتٍ معظمها تخالف تعاليم الدين؛ إذ الدين الإسلامي له موقفٌ خاصٌّ في موضوع تساوي حقوق الرجل والمرأة، والزواج المبكر، والختان، والصحّة الجنسيّة والإجهاض، والميراث والملكيّة، أمّا خطّة التنمية المستدامة فترفض جميع هذه التعاليم، وهنا يحصل التقاطع.

علمًا بأنّ هذه الخطّة قد أولت مسألة المرأة اهتمامًا خاصًّا؛ لأنّها نصف المجتمع، ومن دون إقناعها لا تتحقّق التنمية المستدامة بزعمهم؛ لذا تعدّ مسألة المرأة مسألةً محوريّةً وإنْ خصّصوا لها هدفًا واحدًا.

ومن الطريف ما ورد في الإعلان هذا من التنديد بالاستغلال الجنسي للمرأة والقضاء عليه، والحال أنّ الغرب هو الرائد في ذلك بلا منازع حيث أصبحت المرأة في الغرب أداةً بيد الرجل يستفيد منها في الملاهي والأفلام والدعايات ومراكز العمل، ثمّ ينبذها بعد ما يتمّ عمله، فالمرأة في الغرب مستغَلّةً بامتياز، ليست لها أيّة كرامةٍ، وبمجرّد ما تفقد مفاتنها وتصل إلى الشيخوخة ترمى في سلّة النفايات ويُستبدل بها غيرها.

السؤال العاشر: بقي البعد الثالث من أبعاد خطّة التنمية المستدامة وهو موضوع البيئة، الأمر الذي نشترك جميعًا في لزوم الاهتمام به ورعايته لأنّه يتعلّق بحياة الإنسان وصحّته، فكيف هو تقييمكم له؟

الجواب: كما تفضلتم فإنّ موضوع البيئة في غاية الأهميّة؛ إذ تتعلّق بحياة الإنسان وصحّته ونموّه، والاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها قد ورد في تعاليم الدين كثيرًا، وربّما يكون الدين أهم عامل للحفاظ على البيئة من الضياع والعبث، وهناك مقولةٌ قيّمةٌ لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)، يجب أنْ تكتب بماء الذهب وتُعرّف إلى العالم أجمع، فقد قال أمير المؤمنين(عليه السلام) كما ورد في نهج البلاغة: «اتّقوا الله في عباده وبلاده فإنّكم مسؤولون حتّى عن البقاع والبهائم». فوفق المنظومة الدينيّة لا يحقّ للإنسان العبث في البيئة وإفسادها بل إنّه مسؤول أمام الله تعالى في كيفيّة تعامله معها.

ونحن إذا نظرنا إلى الغرب لرأيناه في صدارة الإضرار بالبيئة من خلال النفايات النوويّة والتلاعب البيولوجي، وتحسين الجينات وغازات المصانع، وتلوّث المياه والبحار، والعالم الثالث

المسكين ليس له دورٌ في ذلك، ولا يكون سوى مستورد للبضائع، وما زالت الدول الكبرى مليئةً بالأسلحة النوويّة والبيولوجيّة والفايروسات الفتّاكة والأسلحة الممنوعة التي تدمّر البيئة.

السؤال الحادي عشر: أمّا الآن وقد شارفنا على نهاية هذا الحوار فكلمة أخيرة وختاميّة.

الجواب: نحن مع النقاط الإيجابيّة الموجودة في هذا الإعلان شريطة ألّا تُفسّر وفق المنظومة الغربيّة، فنحن مع التعليم، ورفع الظلم والعنف عن النساء، ومكافحة الفقر والجوع، والمحافظة على البيئة لكن بمعانيها السليمة التي لا تتناقض مع الدين والقيم والفطرة.

ونقول لمن دوّن هذا الإعلان يلزم إشراك الجميع في تدوينه ومراعاة أعراف وتقاليد وتراث الشعوب وعدم إهمال الدين والأخلاق، حيث لا نرى للدين ودوره في بثّ السلام والعدالة والاندماج أيّ أثر، وكذلك لم نر هدفًا يتعلّق بالأخلاق رغم أهميّته ودوره في سلامة المجتمع.

مضافا إلى أنّ الوضع الأمني والعسكري الذي تشهده المنطقة خلال هذا العام لا يساعد تحقيق بنود هذا الإعلان وتطبيقها على العالم؛ لذا نتوقع من المنظومة الغربية إصدار قراراتٍ استعماريةٍ جديدةٍ أوسع وأشد من هذه الخطة.

وختامًا أتمنى أنْ تُعقد ورشٌ علميّةٌ تجمع نُخب العالم الإسلامي لمناقشة هذه الخطّة وتعديلها، أو كتابة خطّةٍ تنمويّةٍ جديدةٍ أخرى تتناسب مع الدين الإسلامي ونمط الحياة الإسلامية وقيمنا الشرقيّة، من خلال دعوة العلماء والنخب الإسلاميّة للمشاركة في ذلك، وتعميمها على الدول الاسلامية لتأخذ طريقها نحو التطبيق.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وشكرًا لكم على إتاحة هذه الفرصة.

بحوث ودراسات

يتناول هذا الباب البحوث والدراسات العربية المختلفة التي تسلط الضوء على تحليل ونقد الاستعمار القديم والجديد ونظريات ما بعد الاستعمار بلغة علمية هادفة.

المواجهة بين إنجلترا والعلماء في نهضة المشروطة

السيّد عبّاس الرضوي

إرهاصات الاحتلال البريطاني للعراق

د. ياسين شهاب شكري

جيوبولتيك سورية وأهميّتها من منظار الاستعمار الفرنسي

د. إبراهيم أحمد سعيد

الغزوات البريطانيّة الثلاث لمصر، وقائع الاحتلال وطرائق المقاومة الشعبيّة

د. محمود شوقي عثمان

الوجه الخفي للتعليم الاستعماريّ الفرنسيّ في الجزائر (المنهج والآليات والنتائج)

د. عبدالقادر بوحسون

المواجهة بين إنجلترا والعلماء في نهضة المشروطة

السيّد عبّاس الرضوي[1]

الملخص

المشروطة في كلّ بلدٍ تعني أنّ إرادة السلطنة والدوائر الحكومية محدودةٌ ومشروطةٌ بعدم تجاوز الحدود والقوانين الموضوعة. والطرف المقابل، وهو استبداد الدولة، يعني أنّ السلطنة متحرّرةٌ ومتعسّفة، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، وقاهرةٌ على الرقاب، وغير مسؤولةٍ عمّا ترتكب.

وسبب قيام المشروطة في إيران عدة أمور: أولها: التدخّلات الظاهرة والخفيّة للأجانب في السياسية والاقتصاد في إيران، وثانيها: وثورة التنباك، وثالثها: الاستخفاف بالشعائر الدينية. وللمشروطة أهداف واضحة، أولها: العدالة والقانون والحرية، وثانيها: الاستقلال السياسي والاقتصادي، وثالثها: إحياء الشعائر الإسلامية.

وإنجلترا لم تستطع تحمل هذه الأهداف الروحية فبدأت أياديها الخبيثة تمتدّ لها، وكان هدفهم إخراج علماء الدين من الساحة، وروّجت إشاعاتٍ باطلةً بإنّ إنجلترا لها دورٌ في نجاح المشروطة، وسعت إنجلترا وروسيا لتقوية أسس نفوذهما، وذلك من خلال استغلال الضعف الاقتصادي للدولة، ونتيجة هذا شعر العلماء اليقظون بالخطر عن قرب؛ فدعوا الشعب إلى مواجهة هذا الهجوم.

وتعرّض الباحث إلى عدّة أبحاثٍ مهمةٍ كالمواجهة بين إنجلترا والعلماء في قضية استقلال إيران، ومشروعية النهضة، وحِيَل بريطانيا في مكافحة العلماء، وترهيب الشخصيات، واتّهام الارتباط بالأجانب، وغيرها من الأبحاث المهمة.

الكلمات المفتاحية: المشروطة، إنجلترا، الشيخ فضل الله النوري، السيّد حسن المدرس، الآخوند الخراساني، التنباك.

---

١. هذا البحث مأخوذ من مجلة الحوزة العدد ٧٦و٧٧ عام ١٤١٧هـ.

إنّ استبداد القاجاريين، وعدم اهتمامهم بالشعائر الإسلامية، وتدخّلات الأجانب الظاهرة والخفية في الأمور السياسية والاقتصادية وغيرها في إيران، ونهضة التبغ، وفرت أرضية نهضة المشروطة.

كان العلماء الدينيون منذ البداية مع نهضة المشروطة، وقدّموا أيضًا أول شهيد[١]، للأسف، قبل أن تُحدث هذه الحركة المثيرة تغييرًا جذريًا في عمق المجتمع، بدأت الأيادي الخبيثة للاستعمار البريطاني عملها، وسيطرت على هذه الحركة المجيدة ووجّهتها نحو أهدافها المرغوبة.

دخل خدّام الاستعمار وأقلامه المأجورة إلى الميدان منذ بزوغ النصر لإخراج رجال الدين من الساحة السياسية والاجتماعية، ولطمس ذكريات العلماء المجاهدين المشرّفة قاموا بتحريف شخصياتهم وكتابة التاريخ بشكل مشوّه.

روّجت مجموعةٌ هذه الفكرة بأنّ دور إنجلترا في المشروطة كان دورًا خيّرًا، وأنّ مرافقة تلك الدولة الشاملة للعلماء المجاهدين أدّت إلى انتصار حركة المشروطة. وتجاوزت مجموعةٌ أخرى ذلك، وكتبت: إنّ جميع خيوط المشروطة كانت في يد بريطانيا، ولم يكن العلماء الدينيون سوى لاعبين. بعبارةٍ أخرى، كانت إنجلترا هي التي وفرت أرضية ثورة المشروطة من خلال الدعاية المضللة أو بإعطاء الرشاوى لعددٍ من رؤساء رجال الدين في إيران[٢].

إنّ الفهم الصحيح لموقف إنجلترا تجاه العلماء في هذه الحادثة التاريخية يقتضي أنْ نذكر أولاً أهداف العلماء وجهودهم في مسار الحركة، ومن ثم نعرض للتحليل تعامل إنجلترا مع رجال الدين في العقدين الأولين من الحركة، التي كانت قمة قوة المشروطة. هذا سيجيب على كثيرٍ من الأسئلة، وسيكشف الوجه الحقيقي للحقيقة من وراء غبار الجهل والاتهام.

في البداية، كان معظم العلماء الدينيين مرافقين لنهضة المشروطة. وفي مرحلة تدوين القانون، امتنع بعضهم عن مرافقة المشروطة، وانقسم العلماء إلى مجموعةٍ مؤيّدةٍ وأخرى معارضةٍ للمشروطة[٣]. وكانت أهداف العلماء تتصدرها ثلاثة أمور:

---

١. كرماني، ناظم الإسلام، تاريخ بيدارى ايرانيان، ج ١، ص ١٩٢ و٤٧٩، نوين؛ دولت آبادي، يحيى، حيات يحيى، ج ٢، ص ٦٩.

٢. محمود محمود، تاريخ روابط سياسى ايران وانگليس، ج ٦، ص٣٣٨، وج ٧، ص ١٧٢، رائين، إسماعيل اقبال؛ حقوق بگيران انگليس در ايران، ص ٣٧٨؛ صفائي، إبراهيم، رهبران مشروطه، ص ١٤٤.

٣. كرماني، ناظم الإسلام، تاريخ بيدارى ايرانيان، ج ١، ص ٥٠١ إلى ٥٠٥؛ تقي زادة، مقالات، ج ١، ص ٣٣٦ إلى ٣٤١.

١. العدالة والقانون والحرية.

٢. الاستقلال السياسي والاقتصادي.

٣. إحياء الشعائر الإسلامية.

كان الهدف الأول لرجال الدين في النهضة هو العدالة والقانون، بحيث تصبح الأحكام منظمةً بالقانون، وتُعرّف وتُحدد في مجال العلاقات والمعاملات، علاقة الدولة بالشعب، وعلاقة الشعب ببعضهم البعض. تدريجيًا، أخذ هذا المطلب شكل الرغبة في المجلس، وأدى إلى إنشاء مجلس الشورى. يقول الآخوند الخراساني، المفتي والقائد الروحي للمشروطة، في تعريفها:

«... المشروطة في كلّ بلدٍ تعني أنّ إرادة السلطنة والدوائر الحكومية محدودةٌ ومشروطةٌ بعدم تجاوز الحدود والقوانين الموضوعة وفقًا للمذهب الرسمي لذلك البلد. والطرف المقابل، وهو استبداد الدولة، يعني أنّ السلطنة متحرّرةٌ ومتعسّفة، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، وقاهرة على الرقاب، وغير مسؤولة عن أيّ ارتكاب»[١].

كان العلماء يطالبون بنظامٍ يكون فيه القوي والضعيف سواسيةً أمام القانون، وتنمو قدرات الشعب الخفيّة في ظلّ العدالة والحرية.

أمام هذا المطلب الذي كان له تعريفٌ واضح، عارضت إنجلترا التي كان لها نفوذٌ منذ زمنٍ طويلٍ على حكام القاجار، بوضوح في البداية. أعلن السفير البريطاني أنّ حكومة إنجلترا لا يمكنٍ أنْ تدعم حركةً ضدّ جلالة الملك. اعتبرت السفارة البريطانية الحركة الحرّة للشعب مؤامرة ضدّ الأمن والسلطنة[٢]، وقال مستر جرانت في ردّه على طلب اللجوء إلى السفارة:

«في حالة القيام بهذا العمل، سنضطّر إلى منعه بالقوة»[٣]

وفيما بعد، كلّما رجحت كفة النضال بين الحرية والاستبداد نحو محمد علي شاه، كانت بريطانيا تقف إلى جانبه. كان السبب واضحًا؛ إنجلترا كانت لها مصالح لا تُعد ولا تُحصى في إيران، وكانت تسيطر على الأمور السياسية في إيران لدرجة أنّه حتى تعيين وعزل مسؤولي الدولة لم يكن يتم دون رضاها[٤].

---

١. المصدر السابق، ج١، ص ١٩٨.

٢. معاصر، حسن ، تاريخ استقرار مشروطيت در ايران، ج ١، ص ٥٨ إلى ٦١.

٣. حلاج، مدير، نهضت ايران يا تاريخ مشروطيت ايران، ص ٣٠.

٤. مجموعة مؤلفين، خاطرات واسناد حسين قلى خان نظام السلطنه، ص ٢٢٩؛ آدميت، ايدئولوژى نهضت مشروطيت، ج ٢، ص ٢٤٠.

كانت الحرية تؤدي إلى وعي الشعب، والوعي يؤدي إلى العودة إلى الذات ونفي هيمنة الأجانب، ولم تستطع إنجلترا أنْ تواصل نفوذها إلاّ في ظلّ الجهل وعدم الوعي الناشئ عن استبداد الحكّام الفاسدين.

وكانت حرية إيران تؤثّر أيضًا على الهنود؛ فبريطانيا التي كانت الحاكم المطلق للهند، وكانت تتعامل معهم كالعبيد[١]، لم تستطع بسهولة التخلّي عن هذه الميزة. كان من الطبيعي أنْ تحارب أيّ عاملٍ يساعد على وعي وحرية تلك الديار. وفي هذا السياق، قال دادابهاي ناوروجي، رئيس المؤتمر الوطني الهندي، في خطابه أمام مؤتمر ١٩٠٦:

«إذا استيقظ الصينيون في الشرق الأقصى، والإيرانيون في غرب آسيا، واليابانيون استيقظوا مسبقًا، والفلاحون الروس قاموا أيضًا من أجل الحرية، فلماذا يجب على شعب الهند أنْ يبقى تحت نير الاستبداد وما زالوا في قيود الاستبداد؟»[٢].

ولكن مع توسّع حركة المطالبين بالحرية، واجهت بريطانيا نهضةً قائمةً، وسياساتها اقتضت أنْ تتابع أهدافها الشيطانية تحت قناع من النفاق، وأنْ تمضي أعمالها بشكلٍ مستترٍ ومرن. مرونة أكثر إجرامًا من الحرب. سعى ساسة لندن إلى تحويل مطالب الشعب من شعارات العدالة الإسلامية والحرية الدينية إلى نهجٍ يفضّلونه هم. وأسباب هذه المرونة المنافقة هي:

- كان العلماء والمثقفون وجماهير الشعب الإيراني يطالبون بالحرية، وكانت معارضة هذه الموجة القوية، التي كانت تحظى بدعم المراجع الكبرى في النجف، خلافًا للاحتياط والحكمة السياسية.
- الروس كانوا يدعمون حكومة القاجار علنًا، فقررت بريطانيا أنّ تثبت موطئ قدمٍ لها في الحكومة الجديدة التي كانت تتوقع صعودها، لتحصل على موقعٍ قويّ في مواجهةٍ منافسها القوي. بالإضافة إلى ذلك، في تلك الأيام فاز الليبراليون في استفتاء البرلمان البريطاني[٣]، وكان نواب هذا الحزب يتظاهرون بالحرية لكسب الرأي العام، وإلاّ فإنّ إنجلترا لم تكن تفكّر إلاّ في مصالحها، وكانت حرية الشعوب شعارًا لاصطيادهم من أيدي المنافسين.

١. نهرو، جواهر لعل، زندگی من، ج ١، ص ٣٥١.

٢. الحائري، عبد الهادي ، ايران و جهان اسلام، ص ٤٧١.

٣. تقی زاده، زندگی من، ج١، ٥٤؛ اوراق تازه یاب مشروطیت، ج ١، ص ١٠٢.

انتقادات بعض النواب البريطانيين مثل (رايس) الوزير المفوض لبلادهم من حكومتهم[١] كانت مستلهمةً من ثقافته ومعرفته الشخصية، وبحسب تعبير نهرو، فإنّ مثل هذه الآراء الشخصية لم تكن مرتبطةً بالخطوط الرئيسة للسياسة الإمبريالية والاستعمارية لبريطانية[٢].

تلك العوامل المذكورة جعلت إنجلترا، مع تصاعد النهضة، ترافق الشعب مؤقتًا وتتبع سياسة الصبر والانتظار، فاستفاد القادة الدينيون من هذه الفرصة، وبينما كانوا بعيدين عن الوقوع في شراك سياسة إنجلترا المتشابكة، طلبوا من سفير تلك البلاد إيصال صرخات احتجاج الشعب إلى الملك، وتوجهوا بأنفسهم إلى العتبات للمقاومة. وباستثناء عددٍ من الطلاب، لم يذهب أيٌّ من العلماء البارزين للاعتصام في السفارة البريطانية[٣].

المواجهة بين إنجلترا والعلماء حول استقلال إيران

كان الحصول على الاستقلال السياسي والاقتصادي لإيران من الأهداف الأخرى للعلماء الدينيين في نهضة المشروطة. كان القاجاريون مكروهين في نظر العلماء الدينيين؛ لأنّهم أضاعوا عزة إيران ومجدها، وسلّموا هذه الأرض المقدسة إلى الأجانب.

هؤلاء، من خلال إبرام العقود الاستعمارية والامتيازات المتتالية، جعلوا إيران صيدًا مناسبًا للأجانب، وخاصّة بريطانيا، وتزايدت هذه العملية المهينة في عهد مظفر الدين شاه وابنه.

في رسالة علماء النجف نقرأ:

« منذ بداية حكم القاجاريين حتى الآن، ما أشد المصائب التي حلت بالمسلمين، وكم من بلاد الشيعة سقطت في أيدي الكفار بسبب حسن كفاءتهم! قفقاسيا وشروان وبلاد التركمان بحر الخزر وهرات وأفغانستان وبلوشستان والبحرين ومسقط ومعظم جزر الخليج الفارسي والعراق العربي وتركستان كلها انفصلت عن إيران... وذهب ثلثا إيران بالكامل، وهذا الثلث الباقي أيضًا سلموا زمامه بطرق مختلفة إلى الأجانب. أحيانًا أخذوا مبالغ هائلة من القروض وأنفقوها في بلاد الكفر، ورهنوا دولة الشيعة للكفار. وأحيانًا، بإعطاء الامتيازات المشؤومة، سلموا ثروة الشيعة إلى المشركين»[٤].

---

١. فريدون آدميت، ايدئولوژى نهضت مشروطه ايران، ج ٢، ص ٩٥.

٢. تقى زاده، زندگى من، ج ١، ص ٤٥٩.

٣. بيتر آوي، تاريخ معاصر ايران، ج ١، ص ٢٤٥؛ دولت آبادي، يحيى، حيات يحيى، ج ٣، ص ٦٣.

٤. كرماني، ناظم الإسلام، تاريخ بيدارى ايرانيان،ج ٢، ص٢٣٠.

كان العلماء يطالبون بحكومةٍ قويةٍ، عزيزة، مجيدة، تقف صريحةً وحازمةً على قدميها، وتتحرّر من مظلّة النفوذ السياسي والاقتصادي والثقافي للدول الاستعمارية الغربية.

لا شك في أنّ إنجلترا لم تستطع تحمّل هذه الأهداف الروحية. صحيح أنّ بريطانيا كانت تمتلك قانونًا وبرلمانًا، لكنّها كانت تدعم الحرية لتلبية احتياجاتها الخاصة فقط، وذلك في نطاق بلدها ولجماعةٍ من البرجوازيين والنبلاء.

كان حكّام لندن يقدّمون مصالحهم غير المشروعة في كلّ مكان، وفي هذا السبيل كانوا يدوسون على جميع القوانين والأعراف المكتوبة وغير المكتوبة الإنسانية والأخلاقية، أو يفسّرونها كما يشاؤون.

كانت لندن، للحصول على ثروات الشعوب الخام وإنشاء أسواق استهلاكية، ترسل الجيوش إلى الأراضي الأخرى، وتخضع تلك الأراضي لسيطرتها. في ذلك الوقت، كانت أجزاء مهمّة من إفريقيا وآسيا، بما في ذلك البلاد الشاسعة للهند، تحت احتلال تلك الدولة.

في حين كان شعب الأراضي المحتلة يعيشون في أسوأ الأوضاع، كانت ثرواتهم الهائلة تتدفق كالنهر العريض إلى بحر الجشع لدى الرأسماليين الإنجليز، وكان أيّ تحرّكٍ ضدّ هذا الطمع الفاضح يقمع بشدة على أيدي العسكريين.

وكانت إيران أيضًا فريسةً مناسبةً وفي المتناول. كان الموقع الاستراتيجي لإيران للدفاع عن أهمّ مستعمرةٍ خارجيةٍ لإنجلترا، ومواردها المعدنية الغنية، والسوق الاستهلاكية الكبيرة، والامتيازات المفيدة[١]، يجعل إنجلترا تستمرّ في حضورها في إيران لعقودٍ طويلة الأمد.

في بداية استقرار المشروطة، سعت إنجلترا وروسيا إلى استغلال الضعف الاقتصادي للدولة، وتقوية أسس نفوذهما من خلال تقديم المساعدات المالية؛ لذلك، نشروا عبر أتباعهم في المجلس والحكومة أنّه نظرًا لاضطراب أوضاع الحكومة وحاجتها إلى أربعة كرور من المال، وفي حالة عدم وصول مليوني كرور فورًا، ستتوقف جميع الإدارات الحكومية عن العمل، فقد قبلت الدولتان، إنجلترا وروسيا، أنْ تقدما قرضًا للحكومة الإيرانية، ولكن بشرط أنْ تُنفق الأموال تحت إشرافهما، وأنْ تكون جمارك الشمال والجنوب ومكاتب البريد والتلغراف كضمان لدى هاتين الدولتين[٢].

---

١. سر دنيس رايت، انگليسی‌ها در ميان ايرانيان، ص ١٤٦ و٢٠٥.

٢. كرماني، ناظم الإسلام، تاريخ بيدارى ايرانيان، ج ٢، ص ٣.

هذا الاقتراح، الذي كان مقدمةً للتبعية للأجانب، ويُعدّ تعديًا على اقتصاد إيران، واجه معارضةً شديدةً من العلماء، إذ كلّف علماء العراق مجتهد همدان بأنْ يعلن لجميع السفارات أنّ الدول الأجنبية ليس لها حقّ إقراض الشاه، وستكون مسؤولية هذا العمل على عاتقهم أنفسهم[١]. واقترح علماء إيران أنْ يتم استمداد الشعب لتلبية احتياجات الحكومة، وتأسيس بنك وطني. يتم تشجيع الناس على تسليم رؤوس أموالهم إلى البنك والحصول على أسهم. كانت رسالة آقا نور الله الأصفهاني القيمة حول استكشاف جذور التضخم وحلّ الأزمات الاقتصادية وكيفية مساعدة الشعب في توعية الجماهير مؤثرة[٢]. تصدر العلماء والطلاب هذه الحركة الوطنية إلى حد أنّ: «الطلاب باعوا كتبهم لمواجهة الاستقراض الخارجي»[٣].

قامت إنجلترا، في خضم نضال الشعب الإيراني في المشروطة، بعقد اتفاقية ١٩٠٧ مع روسيا، وقسمت إيران إلى منطقتين تحت نفوذها ونفوذ روسيا[٤].

عُدّت هذه الاتفاقية، في نظر الواعين سياسيًا، تفكيكًا للبلاد وسقوطها. ووفقًا لتعبير سير دينس رايت:

«الإيرانيون الذين كانوا يعتقدون أنّ إنجلترا هي حاميتهم ضدّ الروس وتتمتع بأفكارٍ ليبرالية، صُدموا بهذه المعاهدة... عُدّت معاهدة روسيا وإنجلترا من وجهة نظر الإيرانيين الخطوة الأولى في تفكيك البلاد، وحتى الآن لم ينسوها ولم يغفروها، إذ عدّوها خيانةً عظيمةً لإيران»[٥].

كان العلماء أهمّ عاملٍ مانع لهذه الاتفاقية المشينة؛ لقد أدركوا الخطر ببصيرة، ودعوا الشعب بشجاعة إلى المواجهة. في أصفهان حذّر آقا نجفي الشعب من مخاطرها بكلماتٍ توعوية، وبدأ نضالاً سلبيًّا ضدّ بريطانيا.

أوصى الشعب بعدم شراء البضائع الإنجليزية، واستخدام المنتجات المحلية بدلاً منها. وهو طريق تمّ تجربته بنجاحٍ في زمن ميرزا الشيرازي في النضال ضد شركة (رجي). جاء في تقرير السفير البريطاني:

«في أحد الأيام، قدّم آقا نجفي في المسجد شرحًا مفصلاً عن فوائد ترك الأقمشة الأوروبية،

١. بشيري، احمد، كتاب آبى: گزارش‌هاى محرمانه وزارت امور خارجه انگليس درباره انقلاب مشروطه ايران، ج ٢، ص٤٣١.

٢. كرماني، ناظم الإسلام، تاريخ بيدارى ايرانيان، ج ٢، ص ١٣.

٣. فخرائي، إبراهيم، گيلان در جنبش مشروطيت، ص ١٨٧.

٤. دولت آبادي، يحيى، حيات يحيى، ج ٢، ص١٠١.

٥. سردنيس رايت، انگليسى‌ها در ميان ايرانيان، ص ٧٠ و٧١.

وكان يقول: هو وسائر العلماء سيبذلون جهدهم من الآن فصاعدًا لترك المنسوجات الأجنبية.[١]»

كان (انجمن إسلامية)، الذي تأسّس قبل المشروطة، قد وضع إنتاج البضائع المحلية للتخلّص من استهلاك البضائع الأجنبية على رأس برامجه[٢].

وطلب علماء أصفهان، مع آقا نجفي، من الشعب أنْ يستخدموا الأوراق الإيرانية، وأنّهم لن يوقعوا على العقود المكتوبة على أوراقٍ أجنبية.[٣] وأعلن علماء شيراز أيضًا، اعتراضًا على هذا الأمر، أنّ شراء وبيع البضائع الأوروبية حرامٌ[٤].

كان جنوب إيران منذ القدم تحت سيطرة بريطانيا. أدّى عدم التركيز السياسي والعسكري في إيران، وبُعد المسافة بين الجنوب والمركز، وغياب طرق الاتصال، إلى فصل مركز البلاد، وأتاح لعملاء بريطانيا أنْ يوسعوا سلطتهم يوميًا دون الحاجة إلى تدخلاتٍ سياسيةٍ صاخبة. كان النفوذ السياسي لبريطانيا في الجنوب بحيث تحوّلت ممثليتها السياسية في ميناء بوشهر إلى مركزٍ لحلّ جميع أمور الخليج الفارسي، وكان القنصل البريطاني في بوشهر يُعدّ حاكم المناطق المحيطة بالخليج الفارسي. في الواقع، تم احتلال تلك المناطق بصمت من قبل بريطانيا. بعد اتفاقية ١٩٠٧، أصبح الجنوب رسميًا من المناطق تحت نفوذ إنجلترا. عقب وجود اضطراباتٍ ضد الهيمنة الأجنبية في عام ١٣٣٣هـ.ق، احتلّ الإنجليز بوشهر. ثم وضعوا شيراز تحت نفوذهم، وتوجهوا نحو لارستان. في عام ١٣٣٥هـ.ق، وبحجة حماية التجارة، قام الإنجليز رسميًا بتشكيل شرطة الجنوب، وقدّروا نفقاتها من ميزانية حكومة إيران، ووسعوا نفوذهم على الموانئ[٥].

أمام هذه التدخّلات الصريحة من الحكومة الإنجليزية، لم يبقَ العلماء محايدين، وبدأوا نضالاً شاملاً ضد الإنجليز. قام علماء النجف ببث صرخات احتجاج الشعب إلى العالم، ودعوا علماء الجنوب إلى المواجهة بإرسال الرسائل. قام علماء شيراز، بقيادة ميرزا إبراهيم محلاتي، بشنّ نضالٍ سلبيّ ضدّ الإنجليز. كتب ميرزا إبراهيم في جواب استفتاء مجموعة من الناس في هذا الشأن: «الحكم الشرعي لسلوك المسلمين تجاه جيش الإنجليز في الحالة الحاضرة هو :**أولاً**، إيذاؤهم

١. بشيري، احمد، كتاب آبى: گزارش‌هاى محرمانه وزارت امور خارجه انگليس درباره انقلاب مشروطه ايران، ج ١، ص ٥٤.

٢. نجفي، موسى، حكم نافذ آقا نجفي، الصفحة ٨٦.

٣. نجفي، موسى، انديشه سياسى وتاريخ نهضت بيدارگرانه حاج آقا نوراللّه اصفهاني، ص ٢٠٦ إلى ٢١١.

٤. بشيري، احمد، كتاب آبى: گزارش‌هاى محرمانه وزارت امور خارجه انگليس درباره انقلاب مشروطه ايران، ج١، ص ١٠٨.

٥. آيت اللهي، السيد محمد تقي، ولايت فقيه... سيرى در افكار ومبارزات سيد عبدالحسين لارى، ص ٧٧ إلى ٧٩.

وإهانتهم هم وجيشهم باليد واللسان، حسب الشرع المقدس، حرام بالعرض...

ثانيًا، إعانتهم بأيّ وجهٍ من الوجوه المذكورة وغير المذكورة في السؤال أعلاه من أعظم المحرمات الشرعية، وإذا قام أحد، والعياذ بالله تعالى، بإعانتهم، وقام في الحالة الحاضرة بانتهاك حرمة الإسلام، فيجب على جميع المسلمين أنْ يتبرؤوا منه فورًا تمامًا، وألّا يدعوه في مجالسهم، حتى لو كان ابنًا بالنسبة إلى أبيه»[١].

وقد عدّ الميرزا إبراهيم التعامل التجاري مع الإنجليز بمنزلة العداء للإمام المهدي(ع)، ورأى أنّ المخالفين يستحقون التعزير الشرعي[٢]. وأيّد باقي علماء شيراز أيضًا حكم الميرزا إبراهيم. كتب القنصل البريطاني في تقريره إلى رؤسائه أنّ المجتهدين يمنعون التجار بشدّةٍ من البيع للجيش الإنجليزي، ويمنعون البنّائين وسائر العمال الإيرانيين من قبول الأعمال المطلوبة من الجيش[٣].

تضرّرت شركة (زيغلر) الإنجليزية في شيراز كثيرًا في هذه الأحداث. أصدر المرحوم عبد الحسين لاري فتوى بالجهاد ضد الهيمنة البريطانية في الجنوب، ودخل في معارك مع الجنود الإنجليز. مع تصاعد جهود شرطة الجنوب، شدّد علماء الدين صفوفهم، وانتقلوا من مرحلة النضال السلبي إلى القتال المسلح. دعا مراجع النجف، بإرسال رسائل إلى رؤساء العشائر، إلى مواجهة المحتلين الأجانب[٤].

دخل علماء بوشهر، مثل السيد عبد الله بلادي، ميرزا علي كازروني، والسيد مرتضى تنغستاني، في معارك مع أتباعهم بأمر من مراجع النجف. استولى السيد مرتضى أهرمي، أحد تلامذة الآخوند الخراساني، على بوشهر[٥]، وسيطر أهل بندر عباس، بأمرٍ من العلماء، على زمام الأمور واحتلّوا دار

---

١. تركمان، محمد، اسنادي درباره هجوم انگليس وروس به ايران، ص ٢٨٨.

٢. المصدر السابق، ص ٢٨٩.

٣. بشيري، احمد، كتاب آبى: گزارش‌هاى محرمانه وزارت امور خارجه انگليس درباره انقلاب مشروطه ايران، ج ٦، ص ١٤٢٢.

٤. تركمان، محمد، اسنادي درباره هجوم انگليس وروس به ايران، ص ٢٧٨.

٥. بشيري، احمد، كتاب آبى: گزارش‌هاى محرمانه وزارت امور خارجه انگليس درباره انقلاب مشروطه ايران، ج ١، ص ٤٤١ و٤٦٥.

الجمارك[١]. في برازجان، قام الشيخ علي دشتي بإعداد الناس للحرب ضد الإنجليز[٢].

جميع هذه النضالات والجهود، مع قلّة العتاد، جعلت جنوب إيران غير آمنٍ للقوات الإنجليزية، ومنعت إنجلترا من تحقيق أهدافها الرئيسة في الجنوب وفي أماكن أخرى من إيران[٣].

كما فشل العقد المعروف بـ(وثوق الدولة)، الذي تم في السنوات الأخيرة من المشروطة ووضع المصالح الحيوية لإيران في يد الإنجليز، بفضل يقظة رجال الدين. كان الشهيد المدرس يقود المعارضة[٤]. بذل ذلك الرجل العظيم جهودًا لإلغاء هذا العقد، وكتب رسائل إلى جميع الولايات وزعماء العشائر، موضحًا أضراره.

قدّم كوكس، ممثّل إنجلترا، تقريرًا إلى اللورد كرزون، الوزير المفوض، قال فيه: «إنّ نشر العقد في طهران كان أفضل ممّا كان متوقعًا، ولكن يُلاحظ أنّ الأشخاص ذوي النفوذ يعارضونه، وأشدّهم بقيادة المدرس وإمام جمعة خوي»[٥].

بعد كلمات الشهيد المدرس التوعوية، بدأت المعارضة العامة ضد (وثوق الدولة). أصبح مسجد عبد الحسين في السوق مركزًا للتظاهرات. في النهاية، أغلقت الحكومة المسجد ونُفي عدد من الكبار إلى كاشان. واصل الشهيد المدرس عمله حتى سقطت حكومة (وثوق الدولة)، ولم يُظهر (مشير الدولة) أيّ تأييد لها.

مشروعية النهضة

من الأهداف الأخرى لرجال الدين من المشاركة في نهضة المشروطة إحياء الشعائر الإسلامية. كان العلماء يسعون إلى مشروطةٍ تحافظ على القوانين والشرائع الإسلامية، ولا تتجاوز حدود القوانين الموضوعة وفق المذهب الرسمي للبلاد، وتكافح المخالفات، ويكون الحفاظ على الإسلام وحوزة المسلمين الهدف الرئيسي. في نظر علماء الدين، فإنّ القوانين التي تُصاغ خلافًا لمذهب

١. المصدر السابق، ص ٤٦٥.

٢. المصدر السابق، ج ٧، ص ١٥٥١.

٣. فخرائي، إبراهيم، سردار جنگل، ص١١٦.

٤. المصدر السابق، ص ١٨٧.

٥. باقي، عبد العلي، مدرس مجاهدي شكست ناپذير، ص ٤٦؛ حسين مكي، مدرس قهرمان آزادي، ج١، ص ١٥٤.

جعفر الصادق وتسلك طريق الزندقة والبدعة، هي مخالفة للمشروطة وستؤدي إلى الاستبداد[١].

إنّ عدم الاهتمام بالشعائر الإسلامية، وانتشار المحرمات والمنكرات، وتوسع البهائية[٢]، وإهانة المذهب من قبل الأجانب. كانت من الأسباب التي دفعت العلماء إلى ميدان النضال، وجعلت تصرفات الحكومة القاسية والمسيئة تجاه العلماء دليلاً إضافيًا على عدم تدين الحكومة، وأضفت على النضال طابعًا دينيًا بالكامل.

كانت بريطانيا، بحضورها الصامت في ساحة السياسة والتشريع في إيران، تسعى إلى حكومةٍ ليبراليةٍ وعلمانيةٍ يكون فيها الدين هامشيًا، ولا يكون له دورٌ في إدارة الشؤون السياسية والاجتماعية، ويتمتع فيها جميع أصحاب المذاهب، بما في ذلك البهائيون! بحقوقٍ مساويةٍ للمسلمين. حاول أتباع السفارة الإنجليزية تحويل توجّهات وشعارات الشعب نحو إنجلترا وأهدافها وبرامجها[٣]، وأنْ يكون لرجال الدين دور أقلّ في مرحلة التشريع وإدارة البلاد. وهذا خلق تنافرًا واسعًا بين جماعة العلماء والمثقفين المتغربين. لم يقبل عملاء بريطانيا منذ بداية الحركة عنوان (مجلس الشورى الإسلامي)، وأصرّوا على تسميته (مجلس الشورى الوطني). كان المعتصمون في السفارة يرددون شعار (مجلس الشورى الوطني)[٤]، شارك السفير البريطاني في جلسة الحوار لتحديد اسم المجلس، واستطاعت المجموعة المسماة بالمثقفين، من خلال حيلةٍ سياسيةٍ وتهديدٍ، فرض عنوان (مجلس الشورى الوطني)، بحجة أنّ هذه الكلمة تغلق باب التكفير على الأفراد، وأيضًا مع دخول ممثلي الأقليات الدينية في المجلس، فإنّ كلمة (وطني) مناسبة، وليست كلمة (إسلامي). أصروا في هذا الأمر إلى درجة أنّ العناصر التابعة أعلنوا: «إذا لم يتحول (إسلامي) إلى (وطني)، فلن يخرج الناس من السفارة»[٥].

هذه الشواهد تُظهر أنّ السفارة البريطانية لم تكن بلا دور في تغيير كلمة (إسلامي) إلى (وطني). بالإضافة إلى ذلك، كانت من مواد الدستور أنّ جميع شعب إيران، وجميع أصحاب المذاهب، لهم حقوق متساوية في القانون. كان هذا الأمر موضع اهتمامٍ كبيرٍ لدى الإنجليز.

---

١. كرماني، ناظم الإسلام، تاريخ بيدارى ايرانيان، ج ١، ص ١٩٩.

٢. الگار، حامد، دين ودولت در إيران، ص ٣٤٣؛ حيات يحيى، يحيى دولت آبادي، ج ١، ص ٣١٥.

٣. تركمان، محمد، مجموعهاي از مكتوبات... شيخ فضل‌الله نوري در مشروطيت، ج ٢، ص ٣٢٣.

٤. مجموعة مؤلفين، خاطرات واسناد ظهير الدوله، ص ١٣٣.

٥. كرماني، ناظم الإسلام، تاريخ بيدارى ايرانيان، ج ١، ص ٥٦٧.

لم يكن الهدف الدفاع عن حرية البشر، بل دعم الأقليات الدينية، وخاصّة الديانة المصطنعة من قبل الأجانب، أي البهائية التي كانت موضع اهتمامهم. وكان البهائيون، الذين كانت لهم قواعد في قبرص ولندن في ذلك اليوم، بمنزلة الطابور الخامس لبريطانيا في إيران، وكانت سفارة تلك البلاد تستخدمهم للتجسس وإحداث الفتن بين الناس، وتدعمهم بـ(عصا الحماية)[١]، كان إعطاء الصفة الرسمية لهذه الجماعة في الدستور يوفر لهم سندًا قويًا. دعم إنجلترا للبهائيين شجعهم، ومنحهم الجرأة لنشر دينهم والوصول إلى المناصب الرئيسية.

في الرحلة الثانية لمظفر الدين شاه إلى أوروبا، طلب بعض البهائيين الذين كانوا رعايا إنجلترا وفرنسا من الشاه أنْ يتمتع أتباعهم في إيران بالحرية. وعدهم الشاه بذلك، وربما كان أحد أسباب جرأة هذه الطائفة مؤخرًا، بالإضافة إلى ارتباطهم بالروس، هو هذا الوعد الذي قدّمه لهم الشاه في أوروبا[٢].

يقول الشيخ فضل الله النوري بشأن مادة المساواة القانونية لجميع شعب إيران في الدستور: «أذكر أنّه أثناء تصحيح هذه المادة، قال شخص كان من أصول الهيئة، بداعي أنّ هذه المادة ذات أهمية كبيرة، إنّه إذا وجدت هذه المادة وتم تغيير جميع البنود، ستعترف بنا الدول الأجنبية كمشروطة، وإذا لم تكن موجودةً ولكن جميع البنود... موجودة، فلن يعترفوا بنا كمشروطة»[٣].

أدّى دعم الأجانب للحرية ذات الطابع الغربي تحت غطاء القانون إلى انتشار الأفكار الإلحادية ونمو المنكرات. قام مجموعةٌ من الصحفيين، بنشر مقالاتٍ حول القومية الإيرانية ووصفوا هجوم العرب على إيران في صدر الإسلام بالوحشي، ممّا شكّك بشكلٍ غير مباشرٍ في الحضارة الإسلامية[٤]، ومجموعة أخرى بتمجيد النظم الغربية الجديدة وصفوا قوانين الإسلام بالقديمة وغير القابلة للتنفيذ.

شعر العلماء اليقظون بالخطر عن قرب ودعوا الشعب إلى مواجهة هذا الهجوم الثقافي. جعل آقا نجفي في أصفهان الحياة ضيقة على البهائيين والتابعين للأجانب، ونصح المؤمنين بعدم إرسال أبنائهم إلى مدارس الأجانب[٥].

---

١. سردنيس رايت، انگليسی‌ها در ميان ايرانيان ص ٩٥.

٢. دولت آبادي، يحيى، حيات يحيى، ج ١، ص ٣١٧.

٣. تركمان، محمد، مجموعه‌اي از مكتوبات... شيخ فضل‌الله نوري در مشروطيت، ج ١، ص ١٠٧.

٤. ملك‌زاده، مهدي، تاريخ انقلاب مشروطيت ايران، ج ٦، ص١٢٩٠.

٥. بشيري، احمد، كتاب آبی: گزارش‌های محرمانه وزارت امور خارجه انگليس درباره انقلاب مشروطه ايران، ص ٥٤

عارض رجال الدين في طهران انتخاب نائب بهائي[١]. وأرسل الآخوند الخراساني برقية إلى المجلس يطالب فيها الحكومة بمنع نشر المواد الإلحادية والمفسدة ومعاقبة كُتّاب هذه المواد[٢]. وفي مواجهة أقوال الديمقراطيين الذين عدّوا حكم القصاص مخالفًا للحكمة والسياسة، أرسل برقيةً بهذا المضمون إلى المرحوم بهبهاني: «وفقًا للرسائل الكثيرة الواردة، في العدد ١٢١ من جريدة (إيران نو)، عدّ حكم القصاص مخالفًا للسياسة والحكمة، وقد استُحقرت الآية المباركة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣] التي أقرّ حكماء وفلاسفة غير المسلمين بالحكم الموجودة فيها ويفتخرون بفهمها. نرجو إعلامنا بالتفاصيل، بل نرجو إرسال هذا العدد عاجلاً، حتى نعلن حكم الله عز اسمه لجميع المسلمين في حالة صحة ذلك»[٤].

كان الشيخ فضل الله النوري - الذي كان في قلب الأحداث وشاهد عن قرب الأعمال غير المشروعة للحداثيين - قد اقترح من أجل تنسيق القوانين التي يسنّها المجلس مع أحكام الشريعة، أن يشرف مجموعة من العلماء على القوانين التي يسنها المجلس. حاول الديمقراطيون، الذين كانت لهم صلاتٌ وثيقةٌ بالسفارة البريطانية[٥]، منع هذا الاقتراح من أنْ يتم إقراره. واعتبروه، باستدلالاتٍ خادعة، غير متوافقٍ مع الديمقراطية. تم إقرار مشروع مجلس صيانة الدستور بمتابعة علماء طهران، ولم تؤدِ محاولاتُ المستغربين إلى شيء. بذلوا كلّ جهدهم لجعله غير فعّالٍ في مرحلة التنفيذ. عدّت السفارة البريطانية قبول هذه المادة من قبل مجموعةٍ تقى زاده تراجعًا تكتيكيًا للحفاظ على الموقف، وأعربت عن أملها في أنّه بعد وصول المتشددين إلى السلطة، سيتم إزالة هذه المادة القديمة إلى الأبد. كتب سير سبرينغ رايس في ملحق التقرير ١٤٧، الذي خُصص لمناقشات المجلس حول (إشراف هيئة المجتهدين من الدرجة الأولى على القوانين المصادق عليها من قبل المجلس)، بعد إبداء سروره الكبير من خطاب ميرزا فضل علي آقا في معارضته، ما يلي:

«يعلم الأحرار أنّهم لا يستطيعون على الأقل لعدة سنوات مهاجمة العدو علنًا؛ لذلك قدموا امتيازاتٍ كبيرةٍ لرجال الدين وأظهروا احترامًا مبالغًا فيه لهيئة العلماء. ونتيجة لذلك، تمت الموافقة

---

١. دولت آبادي، يحيى، حيات يحيى، ج ٢، ص ٨٦.

٢. ملك زاده، مهدي تاريخ انقلاب مشروطيت ايران، ج ٦، ص ١٢٨٩.

٣. سورة البقرة: الآية ١٧٩.

٤. أيرج أفشار، اسناد مشروطيت، مستشار الدولة، المجموعة الثانية، ص ٣٠٦.

٥. فريدون آدميت، ايدئولوژى نهضت مشروطيت، ج ٢، ص ٣٤٨.

على المادة الإضافية المشار إليها أعلاه من قبل المجلس بهذه الروح التصالحية، وعلى الرغم من المعارضة الحازمة لممثلي تبريز برئاسة تقى زاده وميرزا فضل علي آقا، صوّت المجلس لصالحها. وكما أثبتت الأحداث اللاحقة، اعتُبر هذا الإجراء، أي الموافقة على هذه المادة، في الواقع خطوة سياسية مدبرة كبيرة... ومن الواضح أنه بمجرد أنْ يتولّى الأحرار زمام الأمور، فإنّ هذه المادة القديمة ستُعلق بشكل دائم»[١].

تحققت تنبؤات رايس بدقة. مع انتصار وسيطرة أنصار بريطانيا على المجلس، تضاءلت الشعائر الإسلامية، وازداد مدى التظاهر بالإلحاد. في الدورة الأولى للمجلس، نظرًا لوجود العلماء في الساحة، لم يجرؤ المعارضون على إظهار ما يخالف المذهب، ولكن في الدورات اللاحقة، بالإضافة إلى تجاهل مادة إشراف العلماء على مصوبات المجلس ودعم نظرية فصل الدين عن السياسة، هُوجم المذهب علنًا، ونتيجة لذلك، كما كتب المستوفي: «جعلوا جماعة من الناس البسطاء ذوي الإيمان الذين أصبحوا مشروطين بفضل العلماء، ينصرفون عن هذا المسلك والمنهج»[٢].

حِيَل بريطانيا في مكافحة العلماء

اتضح أنّ العلماء وبريطانيا في الثورة المشروطة كانوا في جبهتين متقابلتين، وكلٌّ منهما يسعى لهدفه. وكان علماء الدين، الذين كانوا كسد متين في وجه الشياطين الأجانب، يجب أنْ يُزالوا من الطريق. سعيًا لتحقيق هذا الهدف، شرعَ الدبلوماسيون البريطانيون في البداية، للوصول إلى أهدافهم الشريرة، ظاهريًا في اتباع طريق المسالمة والمفاوضة المباشرة مع قادة النهضة في النجف وإيران، ولم يبخلوا بأيّ سخاء لكسب محيط العلماء والاستفادة منهم[٣]. ولكن سوء سمعة وسلوك إنجلترا السيء مع الناس حال دون إقامة التواصل، وفشلت جهود السفارة البريطانية في إيران والعراق في إقامة علاقات مع العلماء. بعد اتفاقية ١٩٠٧ وتوتر العلاقات بين الناس وإنجلترا، بذل الإنجليز جهودًا كبيرة للقاء علماء النجف الذين كانوا يمسكون بزمام النضال، ولكن وفقًا لتقرير القنصل البريطاني في بغداد، فقد فشلوا أيضًا في هذا البرنامج: «حتى الآن، لم يتيسر لممثّل إنجلترا المقيم في المكان أنْ يقيم علاقاتٍ وديّةً مع مجتهدي النجف؛ لأنّهم لم يكونوا مستعدين للاتصال به»[٤].

١. تركمان، محمد، مجموعهاي از مكتوبات... شيخ فضل‌الله نوري در مشروطيت، ج ٢، ص ٣٧٦.

٢. مستوفي، عبد الله، شرح زندگاني من، ج ٢، ص ٢٨٩ و٣١٧.

٣. تركمان، محمد، اسنادي درباره هجوم انگليس وروس به ايران، ص ٤٤.

٤. معاصر، حسن، تاريخ استقرار مشروطيت، ج ٢، ص ٨٧٨.

ترهيب الشخصيات

من الحيل الأخرى لإنجلترا لمكافحة العلماء كان تشويه الشخصية، وهي أداةٌ أثبتت فعاليتها مرات عديدة. بعد يأس إنجلترا من استمالة العلماء، سعت إلى تشويه صورتهم. بشكلٍ مباشرٍ وغير مباشر، كانوا أحيانًا يصفونهم بالمفسدين ومثيري الشغب، وأحيانًا بالرجعيين والمتخلفين، وأحيانًا بالفاسدين وطالبي السلطة، وكانوا يصورون تصادم العصبيّين والأوباش المؤيّدين لهم مع هؤلاء الأشخاص على أنّه نضال تنويري ضد الرجعية.

سيد عبد الله بهبهاني، أحد قادة نهضة المشروطة، شوّهت صورته من قبل السفارة الإنجليزية بأسوأ شكل ممكن[١].

اتهم قادة حوزة أصفهان، آقا نجفي وآقا نور الله، الذين كانوا يوعون الناس بحيل ومؤامرات الأجانب، ويعارضون تعيين الإنجليز في المناصب الإدارية المختلفة في البلاد، بالسعي للمصلحة الشخصية وإثارة الفتن .اتّهم مستر بيرن آقا نجفي بأن: «انتخاب نواب أصفهان بأمر آقا نجفي كان لضمان مصالحه الشخصية في طهران، ووجود آقا نجفي في أصفهان سبب الفوضى والسخط العام»[٢].

بعد مقاطعة البضائع الإنجليزية من قبل آقا نجفي، كتب مارلينغ، القائم بالأعمال البريطاني، إلى مشير الدولة: «نظرًا لوجود مبالغ كبيرة من رأس المال الإنجليزي في هذا الأمر، وإذا ترك هذا العمل غير الصحيح يستمر، سيلحق خطرٌ فادحٌ بذلك الاستثمار. نرجو من سيادتكم أنْ تأمروا بإصدار التعليمات اللازمة لمسؤولي أصفهان لمنع فورًا هذه الأعمال الفتنة التي يقوم بها هؤلاء الأشخاص»[٣].

اتّهام الارتباط بالأجانب

أدّت التدخّلات غير المشروعة للأجانب، خاصّة روسيا وإنجلترا، في الشؤون الداخلية لإيران قبل المشروطة وبعدها، إلى تشكك الناس تجاه الأجانب. على الرغم من أنّ إنجلترا كانت تسعى لكسب وجه من خلال دعم مؤقت للمشروطة، إلّا أنّ فرضها للعقود الاستغلالية على إيران شوه

١. المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤، مع التلخيص.

٢. نجفي، موسى، حكم نافذ آقا نجفي، ص٨٥.

٣. تركمان، محمد، اسنادي درباره هجوم انگليس وروس به ايران، ص ٣٠٠ إلى ٣٣٤.

سمعتها بين الناس. بلغت جرائم وتدخلات إنجلترا العلنية والسرية في إيران حدًا جعل الناس ينسبون كلّ حادثةٍ إلى إنجلترا، ويبحثون عن يدها الخفية وراء كلّ عملٍ مشؤوم. واستغل الاستعمار الإنجليزي، بمساعدة عملائه، هذا الجو المعادي لإنجلترا بطريقة ما، فاتّهم الأشخاص الطاهرين والعلماء المتحررين بالارتباط بإنجلترا، حتى يسقطوا من أعين الناس ويتمكن الجواسيس الإنجليز من أداء مهامهم دون قلق.

بناءً على هذا الهدف، تم تقديم الشيخ فضل الله النوري على أنّه مرتبط بالروس، وبهبهاني مرتبط بالإنجليز. سعى عملاء نظام الانقلاب، من خلال تكرار هذه الشائعة باستمرار، إلى عدّها من المسائل التاريخية الواضحة. قام صفائي، أحد كتّاب نظام الشاه المأجورين، باتباع ظهير الدولة من عمال القاجار، بوصف بهبهاني بأنه إنجليزي[١].

كتب يحيى دولت آبادي، أحد مستشاري وداعمي رضا شاه المتحمسين، في هذا الشأن: «يُسمع أن آقا سيد عبد الله كان يأمر بعض خاصته بأنّه بعد ذهابنا إلى قم يجب الاعتصام في سفارة إنجلترا، ومن البديهي أنّ هذا الأمر لم يكن بلا سابقة أو اتفاق مع بعض رجال الدولة الذين يعملون معه سرًا، وأخيرًا مع موظفي السفارة.»

ويكتب أيضًا: «إذا نظرنا جيدًا، نرى أنّ الشيخ فضل الله ينظر في السياسة الخارجية إلى الروس، النظرة نفسها التي يقدمها آقا سيد عبد الله إلى الإنجليز، وهما سياستان متعارضتان. والأجنبي أيضًا، يبرز من ياقة أحد الرئيسين الدينيين الواسعة، ويمضي في عمله»[٢].

نظرة إلى حياة ونضالات السيد عبد الله والشيخ وأداء هؤلاء الكتّاب المأجورين تسهّل الحكم. كان الشيخ فضل الله النوري منذ فترة طويلة مناديًا بالاستقلال الوطني، وكان في قضية نهضة التبغ في طليعة المجاهدين في طهران. ومعارضته للمشروطة كانت تنبع من هذا الاعتقاد. عندما تعرضت حياته للخطر من قبل المشروطيّين، امتنع عن الذهاب إلى السفارات، وفي ردّه على السفير الروسي الذي عرض عليه اللجوء إلى سفارة بلاده

قال: وصف ميرزا إبراهيم محلاّتي من قبل الوزير المفوض البريطاني بأنّه (ملاّ مثير للشر وسوء النية)، ووُصف السيد عبد الحسين لاري بأنّه (مفسد ومخرب ومجنون).

---

١. أنصاري، مهدي، شيخ فضل الله النوري ومشروطيت، ص٢٤.

٢. دولت آبادي، يحيى، حيات يحيى، ج ٢، ص ١٥٠.

أكثر من ذلك، قام الإنجليز بأعمالٍ غير مشروعةٍ لتشويه سمعة العلماء المجاهدين ونسبوها إليهم. كان من بين ذلك إثارة الفوضى في الطرق بواسطة عملائهم، بهدف ليس فقط جعل الناس ينظرون بسوء إلى العلماء المجاهدين، بل أيضًا لتهيئة الظروف لمزيد من تواجدهم.

يكتب السيّد أسد الله خارقاني في تقرير من الجنوب: «إنّ الفتن في موانئ الجنوب تُحرَّض من قبل دريابيغي وبني قوام في شيراز، الذين حرضوا الأشرار على الشر ونهب أموال الناس، ونسبوا ذلك إلى اسم السيد لاري. ثم أبلغوا الواقعة إلى طهران، وهيأوا الأجواء في المركز لتوجيه القوات والقتال مع السيد»[١].

كان جهل الناس أيضًا مؤثرًا في هذه الحملات الدعائية. فقد أدّى عدم وجود وسائل الاتصال، وسيطرة الأجانب على وسائل المخابرات، إلى قلة وصول الأخبار الصحيحة إلى الناس، وانتشار الشائعات بينهم.

انضمّ المثقفون الزائفون الانتهازيون أيضًا إلى أسيادهم في تشويه سمعة العلماء الحقيقيين. كان تقي زاده، الذي كان يدعو الناس باسم الحرية إلى تقليد المستعمرين، ومن الشخصيات المفضلّة لدى الإنجليز[٢]، يعد رجال الدين العقبة الأساسية في تفكيك المجتمع التقليدي، ويرى صلاح المجتمع في تدمير هذه الفئة.

أعطى تقي زاده شرعية لنضال عين الدولة المستبد ضد علماء طهران، من خلال تحليل زائف واتهامات باطلة: «في الحقيقة، كان نضال عين الدولة مع ملائي طهران وجهاز فسادهم نضال حكومة قوية ومقتدرة ضد المشعوذين والفوضى».

في نهاية المشروطة، استخدمت إنجلترا سلاح التكفير على نطاقٍ واسعٍ لتدمير كيان رجال الدين. كان عملاء الإنجليز، المنتشرون في كلّ مكان، يصفون العلماء بأنّهم عالةٌ على المجتمع وسُرّاق قوت الشعب، لتهيئة الأرضية للقضاء عليهم تمامًا.

جاء أردشير ريبوترجي، أحد جواسيس بريطانيا المخضرمين، إلى إيران بعد نهضة التبغ. وللتعرف على أوضاع إيران، أمضى سبع سنواتٍ بين الناس، وتعلّم لغات هذا البلد المتعددة. كان ريبوترجي يسعى لخلق بيئةٍ لا يقوم فيها الشعب الإيراني مرةً أخرى، بناءً على فتوى عالمٍ متحرّرٍ مثل الميرزا، بمثل هذه الانتفاضات. كان قطع ارتباط الناس برجال الدين من المحاور الأساسية

١. فريدون آدميت، ايدئولوژى نهضت مشروطه ايران، ج ٢، ص ٢٥٥.

٢. أيرج أفشار، اسناد مشروطيت، مستشار الدولة، ج ٢، ص ٢٨٠.

لجهوده. بعد وصول رضا خان إلى السلطة بواسطة بريطانيا، قام ريبوترجي بإعداد رضا خان لتدمير الحوزات العلمية. جاء في وصية (جي (المتعلقة برضا شاه»:شرحت له بالتفصيل كيف أنّ طبقة العلماء والآخوندات والملايين كانوا في الماضي القريب مستعدين حتى لبيع الوطن. كان بعضهم يستدل رسميًا بأنّ البلشفية هي الإسلام، وبالطبع كانوا يتلقون مكافآت مالية مقابل هذا التفسير، وللتصدي لذلك، أخذ العلماء والمجتهدون في العراق أموالاً طائلة ليصدروا فتاوى ضد مذهب البلشفية. كان العلماء عمومًا يريدون أن تُملأ جيوبهم ويبقى تسلطهم على الناس»[١].

في هذا الكلام يتّضح عمق الكراهية التي يحملها الاستعمار البريطاني تجاه الإسلام ورجال الدين. لقد شوّه صورة العلماء، وقدم أفعال قلة من المتظاهرين بالعلم كرمز للحوزة. يكشف (جي) في رسالته الخاصة أنّه قام على مدى عامين ونصف بتعليم رضا شاه ضد طبقة العلماء، وتحدّث معه حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل عن فساد هذه الطبقة؛ ليُعدّه نفسيًا لمواجهة الشعارات والرموز الدينية بلا خوفٍ. كان اتّهام الرجعية والتخلف من الأدوات الأخرى لهجوم خدّام الإنجليز ضد العلماء. أشخاص مثل ملكم ويبرم وتقي زاده وصفوا الحجاب والقصاص وغيرها بأنّها غير حكيمة، ووصفوا علماء مثل: الشيخ فضل الله وبهبهاني وملاّ قربان علي زنجاني بأنّهم متحجّرون وغير مرغوبٍ فيهم[٢].

كانت اتّهامات الإنجليز ضد الشيخ فضل الله النوري شاملةً لدرجة أنّها أوقعت الصديق والعدو في الخطأ. أصبح اسم الشيخ فضل الله، الذي كان في طليعة معارضي المشروطة المنحرفة، مرادفًا للمستبد والرجعي. في وسط ذلك الضجيج، لم يتمكّن الشيخ من الدفاع بشكلٍ مناسبٍ عن أفكاره، في حين أنّ الشيخ كان في البداية في طليعة الثوار ونقطة اعتماد العلماء، ولم يكن للآخرين سابقة الشيخ اللامعة في النضال من أجل الحرية وضد الاستبداد. أدّى ظهور الانحراف في النهضة إلى وضعه في صفوف المعارضين.

يُعبِّر عن مواقفه بهذا الشكل:»أيّها الناس! أنا لستُ منكرًا لمجلس الشورى الوطني بأيّ وجه، بل أعدّ مشاركتي في تأسيس هذا الأساس أكثر من أيّ شخصٍ آخر؛ لأنّ علمائنا الكبار الذين في العتبات العاليات وسائر البلدان لم يكونوا موافقين، وقد أقنعتهم جميعًا بإقامة الأدلة والبراهين... وأنا الآن كما كنت»[٣].

---

١. صفائي، إبراهيم، رهبران مشروطه، ص ١٤٤.

٢. دولت آبادي، يحيى، حيات يحيى، ج ٢، ص٧١ و١٤٦.

٣. تركمان، محمد، مجموعهاي از مكتوبات... شيخ فضل‌الله نوري در مشروطيت، ج ٢، ص ٢٨٨.

كان السيد أبو طالب زنجاني، أحد معارضي المشروطة، أيضًا من زعماء دعاة الحرية. كان له تعاونٌ وثيقٌ في الماضي مع السيد جمال الدين[١].

عرّف كريم دواتكر في اعترافاته، (حسين قلي خان، وحسن علي خان)، اللذين كانا قد لجآ سابقًا إلى السفارة، بأنّهما شريكان له[٢].

على الرغم من أنّ القائم بالأعمال في السفارة البريطانية كان يحاول إظهار نفسه بأنّه محايدٌ في هذه القضية، إلا أنّ الأدلة لم تترك مجالاً للإنكار، وكانت أكبر اهتمامات السفارة هي الحفاظ على حياة وحرية المتهمين.

كان السيّد سمارت يحضر جلسات المحاكمة نيابةً عن الحكومة البريطانية، وكان يشرف على سير المحاكمات[٣]. بعد قتل الشيخ على يد بيرم خان، المؤيّد لإنجلترا، أفاد السفير البريطاني بشكل صريح: «كان الشيخ فضل الله خطرًا كبيرًا على بلاده؛ من الجيد أنّ الحكومة الإيرانية تخلّصت منه»[٤].

في بداية المشروطة، قامت مجموعةٌ من المتطرّفين، المكوّنة من مهاجري القوقاز والأرمن والإيرانيين المنحرفين، بتأسيس تنظيمٍ سريّ للقضاء على معارضيهم. أعضاء هذه اللجنة، الذين كانوا على درايةٍ بالأسلحة الجديدة، قتلوا في مدّةٍ قصيرةٍ مجموعةً من العلماء. كانوا يقدمون أنفسهم كأحرارٍ ومطالبين بالاستقلال، ويرفعون شعارات الحرية والاستقلال، ويغتالون معارضيهم بتهمة الاستبداد أو دعم الأجانب.

تظهر ملفات مدبّري هذا التيار أنّهم كانوا من الديمقراطيين والتابعين للسفارة البريطانية. كانوا إمّا يشترون الأفراد وإمّا يغسلون أدمغتهم بالدعاية، ويستخدمونهم لقتل المعارضين. كانوا يوحون إليهم بأنّ رجال الدين هم معارضو طريق الحرية، وأنّ خلاص الأمة من شرّ الاستبداد والأجانب يعتمد على قتلهم.

---

١. أيرج أفشار، يادداشت‌هاى تاريخى مستشار الدولة، ج ١، ص ٦٠.

٢. كسروي، أحمد، تاريخ مشروطه ايران، ص ١٠٩.

٣. مجموعة مؤلفين، ظهور وسقوط سلطنت پهلوى، ج٢، ص ١٦٥.

٤. ساساني، خان ملك، دست پنهان سياست انگليس در ايران، ص ٩٧.

لخداع الرأي العام، قاموا في بداية الأمر بالتخلّص من عددٍ من الأشخاص سيّئ السمعة، ثم بدأوا في قتل الأشخاص الصالحين[١].

تُرى أسماء مثل: رشيد السلطان، حسين خان لله، وأحسان الله خان، وميرزا إبراهيم خان منشيزاده، وأسد الله أبي الفتح زاده، وإبراهيم حكيمي، وحيدر عمو أوغلي، وغيرهم، في مجموعة (المجازاة).

وثوق الدولة، الذي كان على معرفةٍ وثيقةٍ بمدبّري اللجنة السرية، يعدّ مؤسسيها أشخاصًا مثل: عماد الكتّاب، وكمال الوزراء، من عملاء إنجلترا[٢].

أبرز العلماء المناهضين للإستعمار

السيد عبد الله بهبهاني

كان في طليعة المسلمين المشروطيّين. كان شجاعًا وجسورًا وشخصيةً نادرة. كان من أكثر رجال الدين جرأةً وصبرًا في زمانه. أدهشت شجاعته في مواجهة الأحداث الجميع. دافع عن المشروطة بعزمٍ راسخ، ولم يُظهر ضعفًا قط. كانت يقظة السيّد تجاه نفوذ الأجانب والانحرافات تشكل عقبةً جديةً أمام أصحاب الأفكار المنحرفة. في قضية متمم الدستور وإشراف العلماء على مصوبات المجلس، كان مع السيد محمد الطباطبائي والشيخ فضل الله النوري. قام المثقفون المتغرّبون، الذين لم يتقبلوا مشروطية القوانين ونفوذ رجال الدين في السياسة، باغتياله بوساطة عملائهم في لجنة المجازاة. على الرغم من أنّ قاتليه لم يُعرفوا في ذلك الوقت، إلّا أنّه بعد فترةٍ تبيّن أنّ ثلاثة أشخاص من مجموعة حيدر عمو أوغلي، بأسماء: رجب، وحسين لله، وعلي أصغر، قد ارتكبوا هذه الجريمة الفظيعة[٣].

انتشر اسم تقي زاده، أحد مؤسسي حزب الديمقراطيين، على الألسن كسببٍ رئيسٍ للقتل، والعبارة: «قال تقي زاده، فأصبح شقي‌زاده» تتعلق بهذا القتل[٤].

---

١. تركمان، محمد، مجموعه‌اي از مكتوبات... شيخ فضل‌الله نوري در مشروطيت، ج ٢، ص ٣٨٤.

٢. محمد مهدي شريف كاشاني، واقعات اتفاقيه در روزگار، المجلد ١، ص ٢٦١.

٣. تركمان، محمد، مجموعه‌اي از مكتوبات... شيخ فضل‌الله نوري در مشروطيت، ج ٢، ص ٣٨٤.

٤. كاشاني، محمد مهدي، واقعات اتفاقيه، ج ١، الصفحة ٢٦١.

ميرزا محسن

كان من العلماء الأذكياء والفطنين، وملجأً للمحتاجين والمستضعفين. كان لطيف المعشر، حسن السلوك، وحسن التعامل مع الناس، ومشهورًا لدى العامة والخاصة. وقد قُتل أيضًا بأمرٍ من اللجنة السرية للمجازاة.

يقول حسين لله، أحد قاتليه، في اعترافاته: «كُلِّفنا من قبل اللجنة، أنا وأحسان الله خان ورشيد السلطان، باغتيال ميرزا محسن. وفي كلّ مرةٍ يُسند إلينا اغتيال أحد الآخوندات، كنا نفرح فرحًا شديدًا؛ لأنّ قتل آخوند أو سّيد كان بالنسبة لي ولأصدقائي أكبر خدمة للحرية والوطن»[١].

كان أحسان الله خان منسوبًا إلى الفرقة البهائية، وبعد قتل ميرزا محسن، فرّ وانضمّ إلى تنظيم الغابة، وبسبب إظهاره للكفاءة، أصبح من المقربّين الموثوقين لدى رجال الغابة. حتى قبل الانقلاب الأحمر في رشت، كان إلى جانب ميرزا، ثم خان ميرزا، وأصبح من أعدائه الشرسين، حتى دفع قادة نهضة الغابة إلى الاصطفاف ضد بعضهم البعض.

حاج الشيخ علي الفومني

في أيام اشتباكات أنصار المشروطة مع الحكومة، شكّل مجموعةٌ منهم في رشت لجنة باسم (ستار). كان من أعضائها أشخاص مثل: ميرزا كريم خان، وميرزا علي محمد خان تربيتي، وميرزا حسين كسمائي، وغيرهم. قامت هذه المجموعة سرًا باغتيال معارضيها. من بينهم كان الشيخ علي الفومني، الذي تم اغتياله بتهمة معارضة المشروطة. كان الشيخ علي من المجتهدين المعروفين، ومتميزًا في التقوى بين أقرانه[٢]، وقد قُتل على يد حسين خان كسمائي.

كما ورد في تقارير السفارة البريطانية: أنّ أحد العلماء المعروف بالفاضل قد أُطلق عليه النار وقُتل في أواخر شهر أغسطس. يُقال إنّ اللجنة السرية في رشت أصدرت حكم إعدامه[٣].

إنّ آقا كريم خان كان فراماسونيًا ومرتبطًا ببريطانيا، وكان على رأس اللجنة السرية في رشت.

---

١. بشيري، احمد، كتاب آبی: گزارش‌های محرمانه وزارت امور خارجه انگلیس درباره انقلاب مشروطه ایران، ج ٣، ص ٧٠٠.

٢. یادداشت‌های تاریخی مستشار الدولة، ص ١١٨.

٣. مجموعة مؤلفين، تاريخ معاصر ايران، ج، ص ١٥١.

لعب دورًا مهمًا في تقدم أهداف بريطانيا من خلال التظاهر باليسارية[١]، وكان بيرم مسؤول الفرع العسكري لتلك اللجنة، وحسين خان كسمائي، أحد الأعضاء المؤثرين في الجمعية السرية، الذي كان في قضية الغابة في البداية مع ميرزا كوچك خان، ثم انقلب عليه ونظم أشعارًا في انتقاده وانتقاد رجال الغابة[٢].

كانت الجمعية السرية في رشت على ارتباطٍ وثيقٍ مع تقي زاده ولجنة المجازاة في طهران. كان العديد من العلماء على القائمة السوداء للمجازاة، من بينهم آقا زاده ابن الآخوند الخراساني، الذي كُلّف حيدر خان باغتياله لكنه لم ينجح.

ميرزا محمد المعروف بـ(آقا زاده)

جاء إلى إيران في بداية المشروطة، وسعى لتعزيز المشروطة، لكن بعد فترة، عندما أدرك انحرافات المشروطيّين، بما في ذلك استقراضهم من الدول الأجنبية، بدأ بمعارضتهم[٣]، ولذلك وُضع على القائمة السوداء[٤].

كان حاج آقا شيرازي، السيد محمد صادق طباطبائي، والسيد حسن مدرس أيضًا على القائمة السوداء[٥].

الشيخ محمد باقر اصطهباناتي

هو من بين الذين استُشهدوا في شيراز على يد عملاء الاستعمار بسبب مواجهته للبريطانيين وسياساتهم الاستعمارية والمشروطيّين المنحرفين. كان من تلامذة ميرزا الشيرازي البارزين، ومن أتباع ذلك الرجل العظيم في مكافحة الاستعمار والسعي نحو الحرية[٦].

---

١. ملك زاده، مهدي تاريخ انقلاب مشروطيت ايران، ج ٦، ص ١٣٣٦.

٢. سردار جنگل، ص ٤٤٥. وبالإضافة إلى هؤلاء، هناك علماء ومجتهدون آخرون تم اغتيالهم بتهمة الرجعية والاستبداد على يد مجموعاتٍ مسلّحةٍ حزبية، والتي يتطلب استعراضها مجالاً آخر. انظر: حُرزّ الدين، معارف الرجال، ج ١، ص ٢٧٩؛ كسروي، تاريخ هجده ساله آذربايجان، ص ٣٣٠.

٣. أيرج أفشار، اسناد مشروطيت، مستشار الدولة، ج ٢، ص ٣٢٩.

٤. سينا واحد، قيام گوهرشاد، ص ٨٩.

٥. مجموعة مؤلفين، تاريخ معاصر ايران، ج ١، ص ١٥٠.

٦. تهراني، آقا بزرگ، نقباء البشر، ج ٢، ص ٢١٢.

السيد أحمد دشتكي

كان من أتباع السيد عبد الحسين لاري ومن معارضي هيمنة بريطانيا في الجنوب، وقد استُشهد بشكلٍ مروعٍ على يد عملاء الإنجليز.

كانت أسرة قوام الملك من بين أكثر العوامل نفوذًا وقوة لبريطانيا في جنوب إيران، وكانت تلك الدولة تنفذ أهدافها السياسية والعسكرية من خلال هؤلاء الحكام. ارتكبت أسرة قوام خلال فترة الثورة المشروطة والحرب العالمية الأولى جرائم كبيرةً في دعمها للاستعمار، واستشهد العديد من العلماء وزعماء العشائر الأحرار في الجنوب على أيديهم.

لعب قوام الملك دورًا مهمًا في قضية تشكيل شرطة الجنوب وقمع انتفاضة العشائر ضد الإنجليز. بحسب قول عبد الحسين ميرزا، أحد أصدقاء قوام :«خدمة قوام الملك لحكومة إنجلترا أوضح من الشمس». وبحسب الدكتور محمد مصدق: «كان الحاكم وقوام في شيراز يتلقيان من القنصل الإنجليزي مائة لك روبية، التي كانت في ذلك الوقت تعادل ثلاثة ملايين تومان، للمصاريف التي كانوا يزعمونها»[١].

وبحجة الثأر لمقتل رئيس المستبدين في شيراز، قام عملاء قوام باغتيال حجة الإسلام الشيخ محمد باقر والسيد أحمد دشتكي بأبشع الطرق. بعد استشهاد السيد، أحرقوا جثمانه ودفنوه في بئر قلعة بندر، ونهبوا منازل الأحرار[٢].

ثقة الإسلام التبريزي

كان ميرزا علي آقا من العلماء الفاضلين في منطقة أذربيجان، ولعب دورًا مؤثرًا في تحريض وتعبئة أهالي تبريز ضد الاستبداد.

كان الشيخ يريد مشروطة تُبنى على الإسلام ومذهب جعفر الصادق (ع)، وتحرّر المظلومين من استعباد الظالمين [٣].

كان ثقة الإسلام يكره المتغرّبين مثل تقي زاده، الذين أصبحوا نوابًا عن تبريز دون أنْ يروا تبريز، وكان ينبه الناس إلى انحرافاتهم. كان يرى اليد الخفية لإنجلترا وراء العديد من قادة المشروطة مثل

١. مجموعة مؤلفين، ظهور وسقوط سلطنت پهلوى، ج ٢، ص ٤٨٥ و٤٨٦.

٢. سيرى در افكار ومبارزات سيد عبدالحسين لارى، ص ٦٢ إلى ٦٣.

٣. المصدر السابق، ص ٦٢ إلى ٦٣.

تقي زاده وآخرين، وأنّهم يدفعونهم للأمام. من وجهة نظر ثقة الإسلام، كانت حكومة روسيا أداة بيد إنجلترا، وكانت حكومة بريطانيا تعادي نهضة إيران بقدر ما تفعل حكومة القيصر. وكانت حكومة إنجلترا تنفذ برامجها من خلال الروس: «روسيا ليست إلّا أداة في يد إنجلترا. كلّ ما تقوله، تفعله هي أيضًا. عجلة السياسة في يد إنجلترا، وهي التي تدبر كلّ هذه الأمور. ألا تذكرون أنني كتبت لكم قبل رمضان أنّ الحوت والدب قد التصقا بأطراف الأمة، وأنّ الديدان قد دخلت في جسد الأمة، والناس مجموعة يتفرجون، وطائفة تهزأ، وطائفة تضع أصابعها على أنوفها من العفن، وجماعة يقفون بعيدًا ويبكون، كلا. لا أعلم لماذا لا يُذكر الأشخاص الذين يدعمون إنجلترا ويحبون روسيا على الألسنة»[١].

تعرّض ثقة الإسلام لغضب العملاء الأجانب بسبب نضاله ضد الاستبداد وكشفه لعوامل روسيا وإنجلترا. قام الديمقراطيون بتشويه شخصيته، فقد سعى تقي زاده في تهميش مكانته ونفوذه، وأشاع أنصار تقي زاده أنّه معارضٌ للمشروطة ويهدف إلى الفتنة، وكانوا يراسلون علماء النجف لتشويه سمعته لديهم[٢].

استُشهد ذلك الرجل العظيم في عاشوراء عام ١٣٣٠هـ، مع مجموعةٍ من العلماء، على يد الجيش الروسي المحتل. اكتفى السفير البريطاني، الذي كان راضيًا في قلبه عن فعل الروس، بعد هذه الحادثة بإبداء الأسف وقال: «أعتقد أنّه لو لم يُحكم على ثقة الإسلام بالإعدام، لكان ذلك أكثر فائدة سياسية، وحكومة روسيا مثل بريطانيا العظمى لديها رعايا مسلمون، وأخشى أنْ يؤثّر قتله على مشاعر رعايانا المسلمين»[٣].

السيد حسن المدرّس

كان الشهيد المدرّس من شهداء طريق الحرية والاستقلال والعزة الإسلامية الآخرين، الذي نجح خلال فترة تمثيله في المجلس، بحكمته وعزمه الراسخ في إقرار قوانين تعزز العزة والفعالية. كان عقبةً كبيرةً أمام إبرام العقود الاستعمارية، فقد تم إحباط العقد المشين لعام ١٩١٩ بجهوده.

بعد يأس عملاء بريطانيا من التفاهم مع هذا السياسي الورع، سعوا لاغتياله. وعلى الرغم من

١. المصدر السابق، ص ٣٨٣.

٢. أيرج أفشار، اسناد مشروطيت، مستشار الدولة، ج ٢، ص ٢٩٨.

٣. بشيري، احمد، كتاب آبى: گزارش‌هاى محرمانه وزارت امور خارجه انگليس درباره انقلاب مشروطه ايران، ج ٧، ص ١٥١٣.

أنّه كان على القائمة السوداء للجنة السرية للمجازاة، فإنّ القرعة وقعت على مجرمٍ آخر، وفي النهاية استُشهد على يد رضا خان.

يُروى أنّه بعد تعرّضه لهجوم في طريق مدرسة (سپهسالار)، وبينما كان يمسك بيده التي تنزف، قال: «أراد الإنجليز أنْ يحققوا غايتهم بقتلي، لكن الله لم يشأ». وعندما خضع لعملية لاستخراج الرصاص في المستشفى، قال: «الإنجليز يرتكبون خطأً؛ لا يعلمون أنّ الجريمة لا تؤدّي إلى النصر والنجاح.» وقال أيضًا: «الإنجليز يخسرون في إيران أينما ذهبوا؛ لأنّ سياستهم في إيران ليست مبنيةً على العقل والعدالة والإنصاف، فهم محكومٌ عليهم دائمًا بالفشل وعدم النجاح» [١].

سعت بريطانيا، بإبعاد رجال الدين الأصيلين عن الساحة السياسية، إلى إدخال عملائها وتعيينهم في مناصب السلطة بطرق خاصّة. كانت إنجلترا تتصرّف بذكاء في اختيار الأفراد، وأحيانًا كانت تستغرق سنواتٍ لإعداد الشخص المرغوب، وبحسب تعبير الشهيد المدرس في منفاه في خواف: «يعمل الإنجليز الآن على القطعة التي ستحكم في هذا البلد بعد عشرين سنة» [٢].

بالإضافة إلى جذب العديد من المثقفين والحداثيين، نجحت تلك بريطانيا في استمالة بعض رجال الدين، واستخدمت علمهم ومكانتهم الدينية لمحاربة الدين والعلماء المجاهدين. كتب ريبو ترجي في وصيته، بعد التحدث بسوء عن رجال الدين، ما يلي: «أعترف بأنّ هناك بين رجال الدين الإيرانيين أفرادًا شرفاء ومحبّين لوطنهم، وقد تشرّفت بصداقتهم ومرافقتهم، لكن لا يمكن عدّ هؤلاء القلّة نموذجًا حقيقيًا للمجتمع الديني في إيران»[٣].

المقصود بالأفراد الشرفاء أشخاص مثل: تقي زاده، والسيد حسن إمامي، والسيد يعقوب أنوار، ويحيى دولت آبادي، والشيخ إبراهيم زنجاني، وغيرهم، الذين جاؤوا لمحاربة الإسلام المحمدي بسلاح العلم والدين، وفي النهاية، بعد انتهاء مهمتهم، خلع بعضهم لباس التظاهر وتماهوا مع أسيادهم، وواجهوا الناس علانية. هؤلاء، الذين كانوا من الزملاء القدامى للعلماء الأحرار، أظهروا شدةً وحماسةً أكثر من الآخرين في عملهم. كانوا يعرفون الحوزة ونقاط ضعفها جيدًا، وكانوا قادرين على استغلال هذه المعرفة بشكلٍ جيد. كانت استراتيجيات العلماء مألوفة لديهم، وكانوا يعرفون حساسية الجماهير، وبإظهار أنفسهم كثوريين، تمكّنوا من تفكيك جبهة العلماء الحقيقيين.

١. باقي، عبد العلي، مدرس مجاهدي شكست ناپذير، ص ٢٥٧.

٢. المصدر السابق، ص ١٨٦.

٣. مجموعة مؤلفين، ظهور وسقوط سلطنت پهلوى، ج ٢، ص ١٥٠.

يمكن عدّ تقي زاده نموذجًا للقطع الإنجليزية، بوجوده الطويل في ساحة السلطة، فقد مهّد الطريق لدخول الثقافة والسياسات الإنجليزية، وكان يعارض إسلامية القوانين وحضور العلماء في الساحة الحكومية من خلال الترويج لفصل الدين عن السياسة. خلال سقوط المجلس، ذهب مع عددٍ من زملائه إلى السفارة الإنجليزية، وبمساعدتهم نُقل إلى أوروبا. هناك، قرّب علاقته بالإنجليز وصادق زعماء البهائيين[١]، وبعد هزيمة محمد علي شاه، عاد إلى إيران وسعى مع حزب الديمقراطيين للسيطرة على المجلس وتصفية معارضي نهجه. على الرغم من أنّ جهود علماء النجف أبعدته عن إيران لعدة سنوات، إلّا أنّه عاد في النهاية إلى إيران وأصبح نائبًا في المجلس.

وبنفوذه الخطابي ومعرفته الواسعة بالسياسة والمجتمع، والثقة التي كانت إنجلترا تمنحها له، كان ذراعًا فعالاً للحكومة؛ يقول: «كما يعلم الكثيرون، ألقيتُ أول قنبلة استسلام للحضارة الغربية قبل أربعين سنة بلا تردد، والذي ربما كان يُعدّ تطرفًا في ظلّ مقتضيات وأوضاع ذلك الزمان، وبدلاً من تعبير (الأخذ بالحضارة الغربية)، اعتبرتُ من الواجب أنْ نصبح غربيين تمامًا، ظاهريًا وباطنيًا، جسديًا وروحيًا»[٢].

على الرغم من أنّ تقي زاده في أواخر حياته انتقد بعض معتقداته السابقة، إلّا أنّ أداءه العام كان انعكاسًا لفكره الأولي. خلال قضية كشف الحجاب، انضمت زوجته إلى تيار المجتمع، وكان يعدّ اتباع أوامر البلاط البهلوي سر التقدم[٣]. وقد اتبع باقي المتظاهرين بزي رجال الدين المرتبطين النهج نفسه.

لحسن الحظ، لم يعترف المجتمع الإسلامي بهؤلاء الأشخاص كرجال دين قط، ولم يحكم التاريخ عليهم كممثلين للحوزة، بل عدّهم منذ البداية أفرادًا ارتدوا رداء الدين نفاقًا وتظاهروا بالعلم رياءً.

إنّ مقارنة وجهات نظر ومواقف العلماء الدينيين وبريطانيا في المشروطة تظهر خطّين لا يمكن التوفيق بينهما. كانت بريطانيا، تحت غطاء الديمقراطية والحرية الزائفة، تسعى وراء مصالحها غير المشروعة واستغلال الشعب الإيراني، ولم تكن تعدّ الحرية الحقيقية والاستقلال الوطني والاقتصادي والدين شيئًا، ولم تكن تعرف حدودًا في النهب ونقض العهود.

١. مجلة يادگار، السنة ٥، الأعداد ٦ و٧، ص ١٢٩.

٢. تقى زاده، مقالات، ج٤، ص ١٨٥.

٣. المصدر السابق، ص ٢١٨؛ مهدي بامداد، شرح حال رجال إيران، ج ٥، ص ٦٥.

وكان ما يظهر في مجموعة شعارات وأداء العلماء (من كلا التيارين المشروط والضد مشروط) هو العدالة، والاستقلال الوطني والاقتصادي، وإحياء القيم الدينية.

لا شك في أنّ تصادم هاتين الرؤيتين المتباينتين كان لا بد أنْ يؤدّي إلى قضايا مؤسفة. كان التكفير والتهديد والنفي وقتل العلماء مثل ثقة الإسلام، نوري، بهبهاني، لاري، والمدرس، نتيجة لمواقف العلماء التي لا تقبل التنازل أمام بريطانيا.

المصادر

١. إبراهيم صفائي، اسناد سياسی دوره قاجاريه، انتشارات بابك، ط١، إيران- طهران، ١٣٥٥ش.
٢. إبراهيم صفائي، رهبران مشروطه، انتشارات جاويدان، إيران- طهران، ط٣، ١٣٦٣ش.
٣. إبراهيم فخرائي، گيلان در جنبش مشروطيت، انتشارات وآموزش انقلاب إسلامي، ط١، إيران- طهران، ١٣٩٨ش.
٤. أحمد بشيری، كتاب آبی گزارش‌های محرمانه وزارت امور خارجه انگليس درباره انقلاب مشروطه إيران، نشر نو، ط٢، إيران- طهران، ١٣٦٣ش.
٥. أحمد كسروي، تاريخ مشروطه إيران، انتشارات أمير كبير، ط١، إيران- طهران، ١٩٧٦ش.
٦. أحمد كسروي، تاريخ هجده ساله آذربايجان، انتشارات أمير كبير، ط١، إيران-طهران، ١٣٣٦ش.
٧. آدميت، ايدئولوژی نهضت مشروطيت، انتشارات روشنگران، ط١، إيران- طهران، ١٣٨٨ش.
٨. اريج افشار، علي خان قاجار، خاطرات واسناد ظهير الدوله، انتشارات زرين، إيران- طهران، ط٢، ١٣٦٧ش.
٩. آقا بزرگ تهراني، نقباء البشر في القرن الرابع عشر، دار المرتضى للنشر، إيران- مشهد المقدسة، ط١، ١٤٠٤ه.
١٠. أيرج أفشار، اسناد مشروطيت، مستشار الدولة، كتاب خانه ستاره، ط١، إيران-طهران، ١٣٦٢ش.
١١. بيتر آوي، تاريخ معاصر إيران، ترجمة محمد رفيعي مهرآبادي، اتشارات عطائي، ط١، إيران-طهران، ١٣٣٢ش.
١٢. تركمان، محمد، اسنادي درباره هجوم انگليس وروس به ايران (١٢٨٧ تا ١٢٩١ ه.ش.)، وزارت امور خارجه، دفتر مطالعات سياسی وبين المللی، إيران-طهران، ط١، ١٣٧٠ش.
١٣. تقی زاده، اوراق تازه ياب مشروطيت، انتشارات بدرقه جاويدان، ط١، إيران-طهران، ١٣٥٩ش.
١٤. جواهر لعل نهرو، زندگی من، ترجمة محمود تفضلي، انتشارات أمير كبير، ط٤، إيران-طهران، ١٣٦١ش.
١٥. حامد الگار، دين ودولت در إيران، ترجمة أبو القاسم سري، انتشارات توس، إيران- مشهد المقدسة، ط٤، ١٣٩٦ ش.
١٦. حسين فردوست وعبد الله شهبازی، ظهور وسقوط سلطنت پهلوی. انتشارات اطلاعات، إيران- طهران، ط١، ١٣٩٧ش.
١٧. حسين مكي، مدرس قهرمان آزادي، بنگاه ترجمه ونشر كتاب، إيران- طهران، ط١، ١٣٥٨ش.
١٨. خان ملك ساساني، دست پنهان سياست انگليس در إيران، انتشارات بابك، إيران- طهران، ط١، ١٣٦٢ش.
١٩. سردنيس رايت، انگليسی‌ها در ميان ايرانيان، ترجمة: لطف علي، انتشارات أمير كبير، ط١، ١٣٥٩ ش.

٢٠. السيد محمد تقي آيت اللهي، ولايت فقيه... سيرى در افكار ومبارزات سيد عبد الحسين لارى، انتشارات أمير كبير، إيران- طهران، ط١، ١٣٦٣ش.
٢١. السير ريدر بولارد، نامه‌هاى خصوصي وگزارش‌هاى محرمانه سفير كبير انگلستان در إيران، ترجمة غلام حسين ميرزا صالح، نشر طرح نو، ط١، ١٣٧١ش.
٢٢. سينا واحد، قيام گوهرشاد، انتشارات إرشاد، إيران- طهران، ط٤، ١٣٦٦ش.
٢٣. صحيفه نور، مجموعة إرشادات الإمام الخميني، وزارة الإرشاد.
٢٤. صدر واثقي، سيد جمال الدين اسدآبادى پايه‌گذار نهضت‌هاى اسلامى، انتشارات پيام، ط٢، ١٣٥٥ش.
٢٥. عبد العلي باقي، مدرس مجاهدي شكست ناپذير، نشر تفكر، إيران- طهران، ط١، ١٣٧٠ش.
٢٦. عبد الله مستوفي، شرح زندگاني من، انتشارات زوار طهران، إيران- طهران، ط٧، ١٣٩٩ش.
٢٧. عبد الهادي حائري، ايران وجهان إسلام، انتشارات آستان قدس، إيران- مشهد المقدسة، ط١، ١٣٩٤ش.
٢٨. العلامة أميني، شهداء الفضيلة، دار الوفاء للطباعة والنشر، لبنان- بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
٢٩. كرماني، ناظم الإسلام، تاريخ بيدارى ايرانيان، انتشارات أمير كبير، إيران- طهران، ط١، ١٤٠٢هـ.
٣٠. مجيد كفائي، مرگي در نور: زندگي آخوند خراساني، انتشارات زوار، إيران- طهران، ط١، ١٣٥٩ش.
٣١. محمد تركمان، مجموعه‌اي از مكتوبات... شيخ فضل الله نوري در مشروطيت، مؤسسة خدمات فرهنگي رسا، إيران- طهران، ط١، ١٣٦٢ش.
٣٢. محمد حسين حرز الدين، معارف الرجال، انتشارات آية الله المرعشي، إيران- قم المقدسة، ط١،١٤٠٥ش.
٣٣. محمد مهدي شريف كاشاني، واقعات اتفاقيه در روزگار، إيران- طهران، ط١، ١٣٦٢ش.
٣٤. مدير حلاج، نهضت ايران يا تاريخ مشروطيت ايران، بنگاه مطبوعاتي افشاري، إيران-طهران، ط١، ١٣٤٠ش.
٣٥. معاصر، حسن، تاريخ استقرار مشروطيت، انتشارات ابن سينا، إيران- طهران، ط١، ١٣٥٣ش.
٣٦. منصوره اتحاديه ومعصومه نظام، خاطرات واسناد حسين قلى خان نظام السلطنه مافي، نشر تاريخ إيران، ط١، ١٣٨٦ش.
٣٧. مهدي بامداد، شرح حال رجال ايران، انتشارات زوار، إيران- طهران، ط٣، ١٣٥٧ش.
٣٨. مهدي ملك زاده، تاريخ انقلاب مشروطيت إيران، انتشارات سخن، إيران- طهران، ط١، ١٣٨٧ش.

٣٩. موسى نجفي، انديشه سياسى وتاريخ نهضت بيدارگرانه حاج آقا نورالله اصفهاني، موسسه مطالعات تاريخ معاصر إيران، إيران- طهران، ط٤، ١٣٩١ش.
٤٠. موسى نجفي، حكم نافذ آقانجفي، موسسه مطالعات تاريخ معاصر إيران، إيران- طهران، ط١، ١٣٧١ش.
٤١. محمد مهدي، كاشاني، واقعات اتفاقيه، انتشارات تاريخ إيران، ايران- طهران، ط١، ١٣٦٢ش.
٤٢. موسى نجفى وموسى فقيه حقانى، تاريخ معاصر إيران، انتشارات ارما، ط١، إيران-طهران، ١٣٩٧ه.
٤٣. يحيى دولت آبادي، حيات يحيى، انتشارات باهم، إيران- طهران، ط٢، ١٤٠٢ش.

إرهاصات الاحتلال البريطاني للعراق

الأستاذ الدكتور ياسين شهاب شكري[1]

الملخّص

اهتمت بريطانيا بموقع العراق والرغبة في السيطرة على إمكاناته منذ وقت مبكّر امتد لأكثر من قرنٍ ونصفٍ من الزمان قبل احتلالها المباشر له عام ١٩١٤م، حيث بدأ الاهتمام من حيث الاستفادة من الموقع الاستراتيجي الرابط بين الخليج من جهة والبحر المتوسط من جهة أخرى، والإمكانات الاقتصادية المتوفرة فيه من الملاحة والنقل والتجارة في أنهار العراق، وكذلك المواصلات وخطوط التلغراف، وتبني مشاريع لمد سكك الحديد التي تربط المصالح البريطانية في الهند والشرق الاقصى بأوربا.

وهذه المصالح تقاطعت مع الوجود العثماني في العراق، ومن منافسات الدول الاخرى مثل: ألمانيا، وهذا ما دفع بريطانيا إلى وضع الخطط والتمهيد لغزو العراق منذ مطلع القرن العشرين، وتكللت الظروف عند قيام الحرب العالمية الأولى ودخول العثمانيين الحرب، فتم التحرك البريطاني لاحتلال العراق عبر حملةٍ عسكريةٍ انطلقت من الهند باتجاه الخليج، ومن ثم نحو أقصى جنوب العراق، غير أنّ القوات البريطانية احتاجت إلى أربع سنواتٍ لاستكمال السيطرة على جميع مناطق العراق، بسبب المقاومة الشعبية الملبية لفتاوى الجهاد الصادرة من المرجعية الدينية.

الكلمات المفتاحية: الاحتلال البريطاني، درة التاج البريطاني، سكة حديد وادي الفرات، النفوذ الألماني، الدولة العثمانية.

---

١. رئيس قسم التاريخ / كليّة الآداب / جامعة الكوفة.

المبحث الأوّل: الاكتشاف البريطاني لأهمية العراق والتغلغل السلمي فيه

اهتمت بريطانيا ــ التي كان يطلق عليها إنكلترا (حتى القرن الثامن عشر الميلادي) ــ منذ وقتٍ مبكّرٍ في الوصول إلى الشرق بحثًا عن التجارة، خاصة بعد تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠٠م ، ولئن كان العراق قد زاره العديد من الرحالة الإنكليز وهم في طريقهم إلى الهند وبلاد فارس، ودونوا ما شاهدوه عن مدنه ومناطقه أمثال: جون نيو بري (١٥٨٣م)، وراف فتش (١٥٨٣م)، وجون إيلدرد (١٥٨٣م)، والأخوين شيرلي (١٥٨٩م)، وتوماس هربرت (١٦٢٨م) ...الخ[١]، إلا أنّ اكتشاف أهمية موقع العراق جاء بمحض الصدفة لحادثةٍ حدثت في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي أثناء قيام حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣م) في أوربا، إذ كان الخليج يشهد تنافسًا كبيرًا بين الفرنسيين والبريطانيين، ووصلت أخبار الحرب إلى الفرنسيين أولاً عن طريق رسائل القناصل الفرنسيين من طريق حلب – بصرة للقوافل التجارية بعد خمسة أشهر من قيامها، فقامت السفن الفرنسية بهاجمة ميناء بندر عباس حيث مقر شركة الهند الشرقية البريطانية، وتم الاستيلاء على المقرّ بعد حرق عددٍ من السفن الإنكليزية، في الوقت الذي تأخّر وصول أخبار الحرب إلى الإنكليز عن طريق رأس الرجاء الصالح بالدوران حول أفريقيا بعد سنة كاملة[٢]، ومن هنا تنبه الإنكليز إلى ضرورة زيادة النفوذ التجاري والسياسي في شمال الخليج وتحديدًا في البصرة والعراق، إذ قامت الشركة بنقل مقرّها التجاري في الخليج من بندر عباس إلى البصرة عام ١٧٦٣م، ومن هنا بدأ العراق يكتسب أهميةً كبيرةً لدى البريطانيين ومحاولاتهم للتغلغل الاقتصادي والسياسي فيه.

أولت بريطانيا اهتمامًا أكبر في زيادة نفوذها في العراق في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلاديين نتيجة للحملة الفرنسية على مصر(١٧٩٨-١٨٠١م)، إذ توقّع الإنكليز أنّ هدف الحملة هو التوجّه بعد مصر نحو الهند، ورشحوا أنْ يكون ذاك من طرقٍ متعددةٍ أهمها

١. علاوي، حسين كريم، مدينة بغداد في كتابات الرحالة الأجانب، ص ١٩-٢٣.

٢. ويلسون، سير أرنولد، تاريخ الخليج، ص٩٦؛ عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي، ص٨٧-٨٨.

وأيسرها طريق العراق عبر بادية الشام نزولاً إلى بغداد، ثم البصرة، والخليج، وإلى الهند[١]، ولغرض مواجهة هذا الاحتمال قامت بريطانيا بنقل المقيمية التابعة لها من البصرة إلى بغداد؛ لتكون قريبةً من مركز قرار الحكم، ومراقبة التطورات التي تحدث في المنطقة، واحتمالية تعاون حكومة المماليك في بغداد مع الفرنسيين، حتى زوال الخطر الفرنسي على المصالح البريطانية بعد فشل الحملة على مصر عام ١٨٠١م وخروجهم منها[٢].

ازداد التمثيل السياسي البريطاني في العراق خلال القرن التاسع عشر من خلال وجود مقيميتين بريطانيتين إحداها في البصرة والأخرى في بغداد، والمقيمية البريطانية في بغداد كانت متربطةً بقسم الشؤون الخارجية في حكومة الهند من جهة، وكذلك بوزارة الخارجية البريطانية عبر السفير البريطاني في إسطنبول[٣]، كما تم تأسيس وكالة قنصلية في الموصل عام ١٨٣٩م تحت إشراف القنصل البريطاني العام في بغداد لحماية المصالح البريطانية الاقتصادية والدينية من خلال النشاط البريطاني في الأوساط المسيحية هناك، وأوجدت بريطانيا في كربلاء وكيلاً أو ممثلاً لها منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بهدف رعاية مصالح رعايا من المسلمين الهنود الزائرين[٤]، وقد تولّى إدارة تلك الوكالة بعض الرعايا من الهنود أو الأفغان أمثال: الميرزا محمد حسن محسن الأفغاني خلال المدة (١٩٠٣-١٩١٤م)[٥].

بدأ التوجّه البريطاني نحو العراق خلال القرن التاسع عشر يأخذ طابع المصالح الاقتصادية، بسبب أهمية العراق كموقعٍ استراتيجيّ وما فيه من إمكاناتٍ اقتصاديةٍ كبيرةٍ، حيث عملت بريطانيا على توقيع اتفاقيةٍ مع الدولة العثمانية عام ١٨٠٩م، ضمنت فيها ترجيح بريطانيا على بقية الدول الأوربية من حيث الامتيازات التجارية بحيث إنّها كانت تدفع رسوم ٣٪ فقط عن التجارة الإنكليزية في أراضي الدولة العثمانية ومنها العراق، ولعب المقيم البريطاني الدبلوماسي في بغداد كلوديوس

١. النجار، مصطفى وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص٢٢.

٢. العابد، صالح محمد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨-١٨١٠، ص٣٣-٤٤.

٣. صالح خضر محمد، الدبلوماسيون البريطانيون في العراق ١٨٣١-١٩١٤م، ص٧٨.

٤. ج.ج لوريمر، دليل الخليج، ج٤، ص٢٠٨٢.

٥. المصدر السابق، ص٢٣٣٨.

جيمس ريج (Claudius James Rich) دورًا كبيرًا في زيادة المصالح البريطانية التجارية في العراق، خاصة وأنّه كان قد عمل قنصلاً لفترةٍ طويلةٍ من الزمن خلال المدة (١٨٠٨- ١٨٢١م)[١]، ويبدو أنّ النفوذ البريطاني في العراق تعدى المصالح الاقتصادية إلى التدخل في شؤون الحكم من قبل المقيم البريطاني المذكور، وكاد الأمر أنْ يحدث مواجهة عسكرية بين حراس المقيمية البريطانية وبين والي بغداد داوود باشا(١٨١٧-١٨٣١م)، لولا تراجع الأخير بسبب خشيته من تعاظم المشكلة مع بريطانيا[٢].

كانت الدولة العثمانية تسيطر على العراق بشكلٍ غير مباشرٍ من خلال وجود حكم المماليك في بغداد طيلة المدة (١٧٥٠-١٨٣١م)، ثم وجدت الدولة في ضرورة إنهاء هذا الحكم والسيطرة المباشرة على العراق، فتم إرسال حملةٍ عسكريةٍ بقيادة والي حلب علي رضا باشا اللازر، فيما ضغط السفير البريطاني في استانبول من أجل التريث في تحرك العثمانيين، ويبدو أنّ هدف البريطانيين كان الخشية من تعرض مصالحهم السياسية والاقتصادية في العراق إلى الخطر في حال عودة السلطة المركزية العثمانية المباشرة إلى العراق، إلا أنّ قائد الحملة كان قد تعهّد لهم بالمحافظة على مصالحهم فيها، وقد تمكّنت الحملة من السيطرة على بغداد عام ١٨٣١م[٣].

وفي الثلاثينيّات من القرن التاسع عشر الميلادي ظهرت بوادر التوجّه البريطاني نحو الاستفادة من موقع العراق في أعمال النقل والتجارة عبر إيجاد طريقٍ يربط بين الشرق والغرب يمرّ إما بمصر وإمّا بالعراق، وبدأ التفكير من قبل شركة الهند الشرقية الإنكليزية بالملاحة في نهري دجلة والفرات، ولهذا الغرض تم إرسال بعثةٍ إنكليزيةٍ عام ١٨٣٠م بقيادة الضابط الإنكليزي جسني (Chesney)، الذي قام بمسح المنطقة في رحلته من أعالي نهر الفرات في الشام نزولاً إلى الفلوجة وبغداد والبصرة خلال المدة ١٨٣٠-١٨٣١م، جمع فيها معلوماتٍ واسعةً وخرائط مفيدةً عرضها على المسؤولين في لندن عام ١٨٣٢م، ذكر فيها بأنّ هناك صعوباتٍ تمنع الملاحة فيه من احتمالية

١. المصدر السابق، ص١٩٤٨-١٩٥١.

٢. المصدر السابق، ص ١٩٥٢- ١٩٥٧

٣. شكري، ياسين شهاب، المرجع في تاريخ العراق الحديث، ص١٤١-١٤٢.

مهاجمة العشائر للسفن، وأنّه من الضروري استرضاؤها القبائل[١]، عاد جسني بعدها من جديدٍ إلى العراق عام ١٨٣٤م، وبطلبٍ من الحكومة البريطانية لغرض دراسة الملاحة في نهر الفرات من جديد، وبيان مدى إمكانية الاستفادة منه في فتح طريقٍ سريعٍ إلى الهند ولتنمية التبادل التجاري، ونقل البريد بين بريطانيا والهند، إذ عمل في النهر عام ١٨٣٥م، طيلة ثلاث سنواتٍ أخرى، وتوصل إلى نتيجةٍ مفادها فشل الملاحة في الفرات لوجود الموانع الطبيعية، كما جرت محاولاتٌ أخرى للبحث في الملاحة في نهر دجلة غير أنّ النهر كان أصعب من الفرات[٢].

وبالرغم من تقارير بعثة جسني المخيبة للآمال فإنّ مشروع الملاحة في نهر الفرات ظلّ يراود البريطانيين، ففي عام ١٨٦١م، تم تأسيس أوّل شركةٍ تجاريةٍ بريطانيةٍ في العراق وهي شركة لنج (Lynch)، التي قامت بأبحاثٍ في الملاحة ونقل في نهر الفرات، وبدأت نشاطها التجاري فيها عام ١٨٦٢م، من خلال عددٍ من السفن التجارية التي كانت تعمل في النهر لنقل السلع والبضائع من البصرة إلى بغداد، ومن هناك يتم نقلها إلى حلب برًا، غير أنّ سفن الشركة كانت تواجه صعوبات في النقل والتجارة، خاصة ما تعلق منها بهجمات العشائر الموجودة على ضفتي النهر في حالة عدم دفع الإتاوات من قبل السفن[٣].

ولم يكن الاهتمام البريطاني بالعراق منصبًا فقط على الملاحة والتجارة في أنهار العراق، وإنّما القيام بمشروع فتح المكاتب البريدية في مدن العراق، حيث تولت بواخر شركة لنج بموجب الاتفاقية التي تم التوقيع عليها مع الحكومة العثمانية سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م على نقل البريد الذي يأتي من الهند إلى البصرة إلى بغداد ومنها إلى أوربا[٤]، وقد افتتحت بريطانيا عام ١٨٦٨م مكتبين بريديين، الأول في البصرة، والثاني في بغداد[٥].

كما اهتمت بريطانيا بإنشاء خطوط التلغراف في العراق من أجل ربط بريطانيا بمستعمراتها في الهند،

١. عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، ص٦٩-٧٠.

٢. نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث من نهاية داوود باشا إلى نهاية مدحت باشا، ص ٢٤٨-٢٦٣.

٣. القهواتي، حسين محمد، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩-١٩١٤، ص٩٣.

٤. يوسف رزق الله غنيمة، تجارة العراق قديماً وحديثاً، ص٨٤؛ لوريمر، المصدر السابق، القسم التاريخي، ج١، ص٣٧٧.

٥. لوريمر، المصدر السابق، ج٦، ص٣٥٣٢

خاصة بعد قيام ثورة الهندوس ضد الاستعمار البريطاني في الهند عام ١٨٥٧م، وشعور بريطانيا بأهمية إقامة خطوط اتصالاتٍ سريعةٍ مع مستعمراتها في الهند عبر آسيا الصغرى والعراق وفارس والخليج، فتمّ مدّ تلك الخطوط بعد حصول الإنكليز على موافقة الدولة العثمانية عام ١٨٦١م، وجرى افتتاح الخط البرقي الممتد بين بغداد وإسطنبول في عام ١٨٦١م، كما جرى اتفاقٌ بين الدولتين عام ١٨٦٣م، تعهدت فيه بريطانيا على مد خطين للتلغراف فوق الأراضي العراقية على نفقتها الخاصة، الخطّ الأول يمتد بين بغداد وخانقين، ومنها إلى كرمنشاه وطهران، ثم إلى ميناء بوشهر على الخليج حيث ترتبط بخطوط الاتصال البرقي مع الهند، وجرى افتتاحه عام ١٨٦٤م، أما الخطّ الثاني فيمتد بين البصرة إلى القرنة ليتفرع منها إلى فرعين، يمتدّ الأول من القرنة إلى بغداد عبر مدن دجلة ليرتبط بخطٍّ آخر عبر كركوك وأربيل ونصيبين وماردين وديار بكر، ثم إلى إسطنبول، والخط الآخر من القرنة إلى بغداد عبر مدن الفرات، ماراً بسوق الشيوخ والسماوة والديوانية[١].

وفي مجال مدّ خطوط السكك الحديدية، فإنّ الإنكليز حاولوا الاستفادة من موقع العراق من خلال طرح فكرة مدّ سكك الحديد عبر أراضيه للربط بين أوربا من جهة، وبين الهند والشرق الأقصى من جهةٍ أخرى عبر سلسلةٍ من الخطوط الممتدّة من مناطق شبه القارة الهندية المستعمرة البريطانية الأكبر في العالم، التي كان يطلق عليها (درة التاج البريطاني)، ومنها نحو الخليج مرورًا بالعراق وبلاد الشام وسواحل البحر المتوسط، ومن ثم النقل بحرًا إلى أوربا، وصولاً إلى بريطانيا بمسافة تصل إلى أكثر من ستة إلاف ميل، وفقًا للخريطة التالية:

(خريطة توضح المشروع البريطاني للنقل بين الهند وبريطانيا مرورًا بالعراق)[٢].

١. المصدر السابق، القسم الجغرافي، ج٣، ص ص١٠٣٤-١٠٣٥.

2. Baron k Von Kohenfield, The Strategical Importance of The Euphrates Valley Railway, (London: 1873).

Rough Sketch to Illustrate
THE
APPROXIMATE POSITION OF THE STATES
IN
CENTRAL ASIA
Situated between the
BRITISH AND RUSSIAN FRONTIER.
DISTANCES (in Statute miles.)
VIA BRINDISI & THE EUPHRATES.
London to Brindisi ..... 1,465 miles.
Brindisi to Alexandretta ..... 1,189 ,,
Alexandretta to Grain (or Kowait) ... 920 ,,
Grain to Bombay ..... 1,713 ,,
London to Bombay ..... 5,287 ,,
Grain to Kurrachee ..... 1,249 ,,
London to Kurrachee ..... 4,823 ,,
VIA BRINDISI, SUEZ & ADEN.
London to Bombay ..... 6,012 miles.
London to Kurrachee ..... 5,843 ,,
Saving in favor of Bombay via Euphrates route 725 miles.
,, ,, Kurrachee ,, ,, 1,020 ,,
Scale of Statute Miles
RUSSIAN EMPIRE
CHINESE EMPIRE
NORTH SEA.
BALTIC SEA
FRANCE
AUSTRIA
SPAIN
MEDITERRANEAN SEA
BLACK SEA
CASPIAN SEA
PERSIA
AFGHANISTAN
BELOOCHISTAN
HINDOOSTAN
RED SEA
PERSIAN GULF
GULF OF ADEN
ARABIA
BOMBAY
CALCUTTA
MADRAS
CEYLON
Bolan Pass eight marches between Dadar and Quetta.

وتعود بدايات التفكير في إنشاء خط سكة الحديد للنقل التجاري إلى عام ١٨٥٦م، عندما طرح أحد المهندسين الإنكليز ويدعى آندرو (Andraw) ــ وهو من العاملين في سكة الحديد بالهند عام ١٨٥٧م ــ على حكومة بلاده مشروع إنشاء سكة حديدٍ للربط عبر العراق وبلاد الشام، وتم الحصول على التأييد والدعم من الحكومة والبرلمان البريطاني، غير أنّ الشركة عجزت عن البدء بالعمل؛ بسبب عدم توفّر الأموال اللازمة للقيام بذلك، وتم تأجيل المشروع لمدة خمس عشرة سنة، ثم أعيد التفكير به خلال المدة (١٨٧١-١٨٧٢م)، بعد شعور بريطانيا بتضرر مصالحها الاقتصادية نتيجة لافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م، فشكّلت لجنة خاصّة لدراسة المشروع، وقامت باستشارة الخبراء والمهتمين بالمشروع، وقدّمت جميع الآراء والمقترحات الداعمة للفكرة في تقريرٍ مفصّلٍ من سبعين صفحة، وتمت طباعته ونشره في لندن سنة ١٨٧٢م بعنوان (سكة حديد وادي الفرات/The Euphrates Valley Railway)[1]، وفي الوقت ذاته نشر تقريرٌ آخر سنة ١٨٧٣م، كان قد أعدّ منذ سنة ١٨٥٨م بعنوان: (الأهمية الاستراتيجية لسكة حديد وادي الفرات/ The Strategical Importance of The Euphrates Valley Railway)، رُكّز فيه على أهمية هذه الخط لمواجهة تغلغل روسيا القيصرية في الدولة العثمانية، التي ستهدد المصالح البريطانية في المنطقة[2].

تناول التقرير الأوّل (سكة حديد وادي الفرات) أهمية الطريق وضرورة الاستفادة منه لمد سكة حديدٍ تربط أوربا بالهند عبر بادية الشام والعراق، بنحوٍ تكون أكثر أهمية من قناة السويس، كما طرح التقرير الآراء المتعددة حول بداية الطريق، واستقر الرأي بأنْ تبدأ السكة من نقطة أو ميناء ما على البحر المتوسط كالإسكندرونة باتجاه حلب، ومن هناك إلى منطقة مسكنة، إلى دير الزور، وعبر وادي الفرات باتجاه عانة وحديثة، ومنها إلى بغداد، ومن ثم إمكانية تفرع الخط إلى فرعين عبر دجلة والفرات إلى البصرة، مع وجود خطوطٍ فرعيةٍ ترتبط الخطّ من الموصل ومن مندلي باتجاه الحدود الإيرانية، وبين التقرير المعوقات والتكاليف مقابل النتائج الاقتصادية الكبيرة والإيرادات المالية الهائلة في حالة إنجاز الخط وتشغيله، فضلاً عن الاستفادة من موقع العراق وخيراته[3].

أهملت الحكومة البريطانية التقرير لمدة ثلاث سنوات، لكونها كانت تفضّل الاستحواذ على طريق قناة السويس المنجز آنذاك، عبر قيامها بشراء حصة مصر من أسهم قناة السويس سنة ١٨٧٥م

1. William Francis Ainsworth, The Euphrates Valley Railway, (London: 1872).

2. Baron k Von Kohénfield, Op. cit, pp.1522-.

3. Ibid, p.58.

تمهيدًا للسيطرة الكاملة على القناة بدلاً من الذهاب إلى مشروع سكة لا يزال في طور التخطيط والبحث، فظلّ مشروع سكة حديد وادي الفرات حبيس الوثائق والأدراج لدى الحكومة والبرلمان البريطاني حتى سنة ١٩٠٩م، عندما أعيد طرح المشروع من قبل الحكومة من جديد كمحاولة منها لإيجاد طريقٍ منافسٍ لخط سكة (حديد برلين- بغداد) المزمع إنشاؤه من قبل ألمانيا بعد منحها الامتياز من قبل الدولة العثمانية عام ١٩٠٢م، وقيام بريطانيا بإحياء مشروعها القديم لم يكن الهدف منه وجود رغبة حقيقية لإنشائه، وإنّما الضغط على ألمانيا والدولة العثمانية من أجل الوقوف ضد المشروع الألماني، فتحرّكت بريطانيا باتجاه إعادة طرح فكرة مشروع سكّة وادي الفرات، ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الخط البريطاني كان يمتاز بأنّه أقصر من الخط الألماني، وتكاليف إنشائه أقل من الناحية المادية؛ لكونه يمرّ بمناطق منبسطةٍ من حلب إلى بغداد والبصرة، في الوقت الذي كان المشروع الخط الألماني يمرّ بمناطق وعرة في الأناضول حتى الوصول إلى مدينة الموصل، غير أنّ الحكومة البريطانية لم تكن جادةً في طرح المشروع، وإنّما كانت تحاول من خلاله الضغط على الدولة العثمانية وألمانيا للقبول بتسوية ودية لمشروع سكة حديد برلين- بغداد قبيل قيام الحرب العالمية الأولى[1]، وفي الوقت ذاته فإنّ دخول ألمانيا على خط مد النفوذ والمصالح الاقتصادية إلى العراق والمنطقة، دفع ببريطانيا إلى التفكير الجدي في كيفية السيطرة على العراق ولو بالقوة العسكرية.

كانت بريطانيا ترى بأنّ التغلغل السياسي والاقتصادي في العراق سيؤدي حتمًا يومًا ما إلى السيطرة عليه؛ لذا اهتم البريطانيون في إيجاد موطئ قدمٍ لهم في الواقع الاجتماعي العراقي عن طريق التبشير الديني البروتستانتي من خلال إرسال رجال الدين بروتستانت بغية خلق جماعات تعتمد عليها بريطانيا في حماية مصالحها في العراق، فكان جوزيف وولف (Wolff: ١٧٩٦-١٨٦٢) أوّل مبشِّرٍ أوفدته جمعية لندن لنشر البروتستانتية بين اليهود، حيث وصل إلى سنجار والتقى بعدد من اليهود واليزيديين[2]، كما أنّ بعثة جسني المار ذكرها سابقًا كانت قد اصطحبت معها أحد المبشِّرين البريطانيين ويدعى صموئيل (Samuel)، فبدأ نشاطه في البصرة، ثم انتقل إلى بغداد، وقد وجد بعض العراقيين أنّ وجود هذا المبشِّر وحماسه الكبير في دعم البعثة الملاحية جزءٌ من خطّةٍ عامّةٍ

١. للتفاصيل ينظر: شكري، ياسين شهاب، (العراق ومشروع سكة حديد وادي الفرات دراسة تاريخية في ضوء التقارير البريطانية) ، ص ١٢٥-١٥٠

٢. حارث يوسف غنيمة، البروتستانت والإنجيليون في العراق، ص٥٠.

نحو احتلال البلاد الإسلامية، وتحويل المسلمين إلى النصرانية، فأُخرج من العراق[١].

وفي عام ١٨٣٨م، أقرت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية (Royal Geographical Society)، وجمعية تعزيز المعرفة المسيحية (Society For The Promotion Of Christian Knowledge) مشروعًا مشتركًا لمدة سنتين عرف بـ (بعثة استكشاف كردستان)، والهدف المزعوم للبعثة هو اكتشاف وسط وشرق الأناضول وشمال العراق، وتقديم تقرير عن الكنائس النسطورية واليعقوبية وعن القبائل الكردية واليزيدية ولغتها ومعتقداتها وأحوالها العامة[٢]، واستمر النشاط التبشيري البربطاني في العراق خلال العقود اللاحقة، خاصة في أوساط الطوائف الدينية المسيحية وتحديدًا النساطرة، حيث اختار لهم رئيس أساقفة كنتربري البريطانية عام ١٨٨٦م تسميةً جديدةً هي (الآثوريين) أو (الآشوريين)، وأوفد بعثةً تبشيريةً إليهم لتغيير التسمية بهدف رفع منزلتهم التاريخية في الأوساط العالمية[٣]، كما تم فتح مقر للإرسالية التبشيرية البروتستانتية في منطقة العمادية شمال العراق عام ١٩١١م[٤].

بدأت بريطانيا بجمع المعلومات والأخبار عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق من خلال تقارير المقيم البريطاني والقناصل المنتشرين في بعض مدن العراق، كما أنّها أرسلت الجواسيس بعناوين مختلفة للاطلاع على الأوضاع عن كثب، فمثلاً قام النقيب البريطاني ماونسل (Maunsel) بجولاتٍ في شمال العراق في عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٢م، زار خلالها دهوك والعمادية والزيبار وأربيل والموصل[٥]، وكذلك قام الميجر سون (E. Soon) بزيارة إلى شمال العراق وتحديدًا الى السليمانية متنكرًا باسم ميرزا غلام حسين الشيرازي، وكتب تقريرًا تضمن في ملحقه تفاصيل عن القبائل الكردية وفروعها ومواطن انتشارها على الحدود العراقية – الإيرانية[٦].

ولعلّ من أشهر الشخصيات الإنكليزية التي زارت العراق قبل الاحتلال الرحّالة الآثارية المس جترود بيل (G. Bell) عام ١٩٠٩م، التي قُدّر لها أنْ تلعب دورًا أساسيًا في تاريخ العراق بعد

١. نوار، المصدر السابق، ص٣٠٨.

٢. السعدي، محمد داخل كريم، المصالح الأجنبية في الموصل ١٨٣٤-١٩١٤، ص٤٨-٤٩.

٣. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ص٥٩.

٤. السعدي، محمد داخل كريم، المصدر السابق، ص٧١.

٥. نوار، المصدر السابق، ص٢٢٤-٢٢٥.

٦. خليل علي مراد، دوافع رحلات الإنكليز الى الموصل وأطرافها في القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، ص١٦٥.

الاحتلال كسكرتيرة المندوب السامي البريطاني، إذ إنّها جمعت معلوماتٍ تفصيليةً عن العشائر العراقية من خلال زياراتها لمناطق حوض دجلة، كما زارت القبائل الكردية في شمال العراق والأقليّات غير المسلمة التي تسكن المنطقة الشمالية كالنصارى واليزيدية وغيرهم[١]، وقد أقامت سنةً كاملةً في خيام البدو عند قبيلتي شمر وعنزة، وأصبحت لها علاقاتٌ كبيرةٌ مع عددٍ كبيرٍ من الإقطاعيين في مناطق العراق المختلفة[٢].

ومن الجواسيس البريطانيين الآخرين الكولونيل ليجمن (Leachman) الذي زار العراق عدّة مراتٍ ما بين ١٩١١-١٩١٣م، والهدف من الزيارة تأليب زعماء العشائر ضد الحكم العثماني في العراق[٣].

المبحث الثاني: دوافع وأهداف الغزو البريطاني للعراق:

تباينت رؤية المصادر التاريخية في النظر إلى الغزو البريطاني للعراق عام ١٩١٤م، من حيث بيان دوافعها الأساسية، وهل أنّها جاءت ردّة فعلٍ لدخول العثمانيين الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا ضد كلٍّ من بريطانيا وفرنسا وروسيا؟ فأرادت بريطانيا فتح جبهةٍ جديدةٍ للحرب انطلاقًا من الخليج باتجاه العراق الواقع تحت سيطرة العثمانيين، أم أنّ فكرة الغزو والتخطيط لاحتلال العراق قد سبق ذلك بفترةٍ زمنيةٍ طويلةٍ كجزءٍ من التوجهات الاستعمارية البريطانية للسيطرة على المناطق الحيوية في العالم.

والحقيقة أنّ دوافع الغزو البريطاني للعراق قد ارتبطت بمحاولاتها السابقة للتغلغل السلمي عبر المصالح السياسية والاقتصادية، ثم التفكير بإعداد خطةٍ عسكريةٍ للاحتلال، تم الإعداد لها قبل الحرب بسنوات، ناهيك عن المتغيرات السياسية والاقتصادية الإقليمية والدولية، والتي دفعت بالبريطانيين ضمن عوامل وأهداف عديدة، وعلى النحو التالي:

أولًا: حماية المصالح البريطانية:

عملت بريطانيا على تثبيت نفوذها ومصالحها السياسية والاقتصادية في منطقة الخليج وما يجاورها منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، ووقعت العديد من الاتفاقيات والمعاهدات

١. المس بيل، العراق في رسائل المس بيل، ص١٤-١٦.

٢. ستيفن لونكريك، عراق البريطانيين والأتراك خلال ١٩١٥-١٩١٦، ص٥١.

٣. ن. براي، مغامرات ليجمن في العراق والجزيرة العربية ١٩٠٨-١٩٢٠، ص٧٦.

الثنائية خلال القرن التاسع عشر مع المشيخات الخليجية ابتداءً من معاهدة ١٨٢٠م، مع الساحل العماني وعرب القواسم، وحتى معاهدة الحماية البريطانية للكويت عام ١٨٩٩م، والدولة القاجارية في إيران في السنوات (١٨٧٢م ، ١٨٩٠م)، التي منحت الأفضلية لبريطانيا في المصالح السياسية والاقتصادية على بقية الدول الأوربية بحيث أصبح الخليج في مطلع القرن العشرين كأنّه بحيرةٌ بريطانية[١]، وهذا ما أعطاها فرصةً التدخل وزيادة النفوذ في المنطقة، غير أنّ مصالحها الحيوية في أراضي الدولة العثمانية والعراق جزءٌ منها، كانت تواجهها العراقيل والسياسات المتضاربة بين الجانبين؛ فالعثمانيون كانوا يرون أنّ نفوذهم التاريخي على الجزء الغربي من ساحل الخليج يعطيهم المشروعية في حكم المناطق الممتدة من جنوب العراق والكويت والإحساء وقطر والبحرين، وهذا ما أدّى إلى توتر العلاقات العثمانية- البريطانية في الخليج طيلة الفترة الممتدة من عام ١٨٧١م، ولغاية عام ١٩١٤م، وهذا ما دفع الساسة البريطانيين إلى التعبير صراحةً بضرورة المحافظة على المصالح السياسية والتجارية، وتأمين الطريق إلى الهند عبر الأملاك العثمانية، خاصة بالنسبة للعراق[٢].

لقد عبر الساسة البريطانيون منذ وقتٍ مبكّرٍ عن فكرة الذهاب إلى احتلال العراق، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر أرسل القنصل البريطاني في بغداد راولنسون (Rawlinson) بمذكرةٍ إلى وزارة الخارجية البريطانية في ٣ حزيران ،١٨٥٣ أشار فيها بأنّه في حالة تقسيم الإمبراطورية العثمانية فعلى بريطانيا العمل على القيام «باحتلال جنود من الهنود كامل قطاع الإقليم من الزاب الأسفل إلى البحر»[٣]، وتكررت فكرة الاحتلال في العقود اللاحقة مع ازدياد أهمية العراق بالنسبة لبريطانيا، إذ أكّد حاكم الهند أو نائب الملك البريطاني اللورد كيرزن ((Gurzon في عام ١٨٩٢م بأنّ «بغداد تقع ضمن موانئ الخليج، ويجب أنْ تدخل ضمن السيادة البريطانية التي لا تنازع»، وأشار في خطابه بمجلس اللوردات البريطاني عام ١٩١١م إلى ذلك بالقول: «من الخطأ أنْ نفترض أنّ مصالحنا السياسية تنحصر في الخليج، فإنّها ليست كذلك، كما أنّها ليست منحصرةً بالمنطقة الواقعة ما بين البصرة وبغداد، وإنّما تمتد شمالاً إلى بغداد نفسها»[٤]، وحدثت العديد من التوترات السياسية والعسكرية بين الدولتين في شمال الخليج، بعد أنْ وجدت بريطانيا أنّ العثمانيين يحاولون

١. غانم محمد صالح والكبيسي، خليل فضيل محمد، الخليج العربي، ص٧١-٧٤.

٢. النجار، مصطفى وآخرون، المصدر السابق، ص١١١.

٣. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني، ص٩٣.

٤. فيليب ويلارد ايرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٢٥-٢٤.

إعادة فرض نفوذهم في رأس الخليج والتضييق على النشاط التجاري البريطاني، وهو ما يمثّل تهديدًا لمصالحها الحيوية، وأنّه لا بدّ من التحرّك سياسيًّا وعسكريًّا لمنع ذلك، فجاءت الحرب العالمية الأولى فرصةً سانحةً للبريطانيين للقضاء على النفوذ العثماني في الخليج والعراق.

ثانيًا: ازدياد النفوذ الألماني:

كانت ألمانيا قد حقّقت وحدتها عام ١٨٧١م، وبدأت بالظهور على مسرح الأحداث الأوربية والعالمية كقوةٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وعسكريةٍ كبيرة، ونشطت دعوات المفكّرين الألمان إلى ضرورة الاستفادة الألمانية من الإمكانات الاقتصادية في مناطق الدولة العثمانية وتحديدًا بالنسبة للعراق، حيث قام المفكر الألماني شبنغلر (Schpringer) برحلةٍ طويلةٍ في الدولة العثمانية، وكتب كتابًا بعنوان بابل أغنى بلدٍ في الماضي وأكثر المناطق ملائمةً للاستيطان في الحاضر، وأنّه لا توجد في العالم كلّه منطقة أكثر ملائمةً منها لاستيطان الألمان مثل العراق، وأمّا المفكر الألماني هوجو كروتة (Hougo Kroteh) فقد أصدر عام ١٩٠٢م كتابًا بعنوان (سكة حديد بغداد والفلاحون الشفابيون فيما وراء القفقاس وفلسطين)، حمل فيها دعواتٍ إلى الاستيطان في العراق[١].

حدث آنذاك تقاربٌ كبيرٌ بين ألمانيا وبين الدولة العثمانية منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، واعتقد العثمانيون بأنّ ألمانيا ليس لها أطماعٌ استعماريةٌ في أراضي الدولة العثمانية كبريطانيا وفرنسا وروسيا، كما أعجب العثمانيون بالتقدّم الكبير الذي حدث في ألمانيا خاصّةً في المجال العسكري والاقتصادي، وعملوا على الاستفادة من تجربتها من أجل زيادة قوة الدولة العثمانية لمواجهة تدخلات الدول الكبرى، وجرى تعاونٌ كبيرٌ بين الدولتين من خلال إرسال البعثات العسكرية العثمانية إلى ألمانيا أو جلب الضباط العسكريين الألمان لتنظيم وتدريب الجيش العثماني، وكذلك العمل على زيادة النشاط الاقتصادي الألماني في أراضي الدولة العثمانية من خلال المؤسسات المالية التابعة لها.

بدأت المفاوضات بين الدولتين من أجل الوصول إلى امتياز منح إنشاء خط سكك حديد بغداد- برلين منذ سنة ١٨٩٨م، وتكللت بمنح العثمانيين امتياز بناء سكّة حديد بغداد- برلين إلى شركة حديد الأناضول المدعومة من البنك الألماني في ٥ آذار ١٩٠٢م، وحدد بنود الاتفاق على أنْ يكون الامتياز لمدةٍ زمنيةٍ طويلةٍ (٩٩ عامًا)، وأخرى تتعلّق باستغلال المناطق المجاورة لخط السكة اقتصاديًّا من قبل الشركة، فضلاً عن بنودٍ أخرى جرى التعديل على بعض منها بعد مرور

١. التكريتي، هاشم صالح، (التغلغل الألماني في المشرق العربي قبيل الحرب العالمية الأولى)، ص٤٤-٤٥.

سنة واحدة[١] إذ كانت ألمانيا ترغب في الاستفادة من هذا الخط من أجل زيادة نفوذها الاقتصادي لمناطق بعيدة ذات أهمية اقتصادية كبيرة، ومنها العراق الذي وجدت فيه مصدرًا مهمًا للمواد الأولية والغذائية الداخلة في الصناعات والاحتياجات الألمانية، خاصّة بالنسبة للحبوب التي كانت تستوردها آنذاك من روسيا، إلى جانب إمكانية تطوير بعض المحاصيل الزراعية الضرورية للألمان في العراق كالقطن[٢].

كان الامتياز ينصّ على تمديد خط سكة الحديد من قونية إلى الموصل، ومن هناك إلى بغداد، وعبر مدن الفرات الأوسط وصولاً إلى الناصرية، ثم البصرة والخليج، مع إقامة عدد من الخطوط الفرعية لها منها خط خانقين- بغداد من أجل ربط الحدود والدواخل الإيرانية بالمدن العراقية، وتحديدًا مدن العتبات المقدسة لنقل المسافرين من الزوار والتجار.

عارضت بريطانيا منح الامتياز، ورأت في المشروع تهديدًا لنفوذها السياسي والاقتصادي في المنطقة، إذ إنّ مدّ سكك الحديد إلى تلك المنطقة سيكون بمنزلة بداية لاقتحام ألمانيا للمنطقة ومنافسة للطريق البحري المار عبر قناة السويس الذي كانت تسيطر عليه بريطانيا آنذاك[٣]، وقد أشارت بعض التقارير البريطانية إلى ذلك بالقول: «إن الآثار المحتملة لمد سكة حديد بغداد إلى الخليج سوف لن يكون تأثيرها على المصالح البريطانية في العراق فقط وإنما ستؤثر على مصالح كلٍّ من بريطانيا والهند في منطقة الشرق الأوسط وخاصّةً في إيران والخليج»[٤].

وجرت مناقشاتٌ واسعةٌ في الأوساط السياسية والبرلمانية البريطانية حول مدى إمكانية مشاركة بريطانيا في هذا المشروع، وفي الوقت ذاته عملت بريطانيا على الاحتفاظ بمكانتها المتقدمة في نشاطها التجاري مع العراق لمنع تغلغل التجارة الألمانية إليه، حيث إنه ازدادت الصادرات البريطانية إلى العراق عام ١٩٠٣م إلى (١,٢٥٨,٠٠٠) جنيه إسترليني، التي شكلت نسبة ٨٠٪ من المستوردات الأجنبية الداخلة إلى العراق، كما قامت بدعم نشاطات شركة (لنج) البريطانية

١. بحري، لؤي يونس، سكة حديد بغداد - برلين دراسة في تطور دبلوماسية قضية سكة حديد برلين بغداد حتى عام ١٩١٤، ص٦٩-٧٢.

٢. ألكسندر أداموف، ولاية البصرة ماضيها وحاضرها، ج٢، ص٢٠٨، ٢٤٨.

٣. ز. ي هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ص٦٧.

٤. شكري، ياسين شهاب، ولاية بغداد: ١٨٧٢-١٩٠٩م، ص١٤٩.

العاملة في النقل النهري بالعراق عبر دعم مطاليبها في زيادة عدد بواخرها العاملة في هذا المجال[1]، كما حاولت بريطانيا الضغط على ألمانيا لقبول مشاركة بريطانيا في الامتياز من خلال إعادة طرح فكرة مشروع (سكة حديد وادي الفرات) المار ذكرها سابقًا عام ١٩٠٩م، غير أنّ المشروع البريطاني لم يكن سوى تهديدٍ للقبول بتسوية لمشروع سكة حديد برلين- بغداد، فتم الاتفاق بين بريطانيا والدولة العثمانية في حزيران سنة ١٩١٣م حول النفوذ البريطاني في الخليج وتحديدًا في الكويت، وكذلك تم الاتفاق بين بريطانيا وألمانيا في حزيران عام ١٩١٤م، حول القبول بوجود مساهمين بريطانيين في شركة سكة الحديد، وبأنْ يكون نهاية الخط في مدينة البصرة والتنازل عن مدّه إلى ساحل الخليج[2]، وعلى أيّة حالٍ كانت الشركة المنفذة للامتياز قد تمكنت من إنجاز معظم خط سكة حديد بغداد- برلين قبيل قيام الحرب العالمية الأولى، وتم تشييد أول قطار بين بغداد وسميكة (الدجيل) في حزيران ١٩١٤م.

ثالثا: قيام الحرب العالمية الأولى:

كانت أجواء التحالفات السرية والعلنية في أوربا قبيل قيام الحرب العالمية الأولى تنذر بنشوبها، حيث أفرزت في النهاية بروز جبهتين رئيستين هما: تحالف الوسط (ألمانيا، إمبراطورية النمسا والمجر، الدولة العثمانية، بعض الدول الصغيرة)، وجبهة الحلفاء (بريطانيا، فرنسا، روسيا، إيطاليا، وبعض الدول الأوربية الأخرى)، وجاء اغتيال ولي عهد النمسا (فرانز فرديناند) في حزيران ١٩١٤م، من قبل جماعةٍ صربيةٍ قوميةٍ متشددةٍ في مدينة سراييفو ليكون السبب المباشر لاندلاع الحرب العالمية الأولى.

كانت الدولة العثمانية التي تسيطر على العراق قد تعاطفت مع ألمانيا قبيل قيام الحرب، إذ تأثر جماعة (الاتحاد الترقّي) الحاكمة بالمؤسسة العسكرية الألمانية وإنجازاتها، فحدث تقاربٌ كبيرٌ بين الدولتين في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية، وأشارت المصادر التاريخية بأنّ اتفاقًا سريًّا جرى بين الدولة العثمانية وألمانيا في ٢ آب ١٩١٤م، في اليوم التالي لإعلان ألمانيا الحرب على روسيا، والذي نصّ على تزويد الجيش العثماني بالأسلحة والعتاد والتنسيق العسكري المشترك بين الطرفين ضد روسيا[3].

1. Stuart Acohen, British policy in Mesopotamia 19031914-, (London, 1967), pp.35- 39.

٢. بحري، المصدر السابق، ص١٦٧-١٧٢.

3. Mustafa Aksakal, The Ottoman Empire and the First World War, Cambridge, University Press, (2008), pp. 13- 111.

كانت القيادة العسكرية والسياسية العثمانية منقسمةً بين مؤيّدٍ للانضمام إلى ألمانيا في الحرب، وبين معارضٍ لذلك ومطالب بالبقاء على الحياد، وتغلبت وجهة نظر المؤيّدين بالرغم من إعلان الدولة العثمانية الوقوف على الحياد في بادئ الأمر، وردت كلٌّ من بريطانيا وروسيا وفرنسا بالقبول باحترام استقلال الدولة العثمانية شريطة بقائها على الحياد المعلن، وإبعاد الخبراء من الضباط الألمان من الخدمة في جيشها، غير أنّ الأتراك رفضوا الشرط الأخير، وصادف أنْ رفضت بريطانيا تسليم طرادين بحريين كانت الدولة العثمانية قد أوصت عليهما بعد أن تم دفع ثمنهما من تبرعات الأهالي في أرجاء الدولة الأمر الذي ولد ردة فعلٍ عنيفةٍ ضد بريطانيا لدى الأوساط العامة، وبالمقابل كان هناك طرادان ألمانيان قد دخلا المضايق التركية هربًا من الأسطول البريطاني في البحر المتوسط فجرى بيعهما بشكلٍ صوري للأتراك، كما قام الأتراك بغلق المضايق أمام السفن الأجنبية وإلغاء الامتيازات الأجنبية الممنوحة سابقا للدول الأوربية، فسمح الدولة العثمانية للطرادين وتحت قيادة أحد الضباط الألمان بالدخول إلى البحر الأسود ومهاجمة السفن والموانئ الروسية في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٤م؛ فاحتجّ الحلفاء على ذلك وأعلنوا الحرب على الدولة العثمانية في ٢ تشرين الثاني لتصبح أراضي الدولة وولاياتها، ومنها العراق ضمن جبهات الحرب آنذاك[١].

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ احتمالية قيام الحرب العالمية الأولى وانضمام العثمانيين إليها إلى جانب ألمانيا قد تمت مناقشتها من قبل البريطانيين منذ وقتٍ مبكّر، إذ تم تأليف لجنةٍ بريطانيةٍ حكوميةٍ عام ١٩١١م من أربعة خبراء سياسيين وعسكريين من بينهم المقيم السياسي البريطاني في الخليج السير بيرسي كوكس (Percy Cox)، فوضعت اللجنة تقريرًا في ١٥ كانون الثاني سنة ١٩١٢م، تضمّن توصياتها بتعزيز نفوذ بريطانيا في الخليج، وتأييد احتلال البصرة، إلا أنّ حكومة الهند عدّت الاحتلال سابقًا لأوانه، إلّا في حالة قيام الحرب مع الدولة العثمانية.

رابعًا: اضطراب الأوضاع وضعف المؤسسة العسكرية العثمانية في العراق

كانت الدوائر السياسية البريطانية في العراق تراقب الأوضاع العامة في العراق من خلال التقارير السرية التي كان يرسلها قناصلها الموجودين في بغداد والبصرة والموصل حول أوضاع الجيش العثماني وتحركاته، وإرسال الخرائط عن الأماكن والطرق في العراق[٢]، وكذلك مواقف

١. أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص٢٨٣- ٢٨٧.

٢. فيليب ويلارد آيرلند، المصدر السابق، ص٢٤.

العراقيين من الحرب ومن الدولة العثمانية نفسها التي حكمتهم منذ أكثر من أربعمائة عام، ومدى تذمّرهم من سياسة الولاة المتعاقبين وممارسات السلطة، والموقف من التجنيد الإجباري العثماني، وهذه الأمور كانت تراه بريطانيا ذات أهميةٍ كبيرةٍ قبل قيامها بغزو العراق.

كانت الأوضاع في الدولة العثمانية قد تدهورت بشكلٍ كبيرٍ منذ أواخر الفرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين؛ نتيجةً للسياسات الداخلية والتدخلات الخارجية، الأمر الذي أدّى إلى قيام ثورة الاتحاد والترقّي عام ١٩٠٨م، ضدّ حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وتسلّط فئة عسكريةٍ ذات توجّهاتٍ قوميةٍ على السياسات العثمانية من خلال اتباع سياسة التتريك، ومن ثم الطورانية اتجاه الشعوب والقوميات في مناطق الدولة، ولم يكن العراق بمنأى عن تلك الأحداث، إذ حدث انقسامٌ كبيرٌ داخل المجتمع العراقي بين أنصار الحرية والتقدّم من المثقفين والنخب المطالبين بتغيير الواقع المزري الذي عاشه العراقيون، والمطالبة بالحرية والتعددية والمساواة التي جاءت بها جماعة الاتحاد والترقّي من خلال نشر تلك الأفكار والمطاليب في الصحف والمجلات التي أنشأت آنذاك، لكن هؤلاء سرعان ما اصطدموا بالواقع الجديد وما قام به الحكّام الاتحاديون الجدد من ممارساتٍ سياسيةٍ متشددة، وكذلك محاولة التدخّل في نتائج الانتخابات لانتخاب ممثلي الولايات العراقية في مجلس المبعوثين العثماني.

وفي المقابل وقفت الاتجاهات المحافظة ضد الحكم الجديد وعدّت ما قام به الاتحاديون من ثورةٍ بأنّها موجّهةٌ ضد الدين الإسلامي، خاصةً أنّ بعض الممارسات التي حدثت آنذاك أثرت على هذا الموقف من خلال قيام بعضٍ من الفئات بممارساتٍ خاطئةٍ باسم الحرية والمساوة من قبيل استخدام الحرية بشكلٍ مفرطٍ كشرب الخمور وارتكاب الموبقات وانتشار الأسلحة والملاهي في بغداد، وهي سلوكياتٌ كانت منافيةً للقيم الدينية والعادات الاجتماعية[١].

ومن جهةٍ أخرى، فإنّ الأوضاع العامة ازدادت سوءًا في العراق، فمن الناحية الإدارية لم تتغير كثيرًا من قبيل تعيين عددٍ كبيرٍ من الولاة على الولايات العراقية وقصر مدة حكمهم، وتولي عدد منهم من الولاة الفاسدين الذين لم يكن يهمهم سوى الحصول على الأموال والتسلط على المجتمع[٢]، وانعكس ذلك على انتشار الفساد الإداري والمالي بين الموظفين الذين كان معظمهم من غير العراقيين من حيث استخدام مناصبهم ونفوذهم في زيادة الثراء على حساب السكّان المحليين من

١. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٣، ص١٦١-١٦٢.

٢. العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٨، ص ١٨٠.

خلال الرشوة التي انتشرت بشكلٍ فاحشٍ آنذاك، فيما لم تكن الإدارة الحكومية تفسح المجال لأهل القطر أنْ يتولوا المناصب الإدارية المهمةّ[١].

أما بالنسبة للجوانب الاقتصادية، فإنّ سياسة توزيع الأراضي الأميرية وتفويضها قد أدى إلى ظهور فئات كبار الملاّكين من شيوخ العشائر وكبار المتنفّذين وأصحاب الأموال، فيما تحوّلت حياة الفلاحين إلى شبه القنانة لدى صاحب الأرض، وقد يؤدّي ظلم كبار الملاّكين للفلاحين إلى قيام انتفاضاتٍ فلاحيةٍ كبيرةٍ ضدّهم كالذي حدث في لواء المنتفق عام ١٩١٣م، وقد أدّى ذلك كلّه إلى زيادة هجرة الفلاحين للبحث عن فرص العمل في المدن، وانتشار البطالة والفقر في الأوساط الاجتماعية المتوسطة والدنيا.

كان أكثر ما يعانيه العراقيون من الحكم العثماني هو التجنيد الإجباري الذي كان يحتم على الأفراد الخدمة الإلزامية لسنواتٍ طويلةٍ وفي أماكن بعيدةٍ حتى في خارج العراق، ثم يصار إلى تسريحهم إلى مناطقهم لخدمة الاحتياط (الرديف) لسنواتٍ أخرى؛ لذا وقف العراقيون ضد عمليات التجنيد الإلزامية التي كانت تقوم بها السلطات العثمانية منذ محاولات تطبيقها عام ١٨٦٩م[٢]، وكذلك ما جرى من قبل سكّان النجف وكربلاء عام ١٨٧٧م عندما حاولت السلطات أخذ الأفراد للخدمة العسكرية بغية إرسالهم إلى الحرب مع روسيا[٣]، والمرة الثالثة والأخيرة التي تم فيها إرسال الجنود إلى الخارج كانت إبّان قيام الحرب العالمية الأولى عندما أرسلت القوات العسكرية من بغداد إلى الجبهة الروسية في قفقاسيا[٤].

كانت التقارير الاستخبارية البريطانية تشير بأنّ السكّان العراقيين متذمّرون من سياسات الحاكم العثمانيين، وأنّ الجيش العثماني المتواجد فيه في حالة ضعفٍ كبيرٍ من حيث الاستعداد للدخول في حروبٍ تقليديةٍ مع جيوش الدول الأخرى، خاصةً بالنسبة للجيش البريطاني الذي كان يعد من أقوى جيوش دول العالم آنذاك، فالجيش العثماني لم يتم تهيئته أو تدريبه للقتال والقيام بالمناورات العسكرية التي تقوم بها الجيوش لمحاكاة الحرب وظروف القتال المختلفة، فضلاً عن نقص

١. المصدر السابق، ص٢٠٧.

٢. جريدة الزوراء، العدد ١٢، ٢٣.

٣. العمر، عبد الجبار، (ذيل مطالع السعود أو تاريخ الشاوي)، مجلة آفاق عربية، العدد السادس والسابع، السنة السادسة، ص٧٧.

٤. الوردي، علي، المصدر السابق، ج٤، ص٨٢.

التجهيز والتموين والافتقار إلى الأسلحة الحديثة[١]، ومن هنا تحرّك البريطانيون لإعداد الخطط العسكرية لاحتلال العراق مستفيدين من أوضاع العراق المضطربة، وضعف المؤسسة العسكرية العثمانية فيها.

المبحث الثالث: الاحتلال العسكري البريطاني للعراق

دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى في ٢ تشرين الثاني ١٩١٤م، إلى جانب ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر، فأعلنت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا وروسيا الحرب على الدولة العثمانية ضمن ست جبهاتٍ عسكرية، ومنها جبهة الحرب في العراق، وتم إعداد خطةٍ عسكريةٍ بقيام قواتٍ بريطانيةٍ انطلقت من الهند باتجاه الخليج في ٢ تشرين الأول ١٩١٤م بقيادة الجنرال ديلامين (Delamine)، وأعطيت تلك القوات الرمز السري (D)، حيث وصلت القوات من الهند إلى البحرين التي اتّخذتها القوات البريطانية كنقطة انطلاقٍ رئيسةٍ نحو شمال الخليج بحجة حماية المصالح النفطية البريطانية في عبادان والمحمرة، التي كانت الشركات البريطانية قد حصلت على حق التنقيب والاستخراج فيهما. وأصدرت بريطانيا عشية الغزو بيانًا على لسان الضابط السياسي المرافق للقوات البريطانية بيرسي كوكس (Percy Cox) برر فيه قيام الحملة وتوجهها نحو جنوب العراق بالقول: «إنّ حكومته قد أجبرت على الحرب نظرًا للموقف المعادي للعثمانيين؛ لذا أرسلت بريطانيا قواتها لحماية تجارتها وأصدقائها، وإجلاء الأتراك من المنطقة، وأنّها لا أعداء لها مع العرب شريطة ألّا يحموا الجنود العثمانيين، ولا يحملوا السلاح في تجوالهم، وأكد مهددا على منع ذلك لكي يجرد السكان من وسائل الدفاع عن أنفسهم في ظروف غابت فيه السلطة المحلية الحامية ... »[٢].

بدأت الحرب بين العثمانيين والبريطانيين في العراق بعد نزول القوات البريطانية المؤلّفة في بادئ الأمر من ٤٥٠٠ مقاتل في أقصى جنوب العراق في الفاو بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩١٤م، وحدثت ثلاث معارك بين الطرفين على الطريق بين الفاو والبصرة: (معركة السنية) في ٨ تشرين الثاني ١٩١٤م، و(معركة سيحان) في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٤م، و(معركة ساحل (كوت الزين)) في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٤م، وخسرها الجيش العثماني جميعا[٣]، وقاموا بالانسحاب إلى مدينة

١. شكري، محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ص١٣-١٤.

٢. إبراهيم خليل أحمد وحميدي، جعفر عباس، تاريخ العراق المعاصر، ص١١.

٣. التميمي، المصدر السابق، ص ص١٦٣-١٧٨.

البصرة نفسها، وأدركت السلطات العثمانية في بغداد بأنّه من الضرورة بما كان الاتصال بالمرجعية الدينية الشيعية في النجف وكربلاء من أجل الحصول على الدعم والفتوى، فأرسلت السلطات العثمانية في بغداد وفدًا رفيع المستوى إلى مدينة النجف، وصادف ذلك مع وصول نداء الاستغاثة من وجهاء وأعيان البصرة في ٩ تشرين الثاني جاء فيها: «ثغر البصرة الكفار محيطون به، الجميع تحت السلاح نخشى على بقايا بلاد الإسلام، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع»، فحدث اجتماعٌ عاجلٌ في مسجد الهندي قرب مرقد الإمام علي بن أبي طالب (ع) حضره العلماء وشيوخ العشائر الوفد المرسل من بغداد، وتم إعلان الجهاد ووجوب الدفاع عن البلاد الإسلامية[١]، خاصة بعد سقوط البصرة بأيدي القوات البريطانية من دون قتال في٢٣ تشرين الثاني ١٩١٤.

انطلقت قوافل المجاهدين من النجف وكربلاء والكاظمية، ولحقت بها بقية المدن العراقية وكان العلماء في مقدمة القوافل، وممن كانوا يقودونها: السيد محمد سعيد الحبوبي، وشيخ الشريعة فتح الله الأصفهاني، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والسيد محسن الحكيم، والسيد هبة الدين الشهرستاني، وآخرون، وشاركت العشائر وبكثافة في حركة الجهاد من خلال التحرك بجموعها نحو مناطق القتال، فيما كانت العشائر الأخرى القريبة من القوات البريطانية تهاجم قطعاته ومعسكراته منذ المعارك الأولى، وقبل تقدّم البريطانيين لاحتلال البصرة، وهذا ما لم تكن بريطانيا ترغب فيه؛ لأنّها ستواجه السكّان المحليين والعثمانيين معًا، في الوقت الذي حاولت الظهور ومن خلال بياناتها بأنّها لا تستهدف في حملتها العراقيين[٢].

كانت قوافل المجاهدين العراقيين قد انقسمت إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول: كان محور نهر الفرات، والثاني: محو نهدر دجلة، والثالث: ضمن محور الحويزة ، وكان القسم الأول هو الأكثر فاعلية بقيادة السيد محمد سعيد الحبوبي الذي وصل إلى الناصرية في منتصف كانون الثاني ١٩١٥م، وبدأ بزيارة العشائر وتحريضها على المشاركة في الجهاد، فلبّت نداءه من خلال الجموع التي حضرت للانطلاق من الناصرية إلى الشعيبة في ١٩ كانون الثاني، والتي بلغت حوالي ثلاثين ألفًا من المشاة وعشرة الآف من الخيالة، وأمّا محور نهر دجلة فقد تحرك العلماء باتجاه تحريض العشائر في العمارة وغيرها يتقدّمهم الشيخ مهدي الخالصي ونجله الشيخ محمد، والسيد محمد اليزدي نجل المرجع الديني السيد كاظم اليزدي في النجف وآخرون، وكذا الحال مع المحور

١. الياسري، عبد الشهيد، البطولة في ثورة العشرين، ص٦٨-٦٩.

٢. التميمي، المصدر السابق، ص١٧٥.

الثالث وبمشاركة عشائر الأحواز بعد محاولة البريطانيين التقدم باتجاه المحمرة.

بعد احتلال البصرة قامت القوات البريطانية بالتقدم شمالاً نحو القرنة الموقع الاستراتيجي المهم، حيث ملتقى نهري دجلة والفرات وإمكانية استفادة البريطانيين من ذلك في التحرك بسهولة، وهناك حدثت المواجهات بينها وبين الجيش العثماني وبمساعدة العشائر العربية، غير أنّ البريطانيين تمكّنوا من الاستيلاء على القرنة في ٩ كانون الأول ١٩١٤م، بعد أنْ فقد العثمانيون أكثر من ألفي جندي من قواتهم[١]، وبعد وصول المزيد من التعزيزات العسكرية للجيش البريطاني من الهند والمناطق الأخرى، بدأ التحرك من القرنة باتجاه الشمال وبمسارين محاذيين لنهري الفرات ودجلة، وعلى النحو التالي:

١-جبهة الفرات:

كانت المعارك أشد ضراوةً في جبهة الفرات نتيجة لوجود المقاومة الشعبية ومشاركة المجاهدين والعشائر للقوات العثمانية، خاصّةً بعد وصول أعدادٍ كبيرةٍ منهم من النجف وبقية المدن الأخرى بقيادة العالم الديني السيد محمد سعيد الحبوبي إلى الناصرية في منتصف كانون الثاني ١٩١٥م، وبعدها إلى سوق الشيوخ، ثم الشعيبة التي بدأ التحضير فيها للمعركة مع البريطانيين، حيث حدثت المواجهة العسكرية هناك في معركة (الشعيبة) بتاريخ ١٢- ١٤ نيسان ١٩١٥م، حاول فيها العثمانيون طرد البريطانيين واستعادة مدينة البصرة غير أنّهم فشلوا بعد ثلاثة أيام من القتال، وذلك بسبب فارق التسليح والتخطيط بين الجيشين والأخطاء التي وقع فيها القائد سليمان العسكري، فخسر الجيش العثماني ومن معه المعركة وكانت النتيجة انتحار القائد العثماني، وتراجع الجيش إلى الناصرية[٢].

استمر تقدّم القوات البريطانية على جبهة الفرات، وحدثت مواجهاتٌ أخرى مع الجيش العثماني في (هور الحَمّار) في ١٩ حزيران ١٩١٥م، تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرةً بالأرواح والمعدات، وفي ٢٥ تموز ١٩١٥م، دخلت القوات البريطانية مدينة الناصرية، وهناك تغيرت الخطط العسكرية البريطانية في عدم الاستمرار بالمسير في مدن ومناطق الفرات الأوسط؛ لأنّها أدركت بأنّ ذلك سيؤدي إلى المزيد من المواجهات مع العشائر والمجاهدين، خاصّة مع وجود مدن العتبات المقدسة في النجف وكربلاء التي تمثّل مركز النشاط الديني والجهادي ضد البريطانيين، وفضّل البريطانيون التحرّك من الناصرية باتجاه طريق الشمال الشرقي نحو مناطق

١. طونزند، مذكرات الفريق طونزند، ص٨.

٢. نديم، المصدر السابق، ص ٢٩-٣٠.

الشطرة والغراف والحي للالتقاء بالمحور الآخر الذي كان قد وصل إلى الكوت على نهر دجلة، ومن الجدير بالذكر هنا أنّ مناطق الفرات الأوسط قد شهدت اختلالات أمنية كبيرة جرّاء خسارة العثمانيين لكثيرٍ من المعارك؛ فثار السكّان ضد السلطة العثمانية التي كانت تمارس آنذاك التعسّف والاستهانة ضدّ السكّان المحليين بذريعة البحث عن الفارين من الخدمة العسكرية ومن جبهات الحرب بعد الهزيمة في معركة الشعيبة، وهذا ما أدّى إلى ثورةٍ شعبيةٍ في تلك المناطق ضد الإدارة العثمانية الموجودة في بعض المدن والمناطق مثل: النجف، وكربلاء، والحلة، وطويريج، فطردت جميع الحاميات العسكرية والإدارات الحكومية العثمانية منها[١]، فاضطرت السلطات العثمانية إلى إصدار عفوٍ عامٍّ بهدف تهدئة الأوضاع شريطة عودة السلطة العثمانية وإداراتها إلى تلك المناطق وعدم تكرار ما حدث مرة أخرى[٢].

٢-جبهة نهر دجلة:

كان تحرّك القوات العسكرية البريطانية من القرنة باتجاه (العمارة - علي الغربي- الكوت) سريعًا، وتفاجأ العراقيون بحركة القوات البريطانية وعدم قدرة الجيش العثماني على الصمود، إذ سقطت مدينة العمارة بأيدي البريطانيين في ٣ حزيران ١٩١٥م، بعد استسلام أكثر من ألفي جندي من القوات العثمانية للقوات البريطانية، وهذا ما أعطى الثقة للجيش البريطاني في التقدم شمالاً باتجاه الكوت واحتلالها من دون قتال في ٢٩ أيلول١٩١٥م[٣].

وبعد أسبوعين بدأ البريطانيون بالزحف شمالاً نحو العزيزية التي تقع في منتصف المسافة بين الكوت وبغداد الأمر الذي أحدث صدمةً للعراقيين بسبب سرعة تقدم البريطانيين بقيادة الجنرال تاونزند (Townshend)، ففقد الأهالي الثقة بالجيش العثماني، فأخذ سكّان بغداد يتهكمون على القوات العسكرية العثمانية وهزائمها المتتالية، وشعروا بالتهديد الجدي والحقيقي من قبل البريطانيين لمدينتهم بعد أنْ تجاوزوا مدينة العزيزية، ووصلوا إلى المدائن (سلمان باك) التي لا تبعد عن بغداد سوى ٣٠ كيلو مترا، إلى الجنوب الشرقي منها، وهذا يعني إمكانية سرعة تقدم البريطانيين ووصولهم إلى بغداد خلال أيام أو أسابيع[٤]، ومن هنا بدأ التحرّك من جديد للدعوة إلى

١. النفيسي، عبد الله فهد، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، ص٩١.

٢. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٢٦، السنة السابعة والأربعون.

٣. الوردي، علي، المصدر السابق، ص١٦٦-١٦٧.

٤. المصدر السابق، ص٢٣٣.

الجهاد من قبل المرجعية الدينية في النجف الأشرف، وتوجيه المجاهدين من المتطوعين للقتال على هذه الجبهة للحيلولة دون تقدّم البريطانيين نحو بغداد، فبدأت الموجه الثانية من الدعوة إلى الجهاد في النجف الأشرف من خلال الحضور الجماهيري الواسع قرب مرقد الإمام علي عليه السلام وإلقاء الكلمات الحماسية فيهم، حيث تم إخراج العلم الشريف كرايةٍ للجهاد من أعلى قبة المرقد في يوم ١١ محرم/ ١٩ تشرين الثاني ١٩١٥م، وهذا ما ألهب الحضور وتطوعوا للدفاع عن بغداد ومنعها من السقوط بأيدي البريطانيين، وجيء بالعلم الحيدري مع جموع المتطوعين يتقدمهم عددٌ العلماء إلى بغداد حيث جرى استقبالٌ كبيرٌ ومراسيم خاصةٌ للعلم ومواكب المتطوعين فيما تحركت الجموع من بغداد باتجاه الكوت بعد وصول الأنباء بهزيمة البريطانيين وانسحابهم إلى الكوت ومحاصرتهم فيها[١].

كان الجيش العثماني قد استعد للمواجهة المصيرية في منطقة سلمان باك، وبعد وصول القوات البريطانية إلى هناك تمكّن العثمانيون من تحقيق أول نصرٍ مهمٍ عليهم خلال المعارك التي دارت هناك لأربعة أيام ١٠-١٣ تشرين الثاني ١٩١٥م، خسر فيها البريطانيون أكثر من ألفي قتيل[٢]، وعدّ ذلك أول هزيمةٍ عسكريةٍ للجيش البريطاني في العراق منذ قيام الحرب، حيث انسحبت القوات البريطانية بشكلٍ غير منظّم من منطقة المدائن تاركةً خلفها كثيرًا من القتلى والأسلحة والعتاد، فشنّت القوات العثمانية وبمعية بعض العشائر والمجاهدين الهجوم المعاكس لملاحقة القوات المنسحبة ولأكثر من ثلاثين كيلو مترا، وكانت لتلك للانتصارات صدى واسع لدى الأوساط الرسمية والشعبية في العراق؛ فأقيمت الاحتفالات في بغداد، وزيّنت جميع المباني الرسمية والأسواق والمحلات[٣].

٣-حصار الكوت:

تمكّنت القوات العثمانية من ملاحقة القوات البريطانية المنسحبة حتى مدينة الكوت التي وصلها الجنرال تاونزند في ٣ كانون الأول ١٩١٥م، من أجل اتخاذها كموقع للصمود لحين وصول المزيد من التعزيزات العسكرية البريطانية من جنوب العراق، وقد تمكّنت القوات العثمانية من فرض الحصار العسكري على البريطانيين هناك منذ يوم٧ كانون الأول ١٩١٥م، وحاولت القوات البريطانية الموجودة في جنوب العراق إرسال التعزيزات العسكرية إلى مدينة العمارة ومنها إلى

١. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٤٤، السنة الثامنة والأربعون.

٢. المصدر السابق، العدد ٢٥٤٤، السنة الثامنة والأربعون.

٣. المصدر السابق، العدد ٢٥٤٧، السنة الثامن والأربعون.

الكوت لغرض إنقاذ المحاصرين غير أنّ تلك المحاولات باءت بالفشل نتيجة لتصدي القوات العثمانية[١].

كان حصار القوات العثمانية للجنرال تاونزند وجنوده شديدًا، واعتمد الأخير على ما هو متوفر من مؤنٍ وأغذيةٍ داخل المدينة سواء تلك التي كانت مخزنةً لدى قواته أم ما قام به من عمليات شراء من الأهالي، ثم مصادرة جميع ما هو متوفر في الأسواق والبيوت[٢]، وفي الوقت ذاته استمرت المحاولات البريطانية لإيصال النجدات والمساعدات للقوات المحاصرة من خلال العديد من المعارك التي حدثت مع الأتراك: (الفلاحية الأولى) في ٢١ كانون الثاني ١٩١٦م، و(الفلاحية الثانية) في ٢٢ شباط، و(سابس) في ٨ آذار، و(الفلاحية الثالثة) ٥-٩ نيسان، إلا أنّها جميعا لم تغيّر من الواقع شيئًا من حيث استمرار حصار القوات العثمانية للقوات البريطانية في الكوت[٣].

نتيجةً لتكبّد البريطانيين الخسائر الكبيرة من المعارك، ونفاذ المواد الغذائية لديهم، والشعور باليأس من إمكانية اختراق القوات العثمانية، بدأ التفكير في استسلام القوات البريطانية، حيث بدأ الجنرال تاوزند اتصالاته لذلك الغرض بقائد الجيش العثماني خليل بك، حيث جرت عملية الاستسلام في يوم ٢٥ نيسان[٤]، وأقيمت الاحتفالات الكبيرة في مدن العراق بهذه المناسبة، وبعد أيام وصل الجنرال تاونزند وثلاثة عشر ألفًا من الجنود البريطانيين الأسرى إلى بغداد[٥].

كانت عملية استسلام القوات البريطانية في الكوت بمنزلة انتصارٍ عسكريّ كبيرٍ لدى العثمانيين، وتركت صدى واسعًا لدى كبار رجالات الدولة في إسطنبول. وتعبيرًا عن الامتنان من قبل الدولة قام وزير الحربية أنور باشا بزيارة بغداد في ٦ مايس ١٩١٦م، فأقيمت الاحتفالات طيلة أسبوعٍ كاملٍ من مدة مكوثه في بغداد، كما قام الوزير المذكور بزيارة العديد من الأماكن الدينية في الأعظمية والكاظمية، وقدّم الهدايا إليها وأرسل هدايا أخرى إلى العتبات المقدسة في النجف وكربلاء[٦]، وفي الوقت ذاته اطّلع الوزير على الخطط العسكرية للجيش العثماني السادس لمرحلة ما بعد الانتصار

١. رسل برادون، حصار الكوت في الحرب بين الإنكليز والأتراك في العراق ١٩١٤-١٩١١٨، ج١، ص٢١٨-٢١٩.

٢. طونزند، المصدر السابق، ص ٤١٨-٤١٩، ص٤٨٩-٤٩٠، ص٥٢٧.

٣. نديم، المصدر السابق، ص ٨٧ وما يليها.

٤. المصدر السابق، ص ١٠١.

٥. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٦٦. العدد ٢٥٦٧، السنة الثامنة والأربعون.

٦. المصدر السابق، العدد ٢٥٦٨، السنة الثامنة والأربعون.

في الكوت قبل أنْ يغادر بغداد عائدًا إلى العاصمة إسطنبول، ويبدو أنّ الخطة العسكرية العثمانية تركزت على مواجهة التهديد الروسي القادم من إيران الذي بدأ يقترب من الحدود العراقية عبر كرمنشاه، بدلاً من مواصلة تعقّب الجيش البريطاني المتواجد في جنوب العراق، فتحرّكت القوات العثمانية نحو الحدود لمواجهة هذا الخطر الجديد وتوغّلت في الأراضي الإيرانية حتى تمكّنت من دخول مدينتي كرمنشاه همدان بعد مواجهاتٍ عسكريةٍ كبيرةٍ مع الجيش الروسي[١].

٤- احتلال بغداد:

كان حصار الكوت واستسلام القوات البريطانية للعثمانيين صدمةً كبيرةً لبريطانيا ومخططاتها في السيطرة على العراق، وهذا ما أخّر التحرّكات العسكرية البريطانية باتجاه بغداد بضعة شهور، فيما لم يستفد الأتراك من ذلك الانتصار لمواصلة القتال والزحف باتجاه العمارة والبصرة من أجل استعادتها من الجيش البريطاني، وقد جرى تغييرٌ في القيادة العسكرية البريطانية في العراق بتعيين الجنرال مود (Maude)، القادم من جبهة الدردنيل على رأس القوات العسكرية البريطانية في محور دجلة في ١١ تموز ١٩١٦م، كما أصبحت الحكومة البريطانية هي المسؤولة على تنفيذ السياسات في العراق بدلاً من حكومة الهند، وأعطي الجنرال المذكور مطلق الصلاحيات في إعادة الهيبة والاعتبار لبريطانيا وجيشها بعد الانكسار التاريخي الذي أصابها، فبدأ بدراسة الخطط العسكرية الممكنة للتقدم من جديد بعد تحركه للمواقع القريبة من مدينة الكوت، وتمكن من الاستيلاء عليها من جديد بعد معارك سريعة مع القوات العثمانية الموجودة هناك، التي اضطّرت إلى الانسحاب إلى بغداد في ٢٥ شباط ١٩١٧م، وبعد يومين وبتاريخ ٢٧ شباط ١٩١٧م، صدرت أوامر أخرى من الوالي بسحب جميع المخازن والمؤن والأسلحة من بغداد باتجاه سامراء شمالاً بعد أنْ وصلت الأنباء بوصول الجيش البريطاني سريعًا إلى العزيزية[٢].

كانت الأجواء في بغداد تنذر بوقوع الاحتلال البريطاني للمدينة، فالموظفون العثمانيون بدأوا بمغادرة المدينة والمستودعات الحكومية أفرغت من جميع ما فيها، وشعر السكّان بقرب وقوع الكارثة فقاموا بتخزين المواد الغذائية التي ارتفعت أسعارها بشكلٍ كبيرٍ فيما قام التجّار بنقل ما لديهم في محلات البيع إلى أماكن أكثر أمنًا خشية النهب أو السرقة[٣].

١. العمري، محمد أمين، تاريخ حرب العراق، ج٣، ص٢٣٠.

٢. المصدر السابق، ج١، ص١٢١.

٣. الوردي، علي، المصدر السابق، ج٤، ص٣٢٤.

اجتمع الوالي خليل باشا بأركان قواته وللمرة الأخيرة في بغداد مساء يوم العاشر من آذار للتباحث بشأن الصمود والقتال في بغداد أم الانسحاب منها، وكان الرأي الغالب هو الانسحاب خشية وقوع الجنود الأتراك تحت وطأة الحصار والاستسلام، وتكرار ما حدث للبريطانيين في الكوت، فتم اتخاذ القرار بالانسحاب الذي بدأ فعلاً في الليلة ذاتها، فلم يبقَ في صباح يوم ١١ آذار أحدٌ من القادة والجنود، فيما تم تفجير ما تبقى من ذخائر وأعتدة، وكذلك الجسر الرابط بين ضفتي نهر دجلة ببغداد بهدف إعاقة حركة البريطانيين ومنعهم من الاستفادة منه، ومع اشتعال النيران في المدينة حدث هياجٌ كبيرٌ في بغداد وهرب السجناء من السجون، وحدث النهب في الأسواق والخانات وبعض الدور والمحلات، ولم تسلم منها أيضًا مقرات الحكومة والدوائر[١]، ودخلت القوات البريطانية بغداد صباح اليوم التالي في ١١ آذار ١٩١٧م.

٥- احتلال بقية مناطق العراق:

بعد احتلال الإنكليز لمدينة بغداد بدأ التحرك العسكري لاستكمال السيطرة لبقية مناطق العراق عبر ثلاثة محاور هي: (محور دجلة شمالاً باتجاه سامراء تكريت - الموصل)، (محور الفرات باتجاه الفلوجة - الرمادي - عانة)، (محور الشمال الشرقي باتجاه ديالى)، فبالنسبة لمحور دجلة كان الأتراك قد انسحبوا إلى سامراء قبل سقوط بغداد بعد أنْ تركوا بعض القطعات المعيقة لحركة الجيش البريطاني في الطريق، وحدثت معارك شديدة شمال بغداد بالقرب من المشاهدة في ٢٤ آذار ١٩١٧م، تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة، ثم استأنف الجيش البريطاني الزحف بعد استكمال التعزيزات في المنطقة حتى تمكنوا من السيطرة على منطقة بلد في ٨ نيسان، وسامراء في يوم ٢٤ نيسان، بعد دخولهم في معركة ضارية مع الأتراك.

وفي محور الفرات تقدّمت القوات البريطانية وسيطرت على العديد من المناطق حتى مدينة الرمادي، حيث جرت هناك في يوم ١١ تموز معركةٌ كبيرةٌ مع القوات العثمانية التي كانت قد انسحبت من منطقة الفرات الأوسط، وتعدادها حوالي ألف جندي استطاعوا الصمود بوجه القوات البريطانية التي اضطرّت إلى الانسحاب بعد خسارتها حوالي مائة وخمسين قتيلاً عدا من مات بسبب الحر الشديد آنذاك، فيما كان خسائر الأتراك مائة وخمسون فقط[٢]، وفي الوقت ذاته وصلت الإمدادات العسكرية العثمانية من حلب إلى الرمادي لتقوية صمود المقاتلين فيها، فيما جهّز الجنرال مود

١. الزبيدي، فخري، بغداد من ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٣٤، ص٨٠-٨١.

٢. العمري، المصدر السابق، ج٣، ص٤٨.

فرقةً عسكريةً كاملةً لاحتلال الرمادي ومنع اتّخاذها قاعدةً للعمليات العسكرية العثمانية في غرب العراق بعد أنْ كان الأتراك قد صمموا على استعادة بغداد عبر هذا الطريق من خلال تشكيلهم قوات الصاعقة من الجيشين السادس في العراق والسابع في سورية وبخبرات ألمانية، فتمكّنت القوات البريطانية من محاصرة الجيش العثماني في الرمادي وإجباره على الاستسلام في ٢٩ أيلول ١٩١٧م، واستمر التقدّم البريطاني نحو بقية المناطق الأخرى بعد خوضها لمعارك عديدة مع القوات التركية القادمة من سورية، حتى تم استكمال سيطرتها عليها بالكامل في آذار ١٩١٨م [١].

أما جبهة ديالى التي كانت تتضمن القوات التركية من الفرقة الثالثة عشرة المنسحبة من إيران، والتي كانت قد توغلت في أعقاب الانتصار في معركة الكوت، وبعد ورود أخبار سقوط بغداد عادت إلى العراق وتحديدًا إلى خانقين، غير أنّها واجهت القوات البريطانية المتقدمة من بغداد والقوات الروسية التي كانت تلاحقها من كرمنشاه، وحدثت المواجهة العسكرية بين القوات البريطانية والأتراك في ٢٥ آذار ١٩١٧م في المنطقة الواقعة بين شهربان وقزلرباط، تكبّد فيها البريطانيون خسائر كبيرة، فيما كان الروس قد استغلوا ذلك وتمكّنوا من احتلال خانقين في الأول من نيسان، لكن الأتراك استطاعوا العودة إليها في أواخر حزيران بعد طرد القوات الروسية، وظلّوا فيها حتى نهاية شهر آب ١٩١٧م، عندما انسحبوا منها باتجاه العظيم وكركوك بعد وصول القوات البريطانية الى خانقين [٢].

ولم يبقَ أمام البريطانيين سوى التقدّم نحو الموصل لاستكمال السيطرة على العراق بالكامل، حيث طلبت الحكومة البريطانية من القائد العسكري البريطاني مارشال الذي كان قد خلف الجنرال مود بعد وفاة الأخير ببغداد في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٧م، بالتقدم من أجل السيطرة على الموصل، فنشبت عدة معارك في الطريق إليها خلال المدة ١٨-٢٩ تشرين الثاني، تمكنت خلالها القوات البريطانية من الوصول إلى جنوب الموصل عند منطقة (القيارة)، في الوقت الذي كانت تجرى مفاوضات الاستسلام بين الأتراك والحلفاء في جزيرة مودروس حيث تم عقد الهدنة في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨م، وكان على القوات البريطانية إيقاف تقدمها إلّا أنّها واصلت زحفها في اليوم التالي لضم مدينة الموصل، وهذا ما تم فعلاً بعد دخول القوات البريطانية للمدينة بالرغم من احتجاج الأتراك على ذلك، وبذلك استكملت بريطانيا السيطرة على جميع مناطق العراق، وليبدأ فصلٌ جديدٌ من تاريخ العراق تحت الاحتلال البريطاني.

---

١. نديم، المصدر السابق، ص١٥٣-١٥٦، ص١٥٨-١٦٠.

٢. الوردي، علي، المصدر السابق، ج٤، ص٣٨٩-٣٩٠.

الاستنتاجات:

في ضوء ما تقدّم في هذا الفصل يمكن الإشارة إلى الاستنتاجات التالية:

١. إنّ بريطانيا بدأت الاهتمام الفعلي في مدّ نفوذها إلى العراق منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، وتحديدًا بعد حرب السنوات السبع في أوربا، نتيجة لاكتشاف سرعة وصول المعلومات وأهمية الطريق الواصل من خلاله بين الهند والخليج من جهة وأوربا من جهةٍ أخرى، وازدادت رغبتها في مد النفوذ بعد إحكام سيطرتها على الخليج، والذي يمثّل العراق فيهِ الرأس ونقطة الاتصال مع الدواخل في المشرق العربي والدولة العثمانية وإيران، خاصة مع وجود طموحات وتنافس إقليمي ودولي للسيطرة على المنطقة.

٢. تحول الاهتمام البريطاني بالعراق خلال القرن التاسع عشر الميلادي من التركيز على الأهمية الاستراتيجية والسياسية إلى التغلغل الاقتصادي عبر الملاحة والنقل والتجارة في أنهار العراق، وكذلك المواصلات وخطوط التلغراف، وتبني مشاريع لمد سكك الحديد تستطيع من خلالها ربط مصالحها الحيوية في الهند والشرق الأقصى بأوربا من خلالها.

٣. تقاطعت المصالح البريطانية في العراق مع الوجود العثماني في العراق، وكذلك رغبات دول أخرى في تثبيت مصالحها الحيوية في المنطقة، خاصة بالنسبة لألمانيا؛ لذا فإنّ البريطانيين منذ مطلع القرن العشرين بدأوا في التفكير ووضع الخطط للسيطرة المباشرة على العراق عبر احتلاله.

٤. كانت الأوضاع المضطربة في العراق تساعد على توجهات البريطانيين لاحتلال العراق؛ بسبب ممارسات السلطات العثمانية، وسوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

٥. امتدت العمليات العسكرية لاحتلال العراق لمدة أربع سنوات ١٩١٤-١٩١٨م، نتيجة للمقاومة الشعبية للاحتلال، الأمر الذي خالف توقعات البريطانيين في أنْ تكون الحرب قصيرة نتيجة لضعف العثمانيين.

٦. كانت لفتاوى الجهاد الصادرة من قبل المرجعية الدينية الشيعية الأثر البارز في تحريك المجتمع العراقي لمواجهة الاحتلال البريطاني حتى احتلال بغداد.

المصادر

أولا: المصادر والمراجع:

١. إبراهيم خليل أحمد وجعفر عباس حميدي، تاريخ العراق المعاصر، الموصل، ١٩٨٩م.

٢. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١م.

٣. احمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٢م.

٤. ألكسندر أداموف، ولاية البصرة ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتي، البصرة، ١٩٨٩م.

٥. المس بيل، العراق في رسائل المس بيل، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٣م.

٦. ج.ج لوريمر، دليل الخليج، ترجمة مكتب أمير دولة قطر، الدوحة: ١٩٦٧م، القسم التاريخي الجزء الرابع، القسم الجغرافي الجزء الثالث.

٧. حارث يوسف غنيمة، البروتستانت والانجيليون في العراق، بغداد، مطبعة الناشر المكتبي، ١٩٩٨م.

٨. حسين محمد القهواتي، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩-١٩١٤، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٨٠م.

٩. حميد أحمد حمدان االتميمي، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٩م.

١٠. خليل علي مراد، دوافع رحلات الإنكليز الى الموصل وأطرافها في القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، جامعة الموصل، ١٩٩٧م.

١١. رسل برادون، حصار الكوت في الحرب بين الإنكليز والأتراك في العراق ١٩١٤-١٩١١٨م، ترجمة سليم طه التكريتي وعبد المجيد ياسين التكريتي، بغداد، دار إحياء التراث العرب، ١٩٨٥م.

١٢. ز. ي هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، نقله إلى العربية مصطفى الحسيني، بيروت، ١٩٧٣م.

١٣. سير أرنولد ويلسون، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، ١٩٨١م.

١٤. شكري محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ط٤، بغداد، شركة النبراس للنشر والتوزيع، ١٩٦٤م.

١٥. صالح خضر محمد الدبلوماسيون البريطانيون في العراق ١٨٣١-١٩١٤م، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٥م.

١٦. صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨-١٨١٠، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٧٩م.

١٧. طونزند، مذكرات الفريق طونزند، ترجمة حامد أحمد الورد، ط٢، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٦م.

١٨. عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، بغداد، مطبعة بغداد، ١٩٥٦م.

١٩. عبد الشهيد الياسري، البطولة في ثورة العشرين، النجف، مطبعة النعمان، ١٩٦٦م.

٢٠. عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية داوود باشا إلى نهاية مدحت باشا، ط٢، بغداد، وزارة الثقافة، ٢٠١٣م.

٢١. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي، الرياض، دار المريخ، ١٩٨١م.

٢٢. عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، بغداد، مطبعة الأهالي، ١٩٣٥م.

٢٣. عبد الله فهد النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، بيروت، دار النهار، ١٩٧٣م.

٢٤. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، قم، مطبعة أمير، ١٣٧١ه ش.

٢٥. غانم محمد صالح وخليل فضيل محمد الكبيسي، الخليج العربي، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٥م.

٢٦. فخري الزبيدي، بغداد من ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٣٤، ط٢، بغداد: وزارة القافة والإعلام، ٢٠١٣م.

٢٧. فيليب ويلارد ايرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٤٩م.

٢٨. لؤي يونس بحري، سكة حديد بغداد - برلين دراسة في تطور دبلوماسية قضية سكة حديد برلين بغداد حتى عام ١٩١٤، بغداد، شركة الطبع والنشر الأهلية، ١٩٦٧م.

٢٩. محمد أمين العمري، تاريخ حرب العراق، بغداد، مطبعة النجاح، ١٩٣٥م.

٣٠. مصطفى النجار وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٤م.

٣١. ن. براي، مغامرت ليجمن في العراق والجزيرة العربية ١٩٠٨-١٩٢٠م، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، دار واسط ١٩٩٠م.

٣٢. ياسين شهاب شكري، المرجع في تاريخ العراق الحديث، بغداد، بيت الحكمة، ٢٠٢١م.

٣٣. يوسف رزق الله غنيمة، تجارة العراق قديمًا وحديثًا، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٩٢م.

ثانيا: الرسائل والأطاريح:

٣٤. حسين كريم علاوي، مدينة بغداد في كتابات الرحالة الأجانب، (رسالة ماجستير)، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ٢٠٢٤م.

٣٥. محمد داخل كريم السعدي، المصالح الأجنبية في الموصل ١٨٣٤-١٩١٤، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٩٩م.

٣٦. ياسين شهاب شكري، ولاية بغداد: ١٨٧٢-١٩٠٩م (رسالة ماجستير)، جامعة الموصل، كلية الآداب،١٩٩٤م.

ثالثا: المصادر الأجنبية:

37. Baron k Von Kohenfield, The Strategical Importance of The Euphrates Valley Railway, (London: 1873).

38. Mustafa Aksakal ,The Ottoman Empire and the First World War, (Cambridge, University Press, 2008)

39. William Francis Ainsworth, The Euphrates Valley Railway, (London: 1872).

40. Stuart Acohen , British policy in Mesopotamia 1903-1914 , (London , 1967).

رابعا: البحوث والمقالات:

٤١. ستيفن لونكريك، (عراق البريطانيين والأتراك خلال ١٩١٥-١٩١٦م)، ترجمة سليم طه التكريتي، مجلة آفاق عربية، العدد ٦، شباط، بغداد، ١٩٧٩.

٤٢. عبد الجبار العمر، (ذيل مطالع السعود أو تاريخ الشاوي)، مجلة آفاق عربية، العدد السادس والسابع، السنة السادسة، بغداد شباط آذار ١٩٨١م.

٤٣. هاشم صالح التكريتي، (التغلغل الألماني في المشرق العربي قبيل الحرب العالمية الأولى)، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٧، السنة الثانية عشرة، بغداد ١٩٨٦م.

٤٤. ياسين شهاب شكري، (العراق ومشروع سكة حديد وادي الفرات دراسة تاريخية في ضوء التقارير البريطانية)، مجلة كلية التربية للبنات /جامعة الكوفة، العدد ٢٤، السنة الثالثة عشرة، ٢٠١٩م.

خامسا: الجرائد:

٤٥. جريدة الزوراء، العدد ١٢، ٢٣ جمادي الأولى ١٢٨٦هجرية، ١٩ أغستس ١٢٨٥ شمسي.

٤٦. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٢٦، ١٦ رمضان المبارك ١٣٣٣، ١٦ تموز ١٣٣١، السنة السابعة والأربعون.

٤٧. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٤٤، ٢٤ محرم الحرام ١٣٣٤، ١٩ تشرين الثاني ١٣٣١، السنة الثامنة والأربعون.

٤٨. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٤٧، ١٦ صفر الخير ١٣٣٤، ١٠ كانون الأول ١٣٣١، السنة الثامن والأربعون.

٤٩. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٦٦، ٢ رجب الفرد ١٣٣٤، ٢١ نيسان ١٣٣٢، السنة الثامنة والأربعون.

٥٠. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٦٧، ٩ رجب الفرد ١٣٣٤، ٢٨ نيسان ١٣٣٢، السنة الثامنة والأربعون.

٥١. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٦٨، ٢٣ رجب الفرد ١٣٣٤، ١٢ مايس١٣٣٢، السنة الثامنة والأربعون.

جيوبولتيك سورية
وأهميّتها من منظار الاستعمار الفرنسي

د. إبراهيم أحمد سعيد[1]

الملخص

نظرًا لموقع سورية المتميز في إقليم المشرق العربي وشرقي البحر المتوسط وقربها من عاصمة السلطنة العثمانية، ولغناها بالآثار التاريخية ولوقوعها المتوسط بين البحر المتوسط وبلاد ما بين النهرين وشرقها، فقد أولت فرنسا أهميةً كبيرةً لسورية فعدّتها أساس ومرتكز اهتمامها بالسلطنة وبمستقبل المنطقة.

يهدف البحث إلى التركيز على الوضع الجيوسياسي لسورية الكبرى وللمتغيرات الجيوبولتيكية خلال فترة ما قبل الاستعمار الفرنسي والبريطاني خلال تراجع سلطة الدولة العثمانية، وتنامي الوعي القومي العربي في بلاد العرب عمومًا، وفي سورية خصوصًا، وركّز البحث على المؤامرات التي حيكت بين الدول الاستعمارية، خصوصًا فرنسا وبريطانيا، كاتفاقية سايكس - بيكو، وتلاها كذلك وعد بلفور. وقد تم إظهار موقع سورية الفلكي والجغرافي والاقتصادي والحضاري.

تطرّق البحث للعوامل التي دفعت بالأحداث في سورية نحو التفجّر والتغير الجيوسياسي في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى كتنحية السلطان عبد الحميد الثاني، ووصول الاتحاديين إلى السلطة، وتلاه التطرف والتعصب التركي ضد العرب، ثم الصراع المحتدم بين الاتحاديين أنفسهم (طلعت وأنور وجمال)، وما فعلوه في سياسة تتريك الدولة العثمانية، وإعدام القوميين العرب في عام ١٩١٦ م.

الكلمات المفتاحية: اتفاقية سايكس - بيكو، وعد بلفور، جمال باشا، الشريف حسين، الاستعمار الفرنسي والبريطاني.

---

١. أستاذ الجغرافية السياسية في جامعة دمشق وجامعة الشام الخاصة.

مقدمة

تُشكل سورية الكبرى (الطبيعية) وحدةً سياسيةً متميزةً في إقليم شرق البحر المتوسط وفي جنوب غرب آسيا، أو ما يُعرف بإقليم الشرق الأوسط، فهي تمتد، كمصطلحٍ جيوسياسي قديم، من العريش على حدود سيناء إلى مرسين في جنوب تركيا حاليًا، ونظرًا لما تحتويه من عناصر جغرافية مهمة لأيّة دولةٍ أو امبراطوريةٍ تهيمن على الإقليم الكبير، فقد احتلت مكانةً متفردةً في السلطنة العثمانية للأسباب الآتية:

- قربها الجغرافي من مقر عاصمة السلطنة (الأستانة)، وبالتالي تأثيرها في إدارة الدولة.
- تداخلها في مناطق متعددة مع التوزع والتركز الجغرافي التاريخي للقبائل التركية الأساسية التي أسست السلطة السياسية التركية التي عُرفت فيما بعد بالسلطنة العثمانية.
- احتوائها على مراكز حضاريةٍ ذات مكانةٍ روحيةٍ جذريةٍ بالنسبة للديانات السماوية، الإسلام والمسيحية واليهودية.
- الغنى الكبير في الآثار والأوابد التاريخية، بحيث تُشكل جذرًا حضاريًا للثقافة الإنسانية كما قال عالم الآثار الفرنسي شارل فيرلو: (لكل إنسان وطنان وطنه الأم وسورية).
- الغنى بثرواتها الطبيعية الكبيرة، خصوصًا الزراعية منها، حيث كانت تطعم امبراطوريات كبيرة (الإمبراطورية الرومانية)، وتؤمن احتياجات الجيوش القديمة.
- موقعها الجغرافي المتوسّط بين البحر المتوسط وبلاد ما بين النهرين وفارس، وآسيا الصغرى ومصر وشبه جزيرة العرب، وبالتالي فهي حلقة وصلٍ ذات قيمةٍ إستراتيجيةٍ في كلّ الجهات، وفي مناطق التوسع والحركة والربط والانتهاء، وطرق القوافل التجارية والحركة الاقتصادية الحيوية في الحضارات القديمة، بين أوروبا وآسيا وأفريقيا ضمن الخطوط البرية والبحرية على حد سواء.

يهدف هذا البحث إلى التركيز على الوضع الجيوسياسي لسورية الكبرى والمتغيرات الجيوبوليتيكية خلال فترة ما قبل الاستعمار الفرنسي والبريطاني، خصوصًا في فترة تداعي وتراجع السلطنة العثمانية وما تخللها من تقدّم في الوعي القومي وظهور الأحزاب السياسية العربية والتركية وغيرهما وبداية الحرب العالمية الأولى، وما عُرف بالثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين بن علي، ثم اتفاقية سايكس بيكو وتقسيم المنطقة العربية الآسيوية، ووعد بلفور وخروج الأتراك

العثمانيين من سورية في تشرين الأول من عام ١٩١٨م ، حيث بدأ العهد الوطني بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، الذي امتد حتى ١٩٢٠/٧/٢٦م عندما دخل الجنرال غورو مدينة دمشق، بعد معركة ميسلون، معلنًا بداية الاستعمار (الانتداب) الفرنسي على سورية، وتقسيمها إلى خمس دول بالإضافة لسيطرة بريطانيا على الجزء الجنوبي منها، وهي فلسطين والأردن.

سيتم استخدام المنهج التاريخي ومنهج التحليل العاملي في إنجاز هذا البحث بالإضافة للأسلوب الكارتوغرافي لرصد وإظهار المتغيرات الجيوبوليتيكية في المنطقة.

أولًا: موقع سورية وأهميته الاستراتيجية

تشكّل دراسة الموقع فاتحة كلّ دراسةٍ مهما كان مستواها ونوعها؛ لأنّ كثيرًا من المتغيّرات والظواهر الطبيعية والبشرية والاقتصادية والسياسية يمثّل الموقع مفتاح فهمها وحسن تحليلها وتطوير مهامها ووظائفها وفي هذه الدراسة سنتطرق إلى أبعاد وأنواع وأهمية موقع سورية في الجغرافية السياسية وفي الجيوبوليتيك. وأهم أشكال الموقع الآتي:

١. الموقع الفلكي:

يُقصد بالموقع الفلكي المكان الذي تشغله أيّة بقعةٍ على سطح الأرض، دولة أو كانت أو إقليمًا، وأقلّ من ذلك أو أكثر، بالنسبة لشبكة الإحداثيات العالمية المتبعة، وهي دوائر العرض وخطوط الطول.

إنّ لموقع سورية الفلكي أهميةً كبيرةً من خلال وقوعها في منتصف الخريطة العالمية في العروض المعتدلة وسطًا بين خط الاستواء والدائرة القطبية، وما يتفتق عنه من نتائج متعددة مهمة كالموازنة الحرارية والمناخ المناسب للزراعة واعتداله، وعدم تطرفه، ووقوعه بين حضارات الشمال والجنوب والشرق والغرب.

٢. الموقع الجغرافي:

تقع سورية (الطبيعية) في الزاوية الجنوبية الغربية للقارة الآسيوية، وتمثّل غزة نهاية سورية، وهي صلة الوصل بين آسيا وأفريقيا وبوابة غزو مصر[١]، وتواجه القارة الأوروبية، وتُشرف على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط الذي يُعد أهم بحار العالم وأكثرها حيوية وضخًّا في الحضارة

١. سامي كليب، تدمير العالم العربي، ص٣٥.

الإنسانية. وهي بوابة تركيا إلى الوطن العربي، وتعدّ الظهير الجغرافي للعراق غربًا، وهي تُعد التتمة الطبيعية والاستمرار المجالي لشبه الجزيرة العربية، حيث كان التواصل الحيوي بين اليمن والحجاز ونجد وبلاد الشام.

٣. الموقع الاقتصادي:

تمثّل سورية صلة الوصل بين المناطق الجغرافية الآتية:

أ. العراق في الشرق.
ب. البحر المتوسط في الغرب.
ج. تركيا في الشمال.

إنّ هذا الموقع المتوسط يمتلك أهميةً اقتصاديةً كبيرةً في تجارة الترانزيت بين أوروبا (برًا) عن طريق تركيا، وشبه جزيرة العرب (دول مجلس التعاون واليمن). ووقوع سورية في منطقة متوسطة بين المناطق الاقتصادية المحيطة بها يجعلها مكانًا مناسبًا للاستثمارات الاقتصادية وإقامة المشاريع الإنتاجية والخدمية وفقًا لنظرية الموقع، وهذا ما يسمح لتطوير وتنمية الموانئ وجعلها قادرةً على تلبية متطلبات الظهير الجغرافي لها الخليجي والعراقي ووسط آسيا.

٤. الموقع الثقافي والحضاري:

تُمثّل سورية الطبيعية (بلاد الشام) عمق العالم المتحضر، لما لها من أهميةٍ كبيرةٍ في الحضارة الإنسانية، فمن هنا نشأت حضارة الكتابة والأبجديات التي تعدّ عملية إبداعية في تاريخ البشرية، ومن هنا كانت البدايات لاستخدام الأرقام والترميز والصفقات التجارية، ومن سورية كانت ثقافة البحار والانطلاق نحو العوالم الأخرى، ومنها انتشرت الديانات السماوية (المسيحية واليهودية وكذلك الإسلام)، ولا يوجد في العالم تنوعٌ دينيّ وثقافيٌّ متناغمٌ في العالم كلّه كما هو موجود في سورية. لقد اختصرت سورية التآلف الإنساني.

إنّ لهذا الموقع أهميةً كبيرةً في تاريخ البشرية فالحضارة السورية وسطًا بين الحضارة المصرية وحضارة ما بين النهرين، وكانت وما زالت وسطًا بين الشرق والغرب. ومن سورية مرّت ووصلت حضارة الإغريق والرومان والفرس والفرنجة، وجحافل التتار والمغول والعثمانيين ثم الأوروبيين والصهاينة، ولم تتعرض منطقة في العالم للمؤامرات والتقسيم والتخريب كما تعرّضت له سورية الكبرى، كما حصل في وعد بلفور واتفاقية سايكس بيكو، وزرع دولة معادية للعرب وللحضارة العربية في عام ١٩٤٨م.

٥. موقع سورية في نظريات الجيوبوليتيك العالمية:

تقع سورية في نظرية هالفورد ماكندر (نظرية قلب العالم) [١] في منتصف الجسر الواقع بين القلب الكبير في وسط آسيا وشرق أوروبا، وبين القلب الصغير في وسط أفريقيا والممتد من مصر إلى القفقاز. وبالوقت نفسه في وسط المنطقة المحورية، الهلال الداخلي الممتد من سهول البلطيق في الشمال الغربي إلى كوريا في الشمال الشرقي من الخريطة السياسية، فسورية هي المنطقة الوسطى العالمية في نظرية ماكندر. أما في أفكار سبيكمان التي حاول فيها أنْ يتلافى نواقص نظرية ماكندر، فقد حدّد النطاق الساحلي (Rimi Land) الريميلاند، الذي هو منطقة التصادم بين القوى البرية والتي تمثلها منطقة قلب الأرض عند ماكندر وبين القوى البحرية التي يمثلها الهلال الخارجي عند ماكندر، وسورية تحتلّ أيضًا المنطقة الوسطى في الريميلاند والممتدة من هولندا وحتى شبه جزيرة كامتشاتكا الروسية، ومن يسيطر على هذه المنطقة يسيطر على العالم كلّه في النهاية، ممّا يُعطي لسورية أهميةً كبيرةً في الجيواستراتيجيا العالمية.

ثانيًا: العوامل التي دفعت بالاستعمار الفرنسي والبريطاني للاهتمام بسورية واحتلالها

توجد جملةٌ من العوامل التي دفعت بالاستعمار الفرنسي والبريطاني للاهتمام بسورية واحتلالها، ويمكن تحديدها بالآتي:

١. أهمية موقع سورية في المشرق العربي وشرقي المتوسط عمومًا، وبوابة الانتقال إلى أفريقيا، وما تمتلكه من مراكز روحية مهمة.

٢. الاندفاع الشديد من بريطانيا وفرنسا للتوسع والهيمنة على مناطق واسعة من العالم عمومًا، وفي حوض المتوسط خصوصًا.

٣. التنافس الشديد بين الدولتين الأوروبيتين للاحتلال والسيطرة على أراضي وبلدان الدولة العثمانية، الرجل المريض، التي بدت وكأنّها تلفظ أنفاسها الأخيرة مع استلام الاتحاديين للسلطة وتنحية السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٩٠٨م، وتحوّل الدولة إلى دولةٍ طورانيةٍ تركيةٍ قوميةٍ شوفونيةٍ ضد العرب.

٤. شعور شعوب مكونات الدولة العثمانية أنّهم مظلومون ومضطهدون، وفي مقدمتهم السكّان العرب السوريون والعراقيون وفي الحجاز ونجد، ممّا يُشكل عامل نبذ وتدمير للدولة (الطرد المركزي) من جهة، وعامل جذبٍ وتدخّلٍ من الدول الأوروبية الطامعة في احتلال هذه البلدان.

١. إبراهيم سعيد، الجيوبولتيك السوري، ص٢٧-٣١.

٥. وجود أسرةٍ حاكمةٍ طموحةٍ في مصر، محمد علي باشا، حاولت ونجحت بداية في منتصف القرن التاسع عشر، بالتوسع إلى الحجاز وسورية والوصول إلى الحدود الطبيعية لسورية في سفوح جبال طوروس، وعادت العقيدة الاستراتيجية القديمة بأنّ أمن مصر هو من سورية، وأنّ مصر تشكّل الحضن الآمن لسورية، فهما يشكّلان وحدةً جغرافيةً سياسيةً يكملان بعضهما البعض؛ ولهذا كان التدخل الإنكليزي والفرنسي لمنع محمد علي باشا (ابنه إبراهيم باشا) من ضم سورية والحجاز إلى مصر؛ لأنّه سيصبح قوةً عظيمةً تهدّد مصالح الغرب، ويُشكل وحدةً سياسيةً (دولة) مانعةً بين الشرق المتمثل بإيران والهند، والغرب المتمثل بأوروبا بكلّ ما تملكه من مصالح في ذلك الشرق .

٦. التنافس على سورية بهدف تنفيذ المشروع الصهيوني فيها من قبل بريطانيا، حيث توضعت أسسه الاستراتيجية خلال مؤتمر كامبل بنرمان في عام ١٩٠٧م، بوظيفة فصل شمال أفريقيا العربي عن المشرق العربي، وإقامة الدولة الصهيونية كوطن قومي لليهود، ولتكون قاعدةً متقدمةً للغرب في المشرق، أمّا من الجانب الفرنسي فقد فشل مشروع نابليون ١٧٩٨- ١٨٠٣م، أمام أسوار عكا وجرّت فرنسا ذيول هزيمتها من المنطقة، ولكن من خلال الجمعيات التبشيرية، خصوصًا في لبنان، استطاعت أنْ تعود مرةً ثانيةً خلال أحداث عام ١٨٦٠م ، حيث دعمت فريقًا من اللبنانيين (المسيحيين) الناقمين على السلطة العثمانية والطامحين بالوقت ذاته بإقامة دولةٍ مستقلةٍ في سورية عمومًا وفي لبنان خصوصًا. وكان أساس هذا التدخّل المباشر بإقامة الجمعياتٍ الخيريةٍ، بالظاهر، والساعية لأهداف سياسيةٍ واضحةٍ ومعلنةٍ بإنشاء كيانٍ سياسيّ تحت حمايةٍ فرنسيةٍ، وبالوقت ذاته تنصير المسلمين الفقراء بتقديم المساعداتٍ الغذائية المشروطة مستغلةً حالة الفقر الشديد والظلم والقهر التي أوجدتها السلطات العثمانية.

لقد كان لبريطانيا الدور الكبير المدمّر، خلال تنافسها بالاستيلاء على سورية خصوصًا على المنطقة العربية عمومًا، حيث ركبت موجةً مغايرةً لما ركبته فرنسا التي استخدمت واستغلّت العامل الطائفي كما لاحظنا، فاستخدمت العامل القومي، الذي كان قد وصل إلى درجةٍ متقدمةٍ متأثرًا بالحركة القومية في أوروبا. فقد قدّمت بريطانيا الدعم للقوميين العرب بإنشاء جمعياتٍ عربيةٍ، مقابلة للجمعيات التركية القومية المتطرّفة كجمعية تركيا الفتاة، وقد كانت في البداية كفكرةٍ متطورةٍ من التيار الإسلامي العربي كحركة الجامعة الإسلامية المتأثرة بكتاب أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٢-١٩٠٢)، ولكن منذ عام ١٩٠٦ م بدأت بالتشكل جمعياتٌ سياسيةٌ تدعو إلى التعصّب القومي، ونشر وتعليم اللغة العربية بين أبناء الوطن في كلّ البلدان العربية الواقعة تحت الاستعمار العثماني، وقد تألّفت جمعية النهضة العربية، التي أسّسها طاهر الجزائري وجمال الدين

القاسمي. وفي عام ١٩٠٩م، تأسست الجمعية القحطانية، والمنتدى الأدبي بجهود عبد الرحمن الزهراوي، وعبد الكريم الخليل.

وكانت أكبر هذه الجمعيات جمعية العربية الفتاة التي استمرت حتى الاستعمار الفرنسي، واستقرت في باريس. خطورة التدخل البريطاني في هذه الجمعيات هو دفع روادها القوميين إلى حد إشهار أسمائهم وإيصالها إلى جمال باشا السفّاح؛ ليقتلهم ويريح الإنكليز منهم عندما تبدأ اللحظة المناسبة للاستيلاء على ديار العرب وبالوقت ذاته تدفع بالعرب، خصوصًا القوميين منهم، إلى التمرد المباشر وحمل السلاح مع الإنكليز والفرنسيين عندما يُقررا ذلك، قد ظهر هذا واضحًا مع بداية الحرب العالمية الأولى وحاجة الحلفاء لأن يقف العرب بقادتهم القوميين إلى جانب الحلفاء من جهة، والتمرد على العثمانيين وإخراجهم من ديار العرب.

وإذا أضفنا اتفاقية سايكس - بيكو ، التي عقدت في ١٩١٦/٥/١٦م ، تبيّن لنا درجة التنافس بين الدولتين على اقتسام ديار العرب ومؤامرة إقامة الوطن القومي اليهودي، نجد بأنّ الاتفاق بحد ذاته هو بلورة للتنافس الاستعماري والتنسيق بينهما في الهيمنة وسرقة خيرات الشعوب ومواردها، وإذا دخلنا بالتفاصيل وجدنا تعبير الدول الاستعمارية عن مصالحها بالوقاحة وعدم احترام حقوق الآخرين، فقد روّجت فرنسا عبر قناصلها في المنطقة العربية بوجود قضيةٍ سوريةٍ محتواها أنّ السوريين يريدون الاستقلال والحماية من فرنسا، وقد أدخلوا روسيا القيصرية على خط التنافس معهما، ولكن الشيء المثير للاستغراب وقوف هذه الدول مجتمعةً ضد ألمانيا ، التي كان لها مصالح في الاسكندرون وسورية الشمالية، ودخلت إيطاليا كذلك على خط الابتزاز فكانت تريد مقابل موافقتها لفرنسا باحتلالها سورية وبعض الجزر في شرق المتوسط ، وفي بحر إيجة. في مجلس الشيوخ في ١٩١٢/١٢/٢٤م بأنّه لا مصالح لإنكلترا في سورية، وأنّه يجب المحافظة على أراضي تركيا في آسيا (يقصد المشرق العربي)، وأنّ فرنسا لن تتنازل عن مصالحها في سورية، ولن ندعها عرضة لأيّ خطر. وقد كتب سفير فرنسا في ألمانيا إلى حكومته بألّا تدع الصحف الفرنسية تكتب عن الدولة العثمانية؛ لأنّ لألمانيا مصالح في سورية وفلسطين، وكذلك لإيطاليا وروسيا مصالح فيها أيضًا، وقال: يجب انتظار موت الرجل المريض، الذي طال مرضه، ومن ثم يتم كلّ شيءٍ بعد ذلك. أمّا الروس فقد كانوا متعقلين باهتمامهم في سورية ولكن بطريقةٍ مختلفةٍ بعض الشيء، فهذا قنصلها في بيروت يقول: بأنّه لا يُعطي الأحداث في سورية أهميةً بالغةً، حيث يجب أنْ يكون السوريون وحدهم المهتمين بأمورهم.

وكانت فرنسا تطمح بالحصول على حق مد سكة حديد اسكندرون – بغداد حتى تقطع على ألمانيا أطماعها في المكان ذاته، وإذا لم تتمكن من ذلك فقد وضعت بديلاً لهذا وهو العمل على مد خط حلب – رياق ومنها إلى الرملة في فلسطين وطلبت كذلك حتى تتمكن من سورية كلّها إعطاءها امتيازات إنشاء مرفأين في طرابلس ويافا، وقد وافق الباب العالي على ذلك [١].

لقد نسّقت كلٌّ من فرنسا وألمانيا اقتسام المصالح في سورية والابتعاد، على الأقل ظاهريًا، عن التناقض في المواقف والمصالح، وفق اقترحت فرنسا على ألمانيا بمدّ سكة حديد بين حلب واسكندرون مع ربطه بخط بغداد، بالمقابل تقوم فرنسا بمد خط حديد حماه – طرابلس وحماه دير الزور، ثم ربطه بسكة بغداد.

وقد أُغلق هذا الاتفاق باقتسام المصالح المرتبطة بكلتا الدولتين بمسافة لا تزيد عن ٦٠ كم شمال وجنوب كلّ خط من الخطين السابقين[٢]. ولكن بريطانيا لم تقف صامتةً وخصوصًا بالنسبة لجنوب سورية حيث عارضت بشدة قيام فرنسا بمد سكة حديد الرملة فالحدود المصرية متذرعةً بأنّ حركة الموانئ في هذه المناطق تحقق الفائدة المرجوة، وأنّ حركة التجارة بين البلدين ليست كبيرة، والأهم من ذلك هو وضع بريطانيا حجة أن السوريين سيتدخلون في الشأن المصري، ويؤثرون على أمن مصر، ولكن الأمر ليس كذلك، بل في الواقع كانت بريطانيا لا تريد أنْ ترى بفلسطين جزءًا من سورية خصوصًا أنّها ستصبح تحت الحماية الفرنسية.

لقد ظهرت مكانة سورية بالنسبة لفرنسا، خصوصًا لبنان، في السياسة الدولية بعد أنْ تم تعيين جورج بيكو سفيرًا لها في بيروت؛ لأنّ شعاره المعلن للدبلوماسيين الأجانب بأنّ « لبنان لنا، ولا حياة له دوننا». ولعل قولته عند مغادرته بيروت، بعد أنْ بدأت الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا الحرب لجانب ألمانيا، تُظهر موقف وسياسة فرنسا تجاه سورية: إلى اللقاء القريب، إنّها مسألة أيام معدودة، وسأعود إليكم على رأس جيشنا المنتصر[٣].

وقبل بداية الحرب العالمية الأولى تزاحمت الأساطيل الحربية الأوروبية، المتنافسة على سورية، مقابل الشواطئ السورية وفي المياه الإقليمية أمام يافا وحيفا وبيروت واسكندرون، من الجنسيات البريطانية والفرنسية والألمانية والروسية.

١. جاك بيشون، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى، ص ١٣٣.

٢. الحصري، ساطع، البلاد العربية، ص٢١٨-٢١٩.

٣. الخوري، بشارة، حقائق لبنانية، ص ٨٥-٩٣.

لقد ازدادت أهمية سورية مع بداية الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا الحرب مع ألمانيا وحصار الحلفاء للمياه الإقليمية السورية؛ لأنّها صلة الوصل مع العراق والشرق ومع شبه جزيرة العرب، وبروز ضرورة القيام بحربٍ قويةٍ وكبيرةٍ على قناة السويس الممر الحيوي الاستراتيجي، الذي تسعى كلّ الدول للهيمنة عليه حصوصًا في أوقات الحروب الكبيرة كالحرب العالمية الأولى.

ثالثًا: العوامل التي دفعت بالأحداث في سورية نحو التفجر والتغير الجيوسياسي في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى

لقد دفعت جملة من العوامل الأحداث في سورية جاءت نتائجها سريعةً وفاصلةً على مستقبل سورية والمنطقة العربية، وأهمها الآتي:

- تنحية السلطان عبد الحميد الثاني، وتسليم أخيه محمد رشاد في عام ١٩٠٩م، وما تبعه من نقمةٍ على العرب؛ لأنّ الاتحاديين الذين انقلبوا على السلطان عبد الحميد يرون أنّه كان يُقرّب العرب، وكانوا حرّاسه الشخصيين.

- على الرغم من أنّ شعار الاتحاديين، كان شعار الثورة الفرنسية في الحرية والعدالة والمساواة، وعلى الرغم من أنّهم أطلقوا سلطة الدستور، ممّا سمح للعرب تكيل جمعياتهم ونشر ثقافتهم ولغتهم ومشاعرهم القومية [١]، إلا أنّهم انقضّوا بعد أسابيع على الدستور ذاته وعلى العرب، وأسّسوا جمعية (حزب الاتحاد والترقي)، التي يُشكّل الماسونيون وغير المتدينين فيها نسبة ٣٠٪ [٢]. وحاولوا خلالها، مؤيدة من الأجهزة الأمنية تتريك الدولة العثمانية، وفرض اللغة التركية على الجميع، ولأجل التتريك تم تأسيس الاتحاد الطوراني، الذي اتبع خطوات عدة فاعلة: كترجمة القرآن إلى التركية، وعلمنة التعليم والقضاء وفرض اللغة التركية فيهما، وإحياء التاريخ التركي السابق للإسلام، وإعادة الأسماء التركية القديمة.

- لقد دفع التطرّف التركي العرب للردّ باتباع إجراءاتٍ تُغلّب الهُوية العربية والانتماء للعروبة كالاهتمام بالتراث العربي والإسلامي، والقرآن الكريم، واللغة العربية، والاهتمام بالقومية العربية والانتماء العربي والهُوية العربية.

- تلاقي الصراع بين الانقلابيين الاتحاديين (أنور وطلعت وجمال)، وبين السلطان عبد الحميد المخلوع على الأراضي السورية؛ لوجود مناصرين لعودة السلطان، وقد سموا بالارتجاعيين،

١. أديب خضور، الصحافة في سورية، ص٩٣.

٢. المنار، م١٦، ج٢، ص١٣٦-١٤٠.

أي الذين يريدون عودته إلى الحكم وأسسوا حزبًا باسم الحزب المحمدي، وقد دُعم هذا الحزب بالمال الكثير ووصل عدد الذين انتسبوا إليه لـــ ٧٠ ألفًا، وكان له تأثير عظيم [١]. يبدو أنّ السلطان عبد الحميد كان يريد إشغال الاتحاديين بإيجاد اضطراباتٍ داخليةٍ ليندفع الغرب بالتخل ممّا يساعده بإقامة ثورةٍ تعيده للحكم[٢].

- لم تكن أركان الحكم الاتحادي متجانسة، حيث يحدّد تقرير للمخابرات الفرنسية في الفترة ذاتها (١٩٠٩-١٩١٠ م) بأنّهم يحكمون السلطنة بدكتاتوريةٍ مطلقةٍ وأنّهم مغامرون، والسلطان لا يعمل شيئًا، وكلّهم شركاء في جرائم كثيرة، ويقتسمون الأدوار، فطلعت صديق للروس، وجمال صديق للفرنسيين، وأنور صديق الألمان، وجاويد يهودي أصبح مسلمًا.
- مع بداية تفكك أطراف الدولة العثمانية في أوروبا بدأت هيبتها بالتراجع؛ فانتشر قطّاع الطرق في مختلف أقاليمها، فتراجع الأمن الغذائي، ونُهبت مخازن ومستودعات الأغذية، حتى العسكرية منها، وزادت غزوات البدو على الأرياف والمدن. ولعلّ من الأحداث التي غيرت حالة الاستقرار في سورية، حدوث ثورات عدة في عام ١٩١٠م، واحدة في الكرك والأخرى في حوران، وقد تم قمعهما بشدة، وأسباب هاتين الثورتين اجتماعية بالدرجة الأولى، وإدارية (سياسية) بالدرجة الثانية لزيادة الضرائب (ضريبة الالتزام) [٣]، وإجراء إحصاء في المنطقة، وهذا يعني أنّ أولادهم ستأخذهم الدولة للحرب، وقطع العطاء عن مشايخ الكرك، وعدم الالتزام بنتائج الانتخابات المحلية. أمّا الثالثة فكانت في جبل العرب للأسباب السابقة مع وجود أسبابٍ أخرى، عدم حيادية الدولة في خلاف نشب بين آل أطرش وآل المقداد في حوران، ولجوء كثيرٍ من أحرار المجتمع السوري إلى الجبل واحتمائهم فيه، ويقول سلطان باشا في مذكراته: « أصبح الجبل منذ مطلع القرن العشرين حمى الأحرار العرب من كلّ حدب وصوب» [٤]، وقد تدخّل الإنكليز لصالح ثورة الجبل ودعموها بقدوم القنصل الإنكليزي في دمشق إلى الجبل[٥]. وانتهت بإعدام والد سلطان باشا وحمة آخرين.

١. محمد علي، خطط الشام، ج٢، ص١٢٠.

٢. علي سلطان، تاريخ سورية، نهاية الحكم التركي، ص٧٩.

٣. ضريبة الالتزام هي ضريبة اتبعتها السلطنة العثمانية لإيفاء الديون التي اقترضتها منذ عام ١٨٥٤ من أوروبا، وهي التزام السلطنة باتخاذ إجراءات شديدة تؤمن دخلاً إضافياً لتسديد الديون. ونظام الالتزام أو المالكانة يلزم مالك الأرض بدفع مبالغ عن عائدات الأرض لشخص معين يلزم بجبايتها لقاء مبلغ يدفعه مدى الحياة.

٤. مذكرات سلطان باشا، مجلة المساء، ع ٩٧، ك ١.

٥. شكيب أرسلان. سيرة ذاتية، ص ٤٢.

ويقول سلطان باشا في مذكراته إنّ التهم التي وجهت لهم هي الخروج على الخلافة، والكفر بالإسلام.

ـ لقد عملت سياسة التتريك والتعصب القومي الطوراني في تطوّر الأحداث في سورية نحو التمرد والثورة على الدولة العثمانية، ولكن تقرّب السلطة الاتحادية من اليهود والصهيونية، والسير بالمشروع الصهيوني، سواء كانوا يعلمون ذلك حقيقة هذا المشروع أم لا، على حساب المصالح الأمريكية، زاد من شدة الموقف العربي ضد الأتراك، وقد تأكّد للعرب عدم مراعاة المصالح والحقوق العربية عندما لم يُعيّن أيّ عربي ممثّلاً لمدينة دمشق في اللجنة المركزية للاتحاد والترقي، وأنهّم كلهم أتراك. وحدّدت مجلة المنار جملة من الإجراءات الواجب تطبيقها لتلافي الخلاف بين العرب والأتراك وتهدئة المتغيرات التي تدفع بالأحداث نحو الانفجار: كالمساواة بينهما، وقطع عروق العصبية، والعناية بتعليم اللغة العربية، والاهتمام بنشر المعارف والعلوم، والعمل على تنفيذ القانون [١].

ـ اتّهام النوّاب العرب في مجلس المبعوثين بأنّهم يعملون لصالح السلطان المخلوع، وبالتالي فهم عملاء وجواسيس، فكان ردّ النوّاب العرب شديدًا، بل إنّ النائب شفيق المؤيد العظم شتم طلعت بيك وصفعه.

ـ قام العرب بتأسيس الحزب الحر، وهو حزب عثماني تركي عربي، شعاره أنّ الجيش لحماية الدولة في الخارج وحماية النظام، وأنّ يكون الحكم فدراليًا، والإدارة في الولايات مستقلة. وانسحب الكثير من العرب من حزب الاتحاد والترقي، ودخلوا في الحزب الحر المعتدل؛ نتيجة للتعصب الطوراني في حزب الاتحاد، ولمساعدة وزير المالية العثماني (جاويد)، ببيع اليهود ثلاثة ملايين دونم في فلسطين [٢].

ـ لقد كان لإنشاء جمعية ترك أوجاعي، والتي تعني الموقد التركي أو الوطن التركي، دورٌ كبيرٌ في دفع العرب للردّ على التعصّب التركي الجديد، فالبنية الفكرية لهذه الجمعية قامت على أساس الانتماء للعرق والأصل وليس للأفراد؛ ولذلك فعثمان الذي تنتمي إليه السلطنة العثمانية ليس إلّا تركي جاء من التاي (جبال في وسط آسيا). وتبع ذلك نشر كتاب (قوم جديد)، الذي فسّر القرآن بما يتوافق والحاجات الطورانية، ودعا لإغلاق المساجد والزوايا الدينية وإلغاء خطبة الجمعة وترجمة القرآن وتتريك أسماء الخلفاء الأتراك، ووضعهم مكان

١. مجلة المنار. ج١٢، م١٢، ك ٢

٢. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي، ١٩٠٨-١٩١٨م.

الخلفاء العرب، وأنّ أسماء الخلفاء الأتراك قد قدّستهم الأحاديث النبوية [١].

- زيادة التدخل الأجنبي في بنية المجتمع السوري وفي النسيج الاجتماعي ذاته؛ فقد أصبحت فرنسا حاميةً للموارنة والكاثوليك، بينما كانت روسيا حاميةً للأرسوذكس، أمّا البروتستانت والدروز فقد أصبحوا تحت الحماية البريطانية، وبقيت سنّة سورية تحت رعاية الدولة العثمانية. وقد كان للبروتستانت حق التنصير والتبشير بين العشائر العلوية [٢]. ولعلّ في تمحور السياسة البريطانية والفرنسية في سورية حول السياسة الطائفية الداخلية وإحراج الدولة العثمانية في السياسة الخارجية، الدور المهم في دفع الأحداث، قبيل الحرب العالمية الأولى، نحو التفّجر. وكانت بريطانيا تريد بكلّ وضوح استقلال سورية، وفصلها عن الدولة العثمانية، والعمل لإنزال قواتٍ عسكريةٍ في مينائي اسكندرون في الشمال وحيفا في الجنوب. أمّا من الجانب الفرنسي فقد رفعت تقارير إلى الخارجية في ت٢ من عام ١٩١٢م، ترى بأنّ القضية السورية تنقسم إلى قسمين الأول: متعلق بلبنان والثاني: متعلق بسورية. ويُنظر لسورية وفق ثلاث حالات، وهي إمّا في الاستقلال التام، وإمّا الاستقلال الذاتي بالحماية من قوة أجنبية، وإمّا ربطها بمصر.

- وفي حقيقة الأمر كانت فرنسا تريد أنْ تكون سورية تحت حمايتها وفقًا لما أعلنته جمعية الدراسات الاستعمارية والبحرية الفرنسية بأنّه يجب أنْ تكون سورية، في حالة انسلاخها عن الإمبراطورية العثمانية، تحت سلطة فرنسا، وأنّه يجب ألاّ يُسمح لأية منطقةٍ أخرى غيرها بأنْ تتمتع بهذا الحق. وكتب سفير فرنسا في إستانبول بأنّ السوريين يريدون الاستقلال الكامل لسورية وجعل الخليفة عربيًا، وهذا لا يتوافق مع ما تقوله بريطانيا بأنّهم يريدون الانضمام إلى مصر، وأنّه من أصل ٣,٥ مليون سوري لا يؤيد الانضمام لمصر إلا ٣٥ ألفًا، وهم من البروتستانت وطلاّب الجامعة الأمريكية في بيروت وحلب.

- خلال عامي ١٩١٠-١٩١١م، حصلت مجموعةٌ من الأحداث أدّت إلى تفاقم العلاقة بين العرب والأتراك، مثل تدهور العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، بسبب احتلال إيطاليا لليبيا، وضربها للسواحل السورية، وزيادة التعصب القومي التركي، وازدياد تيار الهجرة إلى الأمريكيتين بسبب الظلم والفقر وانخفاض أجور السفر، بالمقابل ازدياد هجرة اليهود إلى فلسطين، وإعادة العمل بالخط الحديدي الحجازي، ومد خط حديد بيروت – دمشق،

١. مجلة المنار، م١٧، ص٥٤٤.

٢. الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، ص٩.

وتعبيد الطريق بينهما، وهذا سهّل حركة الناس والسلع والمنتجات، فأسهم بتطوّر المفاهيم القومية، كما كان لبدء العمل بالنقل النهري في الفرات بين سورية والعراق الدور ذاته، ولا يقلّ عن ذلك أهمية افتتاح المدارس الحكومية والأهلية، وتحسين وضع الولايات وإدارتها بتشكيل مجالس أهلية تساعد الولاة في حسن الإدارة .

ـ مع بداية عام ١٩١٤م، حصلت تغيراتٌ مهمةٌ أسهمت في زيادة تسارع المتغيّرات في سورية، ولعلّ أهمّها هو هزيمة الاتحاديين، واستلام الائتلافيين والمعتدلين؛ ممّا سهّل العمل على اللامركزية في الحكم، فتشكل حزب اللامركزية ليؤصل لتلك الأفكار والأعمال المساندة لها، وتشكّلت جمعية العلم الأخضر، التي أصدرت جريدة لسان العرب، التي أصبحت فيما بعد لسان حال المنتدى العربي وبقيت حتى الحرب العالمية الأولى. وكان لهزيمة تركيا في حرب البلقان وخسارة مناطق مهمة منها نتائج مهمة فقد حوصرت أدرنة، وهُدّدت العاصمة وتمت عودة الاتحاديين إلى السلطة. لقد تمخضت تلك الأحداث إلى ظهور ثلاثة اتجاهات سياسية أمام العرب أثرت فيما بعد على مستقبلهم السياسي وهي:

١. اتجاه يرى بأنّ خلاص سورية يكون بالغرب وبمساعدتهم المباشرة.

٢. اتجاه ثان يرى بأنّ الغرب يريد استعمار سورية وتقسيمها، وبالتالي لا بدّ من التعاون مع الأتراك لحمايتهاً من جشع الغربيين.

٣. اتجاه ثالث يرى بأنّه يجب على العرب الاعتماد على أنفسهم وتحرير أرضهم.

وبناءً على ذلك عملت الاتجاهات الثلاثة بجوار بعضها، متوافقةً أو متعارضة، ففي الاتجاه الثاني تشكّلت في بيروت الجمعية الإصلاحية البيروتية بموافقة الوالي أدهم بك، وطرحت خطة واسعة على أساس اللامركزية في الإدارة بحيث تكون الأمور الخارجية بيد العاصمة استانبول وكذلك الأمور التشريعية والعسكرية، أمّا باقي الأمور الحياتية فتخصّ سلطة الولاية ومجلسها الأهلي، وهذا الاتجاه كان الأكثر رواجًا وقبولاً في تلك الفترة، حيث كان الإصلاح واللامركزية العنوانين الأساسيين المرفوعين، لتكون الدولة عثمانية، لا عربية ولا تركية ، وقد اتضح ذلك في مؤتمر باريس المنعقد في حزيران من عام ١٩١٣م، الذي شاركت فيه معظم المؤسسات السورية. وقد خرج ببيان يتضمن الدعوة إلى العثمانية واللامركزية، ولكلّ ولايةٍ إدارة شؤونها، وهذا يعني أنّ العرب لا يريدون الانفصال، وإنّما إصلاح الدولة العثمانية، والنهوض بها، وعدم حرمان فريق

من حق من الحقوق، لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين [١]. بالوقت ذاته دعا المؤتمر لتكون اللغة العربية معتمدةً في مجلس المبعوثين، وأنْ تكون الخدمة العسكرية محليةً في أوقات السلم. في هذا المؤتمر حدّد العرب هدفين واضحين:

١. الوقوف ضد الأطماع الأوروبية.

٢. الوقوف ضد القوة العثمانية الاتحادية (أي الأتراك المتعصبين).

لكن إستانبول وقفت ضد هذا المؤتمر، على الرغم من أنّه أعلن وقوفه ضد الأطماع الأوروبية المسيحية. ولكن لم يشفع له ذلك بل حرّضت عليه كلّ من استطاعت تحريكه من شخصيات ومؤسسات ورأي عام، على أنّ المشاركين به عملاء ويحملون الجنسية الفرنسية، وأنّهم لا يمثّلون إلّا أنفسهم، وحذّرت فرنسا بانعقاد مؤتمرات مشابهة. لكن بالوقت ذاته قامت بالاتصال معهم وفاوضتهم، ولكنّها قطعت الطريق عليهم بإعطاء فرنسا امتيازات اقتصادية واجتماعية في سورية، وبذلك تراجعت فرنسا عن نصرتهم بعد أنْ وعدتهم بالنصرة. فكانت فرنسا هي المستفيدة من هذا المؤتمر، ولكن ظهر في المؤتمر رأي تبناه المسيحيون بأنّهم لا يريدون استقلال سورية، وإنّما فصلها عن تركيا، ووضعها تحت حماية فرنسا [٢].

ـ بدأت في عام ١٩١٣م العلاقة تتحسن بين العرب والأتراك بجهود بعض الشخصيات العربية المتمكنة مثل عبد الكريم الخليل، رئيس المنتدى العربي، فتمت الموافقة على التعليم الابتدائي والإعدادي باللغة العربية في جميع البلاد العربية، وأنْ يخدم العسكريون العرب في وقت السلم داخل بلدانهم، وأن يُعيّن خمسة ولاة وعشرة متصرفين من العرب، واثنين في مجلس الأعيان من العرب عن كلّ ولاية عربية. ولكن ظهر خلافٌ بين العرب أنفسهم بين السوريين والعراقيين البصراويين، حُسم هذا الخلاف بعثمانية الدولة على أساس عربي تركي. أمّا الخلاف الثاني فقد كان شديدًا وهو الجار لبناني يريد الانفصال عن سورية، ويريد بالوقت ذاته التوسّع وإقامة دولة لبنانية بحمايةٍ فرنسيةٍ، وباتجاه لا عروبي أيضًا، بالاعتماد على بعض مؤسسي جمعية النهضة اللبنانية في بيروت، وتشكيل حكومةٍ لبنانيةٍ مستقلّةٍ لتكبير لبنان، وضمّ مناطق مجاورة له [٣].

---

١. المؤتمر العربي الأول في باريس، ص١٠٣-١٠٤.

٢. شكيب أرسلان، مذكرات سيرة ذاتية، ص ١٠٩-١١٠.

٣. عزيز بك، الاستخبارات الجاسوسية في الدولة العثمانية، ص ٢٧٦-٢٧٨.

ـ قبيل الحرب العالمية الأولى تدهورت العلاقة بين العرب والترك نتيجة لاتخاذ الاتحاديين بعض الإجراءات المؤثّرة في البلاد العربية، ومن بينها سورية:

١. إسقاط النوّاب العرب العروبيين في مجلس المبعوثين، وتزوير الانتخابات، والإتيان بأتباعهم.

٢. انتقال عزيز علي المصري، الضابط العربي المميز، مؤسس جمعية العهد للضباط العرب، بتهم الرشوة وسرقة أموال الجيش والسعي لإقامة دولة عربية في ليبيا وشمال أفريقيا خارج سلطة السلطنة العثمانية.

٣. العودة إلى التعصّب القومي التركي الطوراني، وإنشاء جمعية ترك أوجاني، أو الوطن التركي.

رابعًا: المتغيرات الجيوبولتيكية في الجغرافية السورية ونشوء الدول فيها

كان لاشتعال الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤/٧/٢٨م، وتعيين جمال باشا، الذي لُقب بالسفاح، حاكمًا على سورية في ١٩١٤/١٢/٥م، الدور الكبير في مجمل المتغيرات الجيوبولتيكية في سورية خصوصًا وفي البلاد العربية عمومًا، فالحرب غيّرت من الاصطفافات الدولية، فتمايزت مواقف الدول وتحدّدت سياساتها بما يخدم الأهداف الكبيرة لتلك الدول في الصراع حتى الموت للهيمنة والسيطرة على موارد الدول الفقيرة والمستعمرة فانقسمت الدول إلى فريقين : فريق يُدعى بدول الوفاق أو الحلفاء، وكانت تمثّله بريطانيا وفرنسا وروسيا وصربيا أولاً، ثم انضمت إيطاليا واليونان والبرتغال ورومانيا والولايات المتحدة . وفريق آخر يُدعى بدول المحور أو المركز ويتكون من ألمانيا والنمسا – المجر وبلغاريا وتركيا. والذي يهمنا هنا نقطتان فاعلتان أساسيتان في مستقبل سورية، وهما على صعيد الدول: فرنسا وبريطانيا من جهة، وألمانيا وتركيا من جهة ثانية، في حين يهمنا تصارع هذه الدول على سورية، وعلى مستقبلها سواء كان ضمن تحالفهما في الصراع أم في صراعهما ضد بعضهما على الأرض السورية، وعلى المجتمع السوري ومستقبله الجيوسياسي. فكلّ فريق منهما كان مختلفًا في الواقع عن الآخر، ومصالح كلٍّ منها تختلف ضمن الفريق الواحد عن الآخر، فالكلّ ضد الكلّ مجتمعين ومتفرقين، والكلّ مع الكلّ متفقين على تجزئة سورية ونهبها والسيطرة عليها؛ لذلك أقيمت التحالفات والمعاهدات لتحقيق هذا الهدف الاستعماري الإمبريالي الصهيوني.

جاءت نقمة الاتحاديين على العرب ممثّلةً بتعيين جمال باشا حاكمًا على سورية مع احتفاظه بمهمة وزير البحرية في الدولة العثمانية؛ ففي شخصية هذا الرجل تجسّدت العنصرية والوحشية والإجرام، وكان رئيس جمعية أو نادي ترك أوجاني للشباب والشابات الأتراك، وعندما عُين حاكمًا

على سورية كان يرى بأنه مثل الإسكندر الأكبر جاء فاتحًا للبلاد العربية[١]. وقد وصفه سفير الولايات المتحدة في إستانبول هنري مورتنغو بأنّه: «كان يعرف بأنّ الإعدام من واجباته اليومية، وهو يجمع القوة والشراسة .... ضحكته ممزوجة بشيءٍ من الوحشية ... وهو يكره كلّ الشعوب كالعرب»[٢]، ويقول شكيب أرسلان عنه، وكان صديقًا له: «كان جبارًا قد بطش بالخلق، ورجفت منه القلوب، وتعّود ألا يقف في وجهه أحد، وكان مؤيَّدًا من الحزب التركي الطوراني»[٣]، ويقول يوسف الحكيم عنه: «حين جاء سورية كان شرّ خلفٍ لخير سلف، وظهرت على يده نقمة السلطة التركية على العنصر العربي»[٤].

من المفيد هنا القول بأنّ التحضيرات التركية لغزو قناة السويس إبّان الحرب العالمية الأولى لم تكن كافية، كما أكّد على ذلك حاكم سورية زكي باشا، بأنّه لا يمكن تحقيق نصر في غزو قناة السويس قبل مدّ سكة حديد إليها، وتأمين مستلزمات الحملة؛ لذلك تدخّل الألمان لعزله فورًا؛ لأنّ ألمانيا كانت تريد فتح جبهةٍ حربيةٍ في قناة السويس لتخفيف الضغط على قواتها المحاربة في أوروبا. لقد تنكّر جمال باشا لما قاله عندما وصل دمشق مرحبًا به وشاكرًا السوريين ومن حبه للعرب ودعوته للتآلف بينهم وبين الأتراك. لقد وجد جمال باشا حجةً في بعض المستجدات التي توصل إليها، كوقوف البطرك إلياس الحويك ضد الدولة العثمانية ومخابرة الفرنسيين، ووصول أنباء عن اتصال الأب شارل عبلا مع القنصل اليوناني ليُخبر الفرنسيين والإنكليز بأنّهم إذا جاؤوا بأساطيلهم لضرب السواحل السورية فسينضم إليهم بخمسة آلاف ماروني من زحلة ضد الأتراك[٥]. لم يكن جمال باشا بحاجة لحجج لينقلب على العرب فهو حاقد عليهم، وأنّه طوراني متعصّب ومتوحش. كان استعداد جمال باشا للقيام بحملةٍ على قناة السويس له تأثيره الكبير، وكان يعوّل على ثلاث نقاطٍ أساسيةٍ في هذه الحملة:

الأولى: أنْ يقاتل العرب بقوة ضدّ الإنكليز والفرنسيين تحت العنوان الطائفي.

الثانية: أنّ المصريين سيقومون بثورةٍ ضد الإنكليز عندما يعلموا بوصول الحملة إلى القناة.

---

١. عزيز بك، الاستخبارات الجاسوسية في الدولة العثمانية، ص ٦٥.

٢. مذكرات هنري مورغنتو، ص٨، ٦٥.

٣. شكيب أرسلان، مذكرات سيرة ذاتية، ص١٧٦.

٤. الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، ص ١٥٩.

5. F.O. 371\31Dec,1914, pp.129- 130.

الثالثة: ستقوم القوة الليبية التي تم تجهيزها للهجوم من الغرب على الإنكليز.

ولكن حسابات جمال باشا باءت بالفشل، فالعرب كانوا منهكين من الظلم والفقر والتمييز العنصري، وكانوا يعرفون أنّ هذه الحرب ليست حربهم، بل حرب الدول العظمى على أراضيهم ولمصلحتهم، هذا أولاً، أمّا ثانيًا فلم يتمرد المصريون ولم يقوموا بثورةٍ ضدّ الإنكليز تأييدًا لجمال باشا، وثالثًا لم تحقق القوة الليبية شيئًا يذكر. ورابعًا ولهذا دورٌ كبيرٌ وهو أنّ الإنكليز والفرنسيين كانوا يعلمون تفاصيل الحملة وحركتها وتجهيزاتها وكلّ المتناقضات الموجودة فيها، وقد تحضّروا لها في الإسماعيلية، فأسروا كلّ الذين عبروا القناة (٤٠٠مقاتل)، ولم تستمر الحرب لأكثر من يوم واحد، حيث تراجع جمال باشا إلى بئر السبع في جنوب فلسطين، وفشلت الحملة.

لقد كشفت الحملة حقيقة جمال باشا بعد عودته منها، حيث صب نار غضبه وجنونه وتوحشه على الضباط العرب، عوضًا عن دراسة أسباب الفشل، فنكّل بهم وفصل أغلبهم، وجاء بالأتراك مكانهم، ثم انتقل إلى المثقفين العرب فحبسهم وعذّبهم، واتخذ قرارًا بقتلهم جميعًا، وهذا العمل يتوافق مع المشروع الموكل له عندما جاء إلى سورية في القضاء على العروبة، وتتريك العرب ثم إلغاء الامتيازات الخاصة بلبنان لعام ١٨٦٠م، وإخضاعه للسلطة العثمانية [١]. ويؤكد شكيب أرسلان في مذكراته: «بأنّ جمال باشا تعهد للاتحاديين بأنّه سيقضي على الروح العربية في سورية».

وقام بإيجاد مدارس حكومية بدلاً من الإرساليات الأجنبية في لبنان، وبها بدأ العمل على تتريك العرب، وإبعاد العناصر المتفرجنة من أبناء لبنان الخطرين على سياسته في المناطق الساحلية والداخلية [٢]. واتخذ قرارًا بعدّ الإنكليز في دمشق أسرى، إذا قامت بقتل العثمانيين في اسكندرون. وفي مسألة لبنان كان لجمال باشا رأي غريب وهو: «الشدة خير علاج لتسكين أوجاع اللبنانيين؛ فهم قوة لا تهمهم إلاّ القوة، فإذا عرفت كيف تتفوق عليهم عرفت أن تُخضعهم» [٣]. لقد توصل جمال باشا إلى قراره بإعدام المفكّرين العرب بناءً على مجموعةٍ من المعطيات بالإضافة لتوحشّه وحقده على العرب وهي:

أ. فشله في حرب السويس، وتحميل العرب مسألة هذا الفشل.
ب. ما تركه جورج بيكو، القنصل الفرنسي في بيروت، من ملفات عن اتصالاته مع بعض

١. عزيز بك، الاستخبارات الجاسوسية في الدولة العثمانية، ص ١٢٩.

٢. المصدر السابق، ص ١٣٥.

٣. الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، ص ١٦١.

المفكّرين العرب، لدى القنصل الأمريكي، ثم ترجمة تلك الملفات من قبل ترجمان القنصلية الفرنسية أمام جمال باشا ذاته. وكانت أسماء الدفعة الثانية، التي أعدمها، قد وردت في تلك الملفات.

ج. توصّل جمال باشا إلى حقيقة أنّ العرب سيثورون ضد تركيا في حال قامت قوات إنكليزية وفرنسية بالنزول على السواحل السورية.

د. وصول أوامر سرية من إستانبول لقيادة الجيش الرابع في سورية بالعمل على القضاء على التيار العربي، وتمزيق شمله بعد أنْ بدأ الضباط العرب بالهروب من الجيش العثماني.

قام جمال باشا بإعدام المجموعة الأولى من المفكّرين العرب في ١٩١٥/٨/٢م، وكان عددهم ١٣ مفكرًا في بيروت، وهم من مناطق مختلفة من بلاد الشام، من دمشق وبيروت وبعلبك وحماه وجنين[١]. وفي ٦أيار من عام ١٩١٦م، قام جمال السفّاح بإعدام الدفعة الثانية من أعلام الحركة القومية العربية، ٧ في دمشق، و١٤ في بيروت. وكان منهم عبد الحميد الزهراوي، الذي لا يجوز إعدامه إلاّ بأمرٍ من السلطان كونه عضوًا في مجلس الأعيان. وقد تقرر نفي ٣٠٠ عائلة إلى الأناضول.

يقول جمال باشا السفاّح في مذكراته: «إنّ مبادرته إلى تنفيذ أحكام الإعدام، كان لها تأثير كبير في المحافظة على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها في بلاد سمتها الدعاية الفرنسية والإنكليزية سنوات عدة». هل كان هذا صحيحًا أم لا؟ يوجد رأيان متقابلان ومتعارضان بالوقت ذاته: رأي يرى أنّ جزءًا من الذين أُعدموا كانوا على تواصل مع القنصلية الفرنسية في بيروت، وأنّ منهم من كان يريد الانفصال عن الدولة العثمانية، ثم وضع دولتهم تحت الحماية الفرنسية، وأنّ في هذا خدمة للمصالح الفرنسية، ويؤكد هذا إصدار بوانكارية رئيس جمهورية فرنسا مرسومًا في ١٩١٩/٣/٧م، يمنح فيه وسام جوقة الشرف لكلّ السوريين الآتية أسماؤهم، الذين أُعدموا من أجل عدائهم للسلطات التركية، ليبقوا مخلصين ومتعلقين بفرنسا الحامية التقليدية لبلادهم، لمرتبة ضابط عظيم (أحد عشر رجلاً) منهم الزهراوي ، ولمرتبة فارس بقية الأسماء. بالمقابل يرى آخرون بأنّ هؤلاء خدموا شعبهم وأمتهم وسعوا من الاستبداد والظلم والقهر والعنصرية التركية، وأنّهم دفعوا بحياتهم ثمنًا لهذا المشروع، وأنّهم لاقوا أشد ألوان العذاب والتنكيل، ولكن تلاقت مصالح الدول الاستعمارية مع مصالح وأهداف القومية العربية بالتخلص من الدولة العثمانية والسلطة الاتحادية المتجبرة المتعصبة، وبالتالي ليس الأمر بخيانة لأحد، ولا العمل من أجل مصلحة الآخر، بل هي المصالح المشتركة والأهداف المشتركة.

١. الزين، سميح، ٦ أيار قصة شهداء الوطن، ص٢٢.

إذا كان الأمر كذلك فكيف إذا علمنا أنّ جمال باشا كان على تواصلٍ مع الفرنسيين والإنكليز والروس، وحتى مع الألمان للعمل على فصل البلاد العربية من الدولة العثمانية ليكون سلطانًا عليها ويؤسس أسرةً مالكةً فيها، ويُصبح حليفًا لهذه الدول ضد دولته، في الوقت الذي كان يقوم بإعدام هؤلاء الرجال [١].

ومن خلال تواصل جمال باشا مع الحلفاء عن طريق الروس ومصر وضع شروطًا ومطالب خاصة نُقلت إلى الحلفاء ليقوم بالدور اللازم ضد تركيا وألمانيا، وأهمها:

أ. أن يغترف الحلفاء باستقلال الأجزاء الآسيوية من تركيا، وهي سورية، وفلسطين، والعراق، والجزيرة، وكليكيا، وكردستان، وأنْ يكون سلطانًا عليها.
ب. أنْ تؤسس له عائلة حكم، ويكون وراثيًا من بعده.
ج. أنْ يدخل في حربٍ مع تركيا وألمانيا بعد إسقاط حكومة إستانبول.
د. أنْ يقوم الحلفاء بمدّه بالسلاح وبالقوى اللازمة، وتقديم المعونات المالية بعد الحرب.
ه. أنْ يتخلّى جمال عن المضائق البحرية وعن العاصمة إستانبول.
و. ضمان سلامة الأرمن وإمدادهم بالمؤن خلال الحرب [٢].

القضية المهمة هنا أنّ الاتحاديين (أنور وطلعت) كانوا يعلمون بتلك الاتصالات ومدى ميله إلى فرنسا، وكانت ألمانيا تراقب كلّ تحركاته، وقد تم تشكيل جيشٍ سريّ مدرّبٍ بإشراف ألمانيا ليحلّ محلّ الجيش الرابع الذي يقوده جمال باشا. ويبدو أنّ بعض أصدقاء جمالٍ باشا كشكيب أرسلان كانوا يعلمون بهذه الاتصالات فيقول: «يُقال أنّ جمالاً راسل فرنسا على أنْ ينفصل عن الدولة، ويصطلح مع الحلفاء، ويجعلوه أميرًا مستقلاً في الشام وفلسطين، وأنّ الفرنسيين مالوا إلى هذه الفكرة لولا معارضة الإنكليز لها والله أعلم»[٣]. لم يكتفِ جمال باشا بالاتصال مع الحلفاء بل كان له اتصالاتٌ أخرى مع الصهاينة عن طريق الجاسوسة ناتاليا داودوفيتش بواسطة مندوبه فؤاد بك سليم، الذي عُرض عليه المشروع الصهيوني بإنشاء وطنٍ قوميّ لليهود في فلسطين، وأنْ يبدأ المشروع بقرى يهوديةٍ يُطلق عليها الوطن القومي لليهود، لكن مع إخضاع اليهود القادمين للقوانين المحلية، وألاّ تعرقل الدولة التركية الهجرة اليهودية، وأنْ تكون المستعمرات اليهودية مستقلةً إداريًا وفي الموازنة، مقابل أنْ تقدم الجمعية الصهيونية قرضًا للدولة العثمانية وتساعدها في مشاريعها السياسية.

١. علي سلطان، تاريخ سورية ١٩٠٨-١٩١٨م نهاية الحكم التركي، ص ٣٢٢.

2. F.O. 371\24421\44.29 Dec. 1915.

٣. شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص ٢١٨.

اللفات للانتباه أنّ الحكومة الاتحادية قد رفضت المشروع؛ لأنّ أنور باشا رفضه بقوة. مع ذلك بقي جمال باشا صديقًا للصهاينة مدافعًا عن اليهود، وقد عارض الحكومة الاتحادية في قرارها إبعاد اليهود عن السواحل الفلسطينية [١]. إذن اجتمعت في شخصية جمال باشا كلّ صفات التوحش والجبروت بالإضافة للخيانة، التي قتل أعلام الفكر العربي بسببها، وحبّه للصهيونية وسعيه لتدمير الدولة العثمانية وفشله في الحروب التي قادها، وقد دفع بسورية وسكانها إلى حالة اليأس، فتعطّلت الصناعة والتجارة والبنوك، واختفى الذهب والنقود والأقمشة والكاز والسكر والأدوية والثقاب، فساد الفساد والاحتكار والفقر والجوح، وكثر الربا، وساد وباء التيفوس والكوليرا؛ فقُتل الآلاف في حلب وبيروت، وأخذ التيفوس ربع سكان بيروت وجنوب فلسطين، إضافة للحمى والكوليرا [٢].

وخلال عامي ١٤-١٩١٥م سادت في سورية ظروفٌ طبيعيةٌ وبشريةٌ سيئةٌ جدًا بتطور الأحداث نحو الثورة والتمرد مثل: انتشار أسراب الجراد فقضت على معظم المحاصيل الزراعية، وتفشي الأمراض والأوبئة الخطيرة، والبرد الشديد وتراكم الثلوج في الشتاء، والحر الشديد في الصيف، والفقر المُدقع وغنى فاحش. كانت النتيجة أنْ انقسمت دمشق إلى نصفين: نصف كمقبرة، ونصف كمستشفى [٣].

أمام حالةٍ مترديةٍ كهذه وضع الضابط العربي الكبير عزيز علي المصري خطةً لقيام دولةٍ عربيةٍ مستقلةٍ عن تركيا وعن أية قوةٍ أخرى، وقد حدّدها بشبه الجزيرة العربية وسورية والعراق حتى حدود تركيا، وأنّ على بريطانيا أنْ تقدّم المساعدة المالية والعسكرية لها [٤].

١. المقدمات التي سبقت اتفاقية سايكس - بيكو:

وجدت بريطانيا أنّ قادة العرب، كعزيز علي المصري والشريف حسين علي وأعلام الفكر العربي في جمعية العربية الفتاة، يدعون إلى إقامة دولةٍ عربيةٍ مستقلةٍ جغرافيًا وسياسيًا عن تركيا، تتضمن المناطق التي حدّدها عزيز علي المصري؛ لذلك فضّلت أنْ تتفاوض مع الشريف حسين في مكّة والمدينة لعدة أسباب أهمها:

أ. سهولة التفاوض معه؛ لأنّه أكثرهم مرونةً.

١. عزيز بك، الاستخبارات الجاسوسية في الدولة العثمانية، ص١٩٤.

2. F.O. 371 /3050/ No.158286.

٣. علي الطنطاوي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، ص ٦٠.

4. F.O. 3712140// No. 13420. Aou.1914.

ب. قبول العرب به لسمعته، ولأنّ الحركة القومية العربية كانت تتواصل معه.
ج. كانت بريطانيا في تلك الفترة ترى بسورية جزءًا من البلاد العربية.
د. وأنْ التفاوض معه يخفف الضغط عنها في الهند ومصر.

وبالتالي يساعدها هذا التفاوض في تنفيذ مشروعها؛ كونها لم تدعم الأقليات، كما فعلت فرنسا، وأعلنت بأنّها تحترم المقدسات الإسلامية كي تبقى جاهزةً لاستقبال المسلمين في الهند في موسم الحج، كذلك لم تُظهر نواياها باستعمار البلاد العربية كما فعلت فرنسا وإيطاليا، بل إنّها تريد مساعدة الغرب لتأسيس دولة مستقلة. وقد أكد لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني، ١٨٦٣-١٩٤٥م، هذا الاحتيال والدهاء الإنكليزي بقوله: «لقد تطلبت سياسة بريطانيا دهاءً كبيرًا وتلونًا وتفسيرات وتبريرات ونقضًا وتناقضًا، حتى تصل إلى هدفها الحقيقي في الاستيلاء على البلاد العربية أو بعضها ولتنال حصتها من بقايا الدولة العثمانية التي حان عقابها لدخولها الحرب إلى جانب ألمانيا».

مراسلات حسين - مكماهون: تراسل الشريف حسين مع مكماهون، المفوض السامي البريطاني بعشر رسائل خلال ثمانية أشهر من ١٩١٥/٦/١٥م إلى ١٩١٦/٣/٢م. لقد حدّد حسين في الرسالة الأولى حدود الدولة العربية المستقبلية والممتدة من أضنة وأقدام جبال طوروس شمالاً إلى المحيط الهندي جنوبًا (عدا عدن)، ومن البحر المتوسط والبحر الأحمر غربًا إلى الخليج العربي شرقًا، وهي الخريطة التي أرسلتها له الحركة القومية العربية في سورية، وقد تبنتها بريطانيا مبدئيًا، ولكنها احتجت بأنّ تركيا لا تزال تحتلها وأنّ بعض المناطق في غرب سورية لا يمكن أنْ يُقال عنها أنّها عربيةٌ محضةٌ، ويجب أنْ تستثنى من الحدود التي ذكرتموها (انظر الخريطة المقدمة من الشريف حسين)، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات على ألاّ تنقص شيئًا من اتفاقاتنا مع الزعماء العرب. وتابع مكماهون في جوابه للحسين، فإنّ إنكلترا مستعدةٌ على أساس تلك التعديلات (أي إخراج المناطق الغربية من سورية) أنْ تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها الشريف حسين، وهي الأراضي التي تستطيع إنكلترا العمل فيها بملء الحرية ودون أنْ تُقع ضررًا بخليفتها فرنسا، فإنّ لي السلطة التامة باسم صاحب الجلالة أنْ أعطيكم التأمينات جوابًا على كتابكم. لقد استطاع الإنكليز أنْ يُخرجوا اليمن والخليج العربي ونجد وعسير، وبموافقة الشريف حسين، من الدولة العربية المقترحة. ولم يبقَ للحسين إلاّ الحجاز ليحكمه.

ـ أما فرنسا فقد اعتمدت في سياستها مع السوريين على النقاط الآتية: السياسة الطائفية المؤيّدة

للأقليات، إهمال وتجاهل الأكثرية (السنيّة) المسلمة، والعمل على المنافع الاقتصادية.

٢. اتفاقية سايكس – بيكو واقتسام الجغرافية السورية والعراقية:

انتقل التنافس الإنكليزي الفرنسي إلى مرحلةٍ جديدةٍ بالاتفاق على اقتسام الأراضي العربية ووضع استراتيجيةٍ سياسيةٍ تضمن للدولتين تمزيق البلاد العربية، وإقامة كيانات سياسية ذات مرجعيةٍ استعماريةٍ وإقامة دولةٍ يهودية، تكون وطنًا قوميًّا لليهود، تتوافق مع المصالح المستقبلية الاستعمارية وتُبقي المنطقة مجزأةً من جهة ومتصارعةً وغير مستقرةٍ من جهة ثانية.

عيّن الفرنسيون جورج بيكو مفاوضًا للإنكليز على حدود الدولة العربية المقبلة في سورية وامتداداتها الطبيعية إلى مصر وإلى إيران وديار بكر وأضنة، بتدخّل مباشر من الرئيس الفرنسي بوانكاريه، لتكون تحت حماية فرنسا المباشرة فقام بمفاوضة وزير الخارجية الإنكليزي آرثر نيكلسون، فطلب آرثر من بيكو إعلان استقلال البلاد العربية كما أعلنت بريطانيا، لكن بيكو رفض وطالب بحدود سورية كما حددها رئيس الفرنسي بريان، ولكن بيكو وافق على وضع دمشق وحمص وحماه وحلب داخل الدولة العربية التي ستقام حيث يتولى العرب إدارتها تحت نفوذ فرنسا، وأن حكومته قبلت بهذا التنازل والتضحية [١] (أنظر الخريطة المرافقة). وطلب بريان تقسيم فلسطين بين الدولتين ولكن بريطانيا رفضت ذلك واقترحت حيادها.

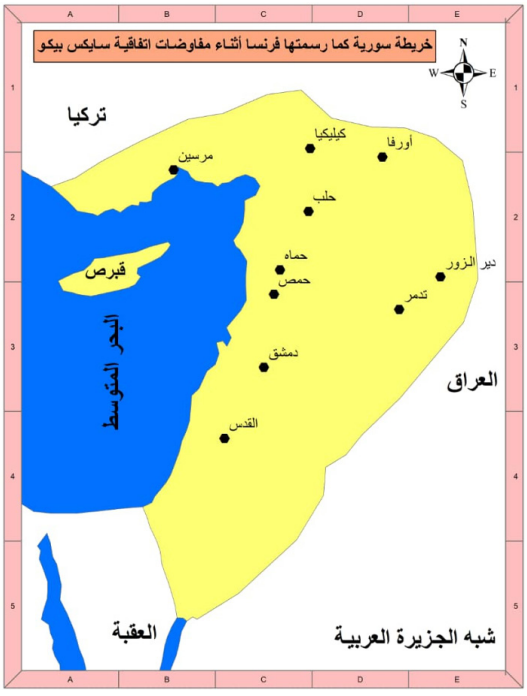

١. سليمان موسى، الحركة العربية، ص ٣٤٢.

حددت بريطانيا مارك سايكس مفاوضًا لجورج بيكو، ونقل سايكس لبيكو بأنّه يُمثل العرب في هذه المفاوضات، وبيّن له بأنّ الفكرة المثلى للزعماء العرب تتضمن وضع سواحل العراق وسورية تحت حماية بريطانيا العظمى وفرنسا. وقد انتهت المفاوضات بين سايكس وبيكو بزيارة روسيا لتثبيت مصالحها في هذه الاتفاقية، وقد تم إصدار الاتفاقية في ١٩١٦/٥/١٦م بعد أنْ تمت الموافقة عليها من الحكومتين. تتكون الاتفاقية من اثنتي عشرة مادة وهي:

المادة الأولى: إنّ فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أنْ تعترفا وتحميا دولةً عربيةً مستقلةً أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيسٍ عربي في المنطقتين (أ) داخلية سورية، و (ب) داخلية العراق المبينتين في الخريطة (رقم) الملحقة بهذا، ويكون لفرنسا في منطقة (أ)، وللإنكليز في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، تنفرد فرنسا في المنطقة (أ)، وإنكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب، بناءً على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية: يُباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء ولإنكلترا في المنطقة الحمراء إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالوساطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الدول العربية.

المادة الثالثة: تنشأ إدارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين)، يُعين شكلها بعد روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

المادة الرابعة: تنال إنكلترا الآتي: - ميناء حيفا وميناء عكا – يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في منطقة (أ) للمنطقة (ب)، وتتعهد جلالة الملك من جهتها بألّا تدخل في مفاوضاتٍ ما مع دولةٍ أخرى للتنازل عن قبرص، إلّا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدمًا. يمكن الاطلاع على بقية مواد الاتفاقية.

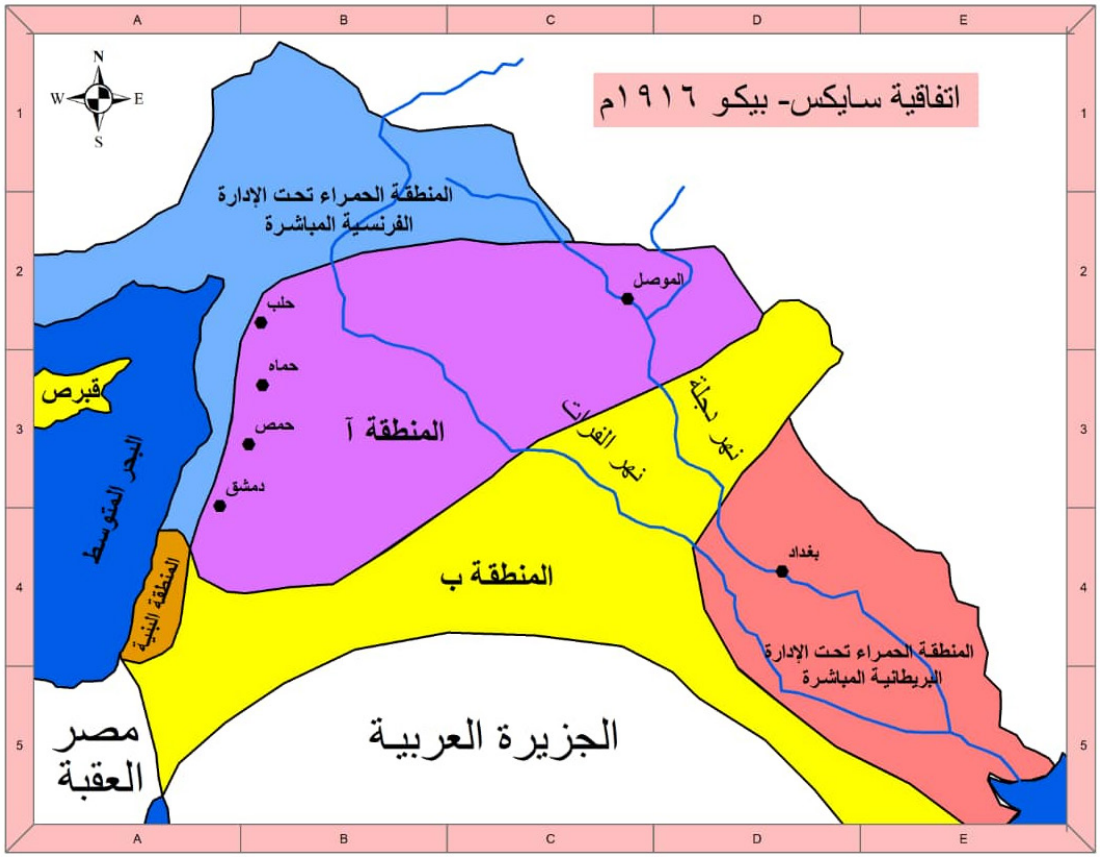

نتائج الاتفاقية: لقد جاءت نتائج اتفاقية سايكس - بيكو متفقةً مع تنافس بريطانيا وفرنسا على سورية وبلاد العرب التي كانت جزءًا من أراضي الدولة العثمانية في آسيا وهي:

أ. تجزئة سورية إلى أربع دول، انظر الخريطة رقم، (فلسطين، لبنان، الأردن، وسورية).

ب. تحقيق حلم فرنسا بالسيطرة على سورية منذ حروب الفرنجة (الحروب الصليبية وفشل حملة نابليون).

ج. استطاع مكوّنٌ طائفيّ بتحريض من فرنسا وبريطانيا وروسيا تكوين دولةٍ مستقلةٍ، جبل لبنان، ثم لبنان الكبير.

د. تعرّضت حركة القوميين العرب لضربةٍ كبيرةٍ بتهديم حلمها الكبير بتوحيد العرب في دولةٍ واحدةٍ تكون سورية فيه مركزها وأساسها السياسي.

هـ. استطاعت القوى الاستعمارية بهذا التقسيم أنْ تُحضّر المنطقة، وبعد توقيع وعد بلفور في ١٩١٧/١١/٢م، لإقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ولينفصل المشرق العربي عن مغربه.

لقد انتهى التنافس الإنكليزي - الفرنسي بتنازلات متبادلة بين الدولتين وخارج اتفاقية سايكس - بيكو حيث تم الآتي:

١. تنازل فرنسا لبريطانيا عن الموصل الغنية بالنفط، وقد كانت تابعةً لها في اتفاقية سايكس-بيكو.

٢. تخلّي بريطانيا عن الأمير فيصل، والسماح لفرنسا بدخول دمشق والمدن السورية الداخلية والسيطرة عليها، وهذا خروج عن الاتفاقية أيضًا.

٣. قامت بريطانيا بتعديل حدود فلسطين في الجنوب فوصلتها إلى خليج العقبة، تمهيدًا لإقامة الوطن القومي اليهودي وفقًا لوعد بلفور.

ـ الثورة العربية الكبرى ونهاية الوجود التركي في سورية: بدأت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين في ١٩١٦/٦/١٠م، أي بعد توقيع اتفاقية سايكس - بيكو بأقل من شهر وأربعة أيام بعد إعدام الدفعة الثانية من المفكّرين القوميين العرب، وكان قائد الجيوش الضابط الكبير عزيز علي المصري، ولكنّه اختلف مع الشريف حسين فترك القيادة بعد تسعة أشهر من تعيينه، فاستلم أولاد الحسين الأربعة (فيصل، وعبد الله، وزيد، وعلي) الفرق العسكرية العربية الأربعة. وكان في قيادة الجيش بعض الضباط الإنكليز مثل: كلوب ولورنس، وكذلك كانت توجد مفرزة فرنسية بقيادة الضابط بيزاني. أما لورنس فكان ضابط ارتباط مع المخابرات البريطانية. لم يكن لورنس محبوبًا من الشريف حسين وأبنائه، عدا فيصل. ويقول عنه الجنرال أللنبي (بأنه بهلواني)، ووصفه آخرون بأنّه (أحد الدجالين الكبار في الحرب الكبرى)، وكان متعاطفًا مع الحركة الصهيونية. وكتب عن نفسه: «لقد نجحت في إخفاء شخصيتي عن العرب ... كنت مجبرًا على تدريبهم وتوجيههم الاتجاه الذي يتفق مع مصالح بريطانيا»[١].

لقد جرت أحداث الثورة العربية الكبرى ميدانيًا وفقًا لتفاصيل اتفاقية سايكس- بيكو، دون دراية من العرب، في توجيه حركة الجيوش وفي تحرير الأراضي من الجيش العثماني، واستطاع سايكس إقناع الشريف حسين بالتفاوض مع بيكو ليكون لفرنسا في ساحل سورية كما لبريطانيا في البصرة وبغداد.

١. ت، أ، لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ص١٠.

خلال الحرب قامت الثورة البلشفية في روسيا بنشر مواد اتفاقية سايكس - بيكو موجهة إيّاها إلى العرب والترك، فقام جمال باشا بإرسال مواد الاتفاقية إلى فيصل وأخيه عبد الله وإلى جعفر باشا قائد الجيش عند فيصل مع رسالة يحضّهم فيها للعودة وإلى التعاون ضد الحلفاء وإلى طردهم من فلسطين وأن تنقلب الثورة العربية بأهدافها لتصبح ضد القوى الاستعمارية. أرسل فيصل نصّ الاتفاقية إلى أبيه فتراسل مع الإنكليز الذين أنكروا وجود هذه الاتفاقية، وأنّها افتراءات من قبل جمال باشا.

بعد تحرير العقبة بدأت الخلافات تظهر في الجيوش والفرق العربية حيث بدأ الضبّاط السوريون بالتمرد، يريدون التوجه شمالاً لتحرير دمشق والمدن السورية، وعزّز هذا الموقف وصول ضبّاط سوريين من القاهرة حاملين قسمًا عروبيًا مضمونه: (أقسم بالله ألاّ أشتغل إلاّ للبلاد العربية وللأمة العربية، وأنْ أقاوم كلّ من يمدّ يده للأجانب، وكلّ سلطةٍ تتعاون مع الأجانب، وكل سلطةٍ استبداديةٍ في البلاد). لقد رفضت عائلة الشريف حسين هذا القسم.

- أعلن فيصل أنّه سيكون حاكمًا على سورية، ووعد سكان جبل العرب بإعطائهم حكمًا ذاتيًا ووافق معظم الضبّاط العرب والسوريين على أنْ يكون فيصل ملكًا على سورية. وبالوقت ذاته بدأ الجنود والضبّاط العرب بالفرار من الجيش العثماني والالتحاق بالجيش العربي، مع ذلك فقد انقسم المقاتلون في جيش فيصل إلى قسمين: قسم يرى بسورية جزءًا من القومية العربية ومع الحجاز. وقسم يراها دولةً مستقلةً عن الحجاز، ويجب أنْ يحكمها فيصل ملكًا. ولما عرف الشريف حسين بطموحات فيصل كتب له: (إلى هذا الحد القحةٍ يا فيصل) (اللؤم)

اعتبرت الدول الأوروبية، تحرير القدس في ١٩١٧/٢/٩م على أيدي الإنكليز، هو تكملة لحروب الفرنجة في القرون الوسطى. وتم إرسال رسالة إلى الحكومة البريطانية يهنئونها باسترجاع القدس من أيدي الكفار وعلى أيدي أحفاد ريتشارد قلب الأسد، وكذلك احتفل الطليان والفرنسيون وكذلك الروس.

انتهت الثورة العربية الكبرى بدخول القوات العربية والحلفاء مدينة حلب، بعد تحرير حماه وحمص ودمشق، وخروج القوات التركية من سورية في ١٩١٨/١١/١٢م، بعد بقائهم أربعة قرون وسنتين[١].

١. دخل السلطان سليم الأول سورية في عام ١٥١٦ م.

١. وعد بلفور واكتمال المؤامرة الاستعمارية على سورية والعرب:

صدر وعد بلفور في ١٩١٧/١١/٢م بالشكل الآتي : "عزيزي اللورد روتشيلد: يسرني جدًا أنْ أبلغكم عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية، وقد عُرض على الوزارة وأقرته : (إنّ حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطنٍ قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أنْ يُفهم جليًا أنّه لن يُؤتَ بعملٍ من شأنه أنْ يُنقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى)، وسأكون ممتنًا إذا أحطتم الاتحاد الصهيوني علمًا بالتصريح . المخلص آرثر بلفور».

ـ ولعلّ أهم الأسباب التي دفعت بريطانيا لاتخاذ هذا القرار أو الوعد هي الآتي:

١. حماية قناة السويس، وعدم السماح لأية قوةٍ قد تخرج عن السيطرة البريطانية في المستقبل.

٢. تحقيق حلم الغرب جميعًا، وهذا مشروع متخذ في عام ١٩٠٧م، في مؤتمر كامبل بنرمان، ذلك بفصل المشرق العربي عن المغرب العربي.

٣. جعل الدولة اليهودية المستقبلية قاعدةً غربيةً ترعى المصالح الغربية.

٤. الاستفادة من اليهود كقدراتٍ ماليةٍ كبيرة، وإمكاناتٍ علميةٍ وخصوصًا الأبحاث العلمية التي تفيد في الصناعات الحربية، ولها تأثيرٌ في موازين القوى، مثل ابتكارات حاييم وازمن في دور البكتريا والأسيتون لإنتاج الأسلحة.

ومع اتخاذ هذا القرار وإعطاء هذا الوعد، لم يلتزم الإنكليز بتطبيق ومراعاة التفاصيل الموجودة فيه، ولم تراعَ حقوق الآخرين، لا الدينية ولا المدنية فقد انتهكت كلّ الحقوق، ولم يبقَ منها شيء أمام توحش وإجرام العصابات الصهيونية التي تشكلت مع بداية الانتداب. وفي نصّ هذا الوعد توجد رزمةٌ من المغالطات أهمها:

عدّ اليهود المكوّن السكاني الأكثر في فلسطين مع أنّهم لم يشكلوا في وقتها، إلاّ ٧٪ من جملة السكّان، يقابل ذلك عدّ الأغلبية العربية أقلية. ولكن ورود كلمة فلسطين في النصّ يجعل من بريطانيا معتديةً على وجود دولة أو مشروع دولة؛ لأنّ المنطقة كلّها كانت تحت الاحتلال العثماني والمتغيرات الميدانية العسكرية والسياسية تساند ذلك.

- لقد كانت فرنسا على إطلاع على وثيقة وعد بلفور ولم تحتج عليها، على من أنّها كانت ترى بفلسطين ممتدةً إلى حدود العريش والعقبة. وكان بإمكانها أنْ تفضح هذه الوثيقة وتكسب مواقف العرب. أمّا بريطانيا فلم تُخفِ وعد بلفور، كما فعلت باتفاقية سايكس - بيكو، مع أنّ هذا الوعد هو الأخطر على العرب، ولكن الإنكليز أقنعوا الشريف حسين بأنّ الغرض من الوعد هو إسكان بعض اليهود في فلسطين دون إضرار حقوق العرب، ولم يكن يعلم بخفايا الحركة الصهيونية؛ لأنّه عندما علم ذلك رفضها رفضًا قاطعًا [١]. ولكن بعد فوات الأوان ولم يعمل شيئًا ضد الوعد.

- بعد نشر مواد اتفاقية سايكس - بيكو في الجائد الفرنسية اجتمع الرجلان سايكس وبيكو فأرسلا رسالةً إلى الشريف حسين يؤكدان فيها ضمان استقلال البلاد الناطقة بالعربية، سورية والعراق والجزيرة، وقد تنكرا للاتفاقية [٢]. وبدأ سايكس يتصرف ومعه بيكو على أنّ فلسطين مفصولةٌ عن سورية، وأنّها موضوعةٌ تحت حماية دولية استعدادًا لتطبيق وعد بلفور، وكذلك فصل سورية عن الحجاز، وتم وضع فيصل أميرًا دستوريًا على سورية كدول مستقلة تحت حماية بريطانيا أو أمريكا.

- انتهت الحرب العالمية الأولى ولم تعترف بريطانيا وفرنسا باتفاقية سايكس - بيكو، لكن قائد الجيش الإنكليزي قد أوضح لفيصل في دمشق تفاصيل الاتفاقية، وأنّ لبنان لفرنسا، وأنّ إمارته على دمشق وحمص وحماه وحلب فقط، وسيتم تعيين ضابطي ارتباط معه، إنكليزي وفرنسي، أما فلسطين فتحكمها الإدارة البريطانية مباشرة لتطبيق وعد بلفور وإنشاء الوطن القومي اليهودي عليها، ولبنان تقرر أنْ تديره فرنسا [٣].

- بدأت الدولتان بالتطبيق الميداني للمخططات التآمرية على العرب عمومًا وعلى سورية خصوصًا، منذ بداية الثورة العربية الكبرى، فتم فصل فلسطين عن سورية، وعندما تم تحرير لبنان تم تسليمه لفرنسا، وتم إقناع الشريف حسين بالخطوط العامة للمخطط وهي:

أ. عدّ المناطق الغربية من سورية، من رأس الناقورة وحتى مرسين في الشمال، ليست سورية وكذلك كلّ المنطقة الزرقاء.

---

١. أمين سعيد، أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص ٢٠٦.

2. F.O. 37123/3381/Juin 1918, pp.21- 22- 24.

3. F.O. 371 /3383/ 5 oct.1918. p.556.

ب. إمكانية إقامة دولةٍ عربيةٍ في المنطقة (أ) تحت الحماية الفرنسية.

ج. أنّ وعد بلفور يعني السماح لبعض اليهود بالهجرة والاستقرار في فلسطين.

د. إمكانية إقامة دولةٍ عربيةٍ في المنطقة (ب) تحت الحماية الإنكليزية.

هـ. وضع فلسطين والمقدسات تحت حماية دولية بقرار بريطاني.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث نجد أنّ رياح القومية قد هبّت على العرب من أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأنّ المسلمين العرب كانوا ينظرون للعثمانيين نظرة أخوةٍ في الدين، ولم يكن يوجد تفكيرٌ عنصريّ بين العرب والأتراك، وأنّ المسيحيين العرب، الذين سبقوا المسلمين العرب باستقبال مفاهيم القومية، لم يكونوا يستطيعون الاستمرار دون دخول المسلمين معهم حتى لا يُرى بأنّهم طائفيون وليسوا قوميين، ولعلّ هذا الذي ميّز العرب السوريين عن غيرهم من العرب الآخرين. مع ذلك كانت مطالب السوريين بداية تنحصر في الإصلاح الاجتماعي وتطبيق اللامركزية في إدارة مناطقهم، لكن مطالبهم تطوّرت، خصوصًا الجمعيات المسيحية، نحو الانفصال والحماية من الدولة الفرنسية.

عندما جاء الاتحاديون إلى السلطة، بانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٩٠٩م، دفعوا بالعرب إلى التميز القومي والسعي للاستقلال؛ لأنّ الاتحاديين مارسوا سياسة الحقد والتتريك والظلم والإفقار للعرب، وقتلوا زعماء الحركة القومية العربية، ونفوا عائلات كثيرة إلى الأناضول، على يد جمال باشا السفّاح، فبدأ الجنود والضباط العرب في الجيش الرابع المرابط في سورية يشعرون بأنّهم من المرتبة الثانية؛ لذلك تحوّلت الدولة العثمانية من دولةٍ إسلاميةٍ يدعمها العرب إلى دولةٍ طورانيةٍ تركيةٍ تنبذ العرب. فالأتراك بسياستهم العنصرية هم الذين أسقطوا الدولة العثمانية وليس العرب.

ومع قيام الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤/٧/٢٨م ازداد التنافس المسعور بين الدول الاستعمارية الأوروبية لاقتسام أراضي الدولة العثمانية (الرجل المريض)، ودفعت كذلك لزيادة الخلافات بين المكونات الاجتماعية والعرقية للدولة العثمانية، ودخول تركيا الحرب فيها مع

ألمانيا، وبقية دول المركز (المحور).

لقد تآمر الحلفاء الفرنجة على العرب عمومًا وعلى سورية خصوصًا بإقامة اتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور لإقامة الدولة اليهودية، وتآمروا على العرب بإيجاد تناقضٍ بين القومية العربية والطائفية، كما فعلت فرنسا، بينما تآمرت بريطانيا على الوعي القومي العربي ذاته لتمزيقه من الداخل دون التطرق للعنصر الطائفي مبدئيًا وعلانية ، فقد أقنعت الشريف حسين، الذي وثق به القوميون العرب ونسّقوا معه، بقيام أجزاء عربية متناثرة مستقلة بخلاف ما كان يسعى إليه القوميون العرب، وقد استطاعت بريطانيا استخدام بعض الزعماء العرب، خصوصًا الموجودين في مصر من السوريين، لتحقيق أهدافها والكذب عليهم وعدم الوفاء بوعودها وكذلك تآمرها باتفاقية سايكس – بيكو ووعد بلفور.

ولعل الأخطر من ذلك هو تدعيم اتجاهات تقسيم البلاد العربية في عقول زعماء الحركة القومية العربية، لتصبح سورية ومصرية وعراقية وحجازية، فأوجدت القطرية وأوجدت لها تاريخًا تستند إليه، وهكذا نستطيع القول إنّ الجميع قد تآمر، الأوروبيين والأتراك على حدّ سواء، على مستقبل العرب السياسي وعلى أرضهم بتجزئتها واحتلالها، فالأتراك أعدموا زعماء العرب وحاولوا تتريكهم، ونفوا عائلاتهم، ومارسوا كلّ أنواع التنكيل والتجويع والفقر، والفرنسيين لعبوا على الجانب الطائفي وقسّموها لدولٍ طائفيةٍ عندما استعمروها، وبريطانيا على الجانب القومي لتديره وتبعده عن جوهر أهدافه في وحدة العرب وإقامة دولة عربية واحدة .

لقد جاءت نتيجة تلك المتغيرات خلال الثلاث عشرة سنة، من مؤتمر كامبل بنرمان في عام ١٩٠٧م، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ونهاية الحكم العربي في سورية، متوافقة مع تلك المتغيرات، فلا حرية للعرب ولا استقلال، ولا دولة عربية واحدة، بل احتلت أرضهم وجزأتها، وتم العمل بخطواتٍ سريعةٍ ومدروسةٍ لإقامة الوطن القومي لليهود، وزرعوا في عقول السوريين أنّهم غير قادرين على إقامة دولة بأنفسهم، كأنّهم قاصرون بحاجة لرعاية لذلك يجب وضعهم تحت الانتداب ليصبحوا قادرين على إقامة دولة متقدمة. وقد تم تجزئة سورية إلى أربعة كياناتٍ سياسيةٍ: سورية، ولبنان، وفلسطين، والأردن، بناءً على اتفاقية سايكس بيكو. (انظر الخريطة الموضحة لذلك).

من التناقض مع أصول المنطق السياسي، أنْ ينتصر العرب في الحرب العالمية الأولى إلى جوار المنتصرين فيها من الأوروبيين، أنْ يؤدي هذا النصر إلى خسران العرب لأرضهم وتجزئتها، وفقدانهم لحريتهم، واستعبادهم من الدول التي ناصروها في الحرب، والأخطر من ذلك إقامة الوطن القومي لليهود في أرض العرب؛ فشكّل هذا عامل تفجّر، وعدم استقرار للعرب حتى وقتنا الحاضر.

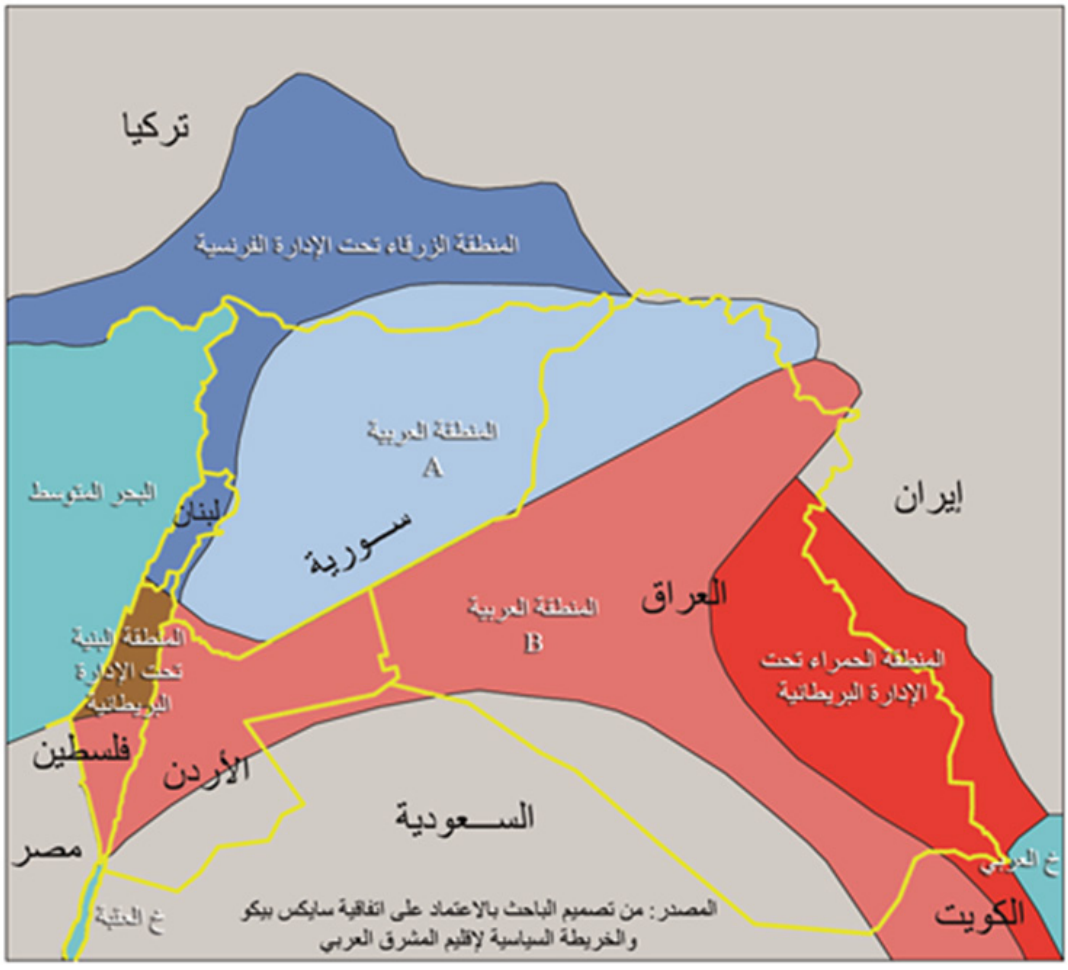

قائمة المراجع:

١. أرسلان، شكيب، سيرة ذاتية، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩م.

٢. باشا، سلطان، مجلة المساء، ع ٩٧، ك ١، ١٩٧٥م.

٣. بك، عزيز، الاستخبارات الجاسوسية في الدولة العثمانية، تعريب فؤاد الميداني، ط١، جريدة الاحرار بيروت، ١٩٩٣م.

٤. بيشون، جاك، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى، ترجمة عزة دروزة، ط١، مطبعة الكشاف، بيروت، ١٩٦٤م.

٥. ت. أ. لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، ترجمة رشيد كرم، مكتبة التجاري للطباعة والتوزيع، ط١، بيروت ١٩٥٠.

٦. الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، دار العلم للملايين، ط١، بيروت، ١٩٦٥م.

٧. الحكيم، يوسف، بيروت ولبنان في عهد العثمانيين، المطبعة الكاثوليكية، ط١، بيروت، ١٩٦٦م.

٨. خضور، أديب، الصحافة في سورية، دار البعث، ط١، دمشق، ١٩٧٣م.

٩. الخوري، بشار، حقائق لبنانية، مطبعة أوراق لبنانية، ط١، حريصا، ١٩٦٠م.

١٠. الزين، سميح، ٦ أيار قصة شهداء الوطن، النهضة العربية، ط١، بيروت، ١٩٦٦م.

١١. سعيد، إبراهيم، الجيوبولتيك السوري، وزارة الثقافة، ط١، دمشق، ٢٠١٦م.

١٢. سعيد، أمين. أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، دار الكاتب العربي، ط١، بيروت، ١٩٦٥م.

١٣. سلطان، علي، تاريخ سورية، أواخر الحكم التركي،١٩٠٨-١٩١٨ م، ط٢، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٦م.

١٤. الطنطاوي، علي، دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها، دار الفكر، ط١، بيروت، ١٩٥٩م.

١٥. قاسمية، خيرية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي ١٩٠٨-١٩١٨م، منظمة التحرير الفلسطينية، ط١، بيروت، ١٩٧٣م.

١٦. كرد علي، محمد، خطط الشام، مطبعة الترقي، ط١، دمشق، ١٩٤٨م.

١٧. كليب، سامي، تدمير العالم العربي، نوفل للطباعة والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٢٣.

١٨. مورغنتو، هنري، مذكرات، تعريب فؤاد صروف، مطبعة المقطم، ط١، القاهرة،١٩٢٣م.

١٩. المؤتمر العربي، العربي الأول في باريس، إعداد حزب اللامركزية الإدارية العثماني، القاهرة، مطبعة البوسفور، ط١، ١٩١٣م.

٢٠. موسى، سليمان، الحركة العربية ١٩٠٨-١٩٢٤م، دار النهار، ط١، بيروت، ١٩٥٠م.
٢١. مجلة المشرق، بيروت، ١٩٠٩- ١٩٢٣م.
٢٢. مجلة المنار، م١٦، ج٢، ٢/٦/ ١٩١٤.
23. F.O. Great Britain. Foreign Office. Public Record Office Turkey.

الغزوات البريطانيّة الثلاث لمصر

وقائع الاحتلال وطرائق المقاومة الشعبيّة

د. محمود شوقي عثمان[1]

الملخص

تعرّضت مصر ثلاث مرّاتٍ في غضون القرن التاسع عشر لاحتلال قواتٍ بريطانيةٍ لأراضيها، كانت المرة الأولى في مطلع القرن التاسع عشر إبّان الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م)، وبقي هذا الاحتلال زهاء عامين، وكان الاحتلال الثاني في عام ١٨٠٧م، حين تعرّضت مصر لحملةٍ بريطانيةٍ تحت قيادة فريزر (Alexander Mackenzie Fraser)، واستمر هذا الاحتلال الثاني ستة أشهر، بينما كان الاحتلال الثالث عام ١٨٨٢م، وقد استمر أربع وسبعين سنة.

وقد مرّت مصر عقب الاحتلال البريطاني الثالث لها بمرحلتين، هما:

أولاً: السنوات العشرة الأولى للاحتلال ١٨٨٢- ١٨٩٢م (إنهيار الحركة الوطنية).

ثانيًا: يقظة الحركة الوطنية عقب تولية عباس حلمي الثاني في ٨ يناير ١٨٩٢م.

وتعرّض الباحث لعدّة موضوعاتٍ مهمّة: كإرهاصات الحركة الوطنية المصرية، والسنوات العشرة الأولى للاحتلال ١٨٨٢- ١٨٩٢م (إنهيار الحركة الوطنية)، يقظة الحركة الوطنية عقب تولية عباس حلمي الثاني في ٨ يناير ١٨٩٢م، وجهود الزعيم مصطفى كامل الوطنية (١٨٧٤-١٩٠٨م)، وغيرها من الأبحاث.

الكلمات المفتاحيّة: بريطانيا، أحمد عرّابي، ثورة ١٩١٩م، سعد زغلول، معاهدة ١٩٣٦م- ثورة ١٩٥٢م.

---

١. مدرّس مادة التاريخ بجامعة الأزهر- مصر

تمهيد

تعرّضت مصر ثلاث مرّات في غضون القرن التاسع عشر لاحتلال القوات البريطانيّة لأراضيها:

-المرة الأولى في مطلع القرن التاسع عشر إبّان الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١م)، حين أيقنت الحكومة البريطانية أنّ العثمانيين عاجزون بمفردهم عن إخراج الفرنسيين من مصر، وأنّ الثورات الشعبية في القاهرة والأقاليم على الرغم من تعدّدها وتلاحقها وإنهاكها الفرنسيين لم تسفر عن إجلائهم، ومن ثم استقرّ رأي الحكومة البريطانية على إرسال قواتٍ بريطانيةٍ للإسهام في إخراج الفرنسيين من مصر، وبالفعل تم إرسال قواتٍ تحت قيادة سير رالف ابركومبي (Sir Ralph Abercromby) الذي وصل الأسكندرية في أول مارس ١٨٠١م، وبالفعل أسهمت هذه القوات في تضييق الخناق على الفرنسيين حتى أكرهتهم على الخروج من مصر في ١٨ أكتوبر ١٨٠١م، غير أنّ الحكومة البريطانية ماطلت في الجلاء عن مصر، فلم تخرج منها إلّا في ١٢ مارس ١٨٠٣م بعد أنْ ظلّت مرابطةً في البلاد زهاء عامين[١].

- المرة الثانية للاحتلال كانت في ١٨ مارس ١٨٠٧م حين تعرّضت مصر لحملةٍ بريطانيةٍ تحت قيادة فريزر(Alexander Mackenzie Fraser)، وكان من أغراض هذه الحملة: الضغط على الباب العالي لحمله على نبذ صداقة فرنسا، وكذا تخوّف بريطانيا من نزول حملةٍ فرنسيةٍ أخرى في مصر، وكان من أهداف هذه الحملة أيضًا تصحيح الخطأ الذي اعتقدت الحكومة البريطانية أنّها وقعت فيه بتنفيذ الجلاء عن مصر في مارس ١٨٠٣م، لكن هذه الحملة البريطانية مُنيت بهزيمتين فادحتين متعاقبتين في رشيد والحماد، وكان للشعب المصري النصيب الأوفى في إيقاع الهزيمة بالحملة التي تحرج مركزها، وانتهى بها الأمر بالجلاء عن مصر في ٢٥ سبتمبر ١٨٠٧م بعد أنْ دام الاحتلال الثاني ستة أشهر[٢].

- المرة الثالثة من الاحتلال كان عند قيام الأسطول الإنجليزي بقصف مدينة الإسكندرية فى ١١ يوليو عام ١٨٨٢م، واستطاعت القوات البريطانية بعد ذلك احتلال مدينتي بورسعيد والإسماعيلية في ٢٠ أغسطس ١٨٨٢م، وفي ١٣ سبتمبر عام ١٨٨٢م تمكّن الجيش الإنجليزي من القضاء على المقاومة المصرية وذلك بمساعدة من الخديو توفيق (١٨٧٩- ١٨٩٢م)، وظلّ الاحتلال البريطاني لمصر حتى أصدرت بريطانيا الإعلان الأحادي الجانب

١. الشناوي، عبد العزيز محمد، في أعقاب الاحتلال البريطاني لمصر: تكتل الدول لتدويل قناة السويس نكاية في بريطانيا، المجلد ٢٣، ج١، ص ١١- ١٢.

٢. المرجع نفسه، ص ١٢- ١٣.

باستقلال مصر عام ١٩٢٢م، ثم المعاهدة المصرية الإنجليزية ١٩٣٤م، وهو العام التي حصلت مصر على استقلالها الكامل – ظاهريًّا - ولكنّها ظلّت تحت الاحتلال بوجود قواتٍ من الجيش الإنجليزي في بعض مناطق البلاد جعلتها المتحكمة فعليًّا في مصائر الأمور، وظلّت محتفظةً بسيطرتها على منطقة قناة السويس حتى عام ١٩٥٦م.

هذه الدراسة تسعى إلى رصدٍ تاريخيّ لأهم الأحداث والمنعطفات التي نجمت عن الغزوات البريطانية الثلاث، والآليات التي اعتمدتها القوى الشعبية والوطنية المصرية والنتائج المترتّبة على المواجهات.

إرهاصات الحركة الوطنية المصرية

على الرغم من أنّ الاحتلال الإنجليزي لمصر كان في عام ١٨٨٢م، فإنّ تغلغل النفوذ الأوروبي –إنجلترا وفرنسا - السياسي والمالي في أواخر عصر إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م) كان السبب المباشر في قيام الحركة الوطنية المصرية التي استندت على القوة الوطنية بجناحيها المدني والعسكري. تألّف الجناح المدني من طبقة الموظّفين الوطنيين وطائفة الملاك الزراعيين والأعيان، بينما تألّف الجناح العسكري من بعض ضباط الجيش المصري الذي بدأ تكوينه منذ أيام (محمد علي) تزعّمهم أحمد عرابي (١٨٤١- ١٩١١م) بتأييدٍ كاملٍ من جموع المصريين على اختلاف طوائفهم.

وقد سعى عرابي في الفترة من ١٨٧٩ حتى ١٨٨٢م لفرض واقعٍ جديدٍ على الحياة المصرية من خلال السعي للمساواة بين الجنود المصريين والأتراك، والمطالبة بتأليف وزارة مصريةٍ خالصةٍ وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمام مجلس النواب، والعمل على تسوية الديون المصرية بطريقةٍ مناسبةٍ دون إعلان إفلاس البلاد. وظلّ عرابي ومن خلفه الحركة الوطنية المصرية في شدٍّ وجذبٍ بين القصر وممثلي حكومتي انجلترا وفرنسا أسفر في النهاية عن ضرب الأسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢م، وسيطرة انجلترا على الأوضاع في مصر بعد هزيمة الجيش المصري في موقعة التل الكبير في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢م، واحتلال القاهرة في ١٥ سبتمبر من العام نفسه، هذا الاحتلال الذي استمر بضعًا وسبعين عامًا، شهد خلالها المجتمع المصري أقسى أنواع العنف والظلم ونهب ثروات البلاد.

وقد مرّت مصر عقب الاحتلال البريطاني لها بمرحلتين، هما:

أولًا: السنوات العشرة الأولى للاحتلال ١٨٨٢- ١٨٩٢م (إنهيار الحركة الوطنية):

في هذه المرحلة ظلّت مصر تتردّى في هوة الانحلال الوطني كنتيجة حتمية لإخفاق الثورة الوطنية (العرابيّة)، ووقوع الاحتلال الذي كان الظنّ أن يكون مؤقتًا إلى أنْ يطمئن الخديو توفيق على العرش كما صرّحت إنجلترا بذلك في أكثر من مرة، لكن السياسة التي اتبعتها انجلترا في مصر بعد إخماد الثورة العرابيّة واستقرار الخديوي توفيق على العرش دلّت على أنّ انجلترا كانت ترمي بتدخلها المسلّح إلى جعل احتلالها لمصر دائميًّا، وبسط سيطرتها الحربية والإدارية على البلاد، وذلك بوضع سياسة مخططة لإضعاف الروح القومية لدى المصريين، فكان أوّل ما قامت به هو تصفية الثورة العرابيّة بنفي أعضائها مدى الحياة وتجريدهم من الرتب العسكرية ومصادرة أملاكهم، وحلّ الجيش القائم وتكوين جيشٍ آخر يخضع للإشراف الانجليزي[١].

وقامت انجلترا بعد ذلك بفرض الحماية (المقنّعة) أو (النصائح الإلزامية) بناءً على توصية اللورد دفرين (Lord Dufferin) الذي أرسلته الحكومة الإنجليزية إلى مصر لمدة ستة أشهر (نوفمبر ١٨٨٢م- مايو ١٨٨٣م)، من أجل وضع تقريرٍ عن طبيعة الوضع في مصر والطريقة الأمثل لإدارته، وبالفعل وضع دفرين التقرير الذي ضمنه قواعد السيطرة البريطانية والحماية من خلال بقاء جيش الاحتلال في مصر، وسيطرة طائفةٍ من كبار الموظفين الانجليز على رأس المصالح العامة كمفتشين ومستشارين مع الاحتفاظ بالشكل الصوري لنظام الحكم الممثّل في الخديو ووزرائه، بوصفه الطريق الأنسب لوضع مصر الدولي بعد تسوية لندن ١٨٤٠-١٨٤١م؛ خوفًا من تآمر الدول المعادية لإنجلترا[٢].

وبالفعل تبنّت الحكومة الإنجليزيّة ما جاء في تقرير دفرين، وأرسلت اللورد إيرل كرومر (Earl of Cromer) ليكون قنصلاً على مصر في الفترة من سبتمبر ١٨٨٣م حتى ١٩٠٧م، وكان طوال هذه الفترة الحاكم المطلق، وتضاءلت بجانب سلطاته كلّ سلطةٍ وطنية، وصار له من النفوذ والسلطان أكثر ممّا كان لحكام المستعمرات البريطانية.

١. الرافعي، عبد الرحمن، مصر المجاهدة في العصر الحديث، ج٤، ص ١٧٣؛ أسامة خفاجة، واقع مصر تحت النفوذ الانجليزي، ص ٢١٠- ٢١١.

٢. توافق تقرير دورفين مع مشورة المستشار الألماني بسمارك، بعدم ضم مصر للإمبراطورية البريطانية، وكذلك عدم إعلان الحماية البريطانية عليها، بل إبقاء السيادة العثمانية على مصر مع العمل على تثبيت دعائم الاحتلال، وكانت وجهة نظر بسمارك في المحافظة على السيادة العثمانية على مصر هي وجوب عدم الإضرار بمركز السلطان العثماني في العالم الإسلامي، كما أنّ هذه السياسة تجعل السلطان العثماني يتردد -إنْ لم يحجم- عن الانضمام إلى فرنسا وغيرها من الدول المعادية لبريطانيا. الشناوي، عبد العزيز محمد، مرجع سبق ذكره، ص ١٤.

أمّا عن علاقة الخديو توفيق بسلطات الاحتلال فقد كانت علاقات وديّة؛ فقد كان مضطرًّا لذلك بعد أنْ أصبح مدينًا لها بمركزه ومنصبه، كما كان يعتقد أنّه إذا فقد التأييد الإنجليزي فإنّه يصبح عرضةً للثورة عليه والإطاحة بعرشه، ومن ثم أخذ بنصائح الإنجليز (الإلزامية) بإخلاء السودان، وقد استمرت هذه العلاقات الودية التي طالما أشاد بها اللورد كرومر حتى آخر أيام حياة الخديو توفيق[١].

بينما كان النزاع سمة العلاقات بين سلطات الاحتلال والحكومة المصرية، هذا النزاع الذي بلغ أوجه منذ وزارة شريف الرابعة (أغسطس ١٨٨٢- يناير ١٨٨٤م) وذلك بسبب مسألة إخلاء السودان على أثر هزيمة الجيش المصري أمام جيوش المهدي الذي أصبحت له السيطرة في السودان، وعندما أصرت الحكومة الإنجليزية على إخلاء السودان كما جاء في مذكرة وزير الخارجية البريطانية اللورد جرانفل (Grenfell) في ٤ يناير ١٨٨٤م، التي يطلب فيها ضرورة اتباع النصائح الإنجليزية، وتخلّي كلّ منحرفٍ عن هذه السياسة عن منصبه، عند ذلك قدم شريف باشا استقالته الشهيرة في ٧ يناير ١٨٨٤م، ولم يكن سبب الاستقالة رفضه إخلاء السودان فحسب، بل لرفضه أيضًا مبدأ ضرورة اتباع النصائح الإنجليزية[٢].

وبهذه الاستقالة سجّل شريف باشا احتجاج مصر على سلخ السودان عنها، وعلى تدخّل الإنجليز في شؤون الحكومة المصرية واعتدائهم على استقلالها، وكان لهذه الاستقالة أهميةٌ عظيمةٌ في تاريخ الحركة الوطنية في مصر؛ لأنّها رسمت خطّ المقاومة الرسمية ضدّ الاحتلال الإنجليزي، وكان أثر هذه الاستقالة سيكون أكبر لو أنه لم يقبل أحد تولّي الوزارة من بعده، لاسيما بعد أنْ رفض رياض باشا تشكيل الوزارة دعمًا منه لموقف شريف باشا، لكن نوبار باشا (الأرمني الأصل) وافق على تشكيل الوزارة دعمًا منه للاحتلال الإنجليزي، واستسلم لسلطات الاحتلال وخضع لنصائحها (الإلزامية)، واشتدت وطأته على الصحافة الوطنية وحتى الصحف الأجنبية التي كانت تندد بالاحتلال[٣].

وعلى الرغم من استسلام نوبار لسلطات الاحتلال فقد تخلّى الانجليز عنه بعد أنْ نالوا ما يبتغون من إخلاء السودان والتمكين لنفوذهم في شؤون الحكومة، فأقاله الخديو على أثر مناقشةٍ بينه وبين نوبار في مجلس الوزراء في بعض المسائل المعروضة على المجلس، وقد خلف رياض

١. الرافعي، عبد الرحمن مصر المجاهدة في العصر الحديث، ج ٤، ص ١٦٥- ١٦٦، ١٦٨.

٢. المرجع نفسه، ص ١٧٣- ١٧٧.

٣. المرجع نفسه، ص ١٧٧؛ الرافعي، عبد الرحمن، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، ص٩١.

باشا نوبار فألّف الوزارة في ١١ يونيو ١٨٨٨م، وقد لقت وزارة رياض تأييدًا شعبيًا على أثر موقفه السابق الذي دعم فيه شريف باشا عند تقديم استقالته، وظنًّا من المصريين أنّ هذه الوزارة ستقوم بتخفيف وطأة السيطرة البريطانية على الحكومة، لكن الأحداث جاءت على العكس من ذلك حيث استمر تغلغل النفوذ البريطاني في الحكومة، وقد بلغ هذا التغلغل أوجه عندما تم تعيين المستر جون سكوت (John Scott)، أول مستشارٍ قضائي إنجليزي لوزارة الحقانية في ١٥ فبراير ١٨٩١م، بهدف السيطرة على وزارة الحقانية، وقد تسبب هذا التعيين في استقالة حسين فخري باشا وزير الحقانية (١٨٨٨- ١٨٨٩م)، واستقالة رياض باشا التي جائت بعد هذا القرار بثلاثة أشهر، وتحديدًا في ١٢ مايو ١٨٩١م والتي عللها بأسباب صحية[١].

وقد كان لوزارة رياض باشا بعض الأعمال الجليلة لعلّ من أهمها: ظهور جريدة المؤيّد في أول ديسمبر ١٨٨٩م، هذه الجريدة التي كان لها الفضل في بعث الروح الوطنية من جديد، وكذا إلغاء السخرة، كما وضع قانون عدم جواز الحجز على رواتب موظفي الحكومة، كما نجح في تخفيض فوائد الدين العام، وكان من أهم أعماله إلغاء اللجان المعروفة بقومسيونات الأشقياء التي شُكّلت في عهد وزارة نوبار، والتي خُوِّلت سلطة القبض على الأشخاص والتحقيق معهم ضاربةً عرض الحائط كلّ الضمانات القانونية[٢].

وعقب استقالة رياض باشا وقع اختيار كرومر على مصطفى فهمي باشا لتشكيل الوزارة التي كانت بحق (وزارة الاستسلام) المطلق لسلطات الاحتلال، فكان عهد وزارته هو أوج السلطة للاحتلال البريطاني، وقد بقي مصطفى فهمي يتولّى الوزارة حتى وفاة الخديو توفيق في يناير ١٨٩٢م، ثم تولاّها في أوائل عهد الخديو عباس حلمي الثاني (١٨٩٢- ١٩١٤م)، قبل أنْ تتم إقالته في بداية عام ١٨٩٣م، ثم عاد للوزارة مرةً أخرى في نوفمبر ١٨٩٥م وبقي في وزارته الثانية حتى نوفمبر ١٩٠٨م، وهي أطول وزارةٍ في عهد الاحتلال (١٣ عامًا).

لقد كان لاستسلام وخضوع الخديو والحكومات المتعاقبة على حكم مصر إبّان الاحتلال الانجليزي أثره على الروح الوطنية؛ فقد خلت البلاد من روح المقاومة طيلة عشرة سنواتٍ أو تزيد، بل أخذ كبراء البلاد وموظّفوها وأعيانها ومثقّفوها وخاصتها وعامتها -تحت تأثير هزيمة الثورة وتأثير الاحتلال الأنجليزي- يتنكرون للحركة الوطنية ويوالون الاحتلال، وعمل الاحتلال من جانبه على توطيد هذه الحالة النفسية.

١. الرافعي، عبد الرحمن: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، ص١٧٣.

٢. المرجع نفسه، ص١٧٤- ٧٥.

غير أنّه في ظلّ هذه الحالة من الاستسلام والتنكر للحركة الوطنية كان هناك وميضٌ يظهر ويختفي معلنًا بأنّ هناك عرقًا ينبض في هذا الجسد المسجى، ألا وهو الصحافة المصرية التي تعرضت للإلغاء والتعطيل نتيجة حملتها على الاحتلال والحكومة المستسلمة له، ثم حمل لواء هذه المعارضة (جريدة المؤيّد) لصاحبها الشيخ علي يوسف التي ظهرت في عهد وزارة رياض، وقامت بدورٍ محمودٍ في بعث الحركة الوطنية، كما كان لـ (جريدة العروة الوثقى) التي كان يصدرها بباريس الإمامان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بداية من ١٣ مارس ١٨٨٤م دورها في مقاومة الاحتلال، حيث نجحت في تهييج الأفكار ضد السياسة البريطانية، لكن مُنعت هذه الجريدة من دخول مصر والسودان والهند بحجة أنها مهيجة للأفكار، فتوقّفت عن الصدور، ولم يتجاوز ما نشر منها ثمانية عشر عددًا، ثم تجددت المعارضة الصحفية القومية ضد الاحتلال بظهور (مجلة الأستاذ) للسيد عبد الله النديم (خطيب الثورة العرابيّة) وقد صدرت هذه الجريدة في أغسطس ١٨٩١م، ولكن لم تلبث أنْ توقّفت وأبعد النديم عن مصر لنزعته الوطنية.

ثانيًا: يقظة الحركة الوطنية عقب تولية عبّاس حلمي الثاني في ٨ يناير ١٨٩٢م:

وفي هذه المرحلة حدثت تغيراتٌ اجتماعيةٌ وفكريةٌ نتج عنها ظهور اتجاهٍ عامٍّ وطنيّ لمقاومة الاحتلال، حيث أخذت طبقة المثقّفين في مصر تنمو نموًّا سريعًا ممّا أسفر عن رفض الواقع الاحتلالي، الذي حرمهم في بلادهم من الوظائف الكبرى التي اقتصرت على الأوربيين، ممّا دفعهم تلقائيًّا إلى الاشتراك في الحياة السياسية وفي الحركة الوطنية التي انتشرت مفاهيمها انتشارًا جذب طلّاب المدارس إلى الاشتغال بالسياسة.

وسوف أتعرّض في السطور التالية لأبرز الأحداث والحركات والثورات الوطنية التي أسهمت في إجلاء الاحتلال البريطاني عن مصر:

أولا: جهود الزعيم مصطفى كامل الوطنية (١٨٧٤- ١٩٠٨م):

كان مصطفى كامل ثمرة كفاح جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأحمد عرابي وغيرهم، وإنْ شئت فقل ثمرة كفاح النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد ولد في ١٤ أغسطس ١٩٧٤م وشهدت طفولته مجيء جمال الدين الأفغاني إلى مصر وتطوّر الوعي السياسي بها على يديه، كما شهدت فترة صباه الثورة العرابية وفشلها، وعاش فترة شبابه المبكر وشهد آثار اليأس المدمر الذي أصاب نفوس المصريين عقب الاحتلال الانجليزي عام ١٨٨٢م، فأخذ يبعث الأمل في نفوس المصريين بكلماته الخالدة: «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة».

وقد اعتمد مصطفى كامل في كفاحه لإحياء الشعور الوطني والعمل على إجلاء الاحتلال على مجالين: مجال خارجي، ومجال داخلي، أما المجال الخارجي فاعتمد فيه على إبراز القضية المصرية في المحافل الدولية والصحافة الأوربية، لاسيما الصحافة الفرنسية؛ ففرنسا كانت تحقد على الوجود الإنجليزي في مصر، وحاولت غير مرة إثارة العراقيل في وجه بريطانيا وأصرّت على مطالبتها بتحديد موعدٍ للجلاء عن مصر، وأصرّت كذلك على بقاء امتيازاتها في مصر، كما ناصرت فرنسا حركة مصطفى كامل وساعدته على نشر مقالاته على صحفها وإلقاء محاضراته في محافلها[١].

كما اعتمد أيضًا في مجال الكفاح الخارجي على مناصرة حركة الجامعة الإسلامية لصالح مصر، فكان يرى أنّ المحافظة على العلاقة مع العثمانيين فيها ردٌّ لأطماع الأوربيين وعاملٌ مساعد من الناحية القانونية؛ فمصر من الناحية القانونية كانت ما تزال حتى بداية الحرب العالمية الأولى تابعةً للدولة العثمانية وولايةً من ولاياتها، وقد حاول الانجليز شراء هذا الحقّ القانوني لتسقط هذه التبعية، لكن مصطفى كامل حاول الاستفادة من هذا الوضع؛ لأنّه كان يرى أنّ مصر بمفردها لا تستطيع إخراج الإنجليز دون معونة الدول الإسلامية وخاصة تركيا، فكان يودّ أنْ يظل محافظًا على التبعية العثمانية إلى أنْ يتمكّن المصريون من إخراج الاحتلال الإنجليزي، ثم بعد ذلك يكون السعي للاستقلال عن الدولة العثمانية[٢].

ولكن بعد إعلان الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤م والذي بموجبه تعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها بألّا تعرقل عمل إنجلترا في مصر لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطاني، ولا بأيّ صورةٍ أخرى، مقابل التزام الحكومة البريطانية بألّا تعرقل عمل فرنسا في الجزائر والمغرب، بما يعني إقرار فرنسا للاحتلال البريطاني في مصر، هنا أدرك مصطفى كامل أنّ معارضة فرنسا للوجود البريطاني في مصر كان نوعًا من المساومة لتعويض فرنسا عما فقدته في مصر[٣].

ومن ثَمّ كثّف مصطفى كامل جهوده الداخلية، فسعى لنشر الوعي الوطني في مصر لإيقاظ المصريين، كما طالب بإدخال الدين في التعليم، وأسّس نادي المدارس سنة ١٩٠٦م وجمع فيه صفوة المثقّفين في مصر الذين تشربوا مبادئه، وتشبّعوا بتعاليمه من أجل خدمة الوطن، وبذلك سرت روح الوطنية بين الطبقة المثقفة من الأمة، كما أنشأ مصطفى كامل الحزب الوطني (حزب

١. الرافعي، عبد الرحمن: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ص ٥٩- ٦٤.

٢. محمد عمارة: الجامعة الإسلامية والفكرة القومية نموذج مصطفى كامل، ص ٩١- ٩١، ١٠١- ١٠٢.

٣. الرافعي، عبد الرحمن: مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ص ١٧٩- ١٨٠

الجلاء) في سنة ١٩٠٧م وسعى لجمع الأحرار تحت لواء هذا الحزب للاستفادة منهم في الضغط على الاستعمار [١].

جدير بالذكر أنّه في سنة ١٩٠٦م وقعت أحداث أسهمت في بعث الشعور الوطني في مصر، كما دفعت مزيدًا من المصريين للاشتغال بالسياسة، والكفاح ضد الاحتلال، ومن ثم حق القول بأنّ عام ١٩٠٦م كان ذروة الحركة الوطنية ضد الاحتلال الانجليزي. لعلّ من أبرز هذه الأحداث: إضراب طلبة الحقوق[٢]، وحادثة العقبة أو طابا[٣]، وحادثة دنشواي التي وقعت في ١٣ يونيه ١٩٠٦م، وقد كان مقدرًا لهذه الحادثة أنْ تهزّ مصر كما لم يهزها حادث، كما كان مقدرًا لهذا الحادث أنْ ينزل اللورد كرومر من فوق عرشه، وأنْ يرتفع بمصطفى كامل إلى الذروة.

وتتلخص الحادثة في قيام ضباط إنجليز برحلةٍ لصيد الحمام في قرية دنشواي - من قرى المنوفية - وكان ذلك وقت حصاد محصول القمح، وعلى الرغم من تحذير أحد الفلاحيين للظباط بعدم إطلاق النار حتى لا يحترق محصول القمح، لكن الضباط لم يعبأوا بهذا التحذير وأصرّوا على إطلاق الرصاص ممّا تسبب في مقتل إمرأةٍ مصريةٍ من أهالي القرية، فهاج عليهم الأهالي ضربًا،

---

١. المرجع نفسه، ص ١٩٦- ١٩٩، ٢٦٣- ٢٧٠.

٢. في فبراير ١٩٠٦م قام طلاب مدرسة الحقوق الخديويّة بعمل إضراب على أثر النظام الذي وضعه دنلوب (السكرتير العام لنظارة المعارف)، الذي كان من شأنه تضييق حرية طلبة مدرسة الحقوق، ومعاملتهم معاملة المدارس الثانوية والابتدائية، وقد شهد بهذا ناظر مدرسة الحقوق إدوارد لامبير عقب استقالته في ١٩٠٧م احتجاجًا على سياسة دنلوب قائلاً: «إنّ المستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظامًا من النظامات الموضوعة لصغار التلاميذ الابتدائية، وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية .... فكانت نتيجة ذلك أن انضمّ للحزب المعارض للإنجليز فئة متعلمة راقية، وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الإنجليزية، وأن تتحول مدرسة الحقوق إلى معقل للوطنية المصرية، بحيث لا تكاد ترى من بين الأربعمائة تلميذ الموجودين الآن في المدرسة عشرة لا يؤمنون كلّ الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا». والجدير بالذكر أنّ بقية المدارس العليا أضربت بدورها تضامنًا مع طلبة مدرسة الحقوق. آمال سعد زغلول: المثقفون المصريون ودورهم في ثورة ١٩١٩م في الفترة مابين (١٩١٨- ١٩٢٢م)، ص٩٨.

٣. في مايو عام ١٩٠٦، اعتزم العثمانيون مدّ سكة حديدية من معان إلى العقبة، ممّا أثار حفيظة الإنجليز الذين عدّوا وصول السكك الحديدية العثمانية إلى العقبة سيشكل منافسًا لقناة السويس في الشحن بين الشرق والغرب. فأرسلت بريطانيا ضابطاً كبيراً عهدوا إليه وضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش إلى العقبة، بوصفها من أملاك مصر، ولكن الجنود الأتراك احتلوا موقع طابا على بعد ثمانية أميال غربي العقبة، قام لذلك خلاف شديد بين تركيا وإنجلترا، ظهرت فيه بمظهر الدولة الحامية لمصر، إذ طالبت إنجلترا تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابا، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءًا من أملاكها، فكان هذا المظهر من علامات الحماية التي أثارت سخط مصطفى كامل، فاستنكر موقف إنجلترا من هذه الحادثة ودعا الإنجليز إلى الجلاء عن مصر بدلاً من أنْ يتظاهروا بالدفاع عن حقوقها. الرافعي، عبد الرحمن، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ص ٢٠٣.

وطاردوهم ومات أحد الجنود الانجليز بضربة شمس، لكن الإدارة البريطانية انتقمت أشد الانتقام وأحالت اثنين وخمسين من المصريين إلى المحاكمة فضلاً عن محاكمة سبعة غيابيًّا، وانتهت المحاكمة الصورية بشنق أربعة مصريين، ومعاقبة اثني عشر مصريًّا بالأشغال الشاقّة بمددٍ متفاوتةٍ، وجلد خمسة أشخاص[١].

لقد ألهبت حادثة دنشواي الحركة الوطنية وزادت السخط على بريطانيا، والتزمر من سياستها، وأظهرت الوجه الظالم والقبيح للاحتلال، وندّد الوطنيون بزعامة مصطفى كامل في الصحف الغربية بفظاعة الحكم وظلم الاحتلال، وقد وصل صوتهم إلى المحافل الدولية والبرلمانية في أوروبا، وقد وجدت هذه الاستغاثات آذانًا صاغيةً من رجال الساسة البريطانيين، وكان من أكبر الانتصارات للقضية المصرية كسب المفكرين الأحرار في بريطانيا وعلى رأسهم الكاتب الساخر برنارد شو (George Bernard Shaw) الذي حارب الاحتلال البريطاني في عقر داره، ورغم نجاح مصطفى كامل والوطنيون من خلفه في عرض الظلم البريطاني للمصريين بصورة جيدة، إلا أنّ التعاطف مع القضية المصرية كان لأسبابٍ إنسانيةٍ وليس سياسية، ممّا جعل مردود هذا التعاطف وتأثيره ضعيفًا في قضية هي بالدرجة الأولى سياسيةٌ[٢].

لقد كان للحراك الوطني في أعقاب حادثة دنشواي أثره في دفع الإدارة البريطانية لتعديل سياستها في مصر - وإنْ كان هذا التعديل تدريجيًّا كعادة بريطانيا في الأمور السياسية - حيث قررت الاستغناء عن اللورد كرومر في مصر بعد أنْ قررت أنْ تضحّي بشخصه على أنْ تضحي بمصالحها، وعيّنت بدلاً منه القنصل جورست (Eldon Gorst/١٩٠٧- ١٩١١م)، كما أعيد النظر في أمر مسجوني دنشواي وأطلق سراحهم سنة ١٩٠٨م، بالإضافة إلى ذلك قررت الإدارة البريطانية إسناد بعض المناصب الكبيرة للمصريين في محاولةٍ لتهدئة الخواطر الثائرة. وفي الحقيقة كان إعفاء كرومر من منصبه انتصارًا كبيرًا للحركة الوطنية، فقد ظلّ يشغل هذا المنصب مدة أربع وعشرين سنة كان في خلالها الحاكم المطلق لمصر، فلا شك في أنّ إقصائه عن هذه السلطة بعد هذه المدة الطويلة بمنزلة اعتراف بقوة الحركة الوطنية وتأثيرها[٣].

وظلّ مصطفى كامل يكافح في سبيل استقلال مصر حتى وهو على سرير المرض، فأرسل قبيل

١. أبو خليل، شوقي: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص ١٢٩.

٢. الرافعي، عبد الرحمن، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، ص ٢٣٩- ٢٤٣

٣. المرجع نفسه، ص ٢٤٤- ٢٤٥.

وفاته بخمسة أيام احتجاجًا قويًّا ضدّ تصريحات أدلى بها السير إدوارد جراي (Edward Grey) في مجلس العموم البريطاني، اتّهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتي، فرد عليه مصطفى كامل بأنّ مصر تماثل في الاستعداد للحكم الذاتي كثيرًا من الأمم الأوروبية، وأنّها ستظلّ تجاهد في سبيل حرّيتها واستقلالها، وفي ١٠ فبراير ١٩٠٨م فاضت روح مصطفى كامل إلى بارئها، ليتولّى من بعده محمد فريد قيادة الحركة الوطنية المصرية.

ثانيًا: جهود الزعيم محمد فريد الوطنية (١٨٦٨- ١٩١٩م)

بعد وفاة مصطفى كامل اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطني لاختيار محمد فريد رئيسًا للحزب - كما أوصى مصطفى كامل قبل وفاته فبدأ رئاسته للحزب بتوجيه برقية إلى وزير خارجية إنجلترا احتجاجًا على الاحتلال البريطاني لمصر[١]، وقد حمل فريد أعباء الزعامة بكلّ همةٍ وصبرٍ وشجاعةٍ وإخلاصٍ وتضحية، وكان من أبرز جهود محمد فريد في سبيل رفع الظلم عن المصريين، والتنديد بالاحتلال والسعي لإجلائه عدة أمور، لعل من أبرزها:

١. المطالبة بإلغاء المحكمة المخصوصة التي أنشأت لمحاكمة من يُتهم من الأهالي بالتعدي على ضباط وجنود جيش الاحتلال الإنجليزي.

٢. رفضه لمشروع مدّ امتياز قناة السويس من عام ١٩٢١ حتى ١٩٦٨م وكتابة عددٍ من المقالات نشرت في جريدة اللواء تبيّن مدى الغبن الذي يصيب مصر من وراء هذا المشروع، كما وجّه عددًا من الخطابات إلى عبّاس حلمي الثاني خديوي مصر، إلى الأمير حسين كامل رئيس الجمعية العمومية، بغرض إيقاف هذا المشروع.

٣. كما دعا محمد فريد إلى مؤتمر بروكسل عام ١٩١٠م، وقد حضر هذا المؤتمر عددٌ كبيرٌ من رجال السياسة والاقتصاد والأدب في أوروبا، وكان يهدف من هذا المؤتمر عرض الصورة الحقيقية لمعاناة المصريين تحت وطأة الاحتلال، والتأكيد على أنّ المصريين لن يتنازلوا عن حقهم في الاستقلال.

وقد اضطهد محمد فريد وسجن في سبيل مواقفه ودفاعه عن قضية بلاده؛ ممّا اضطرّه إلى الهجرة، حتى توفي في ١٥ نوفمبر ١٩١٩م، ببرلين ودفن بها، ولم ينقل رفاته إلى مصر إلّا في يونيه ١٩٢٠م، بعد أنْ عاش حياةً مليئةً بالشدائد تحملها في ثبات منقطع النظير.

---

١. الرافعي، عبد الرحمن، محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية، ص٥٤.

ثالثًا: ثورة ١٩١٩م قمة اليقظة الوطنية

عقب قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م، وإعلان بريطانيا الحماية السافرة على مصر، عدّت إنجلترا نفسها مصدر ولاية عرش مصر؛ ففي اليوم التالي لإعلان الحماية (١٩ ديسمبر ١٩١٤م) أعلنت خلع الخديو عبّاس الثاني الذي كان في زيارةٍ لتركيا، وعيّنت مكانه الأمير حسين كمال بن إسماعيل، ومنحته لقب سلطان مصر، ولما توفّي السلطان حسين في ٩ أكتوبر ١٩١٧م اختارت إنجلترا أخاه الأمير أحمد فؤاد سلطانًا على مصر، وقررت أنْ يكون حكم مصر وراثيًّا في أسرته، وتبع ذلك حرمان مصر من الاتصال بالدول بغير وساطة الممثّل البريطاني، وفي ١٨ أكتوبر ١٩١٤م صدر مرسوم إنجليزي بتعطيل الجمعية التشريعية التي استمرت معطلة حتى صدور دستور ١٩٢٣م، وفي ٢ نوفمبر ١٩١٤م تم إعلان الأحكام العرفية التي استمرت هي الأخرى حتى عام ١٩٢٣م.

هكذا عاشت مصر إبّان الحرب العالمية الأولى تحت الإرهاب الإنجليزي حيث كبتت الروح الوطنية بالقوة العسكرية، وكان مصير الوطنيين السجن أو النفي، هذا فضلاً عما فرضته ظروف الحرب من اتخاذ مصر قاعدةً حربيةً للحلفاء في الشرق الأوسط، وتدفّقت القوات المسلحة على البلاد من جميع أجزاء الإمبراطورية البريطانية ممّا كان له أثرٌ كبيرٌ في نشر الفوضى في البلاد لاعتدائهم المستمر على الأهالي، كما اشتركت القوات المصرية في الدفاع عن قناة السويس، واشتركت قواتٌ مصريةٌ أخرى في القتال على حدود مصر الغربية حين تعرّضت مصر لهجومٍ من ناحية ليبيا، بالإضافة إلى ذلك تم تسخير موارد البلاد الزراعية والصناعية والتجارية والبشرية لخدمة المجهود الحربي للإنجليز وحلفائهم، وقد كان لهذه التصرفات القاسية أكبر الأثر في تعبئة الشعور القومي ضد الاحتلال، هذا الشعور الذي انفجر بعد الحرب في ثورة ١٩١٩م[١].

وفي الحقيقة لم يكن شظف العيش والبؤس والمصادرة والسخرة والاستيلاء هي وحدها سبب الثورة، فهذه الأشياء يمكن أنْ يتحملها المصريون بشرط أنْ يكون الاحتمال لتحقيق غايةٍ وطنيةٍ أو فكرةٍ إنسانية، ولكن في مصر لم يكن الاحتمال إلّا لأجل أنْ تكسب إنجلترا الحرب فتكبّل مصر في أغلال العبودية الأبدية، وتسيطر إنجلترا على دولة الخلافة العظمى، وتجعل أراضيها نهبًا للطليان والروس، وترتفع رايات الإنجليز والفرنسيين في بيت المقدس وبغداد ودمشق والقسطنطينية، وتفتح أراضي فلسطين لسكنى اليهود في وطن قومي. إنّ مصر لم تغضب للمصادرة والسخرة بقدر ما غضبت لما وراء المصادرة والسخرة، غضبت لكرامتها وعزتها، غضبت لتسخيرها وهي الوطن

١. السيد محمد الدقن، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ٢٠٠٤م، ص ص ٢٠٤- ٢٠٥؛ وعبد الله عبد الرازق إبراهيم، الجمل، وشوقي، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، ص ٢٨٥- ٢٨٦.

المجيد لأغراض غير أغراض أهله، لأغراض الاستعمار[١].

لقد كان في مصر ذخيرةٌ من الوطنية جعلتها مستعدةً للثورة، فإنّ لجهاد الحزب الوطني وزعمائه وأنصاره منذ عام١٨٩٠م أثرًا كبيرًا في قيام الثورة سنة ١٩١٩م، وذلك بما غرسوا في النفوس على تعاقب السنين من روح الجهاد الخالص لله والوطن، فالثورات ليست حركاتٍ ميكانيكية تظهر فجأة، بل هي حوادث اجتماعية تتمخض عنها حياة الشعوب تبعًا لدرجة استعدادها وتقدمها، ونتيجة لسريان روح الوطنية في نفوس أبنائها، فالكفاح الوطني السابق على سنة ١٩١٩م هو الذي مهّد للثورة وأشعل جذوتها[٢].

مقدمات الثورة:

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في ١١ نوفمبر ١٩١٨م تطلع العالم كلّه إلى بزوغ فجرٍ جديدٍ يبشّر بالحرية والاستقلال، ومن هنا رأى فريقٌ من الزعماء الوطنيين أنْ يرفع صوت مصر في مؤتمر الصلح الذي عزمت الدول على عقده في فرساي – إحدى ضواحي باريس- وتزعم حركة الجهاد سعد زغلول باشا الذي كان حينذاك وكيلاً منتخبًا للجمعية التشريعية، واتفق سعد زغلول مع زميليه علي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك على الذهاب إلى دار الحماية البريطانية ليطلبوا إلى المعتمد البريطاني الترخيص لهم بالسفر إلى لندن، لمباحثة الحكومة الإنجليزية في مطالب مصر، لكن طلبهم قوبل بالرفض، غير أنّ سعد زغلول وأصحابه عقدوا العزم على تأليف وفدٍ للذهاب إلى فرساي، ولكن كان على الوفد أنْ يثبت لنفسه حق التحدث باسم الشعب المصري، لذلك وُضعت صيغة توكيلٍ من جميع طبقات الشعب وطوائفه، وجوهر هذا التوكيل أنّ هذا الوفد ممثّلٌ للمصرين في المطالبة باستقلال مصر التام، وأنّه ليس لأحدٍ من أعضاء الوفد أنْ يخرج عن حدود هذه الوكالة[٣].

وقد أقبل المصريون في شغفٍ وحميةٍ على توقيع هذه التوكيلات، كما لقيت هذه الحركة تأييدًا من رئيس الوزراء حينذاك حسين رشدي باشا الذي أراد أنْ يسام في نجاحها؛ فتقدّم

١. محمد شفيق غربال، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، ج١، ص ٤٩- ٥٠.

٢. الرافعي، عبد الرحمن، مصر المجاهدة في العصر الحديث، ج٥، ص ١٣٧.

٣. الرافعي، عبد الرحمن، مصر المجاهدة في العصر الحديث، ج٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥- ١٤٦؛ مؤسسة الأهرام مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة: ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩م، ص ١٦١- ١٦٧؛ محمد كامل سليم: ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها، ص ٧٠- ٧٥.

باستقالته في أول مارس ١٩١٩م، حينما رفض السلطان فؤاد سفره إلى لندن[١].

إنفجار الثورة

بعد استقالة حسين رشدي من رئاسة الوزراء لم يتمكن القصر وسلطات الاحتلال من تشكيل حكومةٍ أخرى لرفض الوطنيين مساعداتهم دعمًا لموقف رشدي الوطني، عندئذٍ رأى قائد القوات البريطانية أنْ يأخذ الأمر بالعنف والشدة، فأنذر سعد زغلول وصحبه بتطبيق الأحكام العرفية عليهم، ثم ألقى القبض على سعد وثلاثة من أعضاء الوفد ونفاهم إلى جزيرة مالطة، وقد خدمت تلك التصرّفات الغاشمة الحركة الوطنية؛ لأنّها أدّت إلى إنفجار الشعور المكبوت، وكان هذا الحادث بمنزلة الشرارة التي أشعلت نيران الثورة، وسرعان ما انتشرت وعمّت أنحاء القطر المصري واشتركت فيها جميع عناصر الشعب وطوائفه، فقد بدأت الثورة في ٩ مارس ولم يأت يوم ١٥ مارس، حتى كانت قد عمّت أنحاء القطر المصري، فاشتعلت الثورة في القاهرة، وأضرب المحامون والطلبة، وقامت مظاهراتٌ شعبيةٌ انتشرت في الأقاليم، وتم قطع السكك الحديدية وأسلاك البرق، وكانت مواكب الثوار تخترق الشوارع يوميا مرددة (تحيا مصر، تحيا الحرية، تسقط الحماية)، غير مباليةٍ برصاص الإنجليز الذي كان يترصد للثوار في كلّ مكان، بل إنّ القسوة التي استخدمها الإنجليز في قمع المظاهرات كانت من أسباب حدّة الثورة وازدياد اشتعالها[٢].

وقد اضطرّت بريطانيا أمام هذه الثورة العارمة إلى الإفراج عن سعد زغلول وصحبه في السابع من أبريل ١٩١٩م، وإباحة السفر للمصريين[٣]، وألّف حسين رشدي باشا وزارته الرابعة في التاسع من

---

١. الرافعي، عبد الرحمن، مصر المجاهدة في العصر الحديث، ج٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦؛ مؤسسة الأهرام مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٨- ١٦٩؛ محمد كامل سليم، مرجع سبق ذكره، ص٧٥؛ مكي الطيب شبيكة: بريطانيا وثورة سنة ١٩١٩ المصرية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ص ٦٠.

٢. الرافعي، عبد الرحمن، مصر المجاهدة في العصر الحديث، ج ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦- ١٥٧؛ عبد العظيم محمد رمضان، تطور الحركة القومية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦، ص ١٣٠- ١٤٣.

٣. أعلن الجنرال أللمبي قراراه بالإفراج عن سعد وصحبه في يوم الاثنين ٧ أبريل ١٩١٩م، وقد أصدر بذلك منشورًا قال فيه: «الآن وقد عاد النظام بنجاح عظيم، فبالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان أُعْلن أنّه لم يبق حجر على السفر، وأنّ جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد تكون لهم هذه الحرية، وقد قررت علاوة على ذلك أنّ كلًّا من: سعد زغلول باشا، وإسماعيل صدقي باشا، ومحمد محمود باشا، وحمد الباسل باشا، يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر»، وكان أللمبي قد عُيّن في ٢١ مارس ١٩١٩م مندوبًا ساميًا فوق العادة في مصر والسودان. الرافعي، عبد الرحمن، ثورة ١٩١٩م، وتاريخ مصر القومي ١٩١٤- ١٩٢١، ج٢، ص ١١؛ محمد كامل سليم، مرجع سبق ذكره، ص ١١٨، ١٢٣.

أبريل بعد أنْ ظلّت البلاد دون حكومة منذ استقالته[١]، كما سافر الوفد المصري إلى باريس لعرض قضية المصريين على مؤتمر الصلح، ولكن ما لبث الوفد أنْ خاب أمله في المؤتمر؛ حيث اعترف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (ويلسون) بالحماية، وفي معاهدة فرساي (مايو ١٩١٩) اعترفت ألمانيا بالحماية أيضًا، عندئذٍ أدرك المصريون أنّ مؤتمرات الدول الكبرى ماهي إلّا مؤتمرات تدبّر لاقتسام الشعوب الصغيرة، فقرروا الاعتماد على أنفسهم والاستمرار في ثورتهم وكفاحهم، وعاد اضطهاد الإنجليز أقبح ممّا كان وتعرضت القرى والمدن الثائرة لاعتداء الجنود الإنجليز من غير وازعٍ ولا ضمير، وبدأت المحاكم العسكرية التي حكمت بالإعدام على عددٍ كبيرٍ من المواطنين، وزجّت في السجون مئات من مختلف الطوائف، كما تم تشكيل حكومةٍ جديدةٍ برئاسة محمد سعيد باشا في مايو ١٩١٩م[٢].

وأمام استمرار ثورة المصريين لجأت الحكومة البريطانية إلى سياسة الملاينة، فأرسلت في سبتمبر ١٩١٩م، لجنةً برئاسة اللورد ملنر (Alfred Milner) وزير المستعمرات البريطانية (وهو من رجال الاحتلال القدماء كان مستشارًا ماليًّا للحكومة المصرية عام ١٨٩٤م، وألف كتاب بعنوان (إنجلترا في مصر England in Egypt)، الذي يُعدّ من المراجع المهمة في سياسة الاحتلال[٣]، ولكن المصريين جميعًا قاطعوا هذه اللجنة، وقامت المظاهرات احتجاجًا على قدومها، فاضطرّت الحكومة البريطانية إلى استدعاء الوفد المصري في باريس، وبالفعل سافر الوفد إلى لندن، وبعد المباحثة توصّل المتفاوضون إلى مشروع معاهدة قرر الوفد عرضه على الشعب – تثبيتًا لمبدأ الأمة مصدر السلطات - فوجد المشروع من جميع الهيئات والطبقات والطوائف معارضةً، وتم النظر إلى المشروع على أنّه حماية مقنعة[٤].

وعندما لم تنجح المباحثات مع الوفد المصري، رأت الحكومة الإنجليزية التفاوض مع

---

١. لم تعمر هذه الوزارة طويلاً بسبب إضراب الموظفين، حيث طلب الموظّفون من الحكومة عدم الاعتراف بالحماية، وأنْ تلغى الأحكام العرفية وتسحب الجنود الإنجليز من الشوارع والبنادر والقرى. وتشبث الموظّفون بهذا، ولم يقبلوا من رشدي وعدًا، غير أنّهم عادوا للعمل تحت تهديد السلطة العسكرية بعد استقالة رشدي باشا، وألّف محمد سعيد باشا وزارته الإدارية في مايو ١٩١٩م. محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٥٩.

٢. الرافعي، عبد الرحمن، ثورة ١٩١٩، وتاريخ مصر القومي ١٩١٤- ١٩٢١، ج٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٤- ٣٠؛ ومحمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٥٩؛ ومحمد كامل سليم، مرجع سبق ذكره، ص ١١٢٦- ١٣٧.

٣. مؤسسة الأهرام مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٨.

٤. المرجع نفسه، ص ٤٣١- ٤٥٠؛ وعبد العظيم محمد رمضان، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٥- ٢٦٣.

الحكومة المصرية التي كان يرأسها حينذاك عدلي يكن باشا، فسافر على رأس وفدٍ رسميّ إلى لندن – بعد امتناع سعد زغلول عن السفر معه - ولكنّه لم يصل إلى نتيجةٍ يمكن قبولها، فاستقالت وزارة عدلي في ديسمبر ١٩٢١م، وعادت الثورة من جديد، وقابلتها السطات البريطانية بالشدة والعنف، فألقت القبض على سعد زغلول مع خمسة من أعضاء الوفد، ونفتهم إلى سيشل، ثم نفوا سعدًا بمفرده إلى جبل طارق، عندئذٍ اشتدت الحركة الوطنية وتألّفت الجمعيات السرية بقصد المقاومة المسلحة، وأحجم رجال السياسة عن قبول تأليف الوزارة، وعندئذٍ اضطرّت الحكومة البريطانية إلى إصدار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م[١].

وكان من أهم بنود تصريح ٢٨ فبراير[٢]:

- أنّ الحماية البريطانية على مصر قد انتهت وأصبحت مصر بذلك دولةً مستقلةً ذات سيادة.
- إلغاء الأحكام العرفية التي أعلنت في ٢ نوفمبر ١٩١٤م.
- تحتفظ الحكومة البريطانية بتأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر، والدفاع عن مصر ضد كلّ اعتداءٍ أو تدخّلٍ أجنبي، وحماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات، وحرية التصرّف في كلّ ما يخصّ السودان من قبل الحكومة البريطانية.

وهكذا انتهت ثورة ١٩١٩م، بنجاحٍ جزئي؛ حيث تم إلغاء الحماية على مصر، وحازت على الاعتراف بسيادتها، كما تم إعلان الدستور، والحياة النيابية، لكنّها فشلت في تحقيق الجلاء ووحدة وادي النيل، وعلى أساس ذلك تألّفت حكومة عبد الخالق ثروت في أول مارس ١٩٢٢م[٣]، وتشكّلت لجنة الثلاثين من كبار رجال القانون لوضع الدستور، وأعلن الملك فؤاد الأوّل استقلال البلاد وتحويل السلطنة إلى مملكة في ١٥ مارس ١٩٢٢م، واتّخذ لنفسه لقب ملك مصر.

وقد أحرز حزب الوفد أغلبيةً ساحقةً في انتخابات ١٩٢٤م، التي أجريت حسب ما جاء في مواد دستور ١٩٢٣م، وبناءً على ذلك شكّل سعد زغلول أوّل وزارةٍ برلمانيةٍ عُرفت (بوزارة الشعب) في يناير ١٩٢٤م، وافتتحت جلسات أوّل برلمان مصري في ١٥ مارس ١٩٢٤م، لكن اغتيل السير لي ستاك (Lee Stack) سردار الجيش المصري وحاكم السودان (١٩١٧- ١٩٢٤م) في نوفمبر

١. محمد شفيق غربال، مرجع سبق ذكره، ص ٨١- ١٠١.

٢. المرجع نفسه، ص ١٠٣- ١١٤؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى، تاريخ مصر السياسي من الاحتلال إلى المعاهدة، ص ١٣٣.

٣. الوقائع المصرية، السنة ٩٢، العدد ٢١ (غير اعتيادي)، الأربعاء أول مارس ١٩٢٢م، ص ١- ٢.

١٩٢٤م، فقدّم المندوب السامي البريطاني اللورد أللنبي (Allenby) إنذاره للحكومة المصرية في ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤م، هذا الإنذار الذي اعترض عليه سعد زغلول، وقدّم استقالته في ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤م، فألّف أحمد زيرو باشا -رئيس مجلس الشيوخ- وزارةً جديدةً قبلت المطالب البريطانية التي جاءت في الإنذار البريطاني، ومنها سحب الجيش المصري من السودان[١].

وتتابعت الأحداث بعد ذلك، فقد شهدت الفترة بين ثورة ١٩١٩م، وثورة ١٩٥٢م، صراعًا بين قوى ثلاث: الوفد بصفته أكبر الأحزاب السياسية في مصر، والإنجليز والقصر. وقد تركزت القضية الوطنية خلال هذه الفترة حول مسألتين هما: جلاء القوات البريطانية عن مصر ووحدة وادي النيل، وكان الإسلوب الذي اتبعه القادة المصريون سواء من الوفديين أم غيرهم لتحقيق المطالب الوطنية هو أسلوب التفاوض. وقد حدثت أحداث مهمة خلال هذه الفترة كان من أهمها توقيع معاهدة ١٩٣٦م.

وتعدّ معاهدة ١٩٣٦م، حلقةً من حلقات القيود التي أحكمتها بريطانيا على مصر؛ فعلى الرغم من نصّ المعاهدة على إنهاء الاحتلال فإنّ القوات البريطانيا بقيت في الأسكندرية ومنطقة القناة بحجّة معاونتها في الدفاع عن مصر، وسمح بزيادة عددها في الحرب أو خطر الحرب، كما أقامت المعاهدة تحالفًا أبديًّا بين مصر وإنجلترا، ولكن الشروط العسكرية الواردة في المعاهدة كلّها جاءت لصالح إنجلترا، إذ جعلت موانئ مصر ومطاراتها وطرق المواصلات فيها تحت تصرف القوات البريطانية في حالة خطر الحرب أو خشية وقوع طوارئ دولية. وعلى الرغم من أنّ المعاهدة أقرّت عودة الجنود المصريين إلى السودان فإنّ السودان أصبحت بموجب هذه المعاهدة مستعمرةٌ إنجليزيةٌ يحرسها جنود مصريون تحت إمرة حاكمها العام البريطاني، إذ أبقت المعاهدة السلطة العسكرية والمدنية العليا في يد الحاكم العام البريطاني، أمّا ما ورد بخصوص إلغاء الامتيازات الأجنبية، فقد كان ذلك مرهونًا بالاتفاق مع الدول صاحبة الامتيازات[٢].

وسرعان ما تكشفت حقائق معاهدة ١٩٣٦م للأمة المصرية التي ظلّت تعمل وتناضل للتخلّص منها، وقد نجحت الأمة في تحقيق أملها عندما قامت حكومة الوفد برئاسة مصطفى النحّاس باشا

١. فطين أحمد فريد علي، الجيش المصري بين التمصير والسيطرة البريطانية: من تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ إلى أزمة الجيش ١٧ يونيه ١٩٢٧م، مجلد ٤٣، ص ١٣٠- ١٣٨.

٢. عبد العظيم محمد رمضان، مرجع سبق ذكره، ص ٧٧٠- ٨٠٣؛ ويونان لبيب رزق، السودان في المفاوضات المصرية البريطانية ١٩٣٠- ١٩٣٦م، ص ١٠٩- ١١٠؛ وطارق خضر حسن محجوب، الرؤية المصرية لمسألة السودان من معاهدة ١٩٣٦م حتى اتفاقية الحكم الذاتي ١٩٥٣م، ص ١٨- ٢٥.

بقطع المفاوضات بين الحكومتين المصرية والبريطانية بعد أنْ اتّضح عدم جدواها، وبعد أنْ استطالت نحو تسعة عشر شهرًا (مارس ١٩٥٠- سبتمبر ١٩٥١م)، وتشدّدت بريطانيا خلال هذه المفاوضات أكثر من ذي قبل، حيث تمسّكت ببقاء قوات بريطانية في مصر حتى في وقت السلم، ولم تعد تعترف بصلاحية عبارتي الجلاء ووحدة وادي النيل كأساس للاتفاق، عندئذٍ أعلن النحّاس باشا في ٨ أكتوبر ١٩٥١م إلغاء معاهدة ١٩٣٦م، واتفاقية ١٨٩٩م بشأن السودان[١]، ثم قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م التي نتج عنها تحقيق الاستقلال التام وإجلاء الانجليز، حيث اضطرّت بريطانيا إلى توقيع اتفاقية الجلاء عن مصر في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤م وفيها اعترفت بريطانيا بإنهاء معاهدة ١٩٣٦م وتعهدت بإجلاء قواتها عن مصر خلال عشرين شهرًا[٢].

وبهذا يتضح أنّ الحراك الشعبي ضد الاحتلال الانجليزي كان ظاهرًا بصورٍ كبيرةٍ جدًا من خلال السعي بكلّ السبل للحصول على الحرية والتخلّص من الاحتلال، فلم يرهب المصريين قسوة التعامل من جانب المحتل، فقد مضوا في تحقيق هدفهم غير مبالين بالويلات التي لاقوها في سبيل تحقيق حريتهم، وقد حقق المصريون ما أرادو بعد جهادٍ طويلٍ استمر منذ عام ١٨٨٢م، حتى عام ١٩٥٦م.

١. عواطف عبد الرحمن، نجوى كامل، تاريخ الصحافة المصرية دراسة تاريخية معاصرة، ص ٢٣٦.

٢. محمد حسنين هيكل، عبد الناصر والعالم، ج ١، ص ٩٥؛ كاظم وادي خشان، رأي الشيوعية في اتفاقية الجلاء وصفقة الأسلحة (١٩٥٤- ١٩٥٥)، ج ٢، العدد٥، ص ١٢١- ١٢٢، ١٢٨- ١٣٠.

المصادر والمراجع

١. أحمد عبد الرحيم مصطفى، تاريخ مصر السياسي من الاحتلال إلى المعاهدة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م،

٢. السيد محمد الدقن، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ٢٠٠٤م.

٣. عبد الله عبد الرازق إبراهيم، وشوقي الجمل، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧م.

٤. شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ط١٢، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٥م.

٥. عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية، ط٤، دار المعارف، ١٩٨٤م.

٦. عبد الرحمن الرافعي، مصر المجاهدة في العصر الحديث، جـ ٥، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦، مؤسسة الأهرام مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة.

٧. مكي الطيب شبيكة، بريطانيا وثورة سنة ١٩١٩ المصرية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، دار نافع للطباعة، ١٩٧٦م.

٨. عبد العظيم محمد رمضان، تطور الحركة القومية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٣م.

٩. عبد الرحمن الرافعي، مصر المجاهدة في العصر الحديث، جـ٤، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٥٨م.

١٠. أسامة خفاجة، واقع مصر تحت النفوذ الانجليزي، مطبعة الجيزة، ١٩٧٦م.

١١. عبد الرحمن الرافعي، مصر المجاهدة في العصر الحديث، جـ٥، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

١٢. عبد الرحمن الرافعي، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال.

١٣. عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، طـ٥، دار المعارف، ١٩٨٤م.

١٤. عبد العزيز محمد الشناوي، في أعقاب الاحتلال البريطاني لمصر، تكتل الدول لتدويل قناة السويس نكاية في بريطانيا، مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة، المجلد ٢٣، الجزء١، ١٩٦١م.

١٥. عواطف عبد الرحمن، نجوى كامل، تاريخ الصحافة المصرية دراسة تاريخية معاصرة، العربي للنشر.

١٦. فطين أحمد فريد علي، الجيش المصري بين التمصير والسيطرة البريطانية، من تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ إلى أزمة الجيش ١٧ يونيه ١٩٢٧م، مجلد ٤٣، المجلة التاريخية المصرية، ٢٠٠٥م.

١٧. محمد حسنين هيكل، عبد الناصر والعالم، المجلد ١، ط ١، دار النهار للنشر، القاهرة، ١٩٧٢م.

١٨. كاظم وادي خشان، رأي الشيوعية في اتفاقية الجلاء وصفقة الأسلحة (١٩٥٤- ١٩٥٥)، المجلة الدولية أبحاث في العلوم التربوية والإنسانية والآداب واللغات، جامعة البصرة، مجلد ٢، العدد٥، يونيو ٢٠٢١م.
١٩. محمد شفيق غربال، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، جـ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٢م.
٢٠. محمد عمارة، الجامعة الإسلامية والفكرة القومية نموذج مصطفى كامل، طـ١، دار الشروق، ١٩٩٤م.

الوجه الخفي للتعليم الاستعماريّ الفرنسيّ في الجزائر

(المنهج والآليات والنتائج)

د. عبد القادر بو حسون[1]

الملخص

سعت الإدارة الاستعمارية منذ احتلال الجزائر في (٥ جويلية) تموز من عام ١٨٣٠م، إلى تطبيق سياسةٍ فريدةٍ من نوعها، شملت مختلف المجالات، وكان الهدف من وراء ذلك إخضاع الجزائريين وضمان ولائهم لفرنسا من أجل تحقيق حلم (الجزائر فرنسية).

فعلاوة على السيطرة العسكرية والسياسية والاستغلال الاقتصادي عمل الاستعمار جاهدًا على جعل الجزائر قطعةً لا تتجزأ من التراب الفرنسي أرضًا ولغةً وثقافةً ودينًا، وقد أدرك قادة الاستعمار أنّه لا سبيل لتحقيق ذلك إلّا بالقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية وعلى رأسها الدين واللغة، ومن أجل ذلك اعتمدت على التعليم كركيزةٍ أساسيةٍ وفعّالةٍ لتحقيق مسعاها الخبيث، لعلّها تخلُص إلى استعمارٍ لا يمكن محو آثاره، وذلك بتحطيم بنية المجتمع الجزائري، والقضاء على الأسس المادية والروحية التي يقوم عليها، وتحييد القيم الحضارية التي يستند إليها بمحاصرة الشعور الديني ومحاربة اللغة العربية، وإثارة النعرات القبلية تمهيدًا لتوطين المستوطنين.

ونسعى من خلال هذه الدراسة إلى توضيح معالم السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر من خلال التطرق إلى مفهومها وأهدافها والوسائل والطرق المعتمدة في تجسيدها، بالإضافة مواقف الجزائريين وردود الفعل تجاهها.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار الفرنسي، استعمار الجزائر، الثورة الجزائرية، التنصير، الفرنسة.

---

١. أستاذ التاريخ في جامعة الدكتور مولاي الطاهر - سعيدة الجزائر.

مقدّمة

لقد سعت الإدارة الفرنسية الاستعمارية منذ احتلالها للجزائر عام ١٨٣٠م، إلى تطبيق سياسةٍ فريدةٍ من نوعها قلّما نجد لها مثيلاً في المستعمرات الأخرى حتى في تلك المستعمرات الفرنسية، وذلك لكون الاستعمار الفرنسي بالجزائر هو استعمار استيطاني نيته توطين المستعمِرين، واستغلال البلاد استغلالاً كليًّا ومن جميع النواحي.

ولهذا نجد السياسة الاستعمارية شاملةً لمختلف المجالات: العسكرية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية...، وكان الهدف من ورائها هو إخضاع الجزائريين، وضمان ولائهم لفرنسا من أجل تحقيق حلم (الجزائر فرنسيّة).

فعلاوةً على السيطرة العسكرية والسياسية والاستغلال الاقتصادي عمل الاستعمار جاهدًا على جعل الجزائر قطعةً لا تتجزأ من التراب الفرنسي أرضًا ولغةً وثقافةً ودينًا، وقد أدرك قادة الاستعمار أنّه لا سبيل لتحقيق هذا المشروع إلّا بالقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية وعلى رأسها الدين واللغة، ولن يتأتى ذلك إلّا عن طريق التعليم المخصص للجزائريين، والذي كان ظاهره تعليم الجزائريين وتثقيفهم، ولكن باطنه هو تحطيم بنية المجتمع الجزائري من خلال سلخه عن مقوماته الحضارية وخصوصياته الثقافية، ولذلك عملت على تطبيق سياسةٍ تعليميةٍ ممنهجةٍ ومدروسة.

١. مفهوم السياسة التعليمية:

إنّ السياسة التعليمية الفرنسية هي جزءٌ لا يتجزأ من السياسة الاستعمارية بنحوٍ عام، والتي طبّقتها فرنسا في الجزائر طيلة ١٣٢ سنة من الاحتلال، والتي كان الهدف منها هو ضمان مصالح المستعمرين بشتى الوسائل والطرق الممكنة.

ولمّا كان التعليم قضيةً مصيريةً في حياة الأمم جميعها حاضرها ومستقبلها، وأحد المعايير الرئيسة في قياس مدى رقي المجتمعات وازدهارها[١]، فقد ركزت عليه الإدارة الاستعمارية أيّما تركيز لجعله أداةً فعّالةً للاستعمار الفرنسي، ونشر الأمن والسلام للمستوطنين، وهو ما عبّر عنه أحد المسؤولين الفرنسيين آنذاك بقوله: «إنّ الأداة الأكثر نجاعةً لتحقيق السلم الكامل تتمثّل في نشر اللغة الفرنسية وتعميمها بين الأهالي»[٢]، كما عبّر مسؤولٌ فرنسيّ آخر بقوله: «يجب على المدرسة

١. الجمالي، محمد فاضل، فلسفة التعليم عند الشيخ البشير الإبراهيمي، العدد ٨٧، ص ٣٢٣.

٢. مهساس، أحمد، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، ص ٣٩٩.

الفرنسية أنْ توجّه سهامها ضد كلّ ما هو وطني وديني، وبخاصّة كلّ ما من شأنه أنْ يسهم في تكتل الأهالي»، أما الدوق دومال Duc daumal فقال: «إنّ الفتح (الاستعمار) يجب أنْ يتم بوسيلتين: السيف والمدرسة معًا، وقال أيضًا: «لنشر السلام فإنّ فتح مدرسة بين الأهالي له من الأهمية ما يضاهي نشر كتيبةٍ عسكريةٍ في منطقةٍ ما»[١].

وعلى هذا الأساس ركزت فرنسا كثيرًا على التعليم علّها تصل إلى استعمارٍ لا يمكن محو آثاره بسهولة، وذلك بتحطيم بنية المجتمع الجزائري، والقضاء على الأسس المادية والروحية التي يقوم عليها، وتحييد القيم الحضارية التي يستند إليها وذلك بمحاصرة الشعور الديني ومحاربته بشتى الطرق والوسائل الممكنة، ومحاربة اللغة العربية، وإثارة النعرات القبلية بين أفراد الوطن الواحد، وذلك كلّه تمهيدًا لتوطين المستوطنين الأوروبيين، وتمكينهم من البلاد وخيراتها كخطوةٍ أخيرة[٢].

وحتى تتمكن فرنسا من تحقيق حلمها الخبيث والمتمثل في القضاء على ثقافةٍ عمرها مئات السنين وإحلال مكانها ثقافةً أخرى غريبةً عن هذا الوطن اتبعت سياسةً مخادعةً ظاهرها تعليم الجزائريين وتمدينهم، والقضاء على الجهل والأمية، وباطنها تحطيم بنية المجتمع الجزائري، وتمزيق أواصره، وسلخ أبناء الجزائر عن ماضيهم، فشرعت في إنشاء المدارس الخاصّة بالجزائريين، والتي توخى منها منظِّرو المدرسة الاستعمارية تحقيق ثلاثة أهدافٍ رئيسة، وهي: الفرنسة، والتنصير، والإدماج.

وتجدر الإشارة هنا إلى كون التعليم في الجزائر قبل الاحتلال كان متطورًا نسبيًا، وهذا بشهادة الفرنسيين أنفسهم، حيث تذكر التقارير الفرنسية أنّه كان بجميع القبائل والأحياء مُعلّمٌ لتعليم الصبيان، مع وجود عددٍ كبيرٍ من المدارس أو على الأقل حجرات للتعليم، وفي هذا السياق صرّح الجنرال فلازي بأنّ جميع الجزائريين – غداة الاحتلال- كانوا يحسنون القراءة والكتابة، وكان القرآن هو أساس التعليم آنذاك، بالإضافة إلى تعلم اللغة العربية والفقه والحساب وغير ذلك[٣].

وكان سنّ الدراسة يتراوح بين (٦سنوات إلى ١٠) في المرحلة الأولى من التعليم الابتدائي التي كانت معروفةً بمرحلة التأديب، وغالبًا ما تكون في الكتاتيب والحجرات الملاصقة للمساجد وحتى في الخيام في بعض المناطق، وأمّا في المستوى الثاني من التعليم فيكون بالمساجد أو

١. عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ١٨٣٠ـ١٩٦٢، ص ١٢١.

٢. سعيدوني، ناصر الدين، الجزائر منطلقات وآفاق، ص ٢٠.

٣. مختاري الطيب، السياسة التعليمية في الجزائر خلال القرن ١٩، ص ٤-٥.

المدارس التابعة للأوقاف، وفي المرحلة الثالثة ينتقل الطالب إلى الدراسة في المساجد الجامعة الرسمية كالمسجد الكبير بتلمسان على سبيل الذكر لا الحصر، وبخصوص هيأة التدريس، فتتكون من معلمين، وشيوخ يأخذون رواتبهم من الأوقاف المحبوسة على المساجد والزوايا والمدارس[١].

وعمومًا تُجمع التقارير الفرنسية التي كُتبت في المرحلة الأولى أو السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي على أنّ التعليم في الجزائر قبل الاحتلال كان في حالةٍ جيدة، وأسهم بشكلٍ واضحٍ في تماسك المجتمع الجزائري من خلال الحفاظ على ثوابت الأمّة من دينٍ ولغةٍ وتاريخ.

٢.أهداف التعليم الفرنسي بالجزائر:

لقد سعت فرنسا من خلال التعليم وسياستها التعليمية الممنهجة إلى تحقيق عدّة أهداف، ومهما اختلفت تلك الأهداف إلاّ أنّها كلّها تسعى للقضاء على مقومات الشخصية من أجل تسهيل الإدماج بعد نشر الثقافة واللغة الفرنسية، وكذلك الدين المسيحي، وعمومًا يمكن حصر تلك الأهداف المتوخاة من التعليم في: الفرنسة، التنصير، والإدماج.

١,٢.الفرنسة:

إنّ المقصود بالفرنسة هو استبدال اللغة العربية باللغة الفرنسية وجعل هذه الأخيرة هي لغة التخاطب بين الجزائريين؛ حتى تنقطع جميع الروابط التي تربط الجزائر ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً بثقافتها العربية العريقة وتاريخها الإسلامي المجيد، وحتى تتمكن من تكوين جيلٍ جديدٍ صاعدٍ في ظلّ سياسة الفرنسة، ومنقطعًا تمامًا عن ماضيه وحضارته[٢].

ولهذا حاول المستعمر الفرنسي أنْ ينتزع من الجزائريين لغتهم وماضيهم الحضاري ونظامهم الاجتماعي والثقافي، حيث سعى جاهدًا إلى خلق ما اصطَلَح عليه منظّرو الفكر الاستعماري بـ(إبداع العبقرية الفرنسية)، إذ عبر أحدهم عن ذلك بقوله: «نحن بصدد خلق أُمّة في الجزائر، أمة لن تكون متمدنةً من دوننا ففي اليوم الذي احتللنا فيه هذا البلد تعهّدنا بمصائر هذه الشعوب»[٣].

كما جاء في إحدى التعليمات الفرنسية الصادرة إلى الحاكم العام في الجزائر غداة الاحتلال: «إنّ إيالة الجزائر لن تصبح حقيقةً مملكةً فرنسيةً إلاّ عندما تُصبح لغتنا هناك قوميةً، والعمل الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي إلى أنْ تقوم محل اللغة العربيّة»[٤].

١. مختاري الطيب، المرجع نفسه، ص ٥.

٢. رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ١٩٣١ـ١٩٦٥، ص ١٠٥.

٣. بلاسي، نبيل أحمد، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، ص ٣٣-٣٤.

٤. بن نعمان، أحمد، حزب البعث الفرنسي، ص ٣٩.

وإنّ هذه التوصية وحدها كافيةً لإبراز مدى اهتمام السلطات الفرنسيّة بتعليم اللغة الفرنسة من جهة، ومن جهةٍ أخرى مدى تخوّفها من محافظة الجزائريين على اللغة العربية، إذ عُدّت هذه الأخيرة عائقًا أمام التوسع الاستعماري في الجزائر وعلى الوجود الفرنسي ككل، فلن يتحقّق الاحتلال الشامل في نظرهم إلّا بالقضاء على اللغة العربية، ومن هنا يتّضح مدى خطورة السياسة التعليمية، وفي مقدمتها الفرنسة.

وتجلّت خطّة فرنسا في القضاء على اللغة العربية بوصفها مقومًا أساسيًا للشخصية الجزائرية فقاموا بتقسيم اللغة العربية إلى:

- لغةٍ دارجةٍ لا قيمة لها.
- لغةٍ فصيحةٍ عدّها المحتل الفرنسي لغةً غريبةً عن الجزائريين، ولا قيمة علمية تُرجى منها، واستعمالُ الجزائريين لها خطأً كبيرًا[١].

كما قامت السلطات الفرنسية بفرنسة جميع أطوار التعليم فرنسةً كاملة، كما قامت بفرنسة الإدارة، لقتل اللغة العربية تدريجيًّا[٢].

ومحاولة لتحقيق تلك الأهداف بادرت الإدارة الاستعمارية بإنشاء المدارس العربية الفرنسية، التي كان الهدف منها قولبة الشبّان الجزائريين في قالبٍ فرنسيّ ليكونوا نماذج لحضارة المستقبل حسب زعمها[٣].

وعمومًا يمكن القول إنّ الإدارة الفرنسية عدّت استعمال الجزائريين للغة العربية خطرًا كبيرًا على وجودها واستقرارها في الجزائر، فسعت بكلّ الطرق والوسائل الممكنة من أجل التضييق على استعمالها وحصارها؛ تمهيدًا لفرنسة البلاد كلّها من خلال فرنسة أطوار التعليم، وكذا الإدارة حتى تتغلغل اللغة الفرنسية بين أوساط الجزائريين، وتصبح لغة للتخاطب فيما بينهم، وصولاً إلى إقصاء اللغة العربية وتغريبها، وقتلها وسط أهلها.

٢,٢.التنصير:

يعدّ الدين الإسلامي أحد أهم مقومات الشخصية الجزائرية، فمنذ دخوله إلى هذه البلاد أصبح

---

١. بلاسي، نبيل أحمد، الاتجاه العربي، المرجع السابق، ص ٣٥.

٢. المصدر السابق، ص ٣٦.

٣. مهساس، أحمد، التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، ص ٦٠.

المحرّك الأساس لنشاط الإنسان على جميع الأصعدة، وعلى هذا الأساس ركّزت عليه الإدارة الاستعمارية تركيزًا كبيرًا، فكان من أهداف السياسة التعليميّة الفرنسية كذلك القضاء على الدين الإسلامي وتشويه المؤسسات الدينية الجزائرية، ولا يتأتّى ذلك إلّا بتنشيط الحركة التنصيرية في الجزائر.

وقد صرَح النائب الفرنسي أنجران قائلا: «إنّ (المبشِّر) يعمل من أجل ازدهار الفكرة الاستعمارية للبلاد التي ينصرها، وذلك برفع المعنويات الروحية والأخلاقية للأهالي...، وإنّ النشاط التبشيري والنشاط الاستعماري هما شيئان متلازمان؛ لأنّ الهدف الأسمى للاحتلال هو التقدّم الروحي والأخلاقي للمستعمَرين»[١].

وجدير بالذكر أنّ الحركة التنصيرية لم تكن مقتصرةً على الجزائر فقط، وإنّما كان معمولاً بها في مناطق عديدة كخطوةٍ أولى تمهيديةٍ للاحتلال، حيث كان دورها كبيرًا في العملية الاستعمارية، وفي هذا السياق يذكر الحاكم العام الفرنسي بالهند الصينية[٢] «إنّ المبشّرين الفرنسيين مهّدوا وفتحوا أبواب القارة الآسيوية للنفوذ الفرنسي، فقد سبق وجود المبشِّرين بالهند الصينية احتلال فرنسا لها بمائة سنة، وبمساعيهم ونشاطاتهم استطاعت فرنسا أنْ تتحكم في الهند الصينية»[٣]، ومن هذا التصريح يمكننا استنتاج مدى أهمية الدين في إخضاع الشعوب وفي الحركة الاستعمارية في إفريقيا وآسيا.

وأما في الجزائر فكانت الصبغة الدينية واضحةً منذ الوهلة الأولى للاحتلال، وبقيت حتى خروجه، فقد صرّح الجنرال دوبورمون سنة ١٨٣٠م للقساوسة بعد أنْ أقام صلاة شكرٍ في فناء القصبة بقوله: «إنّكم أعدتم معنا فتح باب المسيحيّة في إفريقيا، ولَنأمل أنْ تَينع قريبًا الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع»[٤]، كما صرّح الكاردينال لافيجري سنة ١٨٦٩ قائلاً: «علينا نُخلّص هذا الشعب من قرآنه، وعلينا أنْ نعتني على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي شبّ عليها أجدادهم، فإنّ واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضّر»[٥].

---

١. بقطاش، خديجة، الحركة التبشيرية في الجزائر ١٨٣٠ - ١٨٧١، ص ١٢.

٢. مصطلح الهند الصينية هو مصطلح سياسي تاريخي أطلق على: فيتنام، ولاوس، وكمبوديا.

٣. بقطاش، خديجة، المرجع السابق، ١٣.

٤. حلوش،عبد القادر، سياسة فرنسا التعليميّة في الجزائر، ص ٦٦.

٥. زرهوني، الطاهر، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، ص ٣٣.

كما علّقت الصحافة الفرنسية على هذه الصبغة الدينية للاحتلال الفرنسي للجزائر، وذكرت أنّ عمل القنصل الفرنسي دوفال duval كان بوحي من الفاتيكان، وأنّ غزو الجزائر عملٌ مقدّسٌ لصالح المسيحية، وتجدر الإشارة كذلك إلى أنّه حينما عبر الجنرال الفرنسي دوبورمون قبل انطلاق الحملة في منشورٍ مطبوعٍ باللغة العربية موجّهٍ للجزائريين جاء فيه «إنّ الحملة تستهدف القضاء على الداي حسين وأنّه سيضمن احترام الجزائريين وأموالهم وكلّ أملاكهم ودينهم المقدّس». وقد عدّت الصحافة الفرنسية وبالخصوص صحيفة لوكوربي فرانسي يوم ٨ جوان ١٨٣٠م، هذا التصريح غريبًا، وعدّته خطوةً للوراء، وتعجّبت من تصريحٍ يعطي صفة القداسة للدين الإسلامي في وقتٍ يجتمع فيه أساقفة فرنسا رغبةً في إحياء حربٍ صليبيّةٍ ضدّ الكفّار حسب زعمها[١].

ومن هنا يتضح أنّ قادة الاحتلال قد أدركوا منذ الوهلة الأولى أهمية الدين الإسلامي لدى الجزائريين، وفهموا أنّ القضاء عليه هو قضاءٌ على الشخصية الجزائرية، حتى أنّهم عدّوا احتلال الجزائر نصرًا دينيًّا أعادهم إلى ذكريات الحروب الصليبية المقدّسة بالنسبة لهم[٢].

ومن مظاهر التنصير في الجزائر أنّه كان في مدينة الجزائر وحدها ما يفوق ١٠٠ مسجدٍ عشية الاحتلال (١٨٣٠)، وعندما استقلّت الجزائر في ٥ جويلية ١٩٦٢م، لم يكن في مدينة الجزائر أكثر من ثمانية مساجد، بمعنى اختفاء أغلب المساجد، بسبب استيلاء الفرنسيين عليها وتحويلها إلى كنائس، ففي سنة ١٨٣٢م، صرّح روفيقو وهو الحاكم الفرنسي العام في الجزائر: «أنّه يلزمني أجمل مسجد في المدينة لنجعل منه كنيسةً للمسيحيين». وطلب منهم تحويل مسجد كتشاوة العريق إلى كنيسة[٣].

ولما تفطّن الجزائريون إلى ذلك (نية الفرنسيين اقتحام المسجد وتحويله لكنيسة) اعتصم فيه قرابة ٤٠٠٠ مسلم، لمنع ذلك، فحشدت السلطات الفرنسية قوةً من المدفعية والمشاة الذين أحاطوا بالمسجد واقتحموه وأطلقوا النار بوحشيةٍ كبيرةٍ على المعتصمين به، وقتلوا جميع من في المسجد، وتكرر هذا المشهد المأساوي في عدّة مساجد بمدنٍ أخرى[٤].

---

١. بقطاش، خديجة، الحركة التبشيرية في الجزائر ١٨٣٠ – ١٩٧١، ص١٢-١٣.

٢. بلاسي، نبيل أحمد، الاتجاه العربي والإسلامي، ص ٣٥.

٣. محمد مورو، الجزائر تعود لمحمد، ١٩٩٢.

٤. محمد مورو، المرجع نفسه، ص ٤١.

ومن خلال ما سبق يتضح مدى اهتمام السلطات الفرنسية في سياستها التعليمية بالتنصير[١] خدمةً لأهداف الاحتلال، وتُبرز حجم الجهود المبذولة من قبل قادة الاستعمار الفرنسي في هذا المجال، من خلال سياسةٍ تعليميةٍ كانت ترمي إلى القضاء على الدين الإسلامي بالجزائر، ونشر المسيحية، والتمكين لها في أوساط الجزائريين.

وتجدر الإشارة أنّ فرنسا لم تحترم الاتفاقيات المبرمة بعد الاحتلال التي نصّت على احترام الدين الإسلامي، ومختلف دور العبادة؛ إذ قامت بالاستيلاء على المساجد، ومختلف المؤسسات الدينية، وهدمت كثيرًا منها، وتحويل أخرى لأغراضٍ غير دينية دون أدنى احترامٍ للشعور الديني لدى السكّان، وهذا ما سنتطرّق له لاحقًا.

٣,٢. الإدماج:

يُقصد بالإدماج جعل الجزائريين سياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا فرنسيين، كما يعني كذلك جعل الجزائر إقليمًا فرنسيًّا، وإلغاء الاختلافات الإدارية كلّها بين الجزائر وفرنسا[٢]، وكان الإدماج هدفًا من أهداف السياسة التعليمية الفرنسية، فمن خلال المدرسة حاولت فرنسا أنْ تُكوّن أشخاصًا مجنّسين ومغتربين ثقافيًّا وإداريًّا، ولا تربطهم أيّة صلةٍ بالمجتمع المهزوم والمسيطَر عليه[٣].

فعمدت فرنسا إلى تشويه التاريخ الجزائري بوصفه هو الآخر مقوّمًا أساسيًّا من مقومات الشخصية الجزائرية، حتى أنّها منعت الجزائريين من دراسته في ذلك عدّة خطواتٍ منها:

١. إنكار عروبة الجزائر بالادعاء أنّ الجزائريين ذوو أصولٍ بعيدةٍ تعود إلى بلاد الغال، حتى يتقبل الجزائريون فكرة الاندماج في المجتمع الفرنسي بوصف وحدة الجنس هي القاسم المشترك حسب زعمهم وادّعاءاتهم الواهية.

٢. تجاهل علماء الآثار والتاريخ لتاريخ الجزائر الإسلامي، والتركيز على دراسة تاريخ الجزائر في العهدين الروماني والفرنسي[٤].

---

١. لقد اعتمد دعاة التنصير على وسائل وطرق عديدة من أجل تسهيل عملهم، واستغلوا الظروف العصيبة للمجتمع الجزائري آنذاك لجلب السكان المحليين منها: التعليم، الأعمال الخيرية كالتطبيب والعناية بالأيتام.

٢. رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ١٩٣١ـ١٩٦٥، ص ١١٣.

٣. مهساس، أحمد، التعليم في الجزائر، ص ٧٤.

٤. بلاسي، نبيل أحمد، الاتجاه العربي والإسلامي، ص ٣٧.

كان هذا إدراكًا منهم للتاريخ الحضاري الكبير للجزائر في الفترة الوسيطة، حيث أصبحت الجزائر دولةً إسلاميةً بعد الفتوحات، ونشأت بها دولٌ إسلاميةٌ تركت بصمةً رائعةً في الحضارة الإنسانية من خلال مختلف المنجزات الحضارية، لا سيما في المجال العلمي، ومجالي العمران، والفنون، واشتهار عددٍ مهم من العلماء الذين اختصّوا في ميادين علميةٍ متعددة، جعلوا من المدن التي أقاموا بها مثل بيجاية وتلمسان وغيرها حواضر علميةً كبيرةً ومقصدًا للطلبة والعلماء على حد السواء، وعلى هذا الأساس عمدت فرنسا إلى تشويه هذا التاريخ وحاولت بكلّ الطرق فصل الجزائريين عن ماضيهم وتاريخهم العربي والإسلامي العريق.

وجدير بالذكر بأنّ هذه الأهداف الثلاثة (الفرنسة، والتنصير، والإدماج) كانت من أولويات السياسة الفرنسية منذ الاحتلال وإلى غاية الاستقلال، ولم تتراجع عنها إدارة الاحتلال لإدراكها بأنّه لا سبيل لتحقيق حلم الجزائر الفرنسية إلّا باستبدال الدين المسيحي بالدين الإسلامي، واللغة الفرنسية باللغة العربية؛ تمهيدًا للاندماج، ولتحقيق هذه الأهداف اتّخذت فرنسا عدة وسائل وطرقٍ طُبقت في التعليم الحكومي، وإجراءات ضد التعليم العربي الحر.

٣.الوسائل والإجراءات المعتمدة في التعليم الفرنسي بالجزائر:

١,٣. التعليم العربي الحرّ:

إنّ التعليم العربي الحرّ هو ذلك التعليم الخاصّ بالجزائريين، الذي لم يكن خاضعًا للإدارة الفرنسية وإنّما هو حرٌ في موارده وتسيير شؤونه، إذ يتم تعليم الصبيان القرآن الكريم والحديث النبوي ومبادئ اللغة العربية في الكتاتيب والزوايا والمساجد، ونظرًا لأهمية هذا التعليم في صقل شخصية الطفل الجزائري وتنشئته تنشئةً إسلاميةً فقد ضيّقت عليه فرنسا إلى أقصى حدٍّ في محاولةٍ منها للقضاء على تعليم القرآن الكريم واللغة العربية.

ولما كانت الأوقاف الإسلامية هي المصدر الأساسي لتمويل التعليم العربي الحرّ فقد أصدرت إدارة الاحتلال عدة قراراتٍ وقوانين مكملةٍ ومراسيم متدرجةٍ، وفي فتراتٍ متلاحقةٍ لوضع اليد عليها والتصرّف فيها، من خلال إخضاع الوقف لقوانين المعاملات العقارية الفرنسية[١]، ممّا يعدّ ضربةً موجعةً للتعليم العربي الإسلامي، فمردود هذه الأوقاف كان يسدّ النفقات الضرورية للمشتغلين بالتعليم والقائمين على أماكن العبادة والتعليم من قضاةٍ وأئمةٍ ومدرّسين وطلبةٍ وغيرهم، بالإضافة

١. بن عكى محمد آكلي، ديموقراطية التعليم النظامي في الجزائر خلال الفترة ١٩٦٢ـ١٩٨٤ بين الواقع والإنجاز، ص ٩٩.

إلى توفير دخلٍ يغطي تكاليف رعاية وإصلاح هذه المؤسّسات[١].

كما عملت الإدارة الاستعمارية ما في وسعها لإبعاد التلاميذ الجزائريين عن تلك المدارس، ولمّا فشلت في ذلك عملت على إغلاقها ومنعها من مباشرة أعمالها وهدم كثيرٍ منها، وقامت بإجراءاتٍ تعسفيةٍ ضدّ معلميها، ولم تسلم من هذه الإجراءات حتى المساجد والكتاتيب[٢] التي حُول بعضها إلى كنائس، وبعضها الآخر إلى مخازن للأسلحة والذخيرة[٣]، ويعدّ هذا بحقّ جريمةً في حقّ التعليم الذي تحثّ عليه مختلف الشرائع والقوانين.

وهذا ما عبّر عنه المؤرّخ الفرنسي موريس وال Maurice wal بقوله: « فقد بدأنا بالتخريب والتدمير الكامل للمدارس الابتدائية والزوايا الريفية وغيرها»[٤].

ومواصلةً منها في التضييق على التعليم العربي الحرّ أصدرت فرنسا قانونًا في ٨ مارس ١٩٣٨ ينصّ على منع تعليم اللغة العربية سواء في المساجد أم الزوايا، إلّا بإذن من سلطات الاحتلال حتى تمنح رخصة لذلك، والغريب في الأمر أنّ هذا القانون وغيره لم يطبّق إلّا على التعليم العربي الإسلامي، أمّا المدارس التنصيرية والتعليم العبري فقد استثنيا من هذه القوانين، وأمّا من يخالف هذه التعليمات من الجزائريين فكان يتعرّض لعقوباتٍ صارمةٍ جدًا[٥].

وإنّ التضييق الممنهج على هذا النوع من التعليم (التعليم العربي الحر) كان له هدفان:

الهدف الأول: هو محاربة الدين الإسلامي واللغة العربية؛ لكونهما أهمّ مقومات الشخصية الجزائرية، التي عدّها المستعمر الفرنسي عائقا أمام تحقيق النفوذ الفرنسي على كامل البلاد الجزائرية.

الهدف الثاني: صرف الجزائريين عن التعليم العربي الحرّ، ودفعهم إلى التعليم الحكومي الفرنسي.

---

١. ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ٢٠ـ٢٢.

٢. على سبيل المثال لا الحصر كان بمدينة الجزائر لوحدها ١٦٦ مسجد وزاوية وكتاب غداة الاحتلال، لم يبق بعد الاحتلال سوى القليل منها لا يتجاوز العشرين، وذلك بسبب السياسة الاستعمارية.

٣. مداح، سليمان، إسهامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مجال التربية والتعليم، ج٦، ص ٤٤.

٤. بوفلجة غيات، التربية والتكوين بالجزائر، ص ٢٧.

٥. بن عكى محمد آكلي، ديموقراطية التعليم النظامي في الجزائر خلال الفترة ١٩٦٢ـ١٩٨٤ بين الواقع والإنجاز، ص ١٠٠.

٢,٣. التعليم الحكومي الفرنسي:

إنّ تطبيق الإجراءات السالفة الذكر كانت بهدف صرف الجزائريين عن تعليمهم الأصيل، وتوجيههم للتعليم الحكومي الفرنسي المخصّص لهم من قبل سلطات الاحتلال، الذي عُرّضوا فيه أيضًا إلى التضييق والتمييز إلى أقصى حدّ ممكن، ويظهر ذلك جليًا من خلال عدد الجزائريين الضئيل الذي التحق بتلك المدارس مقارنةً بعدد التلاميذ في سن الدراسة، كما أنّ هذا التعليم لم يُعمم على طبقات المجتمع الجزائري كلّها، وإنّما اقتصر على فئةٍ محدودةٍ ومخصوصةٍ؛ لتكون بمنزلة الجسر الواصل بين فرنسا وبقية الجزائريين بعد أنْ تغرس فيهم أفكارها وإيديولوجيتها، والجدول التالي يبين انقسام فئات المجتمع الجزائري بين التعليم العربي الحرّ والتعليم الحكومي خلال الفترة الممتدة من ١٨٨٣م إلى ١٩٣٩ [١]:

الأصل الاجتماعي	بداية المنهاج الدراسي	فروع التعليم	نهاية المنهاج الدراسي	السلك المهني
ـ النخبة ـ البورجوازية ـ الأرستقراطية العقارية ـ الموظفون بالقطاع العمومي	المدرسة الفرنسية التعليم الابتدائي	مدارس ابتدائية ثانويات دروس إضافية	جامعات فرنسية	ـ مهن حرة (طب، محامات) ـ مهن إدارية ـ التعليم
ـ التجار الصغار ـ الفلاحون ـ الفقراء		ـ الكتاتيب ـ الزوايا ـ مدارس الإصلاح	جامعات عربية (الزيتونة، القرويين، الأزهر)	ـ تعليم عربي ـ الوعظ والإرشاد

ومن خلال هذا الجدول يتضح جليا أنّ التعليم الفرنسي الحكومي لم يكن لعامة المجتمع، وإنّما اقتصر على الطبقة المرموقة في المجتمع، ونتيجة لتلك السياسة كان عدد التلاميذ ضئيلاً جدًا في هذه المدارس، ففي سنة ١٩٥٤م، لم يتجاوز عددهم ٦٠٠٠ تلميذ، في حين بلغ عدد تلاميذ الأوربيين ٣٠٠٠٠ تلميذ، وبمعنى آخر أنّ نسبة ٩٠٪ من سكّان الجزائر(الجزائريين) كان نصيبهم من التعليم فقط ٢٠٪، في حين ١٠٪ من السكان (الأوربيين) استحوذوا على ٨٠٪ من التعليم[٢]، وهذا بحق إجحاف كبير في حق غالبية السكان.

ويضاف إلى هذا كلّه فقد قامت إدارة الاحتلال بفرض تكاليف باهظةٍ على الجزائريين الراغبين

١. عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر ١٨٣٠ـ١٩٦٢، ج١، ص ٤٥؛ رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ١٩٣١ـ١٩٦٥، ص ١٧٥.

٢. بن عكى محمد آكلي، المرجع السابق، ص ١٨٠.

في التعلم فاقت إمكانيات معظمهم، فكانت مصاريف الدخول إلى الثانوية تتراوح بين ٤٠ و٥٠ ألف فرنك فرنسي تضاف إليها تكاليف الملابس والكتب والأدوات المدرسية[١]، وهو مبلغٌ كبيرٌ بالنسبة لغالبية الجزائريين المغلوب على أمرهم آنذاك.

وبعد اندلاع الثورة التحريرية اتّخذ المستعمرون من ذلك ذريعةً لضرب الثقافة العربية الإسلامية والقضاء على اللغة العربية أكثر من أيّ وقتٍ مضى بحجة أنّ القرآن الكريم واللغة العربية هما وسيلة الدعوة للثورة على الاستعمار[٢].

وقد نتج عن ذلك كلّه تدهور التعليم وانتشار الأمية في أوساط الجزائريين، وهو ما عبّر عنه أحد الموظفين الفرنسيين الكبار ويدعى أوجين فورميستر Eugene Fourmestraux بقوله: «لقد فرطنا في تعليم الأهالي حتى نزل إلى مستوى هو أدنى بكثيرٍ ممّا كان عليه قبل الاحتلال»[٣].

وهذا اعترافٌ واضحٌ من قبل مسؤول فرنسي على أنّ التعليم قبل الاحتلال الفرنسي كان أحسن وأجود بكثيرٍ عمّا آل إليه بعد الاحتلال بسبب السياسة الفرنسية في مجال التعليم، وعلى إثر ذلك فقد بلغت نسبة المسجّلين بالمدارس الفرنسية في التعليم الابتدائي موسم ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ نسبة ١٥٪ فقط من نسبة المتمدرسين، أمّا التعليم الثانوي فبلغت نسبة المسجّلين به في الموسم نفسه ٢٥,٣٪، وفي سنة ١٩٦٠م، بلغت ٣,٩٥٪، ولم تتجاوز هذه النسبة ١٪ في التعليم التقني، أما التعليم العالي فهو الآخر كان عدد الطلبة الجزائريين المنتسبين إليه قليلاً جدًا، وهو ما يوضّحه الجدول التالي[٤]:

السنوات	١٩٥٤	١٩٥٦	١١٩٥٨	١٩٥٦	١٩٦٠	١٩٦١
عدد الطلبة	٥٨٩	٢٦٧	٤٢١	٨١٤	١٣١٧	١٣٧٢

ومن خلال الجدول يتضح جليًا أنّ عدد الطلبة الجزائريين في الجامعة كان قليلاً جدًا مقارنةً بعدد السكّان البالغ آنذاك ٩ ملايين نسمة، وهو ما يفسِّر ارتفاع نسبة الأمية في أوساط الجزائريين، والتي بلغت ٩٢٪ في جانفي ١٩٦٢ [٥].

١. رابح تركي، المرجع السابق، ص ١٥٢ ـ ١٥٧.

٢. رابح تركي، المرجع نفسه، ص ١٦٤.

٣. الزبيري، محمد العربي، الثورة الجزائرية في عامها الأول، ص ٤٤.

4. Mostafa l achraf, l'Algerie nation et société,2eme édition, s.n.e.d,alger,p63 .

٥. عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ١٨٣٠ ـ ١٩٦٢، ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

وإنّ هذا الرقم المخيف وحده لدليل كافٍ على أنّ أهداف السياسة التعليمية الفرنسية بالدرجة الأولى هو تجهيل الشعب الجزائري وليس تمدينه وتعليمه كما كانت تدعي فرنسا عشية الاحتلال.

٤.موقف الجزائريين من التعليم الفرنسي بالجزائر:

يمكننا القول واستنادًا إلى الأرقام والإحصائيات المقدمة سابقًا أنّ جلّ شرائح المجتمع الجزائري قد رفضت سياسة التعليم الفرنسية الممنهجة، التي هي بالأحرى سياسةٌ تجهيليّةٌ، وليست سياسةً تعليميّةً كما كانت تدعي، وتجدر الإشارة إلى أنّ الشعب الجزائري المسلم المجاهد كان رافضًا لكلّ السياسات الفرنسية بما فيها السياسة التعليمية التي كانت تهدف كما سبق وقلنا للتنصير والفرنسة تمهيدًا للإدماج، وتمسّكوا بدينهم الإسلام رغم محاولات التنصير، فكان أغلب المواطنين الجزائريين يحفظون القرآن الكريم، حتى بلغ عددهم ما يقارب ٦٠ ٪ من مجموع السكان، وإنّ هذا لدليلٌ قاطعٌ على رفضهم لسياسة التعليم الفرنسي، ومن صلب هؤلاء خرج من قاموا بتحرير الجزائر[١].

وفي مقدمة الرافضين والمحاربين لتلك السياسة الاستعمارية الزوايا والطرق الصوفية التي رفضت هذه السياسة، وذلك التعليم الموجّه للجزائريين جملةً وتفصيلاً، والدليل على ذلك أنّ أغلب المقاومات الشعبية انطلقت شرارتها الأولى من الزوايا، هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت مقاصد الزوايا والطرق الصوفية هي غرس وإرساء القيم الوطنية بتنشئة الفرد تنشئةً إسلاميةً، كما أنّ تعلّم اللغة العربية والقرآن الكريم قد شكّل فضاءً روحيًا اجتمعت فيه الأهداف والمقومات التي تحمل خصوصيات المجتمع الجزائري، وهو الأمر نفسه الذي تقوم عليه الزوايا وتدافع عنه وتحرص على ترسيخه من خلال التربية الدينية التي هي نفسها رسالة الزوايا[٢].

ولهذا نجد الزوايا تعمل على تفكيك سياسة الاستعمار وتثقيف الشعب الجزائري حتى لا ينسلخ من قيمه وثوابته الأصيلة، وهو ما أسهم في اكتمال النضج والوعي، وإحداث القطيعة مع تلك المدارس الفرنسية، فأسهمت مختلف الزوايا في المحافظة على التماسك العقائدي لمقاومة كلّ مسخٍ أو اغترابٍ ثقافيّ ولغويّ من شأنه أنْ يلغي وجود الجزائريين ويدفعهم للذوبان في السياسة الاستعمارية[٣].

١. محمد مورو، الجزائر تعود لمحمد، ص ٦٩.

٢. بن طرات جلول، خطاب الزوايا وتجلياته في فهم الهوية الوطنية بين التقليد والتجديد، ص ٢٦٧.

٣. بن طرات جلول، المرجع نفسه، ص ٢٦٨.

ومن جهةٍ أخرى قد أسهمت الزوايا إسهامًا كبيرًا في مجال التعليم، حيث كان يتلقى بها الطلبة مبادئ اللغة العربية وبعض العلوم الأخرى كالحساب فضلاً عن تحفيظ القرآن الكريم ومختلف المتون والشروح والمختصرات التي كانت تستعمل في التعليم بالزوايا والكتاتيب، وهو ما أسهم إسهامًا فعّالاً في حماية اللغة العربية من الاندثار من الجزائر والوقوف في وجه سياسة التعليم الفرنسة ومنعها من تحقيق أهدافها التي تحدثنا عنها سابقًا.

كما لا ننسى دور (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التي تأسّست سنة ١٩٣١م، وكان هدفها الأول الإصلاح والتربية والتعليم، وهو ما تجلّى في خطاب الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله: «إنّ جمعيتكم هذه تأسّست لغايتين شريفتين هما في قلب كلّ عربي مسلمٍ بهذا الوطن، وهما إحياء مجد الدين الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية»[١].

وقد قامت جمعية العلماء المسلمين منذ اليوم الأول لتأسيسها بمهمتها التاريخية في تأكيد إسلامية الجزائر وعروبتها، ورفضها الخنوع والخضوع والاندماج مع فرنسا[٢]، ومن أجل ذلك بذلت الجمعية جهودًا كبيرةً في سبيل تعليم الدين الصحيح واللغة العربية للكبار والصغار ذكورًا وإناثًا على حدٍّ السواء، في المدارس والنوادي سعيًا منها لتكوين جيلٍ يحمل على عاتقه نشر رسالة الإصلاح، حاملين شعار: (الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا)[٣].

وقد صدرت في هذه المرحلة بعض المؤلّفات التي تدعم ذلك التوجّه مثل كتاب أحمد توفيق المدني عن تاريخ الجزائر الذي يبرز فيه تاريخ الجزائر العريق، ويؤكد فيه على أصالة الجزائر، وجاء هذا الكتاب وغيره من الكتب والمقالات ردًّا على محاولة تشويه التاريخ الجزائر، وطمس معالم حضارته، لاسيما الإسلامية منها[٤].

هذا وكان موقف جمعية العلماء المسلمين واضحًا لا لبس فيه تجاه السياسة والتعليم الفرنسي في الجزائر؛ لأنّها أدركت أنّ الصراع مع المستعمر الفرنسي هو صراعٌ ثقافيّ وحضاريّ أكثر ممّا هو سياسيّ وعسكري، وهذا ما أكده الدكتور بوصفصاف عبد الكريم حينما قال: «إنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي التي أخرجت الجزائر من عزلتها الثقافية، وأعادت ربطها بالأمة الإسلامية، كما عمدت إلى إحياء اللغة العربية والتاريخ الوطني الجزائري»[٥].

١. بن طرات، المرجع نفسه، ص ٢٦٩.

٢. محمد مورو، الجزائر تعود لمحمد، المرجع السابق، ص ٧١.

٣. بن طرات جلول، المرجع السابق، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

٤. محمد مورو، الجزائر تعود لمحمد، المرجع السابق، ص ٧١.

٥. محمد مورو، المرجع نفسه، ص ٧٢- ٧٦.

وبسبب مواقفها الواضحة وسياستها الإصلاحية تعرّضت جمعية العلماء المسلمين للكيد والتضييق عليها، إذ لُوحق أعضاؤها، ، ومُنعوا من مزاولة نشاطهم الدعوي والإصلاحي، واُغتيل بعضهم؛ نظرًا لما يشكلون من خطرٍ على تطبيق السياسة التعليميّة الفرنسيّة.

وبعد اندلاع الثورة التحريرية المجيدة في الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ كان لقادة الثورة التحريرية إستراتجيةٌ لمجابهة هذه السياسة التعليمية الرامية إلى طمس الشخصية الوطنية؛ لأنّ غالبيتهم قد درس في الكتاتيب والزوايا ومدارس جمعية العلماء المسلمين ومؤسسات أخرى عبّرت عن رفضها للسياسة التعليمة الفرنسية، وعلى هذا الأساس نلاحظ اهتمام قادة الثورة بالتعليم والثقافة الإسلامية، ويتّضح هذا جليًا في بيان أول نوفمبر ١٩٥٤م، الذي تحدث عن القومية الوطنية ومحاولة فرنسا جعل الجزائر أرضًا فرنسيةً رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والديانة والعادات، كما ورد في البيان ذكر عبارة (إخواننا العرب والمسلمين)، في إشارةٍ للانتماء العربي الإسلامي[١].

أما مؤتمر الصومام فقد تحدث فيه المؤتمرون عن مقومات الأمة من تاريخٍ ولغةٍ ودينٍ وعاداتٍ، وتحدث عن انتماء الشعب الجزائري الحضاري (العربي الإسلامي)، ورحّب المؤتمرون بانضمام المثقفين إلى الثورة، وعدّوا ذلك فشلاً لسياسة الفرنسة، كما تحدّث المؤتمرون عن تعمّد المستعمِر محاربة اللغة الوطنية التي تتكلمها الأغلبية الساحقة من المواطنين (اللغة العربية)[٢].

وبعد تأسيس الحكومة المؤقتة بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩٥٨م، عُيّن أحمد توفيق المدني فيها وزيرًا للشؤون الثقافية، وهو أحد رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والمتخرّج من جامع الزيتونة ومن المثقفين ثقافةً إسلامية، وهو دليلٌ على البعد الثقافي للجزائر، هذا وقد جاء في أول تصريح للحكومة ما يلي: «الجزائر جزءٌ لا يتجزأ من المغرب العربي... وهي تتقاسم مع شعوبه التراث الرائع للحضارة العربية الإسلامية»[٣].

ومن جهةٍ أخرى فقد حاول قادة الثورة تطوير أساليب الكفاح، وعدم الاقتصار على الكفاح المسلّح، وذلك من أجل إسماع صوت الثورة في العالم، ولذلك رحّب قادتها بانضمام طلبة المعاهد والمدارس الحرة والزوايا، كما قاموا بتأسيس أوّل مدرسةٍ للاتصالات اللاسلكية في آب ١٩٥٦م، التي تخرّجت منها دفعات من المكونين في مختلف المجالات[٤].

1. -Saadallah A .K,la montes du nationalisme en Algerie ,entreprise nationale du livre , alger , p6.

٢. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج١٠، ص ٧٧ ـ٧٨.

٣. أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص ٨٣-٨٧.

٤. أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص ٩٣ـ٩٤.

وقد أتت سياسة جبهة التحرير الوطني بانضمام عددٍ كبيرٍ من الطلبة الجزائريين للثورة بعد الإضراب العام يوم ١٩ أيار ١٩٥٦م، وهو الإضراب الذي أثار دهشة وإعجاب الأوساط الثقافية في العالم، وبرهن على تضامن الطالب الجزائري مع شعبه وثورته المباركة، وزيادة على الطلبة فقد اهتم قادة الثورة بالفن والأدب، وشارك كلٌّ من الفنان والأديب في الثورة كلٌّ على طريقته، فاضحت الكلمة رصاصةً، واللوحة الفنية قنبلةً تنفجر في وجه أعداء الحياة[١].

وعموما قد رفض جلّ الجزائريين سياسة التعليم الفرنسية لكونها سياسة مستعمرٍ نهب البلاد وقتل العباد، ولم يكن من السهولة إقناع الجزائريين بمختلف السياسات الفرنسية الموجّهة لهم لإدراكهم خبث المستعمِر الفرنسي ونواياه، وعدم الثقة في سياساته، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى أنّ هذا التعليم لم يكن متاحًا لجميع الجزائريين، وإنما لفئةٍ مخصوصةٍ وميسورة، كما أنّ التكاليف كانت باهظةً مقارنةً مع الإمكانيات المحدودة لمعظم فئات الشعب الجزائري.

ولم تقتصر المعارضة لسياسة التعليم الفرنسية من قبل الجزائريين فقط، وإنّما حتى الفرنسيين أنفسهم والمستعمِرين رفضوا تلك السياسة، ولاسيما الإصلاحات التعليمية التي دعا إليها جون فيري لاسيما إجبارية التعليم لأبناء الجزائريين بحجة أنّه مشروعٌ مكلّفٌ وخطيرٌ في الوقت نفسه، إذ يشكل خطرًا على أمن فرنسا حسب زعمهم، وهناك من ذهب أبعد من هذا وزعم بأنّ العقل الجزائري ليس له القدرة على التعلّم مثل الفرنسيين[٢].

وإنّ هذا الطرح الذي تبنّته كثيرٌ من الصحف الفرنسية ينمّ عن عنصريةٍ مفرطة، ويبرز عقلية الفرنسيين الاستعلائية تجاه كلّ ما هو جزائري وعربي من جهة، وتخوّفهم من تزايد الوعي لدى الجزائريين إذا دخلوا المدارس الفرنسية من جهةٍ أخرى؛ ولهذا سعوا إلى محاصرة مشروع تعليم الجزائريين، والعمل على عرقلته، أو على الأقل التحكم فيه قدر الإمكان.

الخاتمة

إنّ موضوع التعليم الفرنسي بالجزائر يعدّ من بين المواضيع التي ما زالت تحتاج إلى كثيرٍ من الدراسات المعمَّقة حتى يتسنّى لنا معرفة جوانب عديدةٍ ما تزال غامضةً وخفيةً من هذا التعليم، ففي الوقت الذي صرّح فيه المسئولون الفرنسيون أنّهم جاؤوا من أجل تمدين وتعليم الجزائريين، وأنّهم بذلوا جهودًا معتبرةً في بناء المدارس وجلب المعلّمين لتوفير ظروفٍ لائقةٍ للتعلّم نجد في الوقت

١. عبد المجيد رمضان، ثوار الجزائر، ص ١١٥ـ١٢٠.

٢. أجيرون، شارل روبير، الجزائريون المسلمون وفرنسا ١٨٧١ - ١٩١٩.

نفسه نسبة الأمية بين أوساط الجزائريين عاليةً جدًّا عشية الاستقلال إذ بلغت نسبة ٩٢٪ بالمائة، وهي نسبةٌ عاليةٌ جدًّا تدلّ على أنّ غالبية الشعب الجزائري لم يحظَ بفرصةٍ لدخول المدارس الفرنسية.

وعمومًا يمكننا القول: إنّ التعليم الفرنسي في الجزائر يمثّل أحد أوجه السياسات الفرنسية المتعددة التي شملت مختلف المجالات بهدف إخضاع الجزائريين وضمان ولائهم لفرنسا، ومن بين هذه الأوجه التعليم كونه أحد الركائز الأساسية في بناء المجتمعات وتكوين الأفراد؛ ولهذا ركّزت عليه فرنسا تركيزًا كبيرًا قصد التحكم في فئات المجتمع الجزائري من جهة، ومحاربة التعليم العربي الإسلامي الحر من جهة أخرى، حيث كان المستهدف الرئيس من سياسة التعليم الفرنسية لكونه يشكّل عائقًا تجاه النفوذ والتغلغل الفرنسي، ويمثّل كذلك حصنًا منيعًا ضدّ سياسة التجهيل الفرنسية.

وعلى هذا الأساس يمكننا القول إنّ التعليم الفرنسي في الجزائر لم يكن حبًّا في الجزائريين، وإنّما كان له وجهان: وجهٌ ظاهره تعليم وتثقيف الجزائريين، ووجهٌ خفيّ يسعى لتحطيم بنية المجتمع الجزائري والقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية التي تقوم على الدين الإسلامي واللغة العربية والتاريخ المشترك للجزائريين، فحاولت فرنسا من خلال تعليمها أو سياستها التعليمية القضاء على الدين الإسلامي واللغة العربية واستبدالهما بالدين المسيحي واللغة الفرنسية، وسعت كذلك لتشويه التاريخ الجزائري المرتبط بالحضارة العربية والإسلامية حيث عملت على طمس معالمه وشواهده واهتمت بالتاريخ الروماني حتى تُبرز للجزائريين أنّ تاريخهم مرتبطٌ بالرومان قديمًا، وحاضرهم ومستقبلهم مرتبطٌ بفرنسا.

ورغم أنّ السياسة التعليمية الفرنسية استطاعت إلى حدٍّ ما خلق جيلٍ من الجزائريين المتأثّرين بالثقافة الفرنسية إلّا أنّنا يمكن الجزم أنّ التعليم الفرنسي قد فشل ولم يحقق الأهداف المرجوة منه من قبل قادة ومنظّري الفكر الاستعماري؛ وذلك بسبب مواقف الجزائريين الرافضة لذلك التعليم، وهنا يمكن الإشادة بجهود الزوايا والطرق الصوفية في مجال محاربة الجهل والأمية والسعي إلى تعليم الجزائريين لغتهم العربية والدين الإسلامي، كما لا ننسى دور جمعية العلماء المسلمين التي بذلت جهودًا معتبرةً وكبيرةً في مجال الإصلاح والتربية والتعليم ونشر الوعي بين أوساط الجزائريين، وهو الوعي الذي كانت آثاره إيجابيةً، وأسهم في اندلاع الثورة لاحقًا، وإيمان قادة الثورة بضرورة النضال من أجل الجزائر في إطار المبادئ الإسلامية.

وهذا باختصار أهمّ ملامح السياسة التعليمة الفرنسية، وبعض الوسائل التي انتهجتها الجزائريون

شعبًا وأحزابًا وجمعياتٍ لمواجهتها، وذلك من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية وإسماع صوت الجزائر الثائرة في مختلف البقاع والأقطار؛ لأنّ ما حدث في الجزائر منذ ١٨٣٠م، وإلى غاية ١٩٦٢م، ليس مجرد استعمار عسكريّ واستغلال اقتصادي، وإنّما هو جزءٌ من صراعٍ ثقافيّ بين الشعب الجزائري بمختلف فعالياته والاستعمار الفرنسي.

المصادر

١. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية ١٨٣٠ - ١٩٠٠، ج١، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢.

٢. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج١٠، دار البصائر، الجزائر، ٢٠٠٧.

٣. أحمد بن نعمان، حزب البعث الفرنسي، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ١٩٩٦.

٤. أحمد مهساس، التعليم والثقافة في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، مجلة الثقافة، العدد ٨٥، ماي جوان، ١٩٨٥.

٥. أحمد مهساس، الحركة الوطنية الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، ترجمة سعيد محمود، محمد عباس، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، ٢٠٠٢.

٦. أحمد نبيل بلاسي، الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٠.

٧. بن طرات جلول، خطاب الزوايا وتجلياته في فهم الهوية الوطنية بين التقليد والتجديد، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، المجلد ٠٤، العدد الأول، جوان ٢٠١٣.

٨. بن عكى محمد آكلي، ديموقراطية التعليم النظامي في الجزائر خلال الفترة ١٩٦٢ـ١٩٨٤ بين الواقع والإنجاز، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ١٩٨٧ـ١٩٨٨.

٩. بوفلجة غيات، التربية والتكوين بالجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٩.

١٠. جمال قنان، التعليم الأهلي في الجزائر في عهد الاستعمار، منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠٠٩.

١١. خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية في الجزائر ١٨٣٠ - ١٨٧١، منشورات دار حلب، الجزائر، (دت).

١٢. رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ١٩٣١ـ١٩٦٥، ط٢، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٨١.

١٣. سليمان مداح، (إسهامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مجال التربية والتعليم)، مجلة روافد للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد السادس سنة ٢٠٢٢.

١٤. شارل روبير آجيرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا ١٨٧١ - ١٩١٩، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ٢٠٠٧.

١٥. الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، ط١، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ١٩٩٤.

١٦. عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر ١٨٣٠ - ١٩٠٠، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠١٠.

١٧. عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٩، ١٧. عبد المجيد رمضان، ثوار الجزائر، دار نزهة الألباب، الجزائر، ٢٠٠٥.
١٨. عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر ١٨٣٠ـ١٩٦٢، ج١، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠٣.
١٩. عبد المجيد رمضان، ثوار الجزائر، دار نزهة الألباب، الجزائر، ٢٠٠٥.
٢٠. عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ١٨٣٠ـ١٩٦٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥.
٢١. محمد العربي الزبيري، الثورة الجزائرية في عامها الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤.
٢٢. محمد فاضل الجمالي، فلسفة التعليم عند الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلة الثقافة، العدد ٨٧، جويلية ـ أوت ١٩٨٥
٢٣. محمد مورو، الجزائر تعود لمحمد، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢.
٢٤. مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنيفي بن عيسى، دار القصبة، الجزائر، ٢٠٠٧.
٢٥. ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠.
26. Mostafa l achraf ,l'Algerie nation et société,2eme édition,s.n.e.d,alger.
27. Saadallah A.K, la montes du nationalisme en Algerie ,entreprise nationale du livre, alger, 1983.

قراءات علمية

يتناول هذا الباب قراءات علمية في مشاريع او كتب او اعلام مناهضة للاستعمار او مدافعة عنه بغية إعطاء صورة واضحة للقارئ عن المشهد الاستعماري.

مصاديق الجهاد ضدّ الاستعمار وفق رؤية السيّد هبة الدين الشهرستاني

د.محمد باقر البهادلي

قراءة في كتاب نحن وازمنة الاستعمار (الحلقة الاولى)

علي رعد

مصاديق الجهاد ضدّ الاستعمار
وفق رؤية السيّد هبة الدين الشهرستاني

د. محمد باقر البهادلي[1]

الملخص

شهد العراق في مطلع القرن العشرين تحوّلات جذريةً بمستويات متعدّدة، منها السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ وذلك نتيجة تنامي نفوذ القوى الاستعماريةً الأوروبيةً، وعلى رأسها بريطانيا، وتراجع سلطة الدولة العثمانية. في خضمّ هذه التحوّلات التاريخية، برزت شخصياتٌ سعت إلى الحفاظ على الهوية الوطنية والدينية، والتصدّي لمحاولات الهيمنة الاستعمارية، وكان من أبرزها السيّد هبة الدين الشهرستاني (١٨٨٤-١٩٦٧م)، الذي مثّل انموذجًا متميزًا للعالم والمفكّر والسياسي والمصلح.

يعدّ السيّد هبة الدين أحد أهمّ أعلام العراق في النصف الأول من القرن العشرين، إذ يوصف بالعالم الديني الموسوعي، فلم يكتفِ بالتبحّر في العلوم الشرعية والتقليدية، بل انفتح على المعارف الحديثة والعلوم العقلية والرياضيات والفلك. وقد شكّلت آراؤه الفقهية والفكرية والاجتماعية ركيزةً أساسيةً في جهود مقاومة الاستعمار الثقافي والاقتصادي، كما أدّى دورًا مؤثّرًا في سياق الحراك الوطني الذي انتهى بثورة العشرين تبعه النضال والدعوة للاستقلال. وفي هذا البحث سنحاول تقديم صورةٍ عن حياة هذا العالم الجليل، وقابليّاته العلمية، وموقفه من مفاهيم الجهاد والمقاومة، ورؤيته تجاه بدايات التغلغل الأوروبي في العراق، وموقفه من دخول القوات البريطانية، وصولاً إلى دوره في الإعداد لثورة العشرين ودعمه لها، وانتهاءً الى دوره المحوري في إرساء قواعد النهضة الفكرية، ودوره في وزارة المعارف الذي يمثّل جهاده ضدّ الاستعمار البريطاني من بوابة الفكر والمعرفة، مع الاستناد إلى الوثائق والمصادر التاريخية ذات الصلة.

الكلمات المفتاحية: هبة الدين الشيرازي، الاستعمار، الشيخ مبدر آل فرعون، عجمي السعدون، الاحتلال البريطاني.

---

١. أستاذ الفكر السياسي الحديث والمعاصر.

السيّد هبة الدين : نبذةٌ عن حياته

السيّد هبة الدين الحسيني الشهرستاني (١٨٨٤-١٩٦٧م) هو أحد أبرز علماء العراق في القرن العشرين، وشخصية تركت آثارًا عديدةً في الفكر الإسلامي والإصلاح الاجتماعي. وُلد في مدينة سامراء يوم الثلاثاء ٢٤ رجب ١٣٠١ هـ، الموافق ٣ مايو ١٨٨٤م [١]، في عائلةٍ عُرفت بالتقوى والعلم، ممّا كان له أثرٌ عميقٌ في تكوين شخصيته منذ صغره ، أظهر السيّد هبة الدين منذ صغره ذكاءً وقّادًا وحبًّا للمعرفة، فتعلّم القراءة والكتابة في سنٍّ مبكرة، وبدأ بدراسة العلوم الشرعية كالفقه والأصول على أيدي علماء مرموقين في سامراء وكربلاء والنجف. لم تقتصر اهتماماته على العلوم الدينية فحسب، بل تجاوزتها إلى العلوم الحديثة والفكر الإصلاحي، ممّا ساعده على تطوير رؤيته الفكرية التي تمزج بين الأصالة والمعاصرة. كانت هذه النظرة الشمولية من أهمّ سماته، حيث سعى إلى ربط التراث الإسلامي بالعلوم الحديثة لمواجهة التحديات التي يفرضها الاستعمار والتغيّرات الاجتماعية في العراق والعالم الإسلامي.

أدّى السيّد الشهرستاني دورًا بارزًا في النهضة الفكرية والإصلاحية، إذ أسّس مجلة (العِلْم) التي شكّلت منصّةً فكريةً لنشر رؤاه الإصلاحية. تناولت المجلة موضوعاتٍ متنوعةً شملت إصلاح التعليم، وتعزيز الوحدة الإسلامية، ومواجهة الاستعمار، ونشر الوعي الفكري والثقافي.

وعدَّ التعليم أساسًا للنهوض بالمجتمع، فعمل على تطوير المناهج الدراسية لتتوافق مع احتياجات العصر، مع الحفاظ على المبادئ الإسلامية. لم يكن الإصلاح عنده مقتصرًا على الجانب التعليمي فقط، بل شمل أيضًا جوانب اجتماعيةً ودينية، حيث دعا إلى تجديد الفكر الإسلامي بطريقةٍ تحترم الأصول وتواكب العصر.

كان للسيّد العديد من المؤلّفات والكتابات التي عكست رؤيته الفكرية. كتب في التفسير والحديث والفقه، وأسهم في النظر إلى القضايا الاجتماعية والفكرية من منظورٍ إسلاميّ متجدّد. ركّز في مؤلّفاته على أهميّة فهم النصوص الدينية في سياقها التاريخي والاجتماعي، مع مراعاة الظروف المعاصرة. وقد تميّزت كتاباته بالعمق والوضوح، ممّا جعلها مصدرًا مهمًّا للباحثين والمهتمّين بالفكر الإسلامي.

عُرف السيّد الشهرستاني بتواضعه وحرصه على نشر العلم في أوساط مختلفةٍ من المجتمع العراقي. لم يقتصر نشاطه على المدن الكبرى، بل امتدّ إلى المناطق الريفية، حيث عمل على محاربة

١. العلوي، محمد مهدي، نابغة العراق أو هبة الدين الشهرستاني، ص٦.

الأميّة وتشجيع التعليم بين أبناء الفئات المحرومة. كما اهتمّ بتعزيز القيم الأخلاقية والاجتماعية في المجتمع، وشجّع على الحوار بين مختلف الأطياف الفكرية والدينية.

توفّي السيّد هبة الدين الشهرستاني في عام ١٩٦٧م بعد مسيرةٍ حافلة بالعطاء العلمي والفكري. وترك إرثًا غنيًا من المؤلّفات والمشاريع الإصلاحية التي لا تزال تُعدّ مرجعًا مهمًّا في الفكر الإسلامي الحديث. يمثّل السيد الشهرستاني نموذجًا للعالم المجدّد الذي نجح في الجمع بين تراث الأمّة وضرورات العصر، وظلّ أثره حاضرًا في الفكر والثقافة الإسلامية.

مفهوم الجهاد عند السيّد هبة الدين الشهرستاني

لم يقصر السيّد هبة الدين مفهوم الجهاد على البعد العسكري واستخدام السلاح، بل صاغه بوصفه مفهومًا مركبًا تتداخل فيه الجوانب الدينية والأخلاقية والاجتماعية. وقد أتاح له تكوينه الموسوعي وانفتاحه الفكري ــ الذي جمع بين الاطّلاع الواسع على التراث الإسلامي والمعارف الحديثة ــ أنْ يقدّم رؤيةً متكاملةً للجهاد، تستند إلى نصوص القرآن الكريم والسُنّة النبوية الشريفة وتراث المعصومين (ع)، فضلاً عن أحكام الفقهاء. لم يكن الجهاد في تصوّره مجرد صراعٍ مادي، بل بذل جهدًا متواصلاً في سبيل حماية الدين والأمة، وصون استقلالهما.

بهذا المنظور الشامل الذي تحدّده يقظة ذهنه وتوقّد فكره، تتعدّد أبعاد الجهاد لدى الشهرستاني، ويمكن إجمالها في أربعة محاور رئيسة، وسنأتي عليها بشيءٍ من التفصيل:

١. **الجهاد الفكري والثقافي:** يتمثّل في نشر الوعي وتعزيز المعرفة، والتحذير من الاستلاب الثقافي، وتوجيه المجتمع نحو التمسّك بقيمه الدينية والحضارية الأصيلة.

٢. **الجهاد الاجتماعي:** يقوم على إصلاح المجتمع من الداخل، وترسيخ أواصر التضامن، وتقوية النسيج الأخلاقي، بما يضمن وحدة الصف الداخلي وصلابته.

٣. **الجهاد السياسي:** يرتكز على مقاومة المحتلّ بالوسائل المتاحة، وإفشال خططه الرامية إلى السيطرة والتحكّم بالقرار الوطني، مستلهمًا مبادئ العدالة والحرية.

٤. **الجهاد العسكري:** يأتي كخيارٍ أخير في حال تعرّض الأمة لعدوان أو احتلال ظالم، حيث يصبح الدفاع عن الأرض والعرض والدين واجبًا شرعيًا. وقد أكّد الشهرستاني أنّ هذا الجهاد ينبغي أنْ يكون منظّمًا ومدروسًا لتجنّب الانفعال وتحقيق الأهداف المرجوّة.

الموقف من بدايات التغلغل الأوروبي مثل سكّة الحديد وأمثالها

في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، تصاعدت مساعي القوى الأوروبية، وعلى رأسها بريطانيا، للتغلغل في العراق. وقد اتّخذ هذا التغلغل أشكالاً متعددةً، تمثّلت في محاولة بسط النفوذ التجاري وإقامة المشاريع الاقتصادية الكبرى، مثل مدّ خطوط السكك الحديدية وإنشاء الشركات التجارية وفتح الوكالات، فضلاً عن محاولة استغلال العوامل الدينية والاجتماعية من أجل تسهيل تغلغلها. هذه الأنشطة جاءت في إطار السباق الاستعماري الأوروبي لزيادة المكاسب الاقتصادية والسيطرة السياسية، بما في ذلك السعي لتوسيع مناطق النفوذ والتحكم في مقدّرات البلاد وشعبها.

تمثّلت إحدى أبرز صور هذا التغلغل في منح الامتيازات للشركات الأجنبية، ومنها حصول الألمان على امتيازاتٍ صناعيةٍ مهمّةٍ كمشروع سكّة حديد بغداد، حيث وقّع عن الحكومة العثمانية وزير الأشغال والتجارة في الحكومة ذهني باشا عام ١٩٠٢م، فيما مثّل الجانب الألماني ثلاث من شركة سكة حديد الأناضول، وهم الدكتور كورت زندر المدير العام للشركة، وجوينر أرثر رئيس مجلس المديرين بالشركة، وهجيونين ادوارد المدير العام المساعد بالشركة [١].

لم يمرّ هذا التغلغل دون ممانعةٍ أو مقاومة. فقد أدركت النخب الدينية والفكرية حقيقة المخططات الاستعمارية وآثارها بعيدة المدى، ومن أوائل المناهضين لمنح الامتيازات هذه من بين الجمعيات الثقافية كانت الجمعية الإصلاحية في البصرة، التي ضمّنت في منهاجها مادةً صريحةً تتضمّن معارضتها إعطاء الامتيازات للأجانب في البلاد العربية عمومًا [٢]. وفي الوقت نفسه برز دور السيّد هبة الدين الشهرستاني، الذي رصد الظواهر الاستعمارية وحلّلها بعمق، مبرزًا الأخطار التي تهدد استقلال العراق وهويته الإسلامية. لم يكتفِ الشهرستاني بتشخيص المشكلة فحسب، بل سعى لتوعية العامة والنخب السياسية والدينية على السواء، محذرًا من خطورة المشاريع الأجنبية التي تُسوّق في ظاهرها كسبًا ماديًا أو عمرانيًا، لكنّها في جوهرها وسائل لإضعاف وحدة المجتمع وتفتيت بناه الداخلية.

في النصوص التي نشرها، أورد الشهرستاني كلامًا صريحًا وواضحًا يبيّن فيه مدى خطورة الاستعمار الأوروبي، مشيرًا إلى أنّ هذه القوى لا تتورع عن استخدام الدين ذريعةً لكسب رضا

١. بحري، لؤي، سكة حديد بغداد ، ص٧.

٢. برو، توفيق علي، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨- ١٩١٤)، ص٥٠٠.

المسلمين، ومن ثم التسلّل إلى قلوبهم وعقولهم للإسراع في ترسيخ نفوذها. يقول الشهرستاني في هذا السياق متحدّثًا عن الأهداف الحقيقية للمستعمر في جوابه لاستفسار عن دوافع المانيا الحقيقية بالتودد الى المسلمين : «إنّ غاية ما تصوّروه من الدواعي المناسبة لحال الحكومة الالمانية، إنّما هو كسب رضا المسلمين و جلب قلوبهم نحوها». ويضيف: « فلا ريب أنّ الحكومة - من أيّ جنسٍ تكون - إذا ظفرت على اجتلاب قلوب المسلمين واكتساب مرضاتهم فقد سهل عليها تذليل المصاعب في توسعة نطاق الاستعمار» [١].

ولم يكتف السيّد الشهرستاني بما يكتبه، ولكنّه أخذ باستنهاض الهمم والتعريف بمخاطر الاستعمار بطرقٍ شتّى وأساليب مختلفة، كان أهمها خطبته التي عنونها بـ(هذا بلاغ للناس) التي ألقاها في مسجدٍ عمران بن شاهين في عام ١٩١١ حيث يقول: «إنّ أعداءكم الإفرنج يتوسّلون بأخذ الامتيازات التجارية والاقتصادية منكم، وخوض السفن في بطون بحاركم، ومدّ الحديد على متون أراضيكم، تذرّعًا إلى تقوية النفوذ في حكوماتكم، وامتصاص لعابكم، وابتلاع لبابكم». ولم يكتف السيّد الشهرستاني بتبيان أساليب الاستعمار ومخاطره، وما تخفي القوى المختلفة خلف قناع العلاقات الاقتصادية القائمة على منفعة المستعمر فقط، بل ذهب إلى طرح الحلول بضرورة تطوير النظام السياسي والإداري وبناء اقتصادٍ متكاملٍ مبنى على تقوية كفة الصادرات وتنويع الموارد وتمكين الفرد، وكان واعيًا لماهية الحربٍ الاقتصادية وما يحققه الاكتفاء الذاتي والاقتصاد القوي من عزة ورفعة للبلد حيث يقول في خطبته: «اقنعوا بمنسوجاتكم ومصنوعاتكم، ليكثر منكم الزارعون والصانعون، وتخسر تجارة العدو في أسواقكم، ولتقدروا على نزال الأعداء. نظّموا إداراتكم، وقيّدوا بشورى العقلاء إرادتكم، وقايسوا بين وارداتكم وصادراتكم، وأجروا قوانين الشريعة في البلاد، وساووا في الحكم بين الأفراد». وتتجلّى الرؤية العميقة والقراءة المتكاملة لمخططات الاستعمار فيما يطرحه من شرطٍ لضمان درء خطر الاستعمار من خلال دعوته للوحدة ورفض الانقسام والفرقة بقوله: «اتركوا البغضاء وافتراق الكلمة، وأبدلوا التضاغن بالتضامن، والتعاند بالتعاون، وعوضوا الاختلاف بالائتلاف، والافتراق بالاتفاق، وكونوا يدًا واحدة».

بهذا الطرح الفكري الواعي، قدّم الشهرستاني أنموذجًا للعالم المفكّر المثقّف الذي لا يكتفي بالتعبير عن رفضه للاستعمار، بل يوضح أساليبه الخفية، ويرشد الأمة إلى سبل المواجهة. لقد دعا إلى وحدة الصف، ونبذ الفرقة، واستنهاض الوعي الوطني والقيمي، تحصينًا للمجتمع ضدّ

١. مجلة العلم، مج١، ع٤، ص ١٥٦.

أيّ شكلٍ من أشكال التغلغل الأجنبي. بهذه الرؤية الثاقبة، مثّلت مواقفه صدىً لمشاعر كثيرٍ من أبناء عصره الذين استشعروا الخطر المحدق بوطنهم، وسعوا لبلورة موقفٍ فكريّ وعقائدي رافضٍ للاستغلال والاستلاب، وصولاً إلى قيام وعي جمعي قادرٍ على التصدّي لكلّ محاولات الهيمنة.

الموقف من دخول القوات البريطانية إلى العراق

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، وجدت بريطانيا في العراق ساحةً إستراتيجية، فتقدّمت قواتها إلى البصرة بحجة حماية مصالحها، وتواصل وجوه البصرة مع علماء الدين في العتبات المقدّسة ومختلف المدن يطلبون المساعدة حيث ورد في إحدى الرسائل (ثغر البصرة، الكفارّ محيطون به، الجميع تحت السلاح، نخشى على باقي بلاد الإسلام ، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع)[١].

مع احتلال البصرة في تشرين الثاني سنة ١٩١٤، لم يعد الأمر مقتصرًا على التحذير الفكري، بل باتت الحاجة ملحّةً للتحرك العملي. وقف علماء الدين والمثقفون الوطنيون موقفًا رافضًا لهذا الاحتلال، وكان الشهرستاني في مقدمة هؤلاء؛ فقد أدان دخـول القـوات البريطانية وعدّه انتهاكًا للسيادة الإسلامية والعراقية، ورأى فيه تهديدًا للهوية العربية والإسلامية.

دعا الشهرستاني إلى عدم القبول بالأمر الواقع، والعمل على تعبئة القوى الوطنية والدينية، وحثّ العلماء وشيوخ العشائر على التوحّد لصدّ الخطر. وقد تكرّست جهوده في التوعية بخطورة الاحتلال، وإقناع الأوساط الشعبية بضرورة عدم الاستكانة. مع توالي الأحداث ومواصلة الإنجليز تقدّمهم نحو القرنة، اضطرت الحكومة العثمانية الى عزل قائد الجيش (جاويد باشا)، وتعيين (سليمان عسكري) بدلاً منه[٢].

وأرسلت الحكومة العثمانية وفدًا إلى النجف من بعض الشخصيات لمحادثة المجتهدين الكبار في الأمر. تألّف الوفد في بغداد، وكان يضمّ بعض الشخصيات البغدادية والحكومية ورجال الدين، ومن بينهم محمد فاضل الداغستاني، وشوكت باشا، والشيخ حميد الكليدار سادن حرم الإمامين الكاظميين، ومع تواجد الوفد في النجف عُقد اجتماع في مسجد الهندي حضره العلماء والزعماء وشيوخ العشائر في الفرات الأوسط، وتحدّث في الاجتماع من علماء الدين السيّد هبة الدين الشهرستاني، والسيد محمد سعيد الحبوبي، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ جواد

١. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٤، ص١٢٧.

٢. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص١٢.

صاحب الجواهر، منوهين بضرورة مشاركة الحكومة المسلمة لدفع الكفّار عن بلاد المسلمين.

ثم تكلّم بعض شيوخ العشائر ومنهم مبدر آل فرعون رئيس عشيرة آل فتله، وممّا قاله: «إنّ الاتراك إخواننا في الدين، وواجب علينا مساعدتهم في طرد الأعداء من بلادنا». وقبل أنْ ينفضّ الاجتماع أعلن علماء الدين الجهاد ووجوب الدفاع عن البلاد الاسلامية [١]. ومن أقوال السيد هبة الدين في هذا الأمر: «بعد توالي برقيات الاستغاثة والاستعانة إلى النجف الاشرف، بالأخص من تجار البصرة وحواليها، ومن علماء البلاد وأكابر أهاليها، بمضامين تصدّع الصخر الأصم... فهيجنا الإيمان، وحرّكنا دافع الوجدان إلى إعلان الجهاد لمحاربة القوات الإنكليزية المحتلّة، وصدّها عن احتلال وطننا العراق ومشاهد أئمتنا المقدسة» [٢].

لم يكتفِ العلماء بالفتيا، بل قرروا أنْ يخوضوا الحرب بأنفسهم وشاركوا فيها، ومن الذين شاركوا في هذه الحرب: السيّد محمد سعيد الحبّوبي، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، والشيخ جواد صاحب الجواهر، والشيخ رحيم الظالمي، والسيد عبد الرزاق الحلو، والسيد محمد رضا الشبيبي، والسيد سعيد كمال الدين، والشيخ علي الشرقي، والسيد هبة الدين الشهرستاني [٣]، وقد قام السيّد الشهرستاني برفع العلم الحيدري لاستنهاض المجاهدين فضلاً عن توليه توزيع الأسلحة عليهم [٤]

وقد دعا السيّد هبة الدين إلى بذل كلّ الجهد، والسعي في توحيد كلمة العشائر وعقد الأمل في نتائج أعمال المجاهدين [٥]، وأوضح أنّ النهضة للدفاع عن بيضة الإسلام وثغور المسلمين، فيجب الاتحاد تحت لواء القرآن[٦].

تشير الوثائق المتوفرة إلى أنّ عددًا كبيرًا من شيوخ العشائر قد أظهروا استجابةً إيجابيةً ودعمًا كبيرًا لدعوات السيّد هبة الدين الشهرستاني المتعلّقة بتوحيد الصفوف والدعوة إلى الجهاد. ومن بين هؤلاء الشيوخ، الشيخ مبدر آل فرعون الذي عبّر في رسالته عن استعداده الكامل للتضحية في

١. الياسري، عبد الشهيد، البطولة في ثورة العشرين، ص ٦٨-٦٩.

٢. الشهرستاني، أسرار الخيبة في الشعيبة، ص١.

٣. الياسري، البطولة في ثورة العشرين ص٦٩.

٤. جريدة الزهور البغدادية، ع٧٠٦.

٥. كتاب السيد هبة الدين الى شيوخ العشائر، انظر الوثيقة رقم ١.

٦. نداء السيد هبة الدين الى المجاهدين في ٧ صفر ١٣٣٣ هـ، انظر الوثيقة رقم ٢.

سبيل الدين وحماية بيضة الإسلام. كما أكد التزامه بوصايا السيد الشهرستاني وأهداف النهضة، مشيرًا إلى جاهزية عشيرته وأفراد قبيلته للانضمام تحت لواء المجاهدين، وأنّ لديه أكثر من ٥٠٠ مقاتل جاهز لمواجهة الإنكليز [١].

هذا التجاوب يعكس مدى الثقة الكبيرة التي منحها شيوخ العشائر للسيّد الشهرستاني، ودورهم البارز في دعم الحركة الجهادية الهادفة إلى صيانة الأراضي الإسلامية من أيّ تهديد. وما يذكره السيد هبة الدين الشهرستاني في مذكراته يوضح مدى صعوبة وخطورة الأوضاع التي كانت تمرّ بها البلاد نتيجة احتلال البصرة من قبل الإنجليز، وفاعليته في ساحة الجهاد بين كتابة الرسائل إلى العشائر لاستنهاضهم، وزيارتهم في أماكن عدة حيث يكتب في إحدى المخطوطات: «لقد أدركنا مبلغ خطورة الحال علينا بعد احتلال الإنكليز للبصرة، فقمنا زرافاتٍ ووحدانًا نتجوّل بين قبائل الفرات وعشائره، نكاتب ونخاطب ونهيب بأبناء البلاد، ونستنهض الهمم من أبناء العروبة، حتى وفّقنا الله إلى جمع آلافٍ مؤلّفةٍ من أبناء القبائل، وحشدنا منهم جيوشًا مختلفة المشارب بجندٍ رهيبٍ مهيب، واتّجهنا إلى غربيّ المنتفك، اختيرت هذه المنطقة الجرداء، رغم ملوحة مائها ورداءة مناخها دارًا للحرب؛ بسبب قربها إلى البصرة واتصالها بها، وتقدّم العدو فيها. فنزلنا فيها، وكان معنا ثلاثة آلاف عسكري ما بين جنديّ وضابطٍ من قوات الدولة العثمانية، ومعهم ستة مدافع وثلاثون ألف مجاهد من أبناء العشائر العربية القاطنة حول نهر الفرات ببنادقهم وخيولهم» [٢].

وقد بذل رجال الدين في النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية كلّ ما بوسعهم لإثارة المقاومة بوجه البريطانيين، ولم تكن قبائل الفرات وحدها التي شاركت في تلك الحملة، وإنّما كان للقبائل القاطنة على شواطئ دجلة أيضًا الدور الفاعل في تهيئة المجاهدين والمشاركة في الأموال[٣]. وعندما توجّه المجاهدون إلى الشعيبة أخذ السيّد هبة الدين يدعو للجهاد ومحاربة الغزاة كلّما نزل مكانًا في الطريق، متجوّلًا بين العشائر يتحدّث فيهم عن الدين وفرائضه، وعن الوطن وحرّمته، وعن العرض وقدسيته، ويؤكد على أنّ خروجه للجهاد لا لنصرة العثمانيين، بل للدفاع عن الدين والوطن[٤]. وقد وصلت ألوية السيّد محمد سعيد الحبوبي إلى النخيلة في ١٣ ربيع الأول سنة

١. انظر الوثيقة رقم ٣ رسالة مبدر الفرعون الى السيد الشهرستاني.

٢. مذكرات السيّد هبة الدين الشهرستاني، جهاد الشعيبة، ص٩٠.

٣. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ج١ ص ٩٤.

٤. الياسري، البطولة في ثورة العشرين، ص٧٢.

١٣٣٣هـ-٢٢ كانون الثاني سنة ١٩١٥م، وضربوا خيامهم هناك بينما وصل السيّد هبة الدين ومن معه في ١٢ شباط لينضموا إلى ألوية الحبوبي [١].

وقد كانت خطة القائد العسكري العثماني (سليمان) هجومية يهجم فيها الجيش العثماني والمجاهدون من الجناحين: الجناح الأيمن، يقوم بالهجوم من اتجاه الزبير متجهًا نحو الشمال الغربي، ويكون هدفه القاطع الجنوبي الشرقي من موضع الشعيبة، وكانت القوات في هذا الجناح مؤلّفةً من مجاهدي المنتفك بمعية السيّد هبة الدين وقيادة عجمي السعدون [٢].

والجناح الأيسر، يقوم بالهجوم من اتجاه مزار الإمام أنس، متجهًا نحو الجنوب الشرقي ويكون هدفه القاطع الشمالي الغربي من موضع الشعيبة، وكانت القوات في هذا الجناح مؤلّفةً من المجاهدين بقيادة السيد محمد سعيد الحبوبي، وعبد الله الفالح السعدون، وخيون العبيد. أمّا المركز فيتألّف من القوات النظامية التي تهاجم جهة الشيعبة زاحفةً نحو الغرب [٣].

وبدأ السيّد هبة الدين باستمالة بعض الهنود المسلمين الذين جنّدهم البريطانيون باسم الحرب ضد ألمانيا، فبدأ يرسل إليهم نصائحه ويعرفهم بأنّهم يحاربون إخوان المسلمين بقوله: «هل تعلمون أنّنا بحمد الله نقاتل في سبيل الحق، وأنتم تقاتلون في سبيل الكفر الباطل، كما قال الله سبحانه في القرآن الكريم: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ**﴾[٤]. يا إخواننا المسلمين نحن في هذه الحرب نأسف عليكم كثيرًا؛ لأنّ البارود أو السيف يقتل منكم ألوفًا ويقتل منا، لكنّ المقتولين من عندنا يدخلون الجنة يقينًا؛ لأنّهم يجاهدون تحت راية القرآن لنصرة الدين. أمّا المقتولون منكم فإنّهم يدخلون نار جهنم خالدين فيها قد خسروا الدنيا والآخرة. يا إخواننا المسلمين إذا كان الموت اليوم أمرًا لا بدّ منه فلنكن في نصرة الدين. إذا كان القتل أمرًا لا بدّ منه ففوزوا بأسلحتكم على كفّار عسكركم... هذه نصيحتنا نهديها إليكم إتمامًا للحجة عليكم فإنّكم إخواننا في الدين...الخ»[٥]. والتحق عددٌ كبيرٌ من الجنود الهنود بتأثير العواطف الدينية وقاسوا في سبيل الوصول إلى صفوف المجاهدين مختلف المتاعب.

---

١. المصدر نفسه ص٧٤.

٢. رسائل عجمي السعدون الى السيد هبة الدين قبل وصوله الى موقع الجهاد.

٣. نديم، شكري محمود، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨م، ص٣٢ .

٤. سورة النساء: ٧٦.

٥. جريدة العدل، السنة الثامنة، ع٤٨٩، ٥ صفر ١٣٣٤ هـ، نشرتها كاملة، وكان المنشور باللغتين العربية والهندية.

كانت معركة الشعيبة إحدى المحطّات البارزة في مقاومة الاحتلال البريطاني للعراق في بداياته، ورغم الحشد الكبير بجهود علماء الدين وشيوخ العشائر إلا أنّها شهدت نهايةً مأساويةً تمثّلت بانهيار القوات العثمانية والمجاهدين، فإنّ نقص التخطيط وسوء الإدارة العسكرية، إلى جانب الظروف الميدانية الصعبة، قادت إلى فشل المعركة.

فبعد تزايد الضغط البريطاني وتراجع القوات العثمانية، انسحب سليمان عسكري بك مع قواته إلى وادي كويبدة الواقع بين منطقتي النخيلة والشعيبة. كان الوادي بمنزلة الملاذ الأخير بعد فقدان الأمل في تحقيق النصر. إلا أنّ الانسحاب لم يكن منظمًا، حيث تبعثر الجنود، وانخفضت معنوياتهم بشكلٍ كبير، ما زاد من حدّة الفوضى في صفوف القوات [١].

في لحظةٍ حاسمةٍ ومأساوية، وبعد إدراكه للهزيمة المحقّقة وعجزه عن مواجهة الظروف المتدهورة، قرر سليمان عسكري بك إنهاء حياته. أقدم على الانتحار في وادي كويبدة، محاولاً بذلك التهرّب من تحمل مسؤولية الهزيمة ، بعد انتحار سليمان عسكري بك، تراجعت القوات العثمانية بالكامل، وسيطر البريطانيون على المنطقة. تركت هذه المعركة أثرًا بالغًا على سير الحرب في العراق، إذ عزّزت من هيمنة الاحتلال البريطاني وأضعفت المقاومة العثمانية والمجاهدين.

وثّقت مذكرات السيّد هبة الدين الشهرستاني الأسباب التي أدّت إلى الهزيمة، التي كان أبرزها:

- سوء التخطيط العسكري: غياب خطة استراتيجية واضحة لإدارة المعركة أدّى إلى تراجع التنظيم بين القوات.
- نقص الإمدادات: أدّى ضعف تجهيز القوات بالسلاح والذخائر والمؤن إلى إنهاك الجنود وعدم قدرتهم على الصمود.
- فقدان القيادة: كان لانتحار سليمان عسكري بك دورٌ كبيرٌ في تفاقم الانهيار، إذ غابت القيادة العسكرية الفعّالة للقوات النظامية في لحظةٍ حرجة.

الثورة العراقية الكبرى (ثورة العشرين ١٩٢٠)

بعد دخول القوات البريطانية بغداد في ١١ آذار سنة ١٩١٧م، انتقل السيّد هبة الدين إلى كربلاء، ليبدأ من هناك مرحلةً جديدةً من النشاط الجهادي ضد الاحتلال. واتّفق ذلك مع انتقال الشيخ محمد تقي الشيرازي من سامراء إلى كربلاء من أجل قيادة حركة المقاومة والإعداد للثورة [٢].

١. ملحق في مذكرات السيد هبة الدين بعنوان. (سبب انتحار القائد العسكري)، ص٣.

٢. الشهرستاني، مذكرات، المجلد ٢، ص ٣٦.

ولما استشعر الشيرازي في منتصف سنة ١٩١٩م ضرورة تأسيس مجلسٍ استشاريّ يستعين به على إدارة الأمور، بادر إلى ذلك، وتم تشكيل المجلس بعضوية عددٍ من العلماء الكبار، كان السيّد هبة الدين في مقدمتهم، فضلاً عن كونه رئيسًا لكتّاب الثورة في كربلاء [١].

ولم تكن الثورة حدثًا عفويًا ولد ساعته وظرفه، بل كانت لا تخلو من جذور الحركة القومية التي أدرك فيها القوميون العراقيون في المدن الكبرى ضرورة توثيق الصلة بالمشاعر العراقية، التي ترافقت مع الظروف الاجتماعية والسياسية والانتشار النسبي للتعليم الذي جعل من زعماء العشائر يدركون أنّ مشاكلهم الزراعية قد أصبحت جزءًا من الحياة السياسية الوطنية العامة [٢].

ورجع السيد هبة الدين في بدايات الحركة القومية إلى المطالبة بحكمٍ دستوريّ في الدولة العثمانية إذ يقول: «عندما بدأ الأتراك يضطهدون العرب، كان علينا أنْ ندافع عن الحقوق العربية» [٣]. وذكر السيّد كاطع العوادي والسيّد كمال الدين (وهما من القادة في ثورة العشرين) أنّ ثورة العشرين هي استمرارٌ للحركة القومية. ولهذا قلنا: إنّ تضامن الحركة القومية مع الشعور الديني فضلاً عن العوامل الأخرى من أهم مسببات الثورة. وبهذا تكون هذه الطروحات مختلفةً عمّا طرحه الكُتّاب الغربيون من عوامل تحرّك العشائر لمصالح ذاتيةٍ وأمورٍ أخرى قصدًا منها التقليل من قيمة المقاومة المسلحة التي جُوبه بها المحتلِّون من قبل الشعب العراقي.

وبينما كان العراقيون ينتظرون تحقيق الوعود التي أعلنها الجيش البريطاني من أنّه جاء إلى العراق منتدبًا محرِّرًا، لا فاتحًا مُستعبِدًا [٤]، صدرت بلاغاتٌ رسميةٌ من سلطات الحلفاء المدنية والعسكرية، أهمها التصريح الفرنسي البريطاني، الصادر في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ م، الذي جاء فيه: «إنّ الحكومتين الفرنسية والبريطانية اتفقتا على تأسيس حكوماتٍ وطنيةٍ للشعوب الحرّة التي هضم الترك حقوقها وتركت لها الخيار في تأسيسها حسب رغائبها» [٥]. بعد ذلك جاء مؤتمر (سان ريمو) ليحطم تلك الوعود والآمال معًا في قرار مؤتمر الحلفاء في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٠م، الذي يفضي إلى وضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني، وسورية ولبنان تحت الانتداب

١. الفرعون، فريق مزهر، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية، ص٨٢.

٢. نظمي، وميض جمال عامر، التطور السياسي المعاصر في العراق، ص١٠٧.

٣. المصدر نفسه، ص١٠٨.

٤. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص١٠٥.

٥. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ العراق السياسي الحديث، ج١، ص٤٢.

الفرنسي. إثر ذلك تضاعفت جهود العراقيين في المطالبة بحقوقهم المشروعة، وطفقوا يعقدون الاجتماعات السرية والعلنية في بغداد والنجف والموصل وكربلاء وغيرها من المدن العراقية لتُعلن شرارة الثورة العراقية الكبرى أو ما تعرف بثورة العشرين. التي كانت استمرارًا لنشاطات بدأت في التحالف القومي الديني الفلاحي أو العشائري، كتلك في التعاون بين جمعية النهضة الإسلامية [١]، التي كانت ترمي إلى مقاومة الاحتلال البريطاني، وحزب حرس الاستقلال الذي أسّسه مجموعةٌ من الشباب والذي كان من أهدافه الاستقلال المطلق للعراق، وبذل الجهود في إدخال العراق ضمن الوحدة العربية، وتوحيد العراقيين كافة بصرف النظر عن طوائفهم ومللهم، وبذل الجهود في إنهاء كافة الخلافات الناشئة عن اختلاف الأديان والطوائف. وفريق من العلماء، المعادين للنفوذ البريطاني الذي كونه الشيخ الشيرازي وابنه الشيخ محمد رضا في كربلاء، أمثال عبد الكريم الجزائري، وهبة الدين الشهرستاني، وصاحب الجواهر، ومحمد علي بحر العلوم، وأقامت هذه التكتلات علاقاتٍ نوعيةً مع جماعة الحرس من خلال اتصالاتٍ مستمرةٍ بوساطة محمد رضا وجعفر أبو التمن [٢].

وقد تألفّت في كربلاء جمعيةٌ سريّةٌ في محلّة باب النجف، غايتها العمل ضد بريطانيا، سُمّيت (الجمعية الوطنية الإسلامية)، وكانت تحت إشراف محمد تقي الشيرازي، وبرئاسة سليله الشيخ محمد رضا، وعضوية السيد هبة الدين الشهرستاني، والسيد عبد الوهاب آل وهب، وعبد الكريم آل عواد، والسيد حسن القزويني، وعمر الحاج علوان وأخوته، عثمان، وطلعت الخيون، وعبد الهادي التبر، ومحمد علي أبو الحب، والشيخ محمد حسن أبو المحاسن. وأخذ أفراد هذه الجمعية يروّجون الاجتماعات، ويبثّون الدعاية الوطنية، ويعقدون لقاءاتٍ بين رؤساء العشائر وزعماء الفرات لإزالة ما أحدثته سياسة الاستعمار من ضغائن، فتوسّع نطاق الحركة الوطنية [٣]. وكانت الجمعية تهدف إلى رفض الحكم الإنجليزي والمطالبة باستقلال العراق واختيار ملك مسلم له، وقد أصدر الإمام الشيرازي فتواه المشهورة بهذا الخصوص التي نصها: (ليس لأحدٍ من المسلمين أنْ ينتخب ويختار

١. جمعية النهضة الإسلامية: جمعية سرية تشكلت في النجف في أواخر سنة ١٩١٧م، وكان يقودها الشيخ محمد جواد الجزائري والسيد محمد علي الدمشقي السيد إبراهيم الجزائري، والسيد محمد علي والسيد ابراهيم البهبهاني (من علماء الدين)،ومن بين اعضائها نجم البقّال، وكاظم صبحي، وعباس الرماحي، وعبد الرزاق وتومان عدوه، وكانت هذه الجمعية وراء ثورة النجف في أوائل سنة ١٩١٨م ضد البريطانيين.

٢. الدراجي، عبد الرزاق، جعفر ابو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق، ص١٠٣.

٣. آل طعمة، سلمان هادي، تراث كربلاء، ص٢٩١-٢٩٢.

غير المسلم للإمارة والسلطة على المسلمين). وبعد أنْ أيّدت الفتوى من علماء كربلاء، أرسلت نسخ منها إلى مدن وعشائر الفرات الأوسط بهدف تحريضهم وتشجيعهم للانضمام والالتفاف حول الجمعية وأهدافها. وكانت هذه الفتوى من العوامل التي طورت وأثارت الوعي السياسي في العراق [١].

وبداية الأمر كان الشيرازي ينصح من حوله - ومنهم السيّد هبة الدين - بوجوب الإخلاد إلى الهدوء والسكينة، وعدم القيام بأيّةٍ حركةٍ تؤدّي إلى الإخلال بالأمن أو انتشار الفوضى. فلمّا أقدمت الحكومة على ما أقدمت عليه من قصفٍ دواوين شيوخ العشائر وبيوت رؤساء العشائر المنتفضة، و أحرقت ديارهم، أصدر الشيرازي فتواه التي نصها: «مطالبتهم بالحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم ضمن مطالبهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنعت الإنجليز من قبول مطالبهم» [٢]. وعند صدور هذه الفتوى أصبح أبناء البلاد في حالةٍ أخرى في طبيعة المطالبة بالحقوق، فتطوّرت إلى ثورةٍ مسلحةٍ امتدت من الرميثة يوم ٣٠ حزيران سنة ١٩٢٠م، وإلى معظم أنحاء الفرات الأوسط، ثم ديالى، وتلعفر، وأربيل، والرمادي[٣].

وقد كان للسيّد هبة الدين دورٌ كبيرٌ في إعلان الجهاد في كربلاء في ٦ آب سنة ١٩٢٠م، والاتصال بشيوخ العشائر والتحرّك لطرد البريطانيين منها، والمساهمة في تشكيل إدارةٍ عربيةٍ بتوجيهٍ من الشيخ محمد تقي الشيرازي للنظر في شؤون المدينة. وكانت هذه الإدارة على شكل مجلسين: المجلس الحربي الأعلى الذي تألّف من رئيسٍ وأربعة أعضاء: السيد هبة الدين - وكان في مقدّمتهم - والسيّد أبو القاسم الكاشاني، والشيخ أحمد الكربلائي، ومحسن أبو طبيخ [٤]، ونجل الشيخ محمد تقي الشيخ عبد الحسين. وانتخب هذا المجلس مجلسًا شعبيًا آخر عرف بالمجلس الملي، وكان ينظر في شؤون كربلاء، وما حولها من المناطق الإدارية، ويعمل على تنفيذ متطلّبات المجلس الحربي الأعلى، وكانوا يجتمعون كلّ يومٍ في بناية البلدية في كربلاء للنظر في شؤون الثورة.

كان هذا التنظيم للعلماء بمعية السيد هبة الدين الشهرستاني مهمًّا معنويًا وتجربةً متميزةً تبعتها باقي المدن كالنجف، حيث أسّس مجموعةٌ من العلماء مجلسًا بالتشكيل عينه لإدارة شؤون

١. الجعفري، رياض صالح، حسين الشعرباف، سيرة وذكريات، ص٧٤.

٢. الحسني، عبد الرزاق، الثورة العراقية الكبرى، ص١٠٦-١٠٧.

٣. البصير، محمد مهدي، تاريخ القضية العراقية ج١، ص٢٣٤-٢٤٠.

٤. الفرعون، فر يق المزهر، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠، ص٢٤٧-٢٤٨.

النجف، كما تشكّلت إدارةٌ مدنيةٌ من قادة حزب حرس الاستقلال في بعقوبة، وقامت برفع علم الثورة العربية [١].

عمل السيد هبة الدين خلال تلك المدّة على التواصل المباشر والتراسل مع الوجهاء والزعماء وقادة الحراك الثوري ضد الانكليز، وتوضّح الوثائق التي ينقلها لنا التاريخ تواصل السيد مع القادة كعبد الواحد سكر، ومحسن أبو طبيخ، وسيد نور السيد عزيز، والسيد علوان الياسري، وعلوان الشلال [٢].

ممّا تقدّم، يتّضح الدور المحوري الذي كان يؤديه السيد هبة الدين الشهرستاني في التحضير للثورة العراقية الكبرى وتنظيمها، إذ لم يقتصر جهده على الدعوة إلى الجهاد ومواجهة الاحتلال البريطاني، بل تجاوز ذلك إلى العمل على توحيد الصفوف بين مختلف فئات المجتمع العراقي. اعتمد الشهرستاني نهجًا استراتيجيًا تمثّل في إشراك العلماء والوجهاء من المدن الدينية، ككربلاء والنجف، في مناقشة الأوضاع الراهنة ووضع خططٍ لمواجهة التحدّيات السياسية والاجتماعية.

كان الشهرستاني من أبرز الداعمين لفكرة تأسيس مجالس استشارية ولجان تنظيمية تعنى بقضايا الأمة، حيث قدّم رؤيةً شاملةً لنظامٍ دستوريّ يضمن الحقوق الوطنية ويحمي الهوية العراقية. كما حذّر من مخاطر الرضوخ للانتدابِ البريطاني، عادًّا الثورة مشروعًا يتطلب إعدادًا فكريًا وتنظيميًا لضمان نجاحها، وليست مجرد انفجارٍ شعبي.

وفي سياق تعزيز السيادة الوطنية، ساند فكرة الإدارة الذاتية المؤقّتة عبر المجالس المحلية، إيمانًا منه بقدرة العراقيين على إدارة شؤونهم بعيدًا عن تدخلات المحتلّ. هذا النهج الذي جمع بين الفكر والتنظيم يعكس بصيرة الشهرستاني وحرصه على تأسيس أرضيةٍ متينةٍ لبناء عراقٍ مستقلٍّ وموحَّد.

مع تصاعد الأحداث واندلاع ثورة العشرين، تحرّكت السلطات البريطانية لقمع الحركة الوطنية، فشنّت حملات اعتقال ضدّ الرموز التي حرّكت الرأي العام. كان السيّد هبة الدين الشهرستاني أحد هؤلاء الرموز. وتشير الوثائق إلى أنّه في ليلة ١٩ تشرين الأول ١٩٢٠م، أُلقي القبض عليه من قِبل البريطانيين في مرقد الحر بن يزيد الرياحي ، وحكم عليه بالإعدام، ولكن الحكم لم يثنه بالتخلّي عن رسالته؛ إذ عمل على إلقاء الدروس والمحاضرات على من كان معه فحوّل السجن إلى مسجدٍ حسب ما يذكره الخليلي في كتابه [٣].

١. نظمي، التطوّر السياسي المعاصر في العراق، ص١١٣.

٢. البهادلي، السيّد هبة الدين الشهرستاني أثاره الفكرية ومواقفه السياسية، ص١٧١.

٣. الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم، ج٢، ص٢٠٥

وقد أُطلق سراحه بعد إعلان العفو العام الذي صدر ٣٠ أيار سنة ١٩٢١م، فذهب إلى كربلاء، وكان باستقباله جموعٌ من أهلها مرحّبين بعودة الثائرين سالمين، على وفق ما ينقله السيّد في مذكراته [١]. وذكر السيد هبة الدين أسماء من كان معه من رجال الثورة العراقية في سجن الحلّة المركزي بإرجوزةٍ نظمها اثناء تواجده في السجن [٢]

العمل السياسي وجهاده في وزارة المعارف

مع تحوّلات العراق نحو الحكم الوطني ، برزت الحاجة الماسّة إلى بناء مؤسسات وطنيّة فاعلة تسهم في إرساء الاستقلال الحقيقي وترسيخ الهوية الوطنية، ومن هذه المؤسسات التيً كانتً النخبةً واعيةً لأهميتها هي قطاع التعليم. عند تشكيل أوّل وزارةٍ في العراق في ٢٥ تشرين الأول سنة ١٩٢٠م كانت وزارة المعارف التي تعنى بالتعليم مدمجةً مع وزارة الصحة، ولكن مع تشكيل الوزارة العراقية الثانية انفصلت وزارة المعارف عن الصحة، وكان المطلب الأساس هو إسناد الوزارات إلى شخصياتٍ وطنيةٍ تتمتّع برؤيةٍ ناضجةٍ ووعيّ عميقٍ بمصالح البلاد. وكان السيّد هبة الدين الشهرستاني من بين تلكً الشخصيات البارزة، إذ اجتمعت فيه صفتان رئيستان: عمق في الفكر وسعة في العلم، من جهة، وصدق في الوطنية والحرص على مصالح البلاد وهويتها، من جهةٍ أخرى [٣].

١. البهادلي، السيد هبة الدين الشهرستاني أثاره الفكرية ومواقفه السياسية، ص ١٨١.

٢. نورد هنا نص الأرجوزة ، شرحها والتعريف بالشخصيات ورد في المصدر السابق ص١٤٤-ص١٤٥.

هاك أسامي نخبة الآفاق ... من حوكموا في نهضة العراق
سبع وعشرون شيوخ رؤسا ... وستة من نسل أصحاب الكسا
هم (هبة الدين) لأجل الدين ... وحبرنا الحسين من قزوين
والسيد الوهاب مظهر الابا ... والهادي للحق الزيني النسبا
والمرشد الحسين من نسل الدده ... خاتمهم محمد ذو المحمده
أحصى الشيوخ كمنازل القمر ... هذا الدليمي وذاك المفتخر
اشخير من آل أبو سلطان ... ثم الفتى أمين أبو نعمان
ثلاثة اسمهم سلمان ... والمحسنان والفتى دوهان
عمران ذاك الصارم المصقول ... علوان فيهم سيفنا المسلول
والبر نجم كالسماوي العابد ... ولا فتى حرّ كعبد الواحد
علي المزعل للأعاد ... كخادم الغازي كذا عبادي
خضير العاصي عن التسليم ... والشهم من كان كإبراهيم
طليفح الحر كذا فرحان ... متعب أعدانا هو الرحمن
عبد الجليل صنوه العواد ... والتاج عبد الرسول الهادي
وابن عنيد اسمه عبود ... وابن الصليلي الفتى حمود

٣. شيخ العراقين، كاشف الغطاء، نظرات في معارف العراق، ص٨٣.

لقد رأى السيد هبة الدين أنّ قبوله منصب وزير المعارف في الحكومة الوطنية بتاريخ ٢٧ أيلول ١٩٢١ سيتيح له «إسداء خدماتٍ جليلةٍ للمجتمع العراقي» [١]، كما سيُبعد الجوانب الفكرية والغربية التي قد تخترق بنيان الوزارة الناشئة ما جعل من تولّيه وزارة المعارف فرصةً لحماية البلاد من المخططات الاستعمارية وفق رؤيته لمفهوم الجهاد الفكري وفق ما تقدم سابقًا ، والارتقاء بالمؤسسة التعليمية إلى مصاف الإرادة الوطنية الصادقة.

الدور الإصلاحي للسيد هبة الدين في الوزارة

ما إنْ قبل السيّد هبة الدين منصبه في وزارة المعارف، حتى شرع بتنفيذ رؤيةٍ إصلاحيةٍ متكاملة. رأى أنّ الوزارة يجب أنْ تكون مثالاً حيًّا للإرادة الوطنية ، وانعكس ذلك في محاور عدة من عمله [٢]:

١. تقليص نفوذ الأجانب وإبراز الصفة الوطنية:

حرص السيد الشهرستاني على الحدّ من وجود الموظفين البريطانيين في وزارة المعارف. ورفض تعيين ناظرٍ وخمسة معاونين بريطانيين، وأصرّ على أنْ يتقلّد العراقيون تلك المواقع. وقد كان يعدّ استمرار عمل الأجانب في الوزارة يعرقل مشاريع النهضة الوطنية، ويطيل أمد الهيمنة الثقافية والفكرية. وكان يرى أنّ وظائف وزارة المعارف الفنية والإدارية لا تحتاج إلى أجانب[٣]. بهذه الخطوة، وضع حجر الأساس لتمكين الكوادر العراقية المؤهلة، وجعل الوزارة حاملةً للواء الاستقلال الوطني داخل المؤسسات التعليمية. وكان يرى أنّ استقلال التعليم جزءٌ لا يتجزأ من استقلال الدولة، وأنّه بلا معارف وطنية حرة، لن يكون هناك مجتمعٌ حرٌّ قادرٌ على مواجهة الاستعمار.

٢. إحلال اللغة العربية محل الإنجليزية:

بعد هيمنة الإنجليزية لغةً رسميةً في الدوائر الحكومية، أصدر السيّد هبة الدين أمرًا إداريًا صارمًا وعاجلاً بإلزام موظفي وزارة المعارف باستخدام اللغة العربية حصرًا في المكاتبات والعناوين

---

١. جريدة الاتفاق، السنة الثانية عشرة، ع٢٤.

٢. أحمد، ابراهيم خليل، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩ - ١٩٣٢، ص١٢٤.

٣. م.و.و.ملفات وزارة المعارف العراقية، مذكرة وزير المعارف هبة الدين الى رئيس الديوان الملكي جوابًا لكتاب الديوان المرقم ٤٠٤/١٠/٢ والمؤرخ في ١٤ اذار ١٩٢٢ م. تاريخ المذكرة ٢٩ آذار ١٩٢٢.

والوثائق. وأمر بتعريب الآلات الكاتبة، وإخضاع كلّ أشكال المراسلات والمعاملات لهذا القرار [١]. وفي تموز ١٩٢٢ قدم السيد الشهرستاني طلبًا الى رئيس الوزراء لادخال اللغة العربية مادةً إجباريةً في المدارس الأجنبية وجعل وزارة المعارف هي المسؤولة عن تعليم اللغة العربية فيها [٢]. يُظهر هذا الموقف إيمانه بأنّ اللغة العربية ليست مجرد أداة، بل هي حامل الهوية الوطنية وقاعدة النهضة الثقافية، وكان بهذه القرارات قد انتزع زمام المبادرة من نفوذٍ أجنبيّ، واستعاد عنصرًا أساسيًا من عناصر الشخصية العراقية المستقلة.

٣. مقاومة تأثير المدارس الأجنبية:

لم يقتصر جهاده الإصلاحي على الكادر الإداري أو اللغة فحسب، بل امتدّ إلى التعامل مع المدارس الأجنبية في العراق. فقد اقترح إلغاء مساعدة هذه المدارس، رافضًا عدّها وطنيةً ما دامت إداراتها أجنبيةً أو خاضعةً لتأثيرات غير عراقية، مؤكدًا ضرورة توفير بيئةٍ تربويةٍ عراقيةٍ خالصةٍ، ولكن مجلس الوزراء رفض هذا المقترح بعد ملاقاته انزعاجًا شديدًا من المندوب السامي البريطاني[٣]. وبالرغم من رفض المندوب السامي البريطاني لهذه الفكرة، إلا أنّ جرأة الطرح تعبّر بوضوحٍ عن خطّه المستقل، ورغبته في قطع كلّ صلةٍ تربويةٍ أو ماليةٍ بالكيانات الأجنبية.

٤. التخطيط المالي والإداري للتعليم الوطني:

لم يغفل السيد هبة الدين عن ضرورة توفير الدعم المالي اللازم للوزارة؛ فطالب الحكومة بزيادة الميزانية المخصصة للتعليم. وفي مذكرةٍ رفعها إلى رئيس الوزراء، قال: «إنّه علم بأنّ نصيب المعارف من ميزانية ١٩٢٢-١٩٢٣ هو المبلغ نفسه الذي خُصص للوزارة السابقة، وأنّ ذلك يعني بقاء المعارف على حالها الحاضرة دون أيّ تقدم». وفي المذكرة نفسها وضّح السيّد الشهرستاني خططه في حال زيادة الميزانية المخصصة التي شملت: نشر التعليم في الأرياف بفتح مدرسة في كلّ قرية، وزيادة دور المعلمين، وبالتالي تخريج عددٍ أكبر من المعلمين، وضرورة فتح ثانوية في كلّ لواء، ومنح اللامركزية للبلديات في آليات التحكم بميزانيات تأثيث المدارس وتوفير الاحتياجات [٤]

١. الأمر الاداري الصادر من وزير المعارف في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٢، وقد اوردنا نصه كاملاً في كتابنا السيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني آثاره الفكرية ومواقفة السياسية، ص١٨٨.

٢. د.ك. و. ملفات البلاط الملكي، ت٣١١/٢٠٢، و٨٠.

٣. مذكرات السيد هبة الدين، ملفات المعارف، ص٢٧.

٤. د. ك. و. ملفات البلاط الملكي، ت٣١١/٢٠٢، و٥٥، ص١٣٨.

بهذا، وضع الحكومة أمام خيارين: أمّا النهوض بالتعليم وزيادة إمكاناته المالية، وأمّا الركود والتخلّف. ولم يكن الشهرستاني يسعى إلى زيادة الأرقام وحسب، بل إلى تطوير جوهر التعليم وتنويع فرصه، بما يضمن إعداد أجيالٍ مهيّأةٍ لمرحلة الاستقلال والبناء، لكن بسبب الضائقة المالية التي كانت تمرّ بها الحكومة لم تتمكن من تحقيق الزيادة التي قدمها ، لكن مذكرته كانت أساسًا في تطوير سياسات التعليم في العراق خلال الحكومات المتتالية [١].

٥. الاهتمام بالبعثات العلمية واختيار الطلبة المؤهلين:

ضمن مخططه لإعداد كوادر تعليميةٍ ووطنية، شجّع السيد هبة الدين على إرسال الطلبة المتفوقين للدراسة في الخارج، شريطة انتقائهم بعنايةٍ وحرصٍ على (الالتزام الديني والأخلاقي وطلب العلم). وخاطب الطلبة قبل سفرهم، مانحًا إيّاهم نصائح قيّمةً تضمن عودتهم لخدمة بلادهم بعد إنهاء دراستهم[٢]، وتوضح هذه المعاني رسالة الطالب حسن مصطفى البغدادي إلى السيد هبة الدين حين يقول فيها : «... استرحم اتحافي بكتابٍ مملوءٍ من النصائح المفيدة كالوصية التي أوصيتمونا بها عند سفرنا، ، كي نتخذ كتابكم مرشدًا وممثلاً ومراقبًا حاضرًا معنا...»[٣]. هذا الحرص على تهيئة الجيل الجديد يعكس فهمه العميق للتعليم بوصفه مشروعًا وطنيًا طويل الأمد، لا يقف عند حدود الساحة المحلية، بل إنّ وجود المبتعثين يجعلهم سفراء لقضية استقلال العراق.

استقالته و مواجهة مشروع الانتداب البريطاني

لم يكن عمل السيّد هبة الدين في وزارة المعارف منفصلاً عن قضايا الاستقلال الكبرى. ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة البريطانية تماطل في منح الاستقلال الكامل، أكد الشهرستاني موقفه الثابت الرافض لأيّ صيغة انتدابٍ تُقيّد حرية العراق. وعندما عُرض موضوع تجديد الانتداب على مجلس الوزراء، ردّ بقوله: « نؤيد رابطة المعاهدة المؤيدة لاستقلال البلاد المصرحة بوجوب احترام سيادتها الوطنية ... أمّا الانتداب فلِسنا نستطيع أنْ نقبله لعدم انطباقه على رغائب الشعب العراقي»[٤]. فكان جليًا وواضحًا مطلبه في مواجهة الاستعمار وعدم الخضوع، وجهاده السياسي للوصول الى اعتراف حكومة بريطانيا بأنّ العراق دولةٌ مستقلةٌ ذات سيادة، وتعزيز عرش

١. أحمد، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩ - ١٩٣٢، ص١٤١.

٢. العلوي، نابغة العراق أو هبة الدين الشهرستاني، ص١٥.

٣. جريدة المفيد، بغداد، ع٥-١٨٦.

٤. د.ك.و. ملفات البلاط الملكي، ص٣.

الملكية الدستورية في العراق. على الرغم من جهاده المستمر في وزارة المعارف، ودفعه باتجاه إصلاحٍ جذريّ في المناهج والإدارة والسياسات، فإنّ تمسّك بعض الأطراف بالصيغة الانتدابية وعدم الاستجابة الكاملة لمطالبه الإصلاحية دفعه في نهاية المطاف إلى تقديم استقالته. وفي نص الاستقالة يقول: «إنّ شعبنا العراقي الكريم الذي جاهد في سبيل تكوين حكومته الوطنية لا يهدأ روعه إلّا إذا وجد حكومته حرةً في أعمالها»[١]. برغم ذلك، بقي السيد هبة الدين في منصبه حتى تشكيل الوزارة الجديدة، وتأمين استمرارية أعمال المعارف، وبعدها سلّم حقيبة الوزارة لخلفه عبد الحسين الجلبي [٢]، تاركًا وراءه إرثًا إصلاحيًا عظيمًا. لقد أرسى قواعد وزارة معارف وطنية، ركّزت على اللغة العربية والتراث الإسلامي والقومي، وعملت على تحصين الأجيال الناشئة من سموم التبعية.

في المحصلة، مثّل جهاد السيد هبة الدين الشهرستاني في وزارة المعارف فصلاً مهمًا في تاريخ العراق الوطني، إذ وضع البذور الأولى لنهضةٍ تعليميةٍ تنسجم مع روح الأمة وقيمها، وتُؤسّس لدولةٍ مستقلةٍ حقًّا، قادرةٍ على بناء مستقبل أجيالها بروح حرةٍ وذهنٍ يقظٍ وقّاد.

الخاتمة

تتّضح من مجمل هذا البحث معالم شخصيةٍ فريدةٍ تميّزت بوعيّ دينيّ عميق، ونضجٍ فكريّ موسوعي، ورؤيةٍ إصلاحيةٍ شاملة، تجلّت جميعها في مسيرة السيّد هبة الدين الشهرستاني. فقد واجه الشهرستاني حقبة تاريخية اتسمت بتعاظم النفوذ الاستعماري الأجنبي، وتراجع السلطة العثمانية، واختلال التوازنات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق. وفي مثل هذه الظروف المعقّدة، نهض الشهرستاني بوصفه عالمًا دينيًا موسوعيًا أفلح في توثيق الصلة بين تراث الأمة وأدوات العصر الفكرية والمعرفية، فلم يكتفِ بالتصدي للمحتل على المستوى العسكري أو السياسي وحسب، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، موسّعًا نطاق الجهاد ليشمل الأبعاد الفكرية والثقافية والاجتماعية.

لقد أدرك منذ وقتٍ مبكر أنّ الهيمنة الاستعمارية لا تنحصر في احتلال الأرض، بل تتجاوزها إلى استعباد العقول وتحريف الهوية الثقافية؛ لذلك، عمل الشهرستاني على بناء وعيّ جماعيّ مقاوم، مبنيّ على ركنين أساسيين: وحدة الصف الوطني، والارتقاء بالمستوى المعرفي والثقافي. إنّ حمله لواء التنوير الفكري، من خلال المجلات والمنابر والندوات، وتحذيره من استغلال الدين

١. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ الوزارات العراقية، ج١، ص١١٤.

٢. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ الوزارات العراقية، ج١، ص١٥٥.

في خدمة المشاريع الاستعمارية، وتجديد فهم النصوص ضمن سياقها التاريخي والمعاصر، تمثّل جميعها وجهًا آخر لمعركة الاستقلال، لا تقل شأنًا عن المعارك الميدانية.

ولم تكن دعوته لوحدة الكلمة وتحصين الجبهة الداخلية مجرد دعوةٍ مثاليةٍ نظرية، بل تجسّدت فعليًا في توحيد جهود العلماء وشيوخ العشائر وتحريكهم لمواجهة المحتل، وصولاً إلى دوره المحوري في الإعداد لثورة العشرين والمشاركة فيها. ومع انتهاء تلك المرحلة وبدء تشكيل الدولة العراقية الحديثة، واصل جهاده بوعيّ ثاقبٍ في ميدان أكثر عمقًا وتأثيرًا، وهو التعليم؛ فمن خلال تولّيه حقيبة المعارف، بذل جهده لتعريب المؤسسات التعليمية، وإقصاء النفوذ الأجنبي، وبناء نظام تربوي يعزّز الهوية الوطنية، ويؤسّس لأجيالٍ قادمةٍ تحمي استقلال البلاد بقوتي الفكر والمعرفة.

إنّ تجربة الشهرستاني تلخّص معركةً شاملةً خاضها مفكّرٌ من طرازٍ رفيع: يدفع العشائر إلى ميدان القتال، ويُلهب مشاعر الطلبة على مقاعد الدراسة، ويسعى لإرساء دستورٍ وطنيّ يحمي البلاد من مشاريع الانتداب. بهذا النهج المتكامل، قدّم الشهرستاني نموذجًا للمثقف الفاعل والقائد المؤثر، الذي أدرك أنّ استقلال الأوطان لا يتحقق بإزاحة المستعمر فحسب، بل بتعزيز دعائم الثقافة والهوية واللغة والمؤسسات الوطنية. وبذلك ترك أثرًا بالغًا في فهم طبيعة الصراع الشامل ضد التبعية، واستيعاب أنّ مقاومة الاستعمار تبدأ من الذهن والقلم قبل أنْ تصل إلى البندقية والساحات.

الاستنتاجات:

١. شمولية مفهوم الجهاد: بيّن الشهرستاني أنّ الجهاد ليس قتالاً مسلّحًا فحسب، بل هو منظومةٌ متكاملةٌ من المقاومة الثقافية والفكرية والاجتماعية. فقد رأى أنّ إصلاح التعليم وترسيخ الهوية اللغوية والثقافية يُعدّان شكلاً من أشكال الجهاد ضد الاستعمار الفكري.

٢. أهمية الوحدة والوعي الوطني: أدرك الشهرستاني أنّ الانقسامات الداخلية تسهّل على القوى الاستعمارية تنفيذ مخططاتها؛ لذلك دعا باستمرار إلى نبذ التفرقة وتعزيز التضامن بين مختلف الفئات الدينية والاجتماعية، وعدّ الوعي الوطني الركن الأساس في بناء حصانة المجتمع.

٣. الدين قوة محرّكة للمقاومة والتحرّر: استخدم السيّد هبة الدين المرجعيات الدينية في تحريك الجماهير نحو الدفاع عن الأرض والعرض والدين. لم يكن الدين لديه أداة رجعية (كما يصفها بعضهم)، بل قوة تحرّرية تساند قضايا الاستقلال والكرامة الوطنية.

٤. التعليم بوابة الاستقلال الحقيقي: رأى الشهرستاني في التعليم المفتاح لتغيير الواقع ومواجهة الاستعمار الثقافي؛ فسعى إلى تكوين نخبةٍ متعلمةٍ وواعية، قادرةٍ على صياغة المستقبل الوطني بمعزلٍ عن الهيمنة الأجنبية، وأدرك أنّ الاستقلال لا يكتمل إلّا عندما تنبعث إرادةٌ وطنيةٌ صادقةٌ من المؤسسات التعليمية.

٥. الإصلاح الفكري والإداري شرط للنهوض: لم يكتفِ السيد هبة الدين بالرفض النظري للاستعمار، بل طرح الحلول، وأخذ بزمام المبادرة. فالإصلاح الإداري في وزارة المعارف وتعريبها ومحاربة الامتيازات الأجنبية في قطاع التعليم، وتوظيف الكوادر الوطنية، كلّها تدابير عمليّة تؤكّد أهميّة التحرّك الواعي والمنظّم.

الوثائق

وثيقة رقم ١ : كتاب السيّد هبة الدين الشهرستاني الى شيوخ العشائر:

الوثيقة رقم (١)[1]

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته اما بعد التحية وبث الاشواق
الخالصة القلبية والسؤال عن صحتكم المرغوبة ادامها الباري عز شانه
فان الاكباد عموماً متعطشة لبشائر اخباركم الصافية والافئدة
شاخصة الى نتايج اعمال المجاهدين ايدهم الله ببصره العزيز
فالمامول من عالي همكم وغيرتكم الدينية ان تبذلوا في مثل اليوم
كل السعي والجهد في توحيد كلمة العشاير وتفهيم الغافلين
روح المقصد المقدس من هذه النهضة وتجتهدوا مع من
تعتمدون عليه في بث الامنية وتنظيم الحكومة الاسلامية
العربية وفي كل يوم نترصد لزيارة مكاتيبكم الحاوية لحقايق
الاحوال وعلى الله الاتكال والسلام عليكم وعلى كافة
اخواننا المؤمنين ورحمة الله وبركاته

خادم العلم والدين محمد علي الشهرستاني

هبة الدين

وثيقة رقم ٢: نداء السيّد هبة الدين في استنهاض المجاهدين في ٧ صفر ١٣٣٣ هـ:

بسم الله الرحمن الرحيم
يا قومنا اجيبوا داعي الله

السلام عليكم وعلى المهاجرين الى الله المجاهدين في سبيل الله
اما بعد السلام التام وتقديم فايق الاحترام فان الله سبحانه وله الحمد قد وفقنا وآناكم للقيام بنصرة دينه المبين والنهضة للدفاع عن بيضة الاسلام وثغور المسلمين وها نحن بعون الله نتحرك يوم السبت متوجهين الى الجهاد في سبيله مع السهم الجليل الشيخ مبدر الأفخم وجملة من مشايخ القبائل المحترمين ونخبة من رجالهم الشجعان المجربين متوسلين الى احد اذنا الطاهرين المعصومين عليهم السلام ان يسعدنا بالانتصار والافتخار في هذه النهضة الاسلامية
وحيث ان مسيرنا بحمد الله واحد ومقصدنا واحد ومصالحنا مشتركة فيلزمنا ان نضم في مسيرنا هيئة واحدة ننزل متحدين ونرتحل متحدين تحت لواء القرآن العظيم ونتشاور متفقين في اعمال حركتنا المباركة فان الأمر خطير والعمل كبير لا يتم بالخير الا بالاجتماع والاتحاد والتشاور والاستعداد وطلب النصر والتوفيق من الله انه لا يخيب من دعاه والسلام عليكم وعلى عباد الله الصالحين

٧ شهر الخير ١٣٣٣

تحرير
خادم الشريعة
الشهرستاني

وثيقة رقم ٣: رسالة مبدر الفرعون الى السيد الشهرستاني في ١٨ محرم ١٣٣٣ هـ:

الوثيقة رقم (٣-أ)

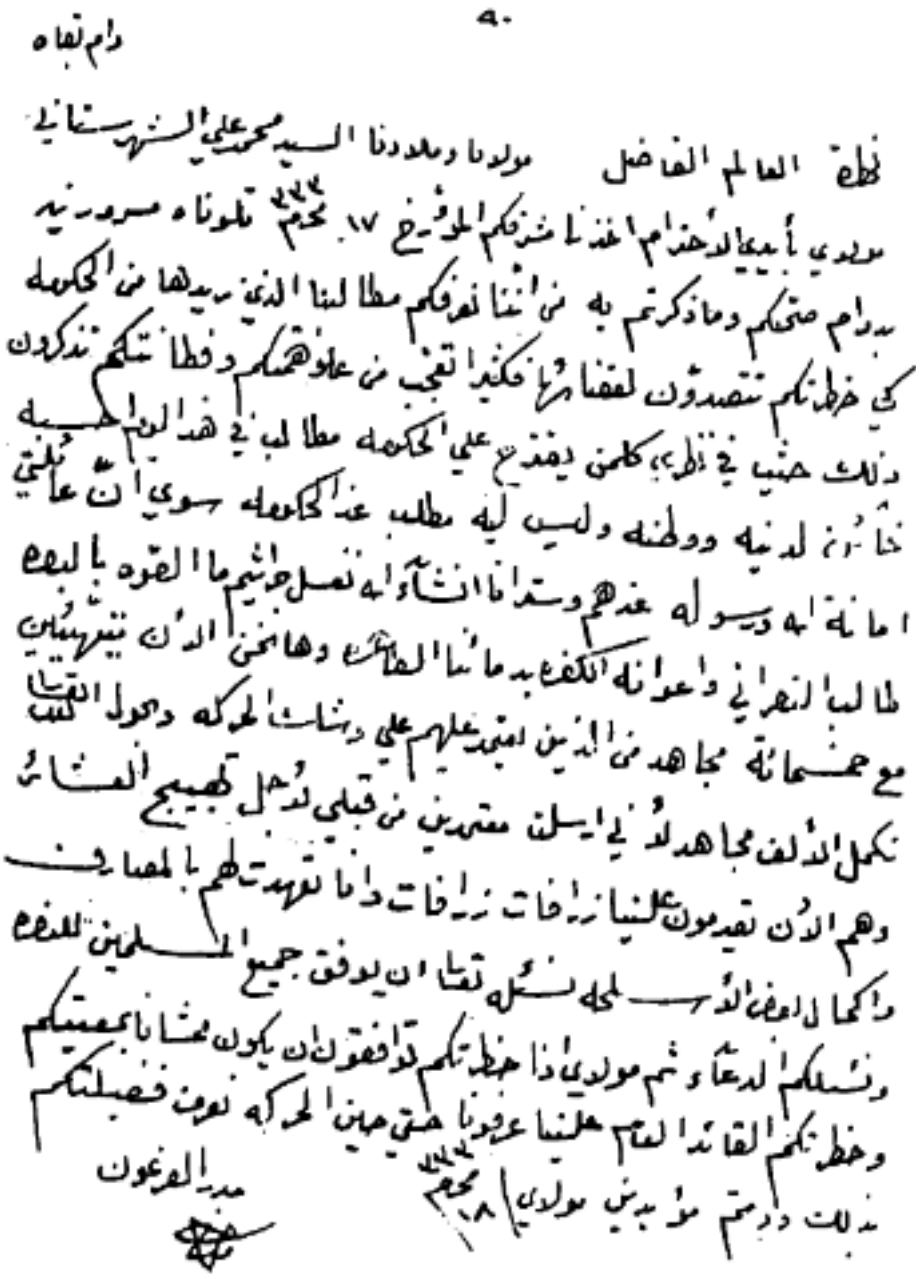

قائمة المصادر

الكتب والمطبوعات:

١. أحمد، إبراهيم خليل، تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩ - ١٩٣٢، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨٢.
٢. البهادلي، محمد باقر، السيد هبة الدين الشهرستاني آثاره الفكرية ومواقفه السياسية، بيروت، مؤسسة الفكر الإسلامي، ٢٠٠٢.
٣. البصير، محمد مهدي، تاريخ القضية العراقية، مطبعة الفلاح، بغداد ١٩٢٤.
٤. الجعفري، رياض صالح، حسين الشعرباف، سيرة وذكريات، بغداد، ١٩٩٩.
٥. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ العراق السياسي الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٧٩.
٦. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ الوزارات العراقية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨.
٧. الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم، مطبعة الزهراء، بغداد،١٩٦٣.
٨. العلوي، محمد مهدي، نابغة العراق أو هبة الدين الشهرستاني، مطبعة الآداب، بغداد، ١٩٢٩.
٩. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، دار الكتب، ١٩٧١.
١٠. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مطبعة الشعب، بغداد،١٩٧٢.
١١. الياسري، عبد الشهيد، البطولة في ثورة العشرين، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٦.
١٢. برو، توفيق علي، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤، القاهرة، ١٩٦٠.
١٣. الفرعون، فريق مزهر، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٥٢.
١٤. لونكريك، ستيفن همفري، العراق الحديث، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي، مطبعة حسام، بغداد، ١٩٨٨.

الصحف والمجلات:

١٥. جريدة الاتفاق، السنة الثانية عشرة، العدد ٢٤، صيدا، ١٩٢٢.
١٦. جريدة العدل، السنة الثامنة، صفر ١٣٣٤ هـ.
١٧. جريدة الزهور البغدادية، صفر ١٣٣٤ هـ.
١٨. جريدة المفيد، السنة الأولى، ١٧ نيسان ١٩٢٢.
١٩. مجلة العلم، العدد الأول، جمادى الثاني ١٣٢٨ هـ، النجف.

الوثائق والمخطوطات:

٢٠. رسالة مبدر الفرعون إلى السيد هبة الدين الشهرستاني.
٢١. كتاب السيد هبة الدين الشهرستاني إلى شيوخ العشائر.
٢٢. نداء السيد هبة الدين إلى المجاهدين.
٢٣. مذكرات السيد هبة الدين الشهرستاني، مكتبة الجوادين العامة، بغداد.
٢٤. مذكرات السيد هبة الدين الشهرستاني، بعنوان (سبب انتحار القائد العسكري)، مكتبة الجوادين العامة.
٢٥. مذكرة وزير المعارف السيد هبة الدين إلى رئيس الديوان الملكي، ملفات وزارة المعارف العراقية.
٢٦. مذكرة السيد هبة الدين حول التعليم الوطني، ملفات البلاط الملكي.

قراءة في كتاب نحن وازمنة الاستعمار (الحلقة الاولى)

أ. علي رعد[1]

الملخص

في هذه القراءة الموجزة، تركزّ سلسلة (نحن وأزمنة الاستعمار) على الاستعمار الذي اجتاح العالم الإسلامي. تعالج هذه الدراسة، ومن زوايا متعددة، إشكالياتٍ تتعلّق بطبيعة الاستعمار والاستعمار القديم والحديث وما بعد الاستعمار، من خلال آراء مجموعةٍ من المفكّرين العرب والأجانب.

توضّح القراءة أنّ العالم الإسلامي ما يزال يرزح تحت نيّر الاستعمار، رغم تحرّره بالمعنى الكلاسيكي. فقد تغيّر مفهوم الاستعمار اليوم، وأصبح يُمارس بطرقٍ غير مباشرة، مستندًا إلى العلم والفلسفة والقوة الناعمة. وعليه، أضحت هناك شعوبٌ تشعر بالدونيّة والضعف، وتلجأ إلى تقديس كلّ ما هو أجنبيّ وتحتقر كلّ ما هو وطني، بل وصل الأمر إلى حدّ انكار التاريخ والهوية والخصوصية بهدف تقليد الغرب تقليدًا أعمى. وهكذا مرّة أخرى يجني الاستعمار المعاصر والمنتشر ثمرة ما زرعه الاستعمار القديم في العالم الاسلامي.

تُعدّ السلسلة المذكورة من الإسهامات الفكرية البارزة التي تهدف إلى بناء فكرٍ تحرّريّ نقديّ يتعارض مع فلسفتَي الاستعمار القديم والمعاصر، اللتين سعتا إلى إضعاف الوعي الجماعي لدى الشعوب المستضعفة؛ لذا، تُعدّ هذه السلسلة بمنزلة خريطة طريقٍ تسعى إلى استنهاض الشعوب المقهورة من براثن الاستعمار.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار، الاحتلال، الانتداب، الكولونياليّة، ما بعد الكولونياليّة، الإمبرياليّة، العلمانيّة، المعرفة، الهيمنة.

---

١. طالب دكتوراه في العلاقات الدولية، لبنان.

بطاقة الكتاب: عنوان السلسلة: نحن وأزمنة الاستعمار/ نقد المباني المعرفية للكولونيالية وما بعد الكولونيالية، ٤ أجزاء، ط١، بيروت، ٢٠١٨.

تحرير وتقديم: د. محمود حيدر

عدد الصفحات: ٣٧٦

مقدّمة

تسلّط سلسلة (نحن وأزمنة الاستعمار) بأجزائها الأربعة الضوء على الحقبة الاستعمارية وما بعد الاستعمارية، وذلك من خلال تفحّص الأحداث التاريخية في كلٍّ من آسيا وأفريقيا في القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا. وقد أسهم في هذه السلسلة مجموعةٌ من المفكّرين والباحثين وعلماء الاجتماع من أوروبا وأميركا والعالمين العربي والإسلامي.

يتطرّق هذا الجزء إلى فصلين أساسين:

- الفصل الأول: المصطلح والمفهوم
- الفصل الثاني: الاستعمار القديم

يقول الباحث اللبناني (محمود حيدر) في المدخل التأسيسي لهذه السلسلة: «إنّ العقلانية الاستعمارية التي حدَّت من وظيفة استعمال العقل مقابل المنافع المحضة، هي عقلانيةٌ مجردّةٌ من الأخلاقية. ومثل هذه العقلانية الوظائفية راحت تتمظهر مع تعاقب الزمن كسمت تكوينيٍّ للشخصية الاستعمارية. فلقد بيّنت اختبارات التاريخ أنّ من أمْيَز طبائع العقل الاستعماري إضفاء صبغةٍ عقلانيةٍ على كلّ فعاليةٍ من فعالياته بمعزلٍ عن أثرها الأخلاقي، وهذا يؤدّي في النهاية إلى أنْ تتحولَ العقلانية إلى ذريعةٍ فادحةٍ للاستخدام الإيديولوجي في الفكر الإمبريالي»[١].

لننتقل الآن إلى الفصل الأوّل الذي يعالج تعريف الاستعمار، ومن بعدها نتطرّق إلى الفصل الثاني الذي يثير مسألة الاستعمار القديم.

١. محمود حيدر، نقد مباني العقل الإمبريالي، مدخل تأسيسي في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ١٤.

الفصل الأول

مباحث تمهيديّة

أ- في المصطلح والمفهوم

يعدّ الباحث (هورفاث ج. رونالد) الاستعمار من أبرز الظواهر المؤثّرة في تاريخ البشرية. ومع ذلك، لم يتمكن الدارسون والعلماء الغربيون من الوصول إلى فهمٍ شاملٍ لهذه الظاهرة، حيث تفتقر الأوساط الأكاديمية إلى نظريةٍ متّفقٍ عليها حول الاستعمار، ولا يوجد توافقٌ جوهريّ حول تعريفه. فمن وجهة نظر (رونالد)، يمتلك الناس وجهات نظرٍ متباينة حول ماهية الإستعمار، فمنهم من يراه أنّه عملٌ سيّىء يتمّ بوساطة أشرار، والآخر ينظر إليه كمحاولةٍ جديرةٍ بالاطراء تمّت بواسطة رجالٍ أخيارٍ من أجل هدفٍ نبيلٍ وهو إنقاذ الجاهلين.

يقول (رونالد) إنّ العلماء أخفقوا في وضع إطارٍ تعريفيّ واضحٍ للاستعمار والإمبريالية وبعض المفاهيم الأخرى ذات الصلة، وذلك بسبب تقديم صورةٍ نمطيةٍ عن الاستعمار استنادًا إلى حالةٍ أو حالتين فقط، هو افتراض يفيد بأنّ الاستعمار سمةٌ من سمات حضارةٍ معينةٍ (مثل الحضارة الغربية)، ممّا يؤدي إلى تجاهل جميع الأحداث والوقائع التي شهدها التاريخ البشري. بتعابير أخرى لا ينبغي ربط الاستعمار بالمتحضرين (الشعوب المتعلّمة)، بل إنّ غير المتحضّرين أيضًا استعمروا شعوبًا. أضف إلى ذلك، أنّ تعريفات الاستعمار تفتقر إلى المرونة، حيث ينبغي أنْ تكون التعريفات والتصنيفات قادرةً على استيعاب الاكتشافات الجديدة؛ لذا، من الضروري أنْ تتوفر درجةٌ كافيةٌ من المرونة لتسهيل المعالجة والتوضيح[١].

ثمة إجماع على أنّ الاستعمار هو نوعٌ من الهيمنة، أي هيمنة أفراد أو جماعات على إقليمٍ أو سلوك أشخاصٍ وجماعاتٍ أخرى. يُعدّ الاستعمار أيضًا صورةً من صور الاستغلال من خلال التركيز على العامل الاقتصادي، وينظر له أيضا بأنّه عملية تغييرٍ ثقافية، وهنا يرتبط مفهوم الهيمنة بالقوة. توجد نوعان من هيمنة الجماعات: الأول: هو الهيمنة بين الجماعات، والثاني: هو الهيمنة داخل الجماعة الواحدة. يتم التمييز بينهما بناءً على مدى التجانس الثقافي. الهيمنة بين الجماعات تحدث في مجتمعاتٍ غير متجانسة، بينما الهيمنة داخل الجماعة الواحدة تحدث في مجتمعاتٍ تتميز بالتجانس الثقافي. على سبيل المثال، تُعدّ هيمنة الإنجليز على الويلزيين والأسكتلنديين

١. هورفاث ج. رونال، تعريف للاستعمار (قراءة في المعنى والتجربة التاريخية)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ٢١.

والأيرلنديين مثالاً واضحًا على الهيمنة بين الجماعات. في المقابل، داخل المجتمع الإنجليزي[١]، توجد تراتبيّةٌ تتعلّق بالسلطة والثروة والمكانة الاجتماعية. ونظرًا لأنّ الهيمنة هنا تتعلّق بجماعةٍ معينة، فإنّها لا تُعدّ شكلاً من أشكال الاستعمار. ما يهمنا في هذا السياق هو الهيمنة بين الجماعات[٢].

من الأهمية بمكان التمييز بين الاستعمار والإمبريالية، فالأخيرة تشير إلى نوعٍ من أنواع الهيمنة بين الجماعات حيث لا يهاجر مستوطنون دائمون للمستعمرة. في حين أنّ الأولى تفترض أنْ يهاجر المستوطنون من الدولة الاستعمارية إلى المستعمرة بهدف الإقامة الدائمة[٣].

استنتاجات:

يهدف (رونالد) من خلال بحثه إلى وضع تعريفٍ للإستعمار وبعض الظواهر ذات الصلة:

يمكن القول إنّ «الاستعمار هو شكلٌ من أشكال الهيمنة بين الجماعات، حيث يهاجر مستوطنون من القوة المستعمِرة بأعدادٍ كبيرة، وبشكلٍ دائم إلى المستعمَرة. ويشترك مفهوم الاستعمار مع مفهوم الإمبريالية لناحية الهيمنة، بيد أنّ الأخير يعني أنّ هناك قلّةً ممّن يهاجرون من الوطن الإمبريالي إلى المستعمَرة، أو حتى لا يهاجرون من الأساس. من الضروري أيضًا أنْ نلاحظ أنّ الإمبريالية غير الرسمية تتماشى مع الكولونيالية الجديدة والإمبريالية الاقتصادية، حيث تمثّل نوعًا من الهيمنة بين الجماعات، حيث يغيب التحكّم الإداري الرسمي وتُمارس السلطة من قبل نخبةٍ محلية. كما أنّ الاستعمار المحلّي يختلف عن الإمبريالية المحلية، إذ يتضمّن الأول هجرة مستوطنين دائمين من القوة الاستعمارية[٤].

وتبقى مصطلحات مثل الاستعمار، والإمبريالية، والكولونيالية مفاهيم غير محدّدة، على الرغم من وجود أدبياتٍ واسعةٍ مخصّصةٍ لدراسة هذه الظواهر.

ب- ما هو العلم الاستعماري؟ رؤية إبستمولوجية للمفهوم والظاهرة

في هذا المقال، تتطرّق أستاذة التاريخ في جامعة أوهايو في الولايات المتحدة (أليس ل.

١. المصدر السابق، ج١، ص ٢٤.

٢. هورفاث ج. رونال، تعريف للاستعمار (قراءة في المعنى والتجربة التاريخية)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ٢٥.

٣. المصدر السابق، ج١، ص ٢٥.

٤. المصدر السابق، ج١، ص ٣٥.

كونكلين) إلى العلم الاستعماري من خلال رؤيةٍ معرفيةٍ للمفهوم والظاهرة.

يؤكّد المؤرخون أنّ مصطلح (العلم الاستعماري) هو نتاج جهود العلماء المتخصّصين الذين تدرّبوا في المستعمرات، في حين يركز آخرون على دور الادارات الاستعمارية في خلق أنواعٍ جديدةٍ من المعرفة العلمية التي عادت إلى أوروبا. ويرى نقّاد ما بعد الاستعمار أنّ العلم ارتبط بالسلطة الاستعمارية ، عادّين العمليات العنيفة التي أدّت إلى مأسسة السلطة الاستعمارية هي ذاتها التي أنتجت المعرفة العلمية.

تسلّط (كونكلين) الضوء على كتابين مهمين يتمحور موضوعهما عن الأدوات الاستعمارية الأوروبية، ممّا يفتح المجال لدراسة هذه الظاهرة. تستعرض هيلين تيل في كتابها (أفريقيا: المختبر الحي)، أساليب تطوير المهارات في مجالات الطب، والعلم العرقي، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والدراسات البيئية في المستعمرات الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. وتقدّم أدلةً تثبت أهمية القارة الأفريقية في تطور العديد من المجالات العلمية الحديثة خلال العقد الثالث من القرن العشرين. ويثير بيير سينغارافِلو في كتابه (المجاهرة بالاستعمار)، مجال العلوم الاستعمارية الذي نشأ في فرنسا في سبعينيّات القرن التاسع عشر، واختفى في أربعينيّات القرن العشرين. يتميز الكتاب بالعمق البحثي وتنوّع الحجج، حيث يستكشف طبيعة هذا المجال من خلال منهجٍ تاريخيّ صارم، مع التركيز على كيفية استخدامه لخدمة مصالح الاستعمار.

تتناول تيلّي في دراستها الاستعمار العلمي التدخلي من خلال التركيز على الدراسة الاستقصائية الأفريقية، التي تُعدّ مشروعًا شبه رسميّ لجمع المعلومات الاستخباراتية خلال الفترة بين الحربين العالميتين. شملت هذه الدراسة مستعمرات كينيا وتنزانيا وأوغندا وزامبيا ونيجيريا وغانا في الفترة ما بين ١٩٢٩ و١٩٣٩. وتستنتج (تيلي) بأنّ العلماء استفادوا بشكلٍ غير مسبوقٍ من الفرصة التي أتاحها لهم الاستعمار الأوروبي في نهاياته للعمل في أفريقيا. ومع ذلك، فإنّ المعرفة التي جمعوها لم تقتصر فقط على تجريد الشعوب التي درسوها من إنسانيتهم، بل تخطّت ذلك بكثير.

ويتطرّق (بيير سينغارافلو) من ناحيةٍ أخرى إلى تاريخ مجموعةٍ من العلماء الاستعماريين، ففي العقد الثامن من القرن التاسع عشر، كانت مجموعةً من الهواة تنتج معظم المعلومات المتعلّقة بشعوب المستعمرات الفرنسية ومواردها وإدارتها. وهذا يعني أنّ هذا النوع من المعرفة لم يحصل على اعترافٍ رسميّ ضمن مؤسسات التعليم العالي؛ لذلك، سعى بعض الخبراء إلى تعديل هذا الوضع من خلال إنشاء مجالاتٍ جديدةٍ مثل الجغرافيا الاستعمارية، والتاريخ الاستعماري،

والتشريع، والاقتصاد الاستعماري، وعلم النفس الاستعماري، بهدف منح طابعٍ علميّ للإمبريالية الفرنسية.

يعتقد كلٌّ من سينغارافلو وتيلّ أنّ المؤرخين لا يستطيعون أنْ يتحدّوا السلطة الأيديولوجية والبلاغية المتجذرة في العلم، دون أنْ يكون لديهم فهمٌ شاملٌ لكيفية عمل العلماء في الماضي. وهناك نقاشٌ مستمرٌ حول مدى مساهمة العلماء في الاستعمار ومدى دعم الاستعمار للعلم. وعلى الرغم من أنّ كلا الكتابين الغنيين لا يتناولان كيفية تحويل العلوم إلى سياساتٍ عملية، إلّا أنّهما يسلّطان الضوء على استحالة التوصّل إلى نتيجةٍ قاطعةٍ بشأن محتوى المجالات العلمية التي روّج لها الاستعمار. ويقدم الكاتبان رؤيةً جديدةً حول تاريخ العلماء البيض الذين أبدوا تعاطفًا مع الإمبريالية خلال المدّة بين الحربين العالميتين، دون أنْ يثنوا على هؤلاء العلماء أو يقدّموا اعتذاراتٍ لهم.

ج- مسارات الاستعمار

يقول الباحث المصري (محمد عبد الرحمن عبد الجواد) إنّ الاستعمار في اللغة مأخوذٌ من الفعل عَمَرَ، والألف والسين والتاء في فعله لوجود معنى الطلب فيه، أي طلب تعمير الأرض، وهذا هو المعنى اللغوي الذي تمّ تحريفه من قبل المستعمر فيما بعد. ويؤكّد هذا المعنى (قبل التحريف) ما ورد في القرآن الكريم: ﴿**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١][١].

يُعدّ الاستعمار ظاهرةً غربيةً حديثةً ظهرت في القرن الخامس عشر في أوروبا، إذ استطاعت أوروبا من خلال العلم التجريبي تركيزه في الثورة الصناعية. فمع بروز الحاجة إلى المواد الأولية في حقبة الثورة الصناعية، تغيّر مدلول الاستعمار إلى مدلولٍ آخر وهو احتلال الشعوب لدفع الثورة الصناعية إلى الأمام، فأوروبا لم تكن تملك من المواد الخام لصناعاتها إلّا القليل من الفحم، فقامت باحتلال الشرق الغني بالمواد الخام والموارد، لتجعله مصدرًا لمواردها، لتعود بعد ذلك بإغراق الشعوب الفقيرة بالمنتجات المصنعة الجديدة، وعلى هذا النحو بدأت تراكم من ثرواتها[٢].

لجأ المحتلّون في الماضي إلى احتلال الأراضي الاسلامية وغير الاسلامية بطرقٍ تمويهيةٍ وخبيثة، فقد شرعنوا احتلالهم للدول النامية بأنّهم أرادوا انقاذ البلاد البائسة من الفقر والجهل عبر

١. محمد عبد الرحمن عبد الجواد، مسارات الاستعمار (بحث في المفهوم والتجربة التاريخية) ، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ٦٥.

٢. المصدر السابق، ج١، ص ٦٥.

إدخال النهضة والعلوم الحديثة لتلك البلاد، بيد أنّ الحقيقة أظهرت أنّ الاستعمار أتى لأغراضٍ ماديةٍ ودينية، إذ قاموا بنهب مقدّرات الشعوب المستضعفة.

بعد سقوط الحكم العثماني، تقاسم النفوذ كلٌّ من فرنسا وإنجلترا، وقيام الكيان الصهيوني في فلسطين، تبعه استيلاء روسيا القيصرية على أجزاءٍ إسلاميةٍ من آسيا، وهي (القرم، وتركستان) وغيرها.

قسّم الباحث مراحل الاستعمار إلى ثلاث مراحل أساسية:

المرحلة التمهيدية القصيرة: وهي استعمار البرتغال وإسبانيا لبلاد إندونيسيا وبلاد الملايو والمغرب العربي.

المرحلة الطويلة: وقد امتدت لقرنين من الزمان، وهي استعمار كلٌّ من فرنسا وانجلترا وإيطاليا وهولندا، وانتهت بالحرب العالمية الثانية، وأعقب ذلك مرحلة أخرى. وأما المرحلة الثالثة أتت على شكل استعمارٍ اقتصاديّ وسيطرةٍ ثقافية، وذلك بعد جلاء الاستعمار العسكري والسياسي[١].

يشرح الباحث بعض الخطط والأهداف التي لجأ إليها الاستعمار، والتي يمكن إيجاز أهمها بما يلي:

- دأب الاستعمار على العمل على خلق عقليةٍ هشَّةٍ مواليةٍ للغرب، ومنحرفةٍ عن مبادئ وأصول الإسلام التي تحثه وتدفعه على المقاومة والجهاد والمواجهة للعدو المستعمر، وذلك عن طريق: التبشير، والاستشراق[٢].
- إزالة تاريخ الشعوب المحتلة أو تشويهه والتشكيك فيه، وكما يقول أحد نشطاء الهنود، وهو مايكل إيغل: «إنّ أول ما يقوم به المنتصر هو محو تاريخ المهزومين».
- التحكّم في مجالات التعليم والثقافة والإعلام بهدف تشويه المفهوم الإسلامي، والترويج لمخططاته وأهدافه بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ، وبأسلوبٍ غير ملحوظ.
- فرض الأنظمة السياسية والاقتصادية والقانونية الغربية على الدول الإسلامية، وإبعاد منهجها الإسلامي المستند إلى القرآن الكريم ومصادر الشريعة[٣].

١. محمد عبد الرحمن عبد الجواد، مسارات الاستعمار (بحث في المفهوم والتجربة التاريخية)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ٦٦.

٢. المصدر السابق، ج١، ص ٦٧.

٣. المصدر السابق، ج١، ص ٦٨.

- إثارة النزاعات بين الدول الإسلامية حول الحدود الجغرافية.
- تدمير البنية التحتية للشعوب المستعمَرة لمنع استخدامها في المقاومة والجهاد ضد الاستعمار، كما حدث في الجزائر، يعكس تطبيق مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) للسيطرة على البلاد وشعبها. تم ذلك من خلال عزل السكان وتحطيم الأسس التي كان يعتمد عليها الأمير المجاهد عبد القادر الجزائري.
- التحكّم في الموارد، بالإضافة إلى إجبار الدول المحتلة على قبول القروض والمساعدات، وإقامة قواعد عسكريةٍ فيها، وما تزال هذه القواعد موجودةً حتى اليوم.
- إشعار العالم الإسلامي بالضعف والخضوع، وإذلاله واحتقاره، وهذا يأتي في إطار الحرب النفسية، والاستكبار والتعالي من قبل المستعمر.
- الغزو الثقافي الذي يتعرّض له الفكر الإسلامي يهدف إلى زعزعة القيم والمبادئ الإسلامية وإثارة الشكوك حولها.
- إزالة الطاقة الفكرية التي ينشرها الإسلام في المجتمعات المستعمَرة، وتعزيز المفاهيم المادية، بالإضافة إلى الهجوم على القرآن الكريم والسنة النبويّة، وسيرة الرسول (صلّى الله عليه وآله سلم)، فضلاً عن تاريخ الإسلام وثقافته واللغة العربية.
- يلجأ الإستعمار إلى استخدام أسلوب القمع ضد الشعوب المُحتلّة، حيث يذكر ضابطٌ عسكريّ فرنسيّ في الجزائر في تقريره عن انتفاضة تم قمعها من قبل قواته في عامي (١٨٤٥-١٨٤٦): أنّ هناك طريقتين لإقامة سلطةٍ سياسيةٍ على السكان: الأولى هي القمع، والثانية هي التربية. فالطريقة الثانية تتطلب وقتًا طويلاً وتستهدف العقل، بينما الطريقة الأولى تركز على الجسم، ويجب أنْ تأتي في البداية.
- العمل على تصوير الإسلام على أنّه دينٌ لاهوتيٌّ لا صلة له بالمجتمع، وترسيخ فكرة فصل الدين عن الحياة، وهذا ما ترجم فيما بعد بفكرة (العلمانية)، وهكذا يصبح رفع شعار العِلمانية، وشعار الأُمَمِيَّة، وشعار الفكر العالمي وسيلةً للقضاء على الفكر الاسلامي في المَجتمعات.
- التصميم على هدم ركائز الإسلام، ونشر الفتن بين المسلمين، كمحمد بن عبد الوهاب النجدي الذي كان يأتمر برجل المخابرات الانكليزي مستر هَمْفر الذي دعمه بالمال والسلاح لتأسيس الحركة الوهابية، والتي تم تقديمها على أنّها حركةٌ إصلاحيةٌ تحارب الوثنية المنتشرة بين المسلمين. وأتت الأخيرة على أنقاض الدولة العثمانية، وفيما بعد ظهر مخطّطٌ

جديدٌ لتقسيم الشرق الأوسط بمقتضى اتفاقية سايكس بيكو[١].

ويخلص الباحث إلى أنّ مخططات الاستعمار متنوعةٌ وتتكيّف بحسب الظروف، وبحسب تنوع الشعوب وثقافاتها، وديناتها، وقوتها من ضعفها، ووعيها من جهلها. ويذكر الباحث بعض جرائم الإستعمار في بعض البلدان:

في المدّة بين عامي (١٩٥٤- ١٩٦٢) قام المستعمرون الفرنسيّون بجرائم اغتصاب للنساء الجزائريات ولا سيّما الصغيرات، فضلاً عن التعذيب للرجال والنساء والأطفال في الفترة. كان التعذيب وسيلةً أساسيةً وسلوكًا للتعامل مع الجزائر[٢].

تقول الباحثة والطالبة الجامعية (روفائييل برانش) في رسالتها التي نشرت في كتاب كاملٍ سنة ٢٠٠١ م: «إنّ التعذيب في الجزائر خلال الاستعمار الفرنسي لم يكن ظاهرةً تخصّ مجموعةً من العسكريين، بل هي ظاهرة كانت سائدةً خلال حرب الجزائر»، وكانت فرنسا ــ كما تؤكّد روفائييل برانش ــ تبرر أيّ عملٍ مهما كان نوعه من أجل الإبقاء على الجزائر فرنسيةً[٣]. توجد شواهد كثيرةٌ وأدلّةٌ موثّقة على ما فعله الاستعمار، إلاّ أنّ هذا بحثٌ مطوّل، لذا اكتفينا ببعض الأمثلة.

د- الفلسفة والاستعمار: رحلةٌ معرفيةٌ في أفكار انكاتل ديوبرون

لم يعتمد المستعمرون فقط على الأساليب القهرية لإخضاع الشعوب المستضعفة، إنّما استعانوا بالفلاسفة لشرعنة ما يقومون به من جرائم ونهب في المجتمعات الفقيرة. يشير انكاتل ديوبرون، وهو أحد أبرز النقّاد للمركزية الأوروبية، إلى أنّه يمكن أنْ تستخدم الفلسفة بهدف استعمار العالم، فهو يربط بين الاستعمار والفلسفة وخصوصًا في عصر الأنوار. وفي هذا السياق يقول: «إنّنا نرتعد حيال الفظاعات التي يرويها الغزاة الأوائل؟ لقد كانوا يدمّرون النوع البشري، مدفوعين بالنزوات، التي تتحكم، غاية التحكم، بتعصبهم وجشعهم حينذاك كان الفلاسفة أنفسهم وبدم بارد، ينزعون على هذا النحو رمزية الرجال، عن الأميركيين. هذا التدمير هو أكثر بشاعةً من التدمير الأول»[٤].

---

١. محمد عبد الرحمن عبد الجواد، مسارات الاستعمار (بحث في المفهوم والتجربة التاريخية)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار)ج١، ص ٧٤.

٢. المصدر السابق، ج١، ص ٨١.

٣. المصدر السابق، ج١، ص ٨١.

٤. سيمون غاليغود غابيلوندو، الفلسفة والاستعمار: رحلة معرفية في أفكار انكاتل ديوبرون ، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ١٠٤.

يثير الباحث والأكاديمي الفرنسي (سيمون غاليغود غابيلوندو) إشكالية العلاقة بين الفلسفة والاستعمار من خلال أنكاتل ديوبرون، أحد أبرز النقّاد لمفهوم مونتسكيو عن الاستبداد، وهو خصمٌ عنيدٌ للمركزية الأوروبية. ويعدّ من أبرز المشككين بالاستخدام الفلسفي لأدب الرحلات ونقد الفلسفة، لكونهما يمكن أنْ تكونا من أدوات الغزو، واستعمار العالم[١]. ينتقد أنكاتل بطريقةٍ قاسيةٍ الغرب الذي أدار مختلف مناطق الكرة الأرضية، واهتمّ بشكلٍ خاصٍّ بالهند، وطالب بحقوقهم الإنسانية المستباحة.

وفقا لأنكاتل، تقوم فكرة المستعمرين على انتهاك الحقّ الأساسي للملكية. وينفي حقهم في الاستيلاء على أرض الملاّك الطبيعيين[٢]. وبتعبيرٍ آخر، فإنّ شجب الاستعمار من ناحية، والمطالبة بحقوق الهنود من ناحيةٍ أخرى يفترضان المبدأ الأساسي للملكية كحقٍّ طبيعيّ يرتكز على عدم وجود نظرية الاستبداد الشرقي[٣]. ويقيم العلاقة بين الغرب وبقية القارات من منظور حقوق الإنسان، إذ لا يقتصر دفاعه على نقد الاستعمار فحسب، بل يتضمن أيضًا إدانة النمطيات والمجازفات التي تشكّلت حول صورة القارات الأخرى. وفي هذا السياق، يُلاحظ أنّ الأوروبيين قد حقّقوا تقدمًا في معرفة سطح الأرض، بيد أنّهم لم يحققوا التقدّم نفسه في معرفة الأنسان. ويعتقد أنّ ثقافات الشعوب الآسيوية والأفريقية الأميركية قد تمّ تبسيطها اختزالها عبر مفاهيم عامّةٍ تؤدي إلى تشويه الحقيقة، والترويج لأحكامٍ مسبقة. لذلك واجه بشجاعة الموقف الذي يعتمد على التقليل من قيمة المجتمعات غير الأوروبية، ووصفها بالبربرية التي تفتقر إلى الأعراف والقوانين والتي لا ينظر لها إلا في السياق الربحي بكلّ ما للكلمة من معنى[٤].

ابتكر المستشرق فكرة مناهضة للاستعمار تستند إلى حقّ الملكية، وظل متمسّكًا بالدفاع عنها في السنوات الأخيرة من حياته، حيث عاد إلى مفهوم الملكية كحقٍّ طبيعي، وعدّها دائمًا حجةً قويةً ضدّ الاستعمار. فهو لا يعارض التجارة مع آسيا، بل يعترض على الإدارة الاستعمارية للنشاطات الاقتصادية. ويؤكد أنّ الأوروبيين «لا يملكون حقّ الاقامة في الهند، دون امتيازٍ رسمي، أو عقد بيعٍ يبرمه المالكون، السكان الأصليون».

---

١. المصدر السابق، ج١، ص ٨٦.

2. Legislation orientale, Amesterdam, Marc Michel Rey 1778 (LO) p.171.

٣. الفلسفة والاستعمار، ص ٩٠.

٤. الفلسفة والاستعمار، ص١٠٠.

بالنسبة إلى أنكاتل، كانت معرفة الشعوب غير الأوروبية موضوغ في غاية الأهمية لأنّها تتخطى الأحكام المسبقة، التي تقلل من شأنهم وتحدد تصوراتهم. «فمسألة مشكلة صورة هذه الشعوب، تفضي خطأً في طبيعة المعرفة، والنتائج، التي يثبّتها هذا الخطأ. هذا النقد المزدوج يتوجّه إلى معرفة، ليست نزيهة على الدوام، وهي خاطئة وخطيرة في آنٍ معًا، وتكوّن هذه الصورة، مرة ذات نزوة، ومرةً ذات مصلحة»[١].

هـ - فهم التابع: النقد ما بعد الاستعماري للحداثة

في قراءة موجزة، يتطرّق الباحث الأكاديمي في مركز دراسات الهند وجنوب آسيا (جاك بوشباداس) إلى موضوع (دراسات التابع)، وذلك من خلال عشر مجلّدات أصدرتها جامعة أكسفورد منذ عام ١٩٨٢، والتي تحمل عنوانًا فرعيًا هو: كتابات حول تاريخ ومجتمع جنوب آسيا. ويعزى نجاح هذه المجموعة من المجلّدات إلى المؤرّخ البنغالي راناجيت جوها (Ranajit Guha).

يسلّط بوشباداس الضوء على الحقيقة التي ظهرت بين المؤرّخين في الهند كما في مناطق أخرى من العالم التي تعرّضت للاستعمار قديمًا، هي أنّ هناك تاريخًا حقيقيًا من القاعدة يتضمن قطيعة مع (النموذج القومي)، السائد في كتابة التاريخ، والذي أخفى التوترات الطبقية من خلال التركيز على الوحدة الوطنية، مما أسهم في تعزيز الخط السياسي الرسمي للنضال من أجل الاستقلال[٢].

يهدف جهد المؤرّخ البنغالي (جوها) إلى التخلّص من النخبوية (élitisme) في كتابة تاريخ الاستعمارية والقومية والماركسية، التي كانت تقدّم المقاومة الشعبية للاستعمار وملحمة حركة الاستقلال بوصفهما نتيجةً لعمليةٍ مستمرّة. «وإنّ كتابة تاريخ الاستعمارية كانت إنتاجًا انكلوساكسونيا في الستينيّات والسبعينيّات وكان المقصود منها انبثاق مدرسة (مدرسة كامبريدج)، وهي مُهانة اليوم على المستوى العالمي، وقدّمَت القوميّة المُنظّمة في الهند بوصفها استراتيجية تنمية اجتماعية تُدار من قبل النخب الأهلية (indigène) المُثقّفة بغية انتزاع مواقع المسؤولية من السلطة الاستعمارية. المواقع التي تولّد أمجادا وأرباحا».

---

١. المصدر السابق، ص١٠٣.

٢. إنّها الفكرة التي عبرّ عنها بصورة رسمية سابياساشي بهاتاشاريا Sabyasachi Bhattacharya في خطبته الرئاسية الموجزة بمناسبة افتتاح قسم التاريخ الحديث في مؤتمر التاريخ الهندي Indian History Congress سنة ١٩٨٢ (Bhattacharya ١٩٨٣).

إنّ توثيق تاريخ الماركسية المرتبط بالحركة الوطنية، الذي كان له دورٌ حاسمٌ في تشكيل الرواية القومية التقليدية خلال العقود الأولى من الاستقلال، كان بحاجةٍ إلى نمطٍ آخر من النخبوية. فوفقًا (لبوشباداس)، أنّ الكتابة التاريخية الحديثة التي تدّعي أنّها تمثّل صوت الطبقات المضطهدة، وتوضّح مسارها نحو التحرّر والتقدّم. في الوقت نفسه، تنتقد ثقافة هذه الطبقات التي تقتصر على المقاومة، معتبرةً إيّاها ذهنيةً قبل سياسية، أو وعيًا خاطئًا، أي مرحلة بدائية في تطوّر الوعي الثوري. كما تشكك في قدرات النضال لدى معظم الفلاحين، معتبرةً أنّ ثوراتهم لم تكن سوى انفجارٍ عفويٍّ من الغضب الجماعي، خالٍ من العواقب السلبية، ويفتقر بالضرورة إلى التنظيم والبرنامج والفعالية لمدّةٍ طويلة، ممّا جعله غير مُستغلٍ أو مُؤطرٍ من قبل طليعة أكثر تدريبًا وتقدمًا على الصعيد السياسي.

لذلك، كان الموضوع يتعلّق بإصلاح الشعب كجزءٍ من تاريخه الخاصّ، وذلك من خلال تجنّب تصوّره مجموعةً من العمال تُدار بوساطة النخب؛ لذا يجب الاعتراف بالأهمية التاريخية الحقيقية للشعب في سياق قدرته على المبادرة الحرة والمطلقة، بالإضافة إلى ضرورة إعادة اكتشاف ثقافته الفريدة. كما ينبغي إيلاء اهتمامٍ جادٍّ بعالم الفكر والتجربة الخاصّة به، وليس فقط للظروف المادية التي تؤثّر على وجوده. وعليه يجب أنْ نقرّ بوجود مجالٍ مستقلٍّ في سياسة الشعب يختلف عن مجال النخبة، حيث ترسّخت مصطلحاته التعبيرية ومعاييره وقيمه من خلال تجربة العمل والاستغلال الاجتماعي؛ لذلك، ينبغي العمل على إعادة الوعي والقدرة على المبادرة للتابعِين إلى مكانهما الصحيح، اللذين كانا يحملان ثقافةً شفهيةً، ولم يتركوا فعليّا أيّ دليلٍ على وجودهما.

يستعرض (جوها) بمهارة كيف أنّ خطاب هذه المصادر، الذي يتناغم مع كتابات التاريخ النخبوي من عدّة جوانب، يميل دائمًا إلى تقويض وعي التابعين من خلال تقديم حركات التمرّد كاستجاباتٍ غير إراديةٍ للاضطهاد الاقتصادي أو السياسي.

ومع ذلك، يكشف جوها في كتابٍ مُتقنٍ صدر بعد عام من إصدار المجلد الأول من (دراسات التابع)، عن كلّ ما يمكن استخراجه من مصادر النخبة الحاكمة عند تحليلها بعناية. يستعرض جوها وثائق تمرد الفلاحين في الهند خلال الحقبة الاستعمارية بين عامي ١٧٨٣ و١٩٠٠، أي قبل ظهور القومية الجماهيرية. في هذه الدراسة، يقدم أمثلةً بارزةً لتحديد الخصائص الأساسية لسلوك المتمرّدين، والتي تُعرض بطريقةٍ ما كثوابت أيديولوجية للوعي القروي.

الفصل الثاني: الاستعمار القديم

أ- الاستعمار المنتشر

يقول أحمد رهدار) عالم دين وأستاذ العلوم السياسية في جامعة باقر العلو (، إنّ عصرنا الحالي يشهد وجود استعمارٍ هو من أشدّ الاستعمارات تعقيدًا، الذي يتميز بخصائص منها التخفّي والانتشار بأدواتٍ تقنيةٍ وحديثة، وتمّ تعريف دول الغرب بالعالم الأول، كما تمّ تعريف دول الشرق بالعالم الثالث رمزًا للمستعمرات. وممّا لا ريب فيه أنّ التعرّف على ماهية الاستعمار وخططه يساعد المستعمَرين على تكوين نظريةٍ من أجل الأحاطة بمفهوم الاستعمار، وذلك بهدف مواجهته[١].

في قراءةٍ مختصرةٍ، يقسّم (رهدار) الاستعمار إلى عدة أشكال:

- الاستعمار القديم
- الاستعمار الجديد
- الاستعمار المعاصر

- يشير **الاستعمار القديم** إلى الاحتلال العسكري الذي يعني استخدام القوى المحتلة للأساليب العسكرية للسيطرة على الدول الضعيفة بهدف نهب ثرواتها. في هذا النوع من الاستعمار، تظهر الدولة المستعمَرة نوعًا من المقاومة ضد قوى الاحتلال، كما حدث في الهند التي تعرّضت للاحتلال والنهب من قبل البريطانيين[٢].

- يعتمد **الاستعمار الجديد** على القادة المحليين، ممّا يعني أنّه لا يتطلب وجودًا فعليًا للمستعمرين. في هذا النموذج، يكون القادة من الدولة المستعمَرة نفسها، ويعمل تحت إشرافهم عددٌ قليلٌ من القوات الأجنبية التابعة للاستعمار. ومن الأمثلة البارزة على ذلك إيران في فترة حكم البهلوي وتركيا في عهد أتاتورك.

في الاستعمار الجديد جرت محاولات لتقليص دور الدين على المستوى النظري والعملي، إذ بدأت محاصرته وتقييده عن المحيط الاجتماعي تدريجيًّا، ليصبح فيما بعد في الإطار الفردي،

١. أحمد رهدار، الاستعمار المنتشر (نحو نظرية معرفة لفهم زمن الاستعمار) ، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ١٢٦.

٢. المصدر السابق، ج١، ص ١٢٨.

أو شيئًا يشبه التقاليد، بل حتى وجهة نظر، على غرار ما حدث في فرنسا نفسها بعد الثورة الفرنسية. وفي نهاية المطاف، أضحت التعاليم الدينية من المعايير الفردية وتمّ تصويرها على أنّها كذلك. بتعابير أخرى، لكلّ شخصٍ الحرية في تفسير تلك التعاليم كما يشاء، وهكذا يصبح الدين خاضعًا للتعريفات والتأويلات الفردية من دون الاستناد إلى أيّ منطق[١].

- يُعدّ **الاستعمار المعاصر** أحد أشكال الاستعمار الذي يتم فيه تواجد المستعمِرين وأتباعهم المحليين بشكلٍ متخفٍّ أو غير مرئي، إذ يُطلق على هذا النوع من الاستعمار اسم (الاستعمار المنتشر)، حيث تستمر نوايا المستعمرين وأهدافهم في التتابع دون الحاجة إلى تمثيلٍ من قبل شخصٍ أو حدثٍ معين. في هذا النوع من الاستعمار، يصل التخفي والانتشار إلى درجةٍ تجعل من الصعب حتى على النُخب كشف أتباع الاستعمار وأعوانه.

يهدف الاستعمار المعاصر لتطبيق أسس تربيته الفكرية والسياسية على القوى التي تنفذ أجندته من دون أنْ تدرك ذلك. في هذا السياق، يركز الاستعمار جهوده على المجالات البرمجية، حيث يقوم بتعريف المعايير العلمية بما يتناسب مع مصالحه السياسية، ممّا يجبر خصومه السياسيين في الدول المستقلة، التي كانت مستعمرات له في الماضي، على قبول هذه المعايير. ونتيجةً لذلك، يحقّق المستعمِر أهدافه، ويعزّز سلطته من خلال علومه.

يخلص الكاتب إلى أنّ أفضل وسيلةٍ لمواجهة الاستعمار هو (الاتجاه الإيجابي نحو جبهة الحق)؛ لتقوية الجبهة أكثر فأكثر، وليس بالضرورة (تطبيق الاتجاه السلبي نحو جبهة الباطل)؛ لذا فإنّ أهمّ سبيلٍ في مواجهة الاستعمار هو الاجتهاد للتحرّر من قوانين المستعمِر، لإيجاد وتقوية الإبداع والابتكار الخلّاق[٢].

ب- ظاهرة الاستعمار: المنشأ والمسار والدوافع

يتطرّق محمود كيشانه (باحثٌ في الفلسفة، ومحاضرٌ بجامعة القاهرة) من خلال بحثه عن الأسباب التي جعلت من الشرق الإسلامي هدفًا للاستعمار. فمن وجهة نظر الباحث، هناك عوامل داخلية وخارجية أسهمت في استعمار الشرق الإسلامي[٣].

١. أحمد رهدار، الاستعمار المنتشر (نحو نظرية معرفة لفهم زمن الاستعمار)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار)ج١، ص ١٣٠.

٢. المصدر السابق، ج١، ص ١٣٤.

٣. محمود كيشانه، ظاهرة الاستعمار (المنشأ والمسار والدوافع) ، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ١٥٨.

في الأسباب الداخلية:

- يعدّ موقع الوطن العربي والإسلامي من العوامل الرئيسة التي دفعت الغرب إلى تنفيذ حملاته الاستعمارية المستمرة؛ إذ يقع الوطن العربي في موقعٍ استراتيجيّ بين قارة أفريقيا وآسيا، ممّا يمنحه القدرة على السيطرة على العديد من المناطق الحيوية في العالم. هذه المناطق تُعدّ نقاط التقاء للعديد من الدول والقارات، حيث يسيطر الوطن العربي على مضيقي باب المندب وهرمز، بالإضافة إلى قناة السويس كأحد الممرات المائية المهمة. كما يطلّ على البحر المتوسط والبحر الأحمر، ويحده المحيطان الأطلسي والهندي، فضلاً عن الخليج العربي وخليج العقبة وغيرها. تُعدّ هذه المواقع محطاتٍ حيويةً للمواصلات العالمية؛ ممّا جعل عيون الاستعمار الغربي تتجه نحو العالم العربي والإسلامي.
- استغلّت الدول الغربية ضعف الدولة العثمانية، وهذا ما جعل تلك الدول يسابق بعضها بعضًا من أجل تقاسم النفوذ بينها.
- إنّ أحد أسباب اندفاع الغرب لاحتلال بلاد الشرق الإسلامي هو خوفه من قيام أمةٍ إسلاميةٍ متّحدةٍ تمنعه من تحقيق أهدافه[١].

في الأسباب الخارجيّة:

- تسارع الدول الغربية لاحتلال الشرق، لإظهار قوتها على الساحة الدولية. وجدت هذه الدول فرصةً سانحةً للاستيلاء على ثروات الشرق، وكأنّها فريسةٌ سهلةٌ بين مجموعةٍ من الوحوش المفترسة.
- محاولة اصطناع مركزيةٍ غربيةٍ من خلال التحكّم في القرارات الدولية بما يتماشى مع مصالحها، وقلب الوضع القائم على الساحة العالمية، والقيام بمراجعة علاقات القوى بين دولتين وأكثر في سبيل الوصول إلى تفوّقٍ محلّي أو من أجل فرض هيمنةٍ عالمية. وهذا ما يحدث مع الدول التي تملك شهوة القوّة حسب رأي العالم الأميركي هانس مورغانتو في تفسيره لمعنى الإمبرياليّة هي الرّغبة في تحسين وضعها بشكلٍ مستمرٍ دون الاقتناع بالوضع القائم. لذا يُعدّ الاستعمار الغربي وسيلةً قاسيةً تهدف إلى تحقيق هيمنته العالمية على المستويات العسكرية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية[٢].

---

١. المصدر السابق، ج١، ص ١٥٩.

٢. محمود كيشانه، ظاهرة الاستعمار (المنشأ والمسار والدوافع) ، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ١٦٤.

• تُعدّ الأسباب الاقتصادية أيضًا من الأسباب التي دفعت الدول الغربية إلى استعمار البلاد الضعيفة، فمرحلة الاستعمار الحقيقية أتت بعد الثورة الصناعية في أوروبا في القرن التاسع عشر والعشرين. ارتبطت الثورة الصناعية في أوروبا بالاستعمار، حيث لم تكن تملك أوروبا من المواد الخام إلاّ قليلاً؛ لذا توجّهت نحو الشرق واحتلت مناطق متنوعة، ممّا أتاح لها الحصول على المواد الخام التي أسهمت في ازدهار صناعتها. ثم قامت بإعادة تصدير هذه المنتجات إلى تلك البلدان لبيعها، ممّا جعل العالم الإسلامي يمثّل لها مصدرًا للمواد الخام، وسوقًا تجاريًا في الوقت ذاته[١] .

يخلص الباحث في نهاية المطاف إلى أنّ الاستعمار لم يكن استعمارًا، بل كان احتلالاً بكلّ ما للكلمة من معنى، فالعديد من المصطلحات تدلّ على مدلول الاستعمار كاحتلال واستدمار وغيرهما من المصطلحات التي تحمل في داخلها أسبابه ودوافعه الخبيثة. فالاستعمار لا يعني الإعمار، بل هو استدمار بمعنى تدمير الشعوب المحتلة والقضاء على ثرواتها ومواردها[٢].

ج- الاستعمار والوطنية: تغييب الهويّة وإعادة تشكيل الوعي

يعالج الباحث المصري (غيضان السيد علي) في هذا المقال موضوع الوطنية والاستعمار، ويسعى الأخير إلى تشويه ومحو هوية السكان الأصليين؛ وذلك لأجل إحلال هويته والسيطرة على البلد المستعمَر بكلّ مفاصله الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. يقدّم أليكس ميكشيللي مفهوم الهوية في مقدمة كتابه حول (الهوية)، على أنّه أداةٌ تُستخدم في مجال العلوم الإنسانية، حيث يُعدّ مفهومًا شاملاً على نحوٍ متزايدٍ وفقًا لدلالاتٍ مجازيةٍ بالغة التنوع[٣]. بحسب (السيد علي) إنّ الهوية تمثّل شيئًا أصيلاً في الوجود الإنساني، ومن يفقد هويته يصبح أداةً سهلةً وطيّعةً بيد من يقوده. تتكون الهوية بحسب الرؤية الكلاسيكية من ثلاث ركائز كبرى: اللغة، والدين، والثقافة. وتعدّ هذه الركائز الأكثر أهميةً لمفهوم الهوية من جهة، والأكثر تعرّضًا لهجمات المستعمِر من جهةٍ أخرى.

---

١. المصدر السابق، ج١، ص ١٦٩.

٢. المصدر السابق، ج١، ص ١٧٩.

٣. أليكس ميكشيللي، الهوية، ص ١١.

- الاستعمار واللغة

كان الهدف الرئيس للدول الاستعمارية هو القضاء على هوية البلدان المستعمَرة من خلال إلغاء لغاتها الأصلية واستبدالها بلغة الدولة المستعمِرة. وقد سعت بريطانيا إلى ذلك في مصر، وإيطاليا في ليبيا، وفرنسا في تونس والجزائر، وإسبانيا في بعض مناطق المغرب. ولولا جهود التعريب التي بذلها المخلصون من أبناء الأمة العربية لمواجهة (الفرنسة، والإنجلزة)، لكانت الهوية قد فقدت أساسها. ومع ذلك، نجح المستعمِر في في طمس الهوية في بعض الدول، كما فعلت بريطانيا في جنوب افريقيا وغينيا الاستوائية ونيجيريا والهند، أو فرنسا في دول الغرب الأفريقي، وأسبانيا في الفلبين، وهولندا في أندونيسيا. وإلى اليوم، يحرص الأوروبيون على فتح جامعات بهدف نشر ثقافاتهم ولغاتهم. وفي عصرنا هذا، أصبح من يتكلّم بلغاتهم يشعر بأنّه من الطبقة (المثقّفة) النخبويّة.

- الاستعمار والدين

يُعدّ الدين هويةً بارزةً للشرقيين منذ عصر الفتوحات الإسلامية، وقد أصبح معيارًا للتفريق بين الناس، حيث لا يُميّز عربي عن أعجمي إلّا بالتقوى. لقد سعى المستعمِر جاهدًا إلى إفساد الدين، الذي يعدّ مصدر وحدة الفكر والمشاعر بين أفراد الشعوب المستعمَرة ومجتمعاتها؛ لذا، كان حريصًا على تدمير كلّ ما يسهم في الحفاظ على الوحدة أو التواصل، وذلك من قمع أيّ قوةٍ تعارضه، ومنع تلك القوى من الاتحاد تحت رايةٍ مؤثّرةٍ كراية الاسلام. ولم يكن أكثر فعاليةً من الدين لكبح جماح المستعمِر، فالدين هو الذي يحثّ على مقاومة الاحتلال حتى يتحقّق النصر أو الشهادة. لذلك كان المستعمِر ينظر بعدائية للإسلام؛ لأنّه القوة الدافعة للمسلمين لمقارعة المستعمِرين.

دأب المستعمِرون على تشويه الإسلام من خلال التحريف والتفسير بما يتماشى مع مصالحهم، وخاصّةً الآيات والروايات التي تدعو إلى الجهاد؛ لما لها من خطورةٍ على أطماعهم الاستعمارية. بالإضافة إلى ذلك، سعت حملاتهم الدعائية إلى تعزيز فكرة أنّ التخلّف في المجتمعات الإسلامية ناتجٌ عن اتّباع الإسلام كنمط حياة.

وحتى الوقت الراهن، يتعرّض الإسلام لحملات تشويهٍ منظّمةٍ، إذ يُنكر دوره في بناء الحضارات. ويعدّ بعضهم أنّ الحضارة الإسلامية العربية ليست سوى تجميع لمفاهيم مستمدّة من اليونان

والفرس والروم والهند. ووصفوا الاسلام بأنّه دينٌ اتّكاليّ؛ لأنّه محكوم بعقيدة القضاء والقدر، وأنّه يعمل على بثّ العداوات بين الشعوب، وغالبا ما يربطون أيّ حدثٍ عنفي بالإسلام.

- الاستعمار والثقافة

تُعدّ الثقافة جزءًا أساسيًّا من الهوية، وترتبط أيّ أمّةٍ بثقافتها الخاصة. وفي البلاد الاسلامية تستند الهوية الإسلامية إلى الثقافة الإسلامية التي تجمع المسلمين معًا، بغض النظر عن تنوّع لغاتهم وجنسياتهم وأعراقهم. وتشمل هذه الثقافة جميع الآداب والفنون والعلوم التي تتشكّل نتيجةً للظروف التاريخية والحضارية للأمة.

يرى الباحث المصري (السيد علي) أنّ الاستعمار يعدّ الثقافة الإسلامية بمنزلة الحاضن الرئيس الذي يعكس الهوية الوطنية لجميع الشعوب الإسلامية، إذ تستند هذه العقلية إلى النصوص الدينية، سواء كانت من القرآن الكريم أم من السنّة النبويّة؛ لذا، سعى الاستعمار إلى تغيير هذه العقلية والقضاء على الثقافة المرتبطة بالتراث، معتقدًا أنّ تغيير هذه الثقافة هو الهدف الأسمى والأمل المنشود. ويأتي ذلك في ظلّ ارتباط هذه الثقافة باللغة العربية والدين الإسلامي، ممّا جعلها تتعرض لهجومٍ استعماريّ مكثّف.

يعتقد المستعمر أنّ تغيير الثقافة في البلاد الاسلامية يرتبط بنحوٍ أساس بوضع مناهج تعليميةٍ بديلةٍ للمناهج التعليمية المستقاة من روح الاسلام. فمن خلال إرسال بعثاته وتخريجه لأجيالٍ جديدةٍ تتماشى مع مفاهيمه، يمهد لنفسه في التغلغل في دوائر صنع القرار في معظم العالم الاسلامي. وفي هذا السياق، يقول الدكتور أنور الجندي: إنّ «الأحداث المتلاحقة تكشف يوميًا عن خفايا المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية المنتشرة في العالم الإسلامي، ودورها الفاعل في عملية الغزو الثقافي. ومن حين لآخر، يتمّ الإعلان عن وجود كتبٍ تُدرَّس فيها دعوات تبشيرية أو تشكيكية في القرآن والسنة». إلى جانب ذلك، سعى النفوذ الاستعماري إلى «إضعاف المعاهد الإسلامية الكبرى مثل الأزهر والقرويين والزيتونة ومعاهد النجف، حيث أنشأ نظامًا مستقلاً يتميز بطابعه الغربي. وقد أدّى ذلك إلى خلق تنافسٍ وصراعٍ بين المتعلمين، وجعل من مدارسه ومعاهده الطريق نحو المناصب والنفوذ والثروة، بينما أبقى خريجي المعاهد الإسلامية في مرتبة أدنى». علاوةً على ذلك، دأب المستعمِر من خلال فلسفته ونظرته للمرأة الشرقية على الترويج لمقولة تحرير المرأة

وجعلها ندًّا للرجل، وعلى هذا النحو يُلغى التمايز الطبيعي بين الرجل والمرأة. وانطلاقًا من هذه الرؤى، تتحوّل هذه المرأة كما يقول محمد عمارة إلى «غانية رومانسية أو مسترجلة اسبرطية، أو صورة غلاف، وإعلان سلعة رأسمالية أو جارية مملوكية»[١].

د- من الهيمنة الاستعمارية إلى النهضة المنشودة: قراءة في مشروع الأفغاني الفكري

يحاول مصطفى النشار، الباحث الجامعي والمفكر المصري تسليط الضوء على المفكّر الاسلامي جمال الدين الأفغاني في إطار مواجهة الاستعمار واستنهاض بلاد الشرق الاسلامي وغير الاسلامي. بالنسبة إلى معظم الباحثين، لا ينحصر مصطلح الشرق عند جمال الدين الأفغاني بالمسلمين، بل يتعدّاه إلى غير المسلمين؛ لأنّه كان يدرك أنّ بلاد الشرق يقطنها أيضًا المسيحيون واليهود وأصحاب الديانات الوثنية. كان جمال الدين الأفغاني من المقاومين الأوائل للاستعمار من خلال حركته الفكرية والعلمية المناهضة للاحتلال[٢].

من جملة ما تطرّق إليه الأفغاني قضية تخلّف بلاد الشرق وكيفية النهوض بها، إذ تحدّث عن أسبابٍ كثيرةٍ فمنها ما هو خارجي ومنها ما داخلي، ويمكن تلخيص الأسباب والحلول على النحو التالي:

- من «الإحساس بالدونية» إلى الإحساس بالحميّة والقوة:

أدرك الأفغاني أنّ أحد أشد المشاعر تأثيرًا على الإنسان الشرقي هو الإحساس بالدونيّة التي يشعر به عندما يقارن تخلّفه وتدهور أوضاعه بتقدّم الغرب وما يتمتع به أفراده من سعادةٍ ورفاهية. لاحظ الأفغاني أنّ العقلية الشرقية تقدّس كلّ ما هو أجنبيّ وتحتقر كلّ ما هو وطني، وهنا تكمن الخطورة، إلاّ أنّ علاجها يكون بالرجوع إلى الماضي لمعالجة الحاضر. فالحلّ هو اللجوء إلى «القواعد الدينية، لإرشاد العامة بالمواعظ الوافية وتهذيب الأخلاق وإيقاد نار الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة، ولا سبيل لليأس والقنوط»[٣].

١. محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، القاهرة، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، د.ت، ص ٢٦٠.

٢. مصطفى النشار، من الهيمنة الاستعمارية الى النهضة المنشودة (قراءة في مشروع الأفغاني الفكري)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ٢٠٤.

٣. المصدر السابق، ج١، ص ٢٠٥.

- من التقليد الأعمى للغربيين إلى العودة إلى الأصول الدينية الحقة:

تُعدّ عادة التقليد لكلّ ما هو غربي عند الأفغاني من العوامل الأساسيّة المساهمة في شيوع التخلّف لدى بلاد الشرق. ولا يرى الأفغاني بأنّ هناك مشكلةً بالتقليد النافع، فقد قال: «إن تقليد النافع الذي ثبتت منفعته أولى من التقيد بمألوف ثبتت مضرته». ويؤكد على ذلك، من خلاله احترامه للتجربة اليابانية والتي قيّمها بقوله: «الفوز بالتقليد النافع وجلب المفيد اللازم من العلوم والفنون والصنائع فبرزت بين صفوف الدول العظام دولة شرقية لها من بأسها منعة، ومن علمها واتحادها قوة تخشى، وحدٌّ يُتَّقى، والناس أبناء ما يحسنون ولله في خلقه شؤون».

وفي مقابل التقليد النافع، يوجد التقليد الضارّ الذي يضيع الفرص على المبدعين، نظرًا لأنّ المقلّد هو البوابة الرئيسة التي يعبر منها الغازي والمستعمر إلى الأمم التي غلب على أبنائها التقليد، وعزّ عليها الابداع. بل إنّ المقلدين يحوّلون أنفسهم وغيرهم من أبناء وطنهم إلى مجرد مسوخٍ تقلد المظاهر، وتقف عند حدود الضارّ دون استجلاب النافع.

إلى حانب التقليد النافع، هناك التقليد الأجوف الذي يعيق فرص المبدعين، والذي يُعدّ البوابة الأساسية التي يتسلل منها الغازي والمستعمِر إلى الأمم التي سيطر عليها التقليد، وأصبح الإبداع فيها نادرًا، بل إنّ المقلّدين يحوّلون أنفسهم وغيرهم من أبناء وطنهم إلى مجرد نسخٍ خاويةٍ تكرر المظاهر، وتكتفي بما هو ضارّ دون أنْ تسعى لجلب ما هو نافع.

يعتقد الأفغاني أنّ هذا الطريق يتطلب إصلاحًا دينيًا شاملاً وضروريًا، حيث يرى أنّ على المسلمين أنْ تبني النهضة والتقدّم على الاسس الدينية والقرآنية، وإلاّ فلن يكون هناك فائدةٌ من ذلك، ولن تستطيع الأمة من التخلّص من وصمة الانحطاط.

-من الفرقة واستبداد الحكام إلى الوحدة والحكم بالعدل والشورى:

من أبرز النتائج التي توصّل إليها الأفغاني في تحليله لأسباب تخلّف الشعوب الشرقية وضعف فاعليتها، هو وجود الفرقة والانقسام إلى طوائف ومذاهب متعدّدة، ممّا يؤدي إلى صراعاتٍ بين دولهم واستبداد حكّامهم. يعود هذا الانقسام من وجهة نظر الأفغاني إلى عدم الارتكاز إلى الاسلام المحمّدي الأصيل. ويتحمّل المسؤولية في ذلك هو تقصير العلماء في الدعوة إلى الاسلام

الصحيح الذي لا يفرّق بين المؤمنين إلّا بالتقوى وينهاهم عن الفرقة والانقسام، كما ألقى اللوم على الحكام الذين لم يحكموا بما أنزل الله ولم يحرصوا على إشاعة العدل والرحمة، بل غلّبوا مصالحهم الشخصية الأنانية على مصلحة الشعوب[١].

كان الأفغاني من الأوائل الذين نادوا بالوحدة الاسلامية، فقد عمل على وحدة الأمة وعزّتها، وأسّس (جمعية عروة الوثقى) مع تلميذه محمد عبده لتكون لسان حال الشرقيين في توضيح هذه الأهداف، والعمل بموجبها والدعوة إلى تحقيقها. إنّ الوحدة والسيادة هما عنصران أساسيان لأيّ أمةٍ تسعى إلى النهوض والتميز. ويحثّ الدين على ضرورة تلازمهما، كما تفرضهما الحاجة الملحة. ويسهم التعليم والتربية في تعزيز الإيمان بهما في نفوس الأفراد[٢].

هـ - ظاهرة الاستعمار: بين الفكر الإسلامي والفكر العلماني

يتناول الباحث المصري (ماهر عبد المحسن) في هذه الدراسة ظاهرة الاستعمار من منظور الفكر الإسلامي والعلماني، بهدف تسليط الضوء على كيفية معالجة كلٍّ من الإسلاميين والعلمانيين لهذه الظاهرة.

قسّم الباحث بحثه إلى مبحثين، إذ تناول بدايةً ظاهرة الاستعمار في الفكر الاسلامي، ثم تناولها من المنظور العلماني.

ظاهرة الاستعمار في الفكر الاسلامي

يرى الكتّاب الإسلاميون أنّ هناك علاقةً وثيقةً بين الاستعمار والإسلام، إذ يعدّون الاستعمار بمنزلة استمرار للحروب الصليبية. ويعتقدون أنّ هدفه الأساس هو القضاء على الإسلام، وفرض السيطرة على الدول الإسلامية.

من منظور الباحثين الإسلاميين مثل أنور الجندي، إنّ الاستعمار عمل على السيطرة على مجالات التعليم والثقافة والصحافة بهدف تشويه المفهوم الإسلامي وإفراغه من محتواه. وقد أدّى

١. مصطفى النشار، من الهيمنة الاستعمارية الى النهضة المنشودة (قراءة في مشروع الأفغاني الفكري)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ٢١٥.

٢. المصدر السابق، ج١، ص ٢٣١.

ذلك إلى تصوير الإسلام كدينٍ يقتصر على العبادة فقط، من دون أنْ يكون له أيّ ارتباطٍ بالنظم السياسية والاقتصادية والقانونية. وبالتالي، تم فرض القوانين الوضعية بدلاً من الشريعة الإسلامية، والأنظمة الربوية بدلاً من الاقتصاد الإسلامي، والنظام الديمقراطي الليبرالي بدلاً من نظام الشورى. وإلى جانب ذلك، قام الاستعمار ببثّ الفرقة بين المسلمين، وحاول تقييد اللغة العربية، وسعى إلى تأسيس الاصطفافات السياسية والطائفية والقبلية. ويمكن عدّ تاريخ العالم الإسلامي كحركةٍ تتأرجح بين الوحدة والانقسام، ثم تعود مرةً أخرى إلى الوحدة. من هذا المنطلق، يمكن تحليل هذه الدراسة وفهم الظاهرة الاستعمارية كما يراها الجندي.

ويرى أنّ التاريخ الإسلامي هو تاريخ صعود وهبوط، ثم صعود، والصعود يرتبط بالوحدة، بينما يرتبط الهبوط بالفرقة، والذي يحرّك هذا التاريخ هو جدل الصراع بين القوى التي تعمل على لمِّ الشمل، وتلك التي تعمل على الفرقة والتشرذم. ويُعدّ الإسلام ركيزةً للتلاحم، حيث يتجلّى ذلك في الروابط التي تنشأ من العقيدة الإسلامية والفكر والثقافة. كما أنّه يمثل نظامًا اجتماعيًا متكاملاً يستند إلى هذه العقيدة، ويعتمد منهجًا إنسانيًا شاملاً ينظم العلاقات بين الأفراد والجماعات، وكذلك بين الشعوب والمجتمعات والدول.

ومن هنا، أضحى العالم الإسلامي هدفًا للدول الغربية الاستعمارية، كما تعرّض لمحاولات التفرقة والتفكيك. ويتجلّى ذلك بوضوح في العصر الحديث، حيث لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على استيقاظ العالم الإسلامي لتجديد حياته واستعادة قواه، حتى واجه الغزو الاستعماري الذي تمثّل في حركة تطويقٍ واسعة النطاق.

يبدأ الجندي في تقديم مفهوم الوحدة الإسلامية كوسيلةٍ لمواجهة الاستعمار الغربي من خلال فكرة الخلافة، التي يعدّها الأساس الذي يجب أنْ تستند إليه أيّ حركةٍ إسلاميةٍ تسعى إلى التوحّد ورفض الفرقة والانقسام. فالخلافة، وفقًا للاصطلاح الفقهي الإسلامي، تمثّل الأمانة العظمى وإمارة المسلمين، حيث تعني في جوهرها الولاية العامة على شؤون المسلمين، سواء كانت دينية أم دنيوية.

ومن ناحية أخرى، يتناول المفكر الإسلامي الشيخ الغزالي في كتابه (الاستعمار أحقاد وأطماع) ظاهرة الاستعمار من منظور تحليل النفس البشرية، بدلاً من التركيز على القضايا المادية الخارجية.

ويرى أنّ الدافع النفسي الداخلي هو القوّة المحرّكة للسلوك الخارجي، ومن خلاله يمكن فهم وتفسير الأفعال التي يقوم بها المستعمِر تجاه الآخرين. وبعبارةٍ أخرى، يعتمد (الغزالي) على البعد النفسي في دراسته سواء على المستوى الذات أم على مستوى الآخر. وينظر إلى الاستعمار على أنّه غزواتٌ صليبيةٌ جديدة؛ إذ لم يتغيّر هدفه الأساس رغم تغيّر الوسائل في بعض الأحيان. ومع ذلك، لا يُنظر إلى الاستعمار كظاهرةٍ دينيةٍ حقيقية، بل كـأطماعٍ سياسيةٍ ترتدي لبوس الدين.

يتماهى الغزالي مع الجندي ومع العديد من المفكرين الإسلاميين، إذ يتبنى موقفًا معارضًا للفكر العلماني، الذي يعدّه نتاجًا للغزو الفكري الاستعماري. ويرى أنّ المفكّرين العلمانيين هم عملاء وأدوات يستخدمها الغرب الاستعماري لتحقيق أهدافه، بل إنّه يصف عملية التفاعل الفكري بين العرب والأوروبيين بأنّها تشبه (البغالة). وينتقد مفكّري الأمة الذين وقعوا في فخ الاستعمار الغربي وأصبحوا أدوات تنفّذ أوامره وتحقّق طموحاته التي عجز عن تحقيقها بالقوة العسكرية؛ لذا، لجأ إلى تحقيقها من خلال القوة الفكرية الناعمة، مستخدمًا أبناءه المهجّنين الذين ينتمون، شكلاً واسمًا، إلى الإسلام والأمة الإسلامية.

- ظاهرة الاستعمار في الفكر العلماني

ثَمّة اختلافٌ في كيفية تناول موضوع الاستعمار بين المنظورين الإسلامي والعلماني. فالمفكّرون العلمانيون مثل مالك بن نبي، وإدوارد سعيد لا يواجهون مشكلةً في التعامل مع الاستعمار الغربي والاستفادة من إنجازاته وخبراته المتراكمة. كما أنّهم لا يعدّون تراث الأنا مقدّسًا يتطلّب الحماية والدفاع عنه، بل قد يتخّذون موقفًا نقديًّا دقيقًا يهدف إلى كشف السلبيات التي تعيق النهضة والتقدم الحضاري.

مالك بن نبي والتحليل الحضاري للشعوب المستعمرة

ناقش مالك بن نبي ظاهرة الاستعمار في كتابه (شروط النهضة)، حيث حرص على توضيح المنهج الذي اتبعه. وقد اتبع في ذلك نهج العلمانيين الذين يستندون إلى أسسٍ علميةٍ ومنهجيةٍ واضحةٍ عند تناول أيّ موضوعٍ.

يحللّ بن نبي العوامل الاستعمارية من خلال نقطتينِ أساسيتينِ محورهما الفرد، فبالنسبة له،

«للفرد قيمتان: الأولى خام، طبيعية، والأخرى صناعية، اجتماعية، الأولى موجودة في كلّ فردٍ بحكم تكوينه البيولوجي، وتتمثّل في استعداده الفطري لاستعمال عقله وترابه ووقته، والأخرى التي يكتسبها من وسطه الاجتماعي تتمثّل في الوسائل التي يجدها الفرد في إطاره الاجتماعي لترقية شخصيته وتنمية مواهبها. وهذه الأخيرة هي الوظيفة المنوطة بالهيئة الاجتماعية التي تصنع للإنسان ما يمدّه في رفع مستواه من مدرسةٍ أو مستشفى أو إدارةٍ تسهر على مصلحته».

ومن هذه المقاربة، يقدّم بن نبي شرحه للظاهرة الاستعمارية، فبرأيه أنّ المجتمع الذي يتقاعس عن تنمية أفراده جسديًّا وعقليًّا وروحيًّا، فإنّه سيسهم في جعلهم فريسةً سهلةً للاستعمار. ويرى أنّ الاستعمار هو الذي أيقظ الشعوب العربية والاسلامية، على خلاف ما قاله أنور الجندي والشيخ الغزالي الذين يعزيان الصحوة الاسلامية إلى عوامل ذاتيةٍ مستمدةٍ من طبيعة الاسلام.

في نهاية المطاف، يحثّ (بن نبي) الفرد ويطالبه بتنمية ذاته وقدراته الخاصّة التي هي بمنزلة خطّ الدفاع الأول والأخير ضد التوحّش الاستعماري البغيض والخبيث، الذي يتسلل بنعومةٍ إلى خلايا العرب والمسلمين فيؤثّر في نفوسهم وسلوكهم، بأيديهم هم أنفسهم. ويميّز بن نبي بين العرب والمسلمين، ولا يحصر مقاربته للموضوع في الدفاع عن الدين الإسلامي فحسب، بل يسعى إلى هدفٍ أبعد من ذلك وهو نهضة الإنسان العربي بشكلٍ عام، سواء كان مسلمًا أم غير مسلم.

- إدوارد سعيد ودراسة الخطاب الاستعماري

تكمن أهمية إدوارد سعيد في معرفته وتخصّصه الدقيق في الأدب المقارن، كما أنّ إطلاعه على مدارس النقد أسام إلى حدٍّ كبيرٍ في إثراء هذا المجال. لذلك، يُعدّ كتابه (الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق)، من أهم الدراسات في مجال ما بعد الاستعمارية.

يعتقد سعيد أنّ مفهوم (الشرق) أو تصوّره يختلف بين الأوروبيين، الذين يمثّلون الاستعمار التقليدي، والأميركيين، الذين يمثلون الاستعمار الحديث. فبالنسبة للأوروبيين، يُعدّ الشرق جزءًا أساسيًا من الحضارة المادية والثقافة الأوروبية، ويرتبط بحركة الاستشراق التي تعكس هذا الجانب وتمثّله ثقافيًّا وفكريًّا كنوعٍ من الخطاب. ومن هذا المنطلق، يهدف عمل سعيد إلى تحليل هذا الخطاب.

ويعرّف سعيد (الاستشراق)، بأنّه «أسلوب تفكيرٍ يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمّى الشرق وبين ما يُسّمى الغرب»[١]. بتعابير أخرى، إنّ أيّ شخصٍ يعتمد على هذا التمييز بين الشرق والغرب، سواء كان شاعرًا أم روائيًا أم فيلسوفًا، أو من أصحاب النظريات السياسية أو الاقتصادية، يُعدّ جزءًا من الاستشراق.

ويرى (سعيد) أنّ الاستشراق لا يمكن اختزاله في عاملٍ واحد، بل هو نتاج شبكةٍ معقدةٍ من المصالح المتداخلة التي تتفاعل في كلّ مناسبةٍ تتعلّق بالكيان الغريب المعروف باسم (الشرق). كما يشير سعيد في كتابه (الاستشراق)، فإنّ هذا العمل يسعى إلى توضيح كيف أسهمت الثقافة الأوروبية في تعزيز قوتها وهويتها من خلال وضع نفسها في مواجهة الشرق. وبالنسبة إلى سعيد، إنّ الخيال ليس وحده هو الذي خلق صورة الشرق، فالعلاقة بين الغرب والشرق هي علاقة قوةٍ وسيطرة. لذلك، إنّ الاستشراق له كيانه ومؤسّساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تمنحه القوة، وقد استثمر في مجال الاستشراق استثماراتٍ كبيرةً حتى أصبح يُعدّ مذهبًا من مذاهب المعرفة لدى الغربيين[٢].

ويستعرض (سعيد) الأسباب التي أدّت إلى شيطنة الغرب للشرق العربي والإسلام، ويحدّدها في ثلاثة عوامل رئيسة: الأوّل هو تاريخ التعصّب السائد في الغرب تجاه العرب والإسلام، والذي يظهر بوضوح في تاريخ الاستشراق. أمّا العامل الثاني، فهو الصراع القائم بين العرب والصهيونية الإسرائيلية وتأثيره على اليهود الأميركيين والثقافة المتحرّرة والسكان بشكل عام. وأخيرًا، يتمثّل العامل الثالث في الافتقار شبه التام لأيّ موقفٍ ثقافيّ يسمح للفرد بالتعاطف مع العرب أو الإسلام، أو مناقشة أيّ منهما بشكلٍ غير انفعالي.

ويتبين من خلال كتابات سعيد أنّه لا يتماشى مع الجندي والغزالي في ناحية الدفاع عن الدين ضدّ الاستعمار، بل يقدّم نفسه عروبيًّا وشرقيًّا. ويعزز توجهه اللاديني في الكتاب من خلال قوله: «ولقد تمكّنت من استخدام مشاغلي الإنسانية والسياسية في تحليل ووصف موضوعٍ دنيويّ إلى حدٍّ كبيرٍ، وهو نشأة وتطوير وتدعيم الاستشراق». وقد تمكّن (سعيد) من تسخير الإنجازات

١. إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ت: د. محمد عناني القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٦ م، ص ٤٥.

٢. المصدر السابق، ص ٥٠.

المنهجية الغربية في مجال العلوم الإنسانية لفضح الاستشراق، وذلك بالاستناد إلى كتابات فيكو وميشيل فوكو وأنطونيو جرامشي.

ختامًا، يستنتج الباحث المصري (ماهر عبد المحسن) من خلال بحثه أنّ تحليل ظاهرة الاستعمار يتطلّب تقديم مقاربةٍ دنيويةٍ ودينيةٍ على حد سواء، ولو كان هناك اختلافات بالطروحات، فالذي يجمع أكثر ممّا يفرّق وخصوصًا عندما يتعلّق الأمر بمقاومة القهر والظلم الذي يخلّفه الاستعمار.

و- السيطرة كرؤية فلسفية إلى العالم: نحو مقاربة لفهم الظاهرة الاستعمارية عند روجيه غارودي

يعتقد نصرالدين سراي (دكتور في فلسفة القيم والابستمولوجية والعلوم الانسانية) أنّ مسألة استكشاف جذور تشكّل الأفكار يتخطّى من حيث الأهمية دراسة تجلياتها في الواقع. ومن أبرز الأمثلة على ذلك هو البحث في نشأة فكرة الاستعمار وغزو العالم، حيث تحوّل الغزو إلى رؤيةٍ فلسفيةٍ للعالم، سواء كان ذلك بهدف تأكيد الأنا الغربية وتمركزها، أم لإرضاء أنانيتها وإبراز تفوقها العرقي[١].

كان الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي من أبرز المفكّرين الذين تناولوا فكرة الغزو بتحليلٍ عميقٍ ومناقشةٍ شاملة، حيث سعى إلى استكشاف جذورها في العقلية الأوروبية الحديثة. وقد أرجع جارودي نشوء هذه الفكرة إلى الفيلسوف الفرنسي ديكارت، الذي عدّه مؤسس الاستعمار الغربي، وذلك بسبب رؤيته للعالم التي سعى إلى ترسيخها. هذه الرؤية تركزت على تحديد موقف الإنسان من العالم، الذي عدّه في حالة صراعٍ مع الطبيعة، ممّا أدّى إلى تطوّر الفكرة في العقلية الغربية نحو مزيدٍ من السيطرة على عالم الإنسان وغزو الإنسان للإنسان.

حاول جارودي أنْ يبحث في الذرائع التي تمّ استخدامها لتبرير الاستعمار في مختلف أنحاء العالم، وعدّها حججًا زائفةً تعكس رؤيةً فلسفيةً مسبقةً تؤيّد غزو العالم. يعالج نصر الدين سراي من خلال مقاله «السيطرة كرؤية فلسفية للعالم» بالإجابة عن السؤال التالي: كيف تشكّلت فكرة غزو واستعمار العالم من منظور روجيه جارودي؟

---

١. نصير الدين بن سراي، السيطرة كرؤية فلسفية الى العالم (نحو مقاربة لفهم الظاهرة الاستعمارية عند روجيه غارودي)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار)ج١، ص ٢٥٩.

أراد ديكارت أنْ يجعل المرجعيّة للذات العارفة، من خلال اعتمادها العقل في فهم الوجود، والتعاطي مع العالم الذي نحيا فيه؛ وسيكون الإنسان الجديد الذي حدّده ديكارت، معتمدًا فقط على ذاته وقدراته العقلية ولا يركن إلاّ إلى هذه المرجعية. هذا المبدأ الذي أرساه ديكارت، حيث جعل من الغزو والسيطرة هدفًا للذات العارفة. هذه الذات التي تسعى إلى الهيمنة على العالم من خلال الثقة واليقين والثبات الذي لا يمكن أنْ يتخلله الشكّ والوهم في معارفها المستلهمة من ذاتها [١].

تتحدّد علاقة الإنسان بالطبيعة في النموذج الفكري الغربي من خلال ما أرساه ديكارت، ففي العصر الحديث، «لم تعد الطبيعة تمثّل أساس كلّ نظامٍ اجتماعيّ وأخلاقي، ولم تعد مجرد انعكاسٍ أو مقياسٍ للانسجام الأزلي. بل أصبحت مستودعًا للقوى الإنتاجية التي يتعامل معها البشر ويمنحونها قيمةً من خلال عملٍ مكثّفٍ وفعّالٍ بشكلٍ متزايد. لم يعد الإنسان خاضعًا للطبيعة، بل أصبح في مواجهة معها، ولم يعد يعتبر نفسه جزءًا من عناصرها، بل أصبح سيدًا لها. وهذه هي السمة المميزة للمجتمع الغربي الحديث».

يُمثّل المشروع الفلسفي الديكارتي باختصار تصوّراتٍ فكريةً أثرت بشكلٍ مباشرٍ وغير مباشرٍ على مدى قرون في نشوء الأزمات العالمية، خصوصًا فيما يتعلّق بالطبيعة التي تمّ استغلالها لصالح الذات الطامعة في السيطرة والغزو. ومن هنا، يرى غارودي أنّ «الواجبات تجاه الطبيعة تتساوى مع الواجبات تجاه الملكية؛ فلا يمكن للأفراد أو الجماعات أنْ يدَّعوا حقّ استنزافها أو تشويهها أو تدمير ثرواتها من أجل إشباع رغباتهم الشخصية. إنّ الطبيعة، كما ورثناها اليوم، قد أُنسِنَت بشكلٍ كبيرٍ بفضل جهود أجيال متعددة؛ لذا لا يمكن عدّها مجرد مستودعٍ غير مُستحسن للثروات من أجل إرضاء شهوات اللحظة».

فالطبيعة مُسخَّرةٌ من الله للإنسان، وليس في علاقة صراع معها، حيث قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية ١٣). وهي أمانة والواجب الإنساني أنْ نحافظ على الأمانة، كما وهبت لنا فهي: «ليست ملكًا لمليارات

١. نصير الدين بن سراي، السيطرة كرؤية فلسفية الى العالم (نحو مقاربة لفهم الظاهرة الاستعمارية عند روجيه غارودي)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار)ج١، ص ٢٦٠.

الموتى الذين أخصبوها، بل وأيضًا للمليارات ممّن لم يولدوا بعد، ومن واجبنا أنْ ننقلها وهي أعظم خصبًا وجمالاً ممّا تلقيناها دون الربط بالمستقبل»[١].

يخلص الباحث إلى أنّ «النظرة إلى الطبيعة من منظور الصراع والغزو تشكّل الأساس الذي قامت عليه النزعة الاستعمارية الغربية. فقد تركزت جهود الفكر الحداثي على هدفٍ رئيسٍ هو إخضاع الطبيعة للإنسان، الذي يُعدّ سيدًا، ليصبح هذا السيد أيضًا متحكّمًا في بقية شعوب العالم المستضعفة. هذه الشعوب ترى أنّ القوة والسيطرة هما القيمة الوحيدة. وقد سعت الرأسمالية لتحقيق هذا الهدف من خلال فصل القيم عن الممارسات الاقتصادية، ممّا أدّى إلى تقليص أهمية الأخلاق في المجال الاقتصادي. وهذا بدوره أسفر عن تفكيك النسيج الاجتماعي والإنساني، وإثارة الصراعات والنزاعات الدولية، خاصةً الاستعمار وغزو العالم الثالث تحت ذرائع متعددة»[٢].

ز- العنف وإزالة الاستعمار: قراءة الثورة الجزائرية وفق نظرية فرانز فانون

وفقًا لنظرية فرانز فانون، يسلّط جلة سماعين (باحثٌ متخصّصٌ في العلوم السياسيّة والعلاقات الدوليّة) الضوء على الثورة الجزائرية. تقوم نظرية فانون على فكرة مفادها أنّ العنف هو السبيل الوحيد لإزالة الاستعمار، وما أخذ بالقوة لا يستردّ إلّا بالقوّة. بالنسبة إلى فانون، العنف هو أساس هذه الازالة؛ لأنّ الاستعمار هو عنفٌ هائجٌ لا يمكن أنْ يخضع إلاّ لعنفٍ أقوى، وهو الطريق المثلى؛ لأنّ الانسان المستعمر يتحرّر في العنف[٣].

«استنتج فانون من خلال تحليله لنفسيّة المجتمع الجزائري الجماعيّة وفهمه لمعاناة الفرد المضطهد والمشوش أنّ جوهر النظام الاستعماري لا يتجلّى في الخطابات والتشريعات أو في جرعاتٍ من الديمقراطية الانتخابية التي يقدمها هذا الحزب أو ذاك، بل يتجسّد في الواقع الفعلي للتعذيب الذي يتعرّض له الفرد. ومن خلال هذا الفرد، استطاع أنْ يعكس آلام المجتمع الجزائري

١. المصدر السابق، ج١، ص ٢٦٩.

٢. نصير الدين بن سراي، السيطرة كرؤية فلسفية الى العالم (نحو مقاربة لفهم الظاهرة الاستعمارية عند روجيه غارودي)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار)ج١، ص ٢٧٨.

٣. المصدر السابق ج١، ص ٢٧٩.

بأسره. وبالتالي، فإنّ «تحليله يستند إلى نتائج الاستعباد، ليس فقط للشعب بل للذوات، وإلى شروط تحريرهم، التي تبدأ أولاً بتحرير الفرد، حيث تمثّل هذه العملية انعتاق الذات من الاستعمار».

في قراءةٍ مختصرةٍ، يخلص الكاتب إلى أنّ أخطر أشكال الاستعمار هو الاستعمار الاستيطاني؛ لأنّه يجتث شعبًا من أرضه ليمنحها لشعب لا يملك فيها الحقّ التاريخي والقانوني، وإنّ التطلّع إلى إيجاد حلولٍ سياسيةٍ لإنهاء هذا الاحتلال أمرٌ غير قابلٍ للتحقق، بل ويمكن أنْ يستفيد الاحتلال من التهدئة الوقت لكي ينتزع أراضي إضافية على غرار ما حصل في فلسطين والجزائر. لذلك إنّ المقاومة هي السبيل الوحيد لإنهاء الاستعمار والتعبير الحقيقي عن إرادة الشعوب الحرّة [١].

ح- قابلية الاستعمار: قراءةٌ مقارنةٌ بين مالك بن نبي وابن خلدون

في هذا المقال تناقش فتيحة شفيري (دكتورة قسم اللغة العربية وآدابها) قابلية الاستعمار في إطار قراءة مقارنة بين مالك بن نبي وابن خلدون.

استنتج المفكران أنّ شعور الإنسان بالنقص يدفعه للبحث عمّن يكمله، ممّا يجعله ينقاد له بنحوٍ غير إرادي، ويخضع لثقافته، ويقبل بها تمامًا. وبالتالي، يمنح الطرف الأقوى صفة الكمال، بينما يرى الطرف الاخر نفسه مغلوبًا وضعيفًا (ابن خلدون، الفصل الثالث والعشرين من مقدمته). ويُؤكد مالك بن نبي ما ذهب إليه الفيلسوف ابن خلدون عن حقيقة النفس البشرية وطبيعتها المجبولة عليها، التي تمنح للطرف القوي استغلال هذا الضَعف ونشر الطاقة السلبية فيها.

وفي السياق نفسه، يُبرز مالك بن نبي ما أشار إليه ابن خلدون بشأن طبيعة النفس البشرية وما تحملها من خصائص فطرية. وعليه «تنبثق من القوة والضعف قوتين غير متساويتين: المستعمَر والمستعمِر. يسعى المستعمِر، الذي يمثّل القوّة الغالبة، إلى نشر ثقافتين. الأولى هي الثقافة المادية، التي تشمل الطعام والملابس والعمران، ممّا يجعل المغلوب يتبع الغالب في مظهره ووسائل تنقله وأسلحته. والثانية هي الثقافة المعنوية، التي تتعلق بأسلوب التفكير والنظرة إلى القضايا الحياتية المختلفة. من جهةٍ أخرى، يؤسّس المستعمَر، الذي يعاني من الطاقة السلبية، ثقافة من التساهل واللامبالاة تجاه هويته وركائزها الأساسية، مثل الدين واللغة والأرض».

---

١. المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٣.

لذلك تقول (شفيري)، بأنّ ابن خلدون ومالك بن نبي اهتموا «ببناء الذات بناءً حضاريًّا من خلال دعوتهما إلى استثمار إرادة هذه الذات» وقدرتها الفعلية على امتلاك العصبية وحماية خصوصيتها الثقافية في آن معا، وهذا لا يعني انعزال هذه الذات عن الحضارات القائمة، بل التكيّف بما يحفظ الكرامة والعزّة للأمة. ويمكن القول بأنّ هذين المفكّرين بما لهما من مرجعيةٍ غنية، قدّما خريطة طريقٍ فكريةٍ للشعوب المغلوبة من أجل الخروج من نيّر الاستعمار.

ط – القومية والإرث الاستعماري: الشرق الأوسط وآسيا الوسطى

في قراءةٍ مختصرةٍ، يعالج كلٌّ من الباحثين (خوان ريكاردو إ. كول[١]/ودنيز كانديوتي[٢]) إشكالية القوميّة والإرث الاستعماري في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى.

عندما نتحدث عن القومية والدولة القومية، فإنّنا نشير إلى مجموعةٍ من الممارسات المتغيّرة التي تتسم بالاستطراد والمؤسسيّة، التي تختلف عن المفاهيم الذاتية ما قبل الحداثية والترتيبات السياسية. تتكون الأمة الحديثة من مواطنين يرتبطون ارتباطًا عاطفيًا مع بعضهم البعض، خاصّة أولئك الذين ينتمون إلى المدينة أو البلدة نفسها.

تمتلك الأمة دولةً تدير إقليمًا معينًا، وتسعى إلى تعزيز هويةٍ مشتركةٍ بين جميع المواطنين من خلال التعليم الرسمي، مع التركيز غالبًا على الوحدة اللغوية. وهذا يعكس وحدةً سياسيةً ودبلوماسيةً واقتصادية، مع سيادةٍ خاصّةٍ في جميع هذه المجالات. بالإضافة إلى ذلك، تُعدّ القومية أيديولوجية تُعطي الأمة تاريخًا مُركّبًا وتراثًا ثقافيًّا فريدًا، ومصالح مشتركة تتوقّف عند حدود الدولة القومية. وتشير القومية إلى «القدرة على التماهي مع مجموعةٍ كبيرةٍ من الناس الآخرين، ولكنها تنطوي أيضًا على تشكيل أولئك الناس خارج الأمة بصفتهم (الآخر) بأسلوب قوي». ومن الواضح أنّ هذه الشعوب قد شكّلت هويتها استنادًا إلى مزاعم الأصل المشترك، أو اللغة المشتركة، أو الدين المشترك، أو مجموعة أخرى من القواسم التي كانت تشعر بأنّها تميّزها عن غيرها من الجماعات المماثلة.

---

١. مؤرّخٌ أميركي في الشرق الأوسط وجنوب آسيا في جامعة ميشيغتم.

٢. كاتبةٌ وباحثةٌ تركيةٌ في مجالات العلاقات بين الجنسين وسياسات التنمية، حائزةٌ على درجة الدكتوراه من كلية لندن للاقتصاد.

إنّ القومية والإرث الاستعماري هما موضوعان متّصلان يعكسان صراعًا مستمرًا بين الهويات الوطنية والتاريخ الاستعماري، بالإضافة إلى تأثير الاستعمار على تشكيل الهويّة القوميّة في العديد من الدول. لقد ظهرت معظم القوميات في الشرق الأوسط مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك، إنّ الهوية القومية في العديد من الدول العربية، مثل مصر وسوريا، لم تتجذر بنحوٍ حقيقيّ إلّا بدءًا من عام ١٩٢٠[1] وما بعده، كما يؤكد بعض الباحثين. ونشأت معظم الدول القومية نتيجةً للحدود الاستعمارية التي فرضت من الخارج، والتي لم تكن مرتبطةً بالحدود الإثنية السابقة. وكانت هذه الحدود، في الغالب، سهلة الاختراق ونادرًا ما شكّلت حدودًا فعلية.

إلا أنّ ذلك لا يمنع من استمرارية عملية بناء الأمة بشكلٍ متواصلٍ، ففي جزءٍ كبيرٍ من العالم الجنوبي، تمّ ذلك في إطار الاستعمار وما بعده. ويمكن الاستشهاد بجميع دلالات الهوية الأساسية التي أبرزها مؤيّدو القومية في الخطاب القوي الذي يتجلّى في الظروف الاستعمارية وما بعدها. فالمفاهيم مثل (العرق، واللغة، والدين) غالبًا ما تحمل دلالاتٍ اجتماعيةً تختلف بشكلٍ كبيرٍ بين المستعمِر والمستعمَر، ممّا يتيح لبناة الأمة القوميين الاستناد إليه. وتشير الفترات الاستعمارية وما تلاها إلى أنّ السكّان المحليين المتنوّعين حافظوا على وهم من التجانس النسبيّ في مواجهة الهيمنة الأجنبية، ممّا عزز من التماسك الوطني.

ومع ذلك، في فترة ما بعد الاستعمار، قد يتعرّض هذا الإنجاز الذي حقّق الوحدة للانهيار أحيانًا، ممّا يؤدي إلى تصاعد التحدّيات والنزاعات الداخلية بين المجموعات المتنوعة في الدولة الجديدة. وقد تظهر حركات النضال الانفصالية، كما حدث بين الشماليين والجنوبيين في نيجيريا بعد الاستعمار. كما يمكن أنْ تلجأ مجموعاتٌ أو فئاتٌ مهمّشةٌ إلى الرموز الدينية الوطنية لتحدّي النخب المتحصّنة في فترة ما بعد الاستعمار، مثلما فعلت فئات البازار التي استخدمت إعادة تفسير الخميني للإسلام الشيعي لمواجهة علمنة البرجوازية الكبيرة في إيران خلال فترة الشاه. وقد ظهرت ظواهر مشابهةٌ في دول مثل الهند والجزائر، وإلى حدٍّ ما في أوزبكستان. ويمكن أنْ يكون التراث

1. Rashid Khalidi, Lisa Anderson, and Reeve S. Simon, ed., The Origins of Arab Nationalism (New York: Columbia University Press, 1991), and James Jankowski and Israel Gershoni, ed., Rethinking Nationalismin the Arab Middle East, New York: Columbia University Press, 1997.

الوطني متنوعًا بشكلٍ أكبر، ممّا يؤدي إلى إعادة تحديد الحدود بين كافة المكوّنات. فخلال حقبة النضال الهندي ضد الاستعمار من أجل الاستقلال، تمّ الاستشهاد بأمجاد (تاج محل)، حتى من قبل الهندوس بوصفه رمزًا للفخر الوطني الهندي في الماضي. ومع ذلك، شهدنا في الهند المستقلة في التسعينيّات ظهور مجموعاتٍ هندوسيةٍ قويةٍ تدعو إلى هدم هذه المعالم الإسلامية، معتبرة إيّاها بقايا من فترة الهيمنة الأجنبية.

في نهاية المطاف يخلص الباحثان إلى أنّ استمرار تأثير الإرث الاستعماري في تشكيل الهوية الوطنية الحديثة يثير قضايا معقدةً حول الهوية في سياق القومية، التي غالبًا ما تتبنى تصوّرًا نقيًا للأصالة (Nativism). ويتجّلى ذلك بوضوح في استمرار أهميّة اللغة والثقافة الفرنسية بين الطبقات الوسطى والغنية في الجزائر، وكذلك في تأثير اللغة والثقافة الروسية في أوساط الطبقات في آسيا الوسطى.

ي – هيجل وإفريقيا: في نقد ضحالة الوعي الاستعماري

في تحليل للباحث (مونيس بخضرة) الذي يشغل منصب أستاذٍ وباحثٍ في الفلسفة المعاصرة، يتوصّل إلى أنّ الغرب، عبر مؤسساته ومرجعياته الثقافية والفلسفية والدينية، اتّبع استراتيجية تهدف إلى استغلال الشعوب في قدراتهم ومهاراتهم ومواردهم ومنتجاتهم. ويشير إلى أنّ هذه الاستراتيجية لا يمكن أنْ تكون قائمةً دون وجود مخططات سابقة. ومن أبرز هذه المخططات هو الاستعمار والاستغلال والتهميش والاحتكار. وتتم هذه المخططات بوسائل معروفةٍ في الغرب الحديث، حيث يتم تفعيل عنصر القوة لتدمير حضارات الشعوب وطمس معالمها المعنوية والمادية، بالإضافة إلى استغلال عنصر المعرفة والعلوم والتقنية، التي بذل الغرب جهودًا كبيرةً في تطويرها وتوجيهها لتحقيق هذه الأهداف»[١].

يربط (بخضرة) المعرفة بالقوة والسيطرة في فجر العصر الحديث في أوروبا، ويعود هذا إلى التنظير الفلسفي آنذاك، ومن هؤلاء الفلاسفة رينيه ديكارت الفرنسي، الذي أكّد على ضرورة توظيف العلم للسيطرة على الطبيعة، وتصوير بعض الكائنات الحيّة على أنّها مجردّ آلات خالية من

١. مونيس بخضرة، هيجل وإفريقيا (في نقد ضحالة الوعي الاستعماري)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ٣٤٤.

الروح. وسار على النحو نفسه الفيلسوف الانجليزي (فرنسيس بيكون) الذي يعتقد أنّ دور المعرفة تكمن في إخضاع الطبيعة لسلطة الإنسان، وهذا ما أدّى في نهاية المطاف إلى سيطرة الانسان على الانسان، وأضحى الأخير عبدًا للأنا والذات. وهذا مهّد الطريق فيما بعد إلى صراعاتٍ واستغلالاتٍ بتأثيرٍ من النظريات العلمية الجديدة أمثال داروين وسبنر في البيولوجيا وهيجل وشبنهاور ونيتشه في الفلسفة، والتي أسهمت في تغذية النزعات الفردية والتطرّفة.

وممّا لا ريب فيه أنّ فلسفة هيجل العنصرية في حقّ الشعوب العالم غير الأوروبية التي قامت على التصنيفات الاقصائية، من خلال حصره للمنجزات العلمية والحضارية في الحضارة الغربية. كما أظهر من خلال كتاباته محاولة إبقاء الشعوب الشرقية والافريقية في مصاف الحيوانية كما ورد في كتابه (العقل في التاريخ)، وكتابه (العالم الشرقي)، حيث نظّر لسمو العرق الجرماني وتفوقه الحضاري، واصفًا إيّاه بالعرق البشري النموذجي.

يخلص (بخضرة) إلى أنّ كتابات هيجل في حق الشعوب الإفريقية والآسيوية كانت الأساس والمرجع لدوائر صُنّاع القرار في أوروبا في ذلك العصر، بل مبررًا مباشرًا للغزو الامبريالي على الشعوب المستضعفة، وذلك بهدف تحضيرها وادماجها في تاريخ الغرب، وتثقيفها بثقافته. وهذه الكتابات منبعها الثقافة اليونانية والرومانية والمسيحية التي تؤمن بفكرة التميز والتفوّق، فضلاً عن التحولات الثقافية والعلمية الكبرى التي عرفتها أوروبا الحديثة، والتي أسهمت بدورها في تغذية هذه الأفكار[١].

١. مونيس بخضرة، هيجل وإفريقيا (في نقد ضحالة الوعي الاستعماري)، بحث في كتاب (نحن وأزمنة الاستعمار) ج١، ص ٣٧٦.

ترجمات

يتناول هذا الباب ترجمة البحوث والدراسات المتعلقة بتحليل ونقد الاستعمار من سائر اللغات إلى اللغة العربية وبأقلام المفكرين من العالم الإسلامي وغير الاسلامي

علمُ الإنسانِ و(الهَيْمَنةُ العقلانيّةُ)، المعرفةُ الإتنولوجيّةُ وسياسةُ السّكّانِ البلديّين الأصليّين في مستعمرات فرنسا الإفريقيّة

بِينْوَا دُو ليتْوَالْ

علمُ الإنسانِ و(الهَيْمَنةُ العقلانيّةُ)
المعرفةُ الإتنولوجيّةُ وسياسةُ السّكّانِ البلديّين الأصليّين في مستعمرات فرنسا الإفريقيّة

بِينْوَا دُو ليتْوَالْ[1]

الملخص

يتحدّث هذه المقال عن مفهوم «الهيمنة العقلانيّة» (domination rationnelle) الفِيبريَّ نسبةً إلى ماكس فيبر، وتطوّر العقلانيّة العلميّة (rationalité scientifique)، ويوضح أنّ مفهوم العقلانية عبارة عن أداةٍ لتحليل الروابط والعلاقات بين الدول الاستعمارية والسكّان الأصليّين (populations indigènes)، وأنّ موضوعَ العقلانية العلمية السكّانُ الأصليّين، أمّا الإمداد بالأدوات(instrumentation) والشرعنة (légitimation) فهما عنصران أساسيّان في ظهور المعارف حول المجتمعات والثقافات للسكّان الأصلين. ويجري الباحث التحليل الذي استوحاه مِنْ برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowsky)، حينما صاغ برنامجًا لـ (عقْلنة الأنتروبولوجيا والإدارة) على نحوين: الأول: نظري، والثاني: تجريبي. إنّ أدوات التحليل النظري من وجهة نظر ماكس فيبر، التي تقول بأنّ الهيمنة التي هي الصفة والميزة الخاصّة بالحداثة تتميّز بالمعرفة والعقلانية، وأنّ الهيمنةَ الدّيوانيّةَ (البيروقراطيّة) تمثّل درجة الكمال بالنسبة للهيمنة، وهي الشكل الحديث للهيمنة المحضة (spécifiquement moderne)، وأيضًا واحدة من أهم مميزات الدولة الحديثة هي ادّعائها العقلانية، وأنّ أدوات التحليل التجريبي هي التي حاول من خلالها تحليل العلاقات التي تتعلّق بتطوّر المعارف عن السكان البلديّين الأصليّين، والدولة المستعمرة لأفريقيا فرنسا من عام ١٩٢٠ إلى إلى العقد السّادس من القرن العشرين (الخمسينيّات).

وتطرّق الباحث إلى عدّة مباحث مهمّة: أولها: الهيمنةُ الدِّيوانيّةُ (البيروقراطيّةُ)، والعقْلنةُ. وثانيها: دراسةُ هويّةِ الأعراق وفهمُ السّكان البلديّين الأصليّين، وثالثها: أزمةُ الهيمنة والتّفوُّقُ العِلميُّ، ورابعها: رهاناتُ العقْلنة، وخامسها: تقسيمُ العملِ والتّسميةُ الذّاتيّةُ.

الكلمات المفتاحية: العقلانيّة، الهيمنة، ماكس فيبر، الأعراق، السكان الأصليين.

---

١. بِينْوَا دُو ليتْوَالْ (Benoît de Lʼétoile).

عنوان المقال باللسان الفرنسيّ

Science de l’homme et “domination rationnelle” savoir ethnologique et politique indigène en Afrique coloniale française

المصدر: نُشر المقال في مجلة الحصيلة (Revue de synthèse): الفصل الرّابع. العددان الثّالث والرّابع، جويلية/تمّوز-ديسمبر/كانون الثّاني ٢٠٠٠، صص. ٢٩١-٣٢٣.

تعريب: جمال عمّار

١/ مقدّمة

إنّ الإدارةَ البيروقراطيّةَ تعني، جوهريًّا، الهيمنةَ بتوسّل المعرفةِ.

هذا هو الـمُميِّزُ الذي يجعلها، تخصيصًا، عقلانيّةً.

ماكس فيبر (Max WEBER)

«العِلمُ، لـمّا يكون في خدمة الاستعمار، ينتهي دائـمًا بالإنسان،

أيْ بالسّكّان، أيْ بفضاء السّكّان الأهليّين الأصليّين. إنّ علمَ الاستعمارِ

الكبيرَ، هو أيضًا في نهاية الأمر علمُ الإنسانِ.

الحاكـمُ العامُّ: جول بريفْيِي (Jules BRÉVIÉ)

يستكشف هذا المقالُ مفهومَ «الهيمنة العقلانيّة» (domination rationnelle) الفِيبريَّ (نسبة إلى ماكس فيبر Max WEBER) بوصفه أداةً لتحليل الرّوابط بين مجهودات الدّولة الاستعماريّة لسياسة السّكان البلديّين الأصليّين (populations indigènes) [في الـمستعمَرات]، وتطوُّرِ شكلٍ خاصٍّ من العقلانيّة العلميّة (rationalité scientifique)، التي اتّخذت هؤلاء السّكّان البلديّين الأصليّين موضوعًا لها: إنّها المعارف الأنتروبولوجيّة (savoirs anthropologiques).

بالاعتماد على حالة المستعمَرات الفرنسيّة في إفريقيا، سوف نحاول جاهدين بيان كيف أنّ بُعْدَي «الإمداد بالأدوات» (instrumentation) (مع تطوير أدواتٍ للفحص وللفهم) و «الشّرْعنة» (légitimation) أساسيّان في ظهور معارف حول المجتمعات والثّقافات البلديّة الأصليّة (indigènes)، أوّلاً في نطاق الجهاز الإداريّ، لكنْ أيْضًا في المؤسَّسات العلميّة الموجودة في المركز الاستعماريّ [فرنسا]. لقد تمّ تقديمُ الدّعم لتطوير (علم الإنسان) ضمن مجال مشاريعَ، لـ «عَقْلنة» (rationalisation) الاستعمار، تُقرِّب بين علماء ورجال تعديلٍ (رجال إصلاحٍ (reformateurs / مرتبطين بالمدرسة الاستعماريّة، يريدون إعادة تعريف مهنة المسؤول الإداريّ الاستعماريّ ((administrateur colonial بوصفه «خبيرًا مختصًّا في السّكّان البلديّين الأصليّين» (spécialiste des indigènes).

تنطلق الأعمالُ البحثيّةُ، المتعلّقةُ بالرّوابط بين العلومِ الاجتماعيّة والدّولة، مِن مُسَلَّمةٍ تُصرِّح بوجودِ تناقضٍ جوهريٍّ بين هذيْنِ الفضاءَيْنِ، وهو تناقضٌ قد يُقنَّع مؤقّتًا بتحالفاتٍ قسْريّة (مخالفة للطبيعة)، لكن ينتهي الأمرُ بأنْ يطفوَ التّناقضُ من جديدٍ إلى السّطح، نظرًا إلى أنّ التقدُّمَ العِلميَّ

متوقّفٌ، في جوهره، على تطوّر استقلاليّته في علاقته بكلّ سلطةٍ. وفي حالة المعارف الأنتروبولوجيّة بالخصوص، تبدو العلاقةُ بين العلوم الاجتماعيّة والدّولة غيْرَ قابلةٍ للدّرْس إلّا بناءً على النّمط السّلبيِّ للإدانة (dénonciation).

سوف نسلك مسارًا آخَر، استوحيناه مِنْ برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowsky)، حينما صاغ برنامجًا لـ (عقْلنة الأنتروبولوجيا والإدارة)[1]، مشيرًا بذلك إلى إمكانيّة حصول تقاربٍ جزئيٍّ في الحدّ الأدنى، بين العقلانيّة الإداريّة والعقلانيّة العلميّة. لأجل استكشاف هذه الفرضيّة، سوف نبادر إلى إجراء تحليلٍ على صعيدَيْن:

أوّلًا، نظريًّا: سوف نحاول أنْ نُوضِّحَ أدواتِ تحليلٍ، انطلاقًا من الفكرة الفيبريّة، التي تقول بأنّ شكلَ الهيمنة، الّذي هو أحد المميِّزات الخّاصّة للحداثة، يتميّز بالمعرفة وبالعقلانيّة.

ثانيًا، تجريبيًّا: سوف نسعى إلى استعمال هذه الأدوات لتحليل العلاقات بين تطوُّر المعارف، التي موضوعُها السّكّان البلديّون الأصليّون، والدّولةِ الاستعماريّة [فرنسا]، انطلاقًا من حالة المناطق الإفريقيّة التي كانت خاضعةً للسّيطرة الاستعماريّة الفرنسيّة من سنة ١٩٢٠ إلى العقد السّادس من القرن العشرين (الخمسينيّات)[2].

من أجل تصوُّر هذا التّقارُب، يجب علينا، قبل أيِّ خطوةٍ، أنْ نستخرجَ المُخطّطاتِ (schèmes) المتعلّقةَ بالتّخصُّص وبتقسيم العمل بين الفروع العلميّة، وأنْ نقومَ بوصْل النّصوص التي تُدْرج،

---

١. من أجل المزيد من التّفاصيل حول المراجع المذكورة في الهوامش، تفضلوا بمراجعة القائمة النّهائيّة الموجودة في آخر المقال. هنا، مالِينُوفْسْكي، برونِيسْلافْ، عقلنةُ الأنثروبولوجيا والإدارة. هذا النّصُّ (الترجمة الفرنسيّة موجودة في ليْتوالْ (بينْوَا دو)، الأنتروبولوجيا أمام العالم الحديث. مالينوفْسْكِي وعقْلنة الأنتروبولوجيا والإدارة) يعرض، في آنٍ، برنامجًا لتعديل (لإصلاح / reforme) الإدارة الاستعماريّة ولثورةٍ علميّةٍ في الأنتروبولوجيا، يدور كلاهما حول قاسمٍ مشتركٍ هو «المصلحة في العقْلنة»).

٢. تطوّرت الإتنولوجيا المستمرِكة الفرنسيّة في سياق (استعمارٍ داخليٍّ) قامت به دُولٌ وطنيّةٌ أخرى. من أجل القيام بتحليلٍ للسّياق البرازيليّ، الذي ينخرط فيه كلود ليفي-ستروس (Claude LÉVI-STRAUSS) وروجي باستيد (Roger BASTIDE)، انظر سُوزَا لِيما (أنْطُونْيُو دو)، حصارٌ عظيم للسّلام. قوّة الوصاية، ص ٨٧-١٢٧.ومقال لويز فيرناندو دِياس دُوياْرتي (Luiz Fernando DIAS DUARTE) في هذا العدد (من مجلّة الحصيلة)، لاحقًا، ص ٣٢٥-٣٤٤.

ملاحظة: المستمرِك (américaniste): هو العالِـم بلغات السّكّان البلديّين الأصليّين لأمريكا (المعروفين باسم الهنود الحُمْر) وأعرافهم وعاداتهم.

غالبًا في عصرنا هذا، في أصنافٍ مختلفة، بعضها يندرج تحت (تاريخ الإتنولوجيا)[١]، وبعضها الآخَرُ تحت (تاريخ الاستعمار). بإمكاننا أنْ نرجع مثلاً، إلى هذا النّصّ المنشور سنة ١٩٢٥:

«لـمّا تضمّ مستعمرةٌ ما سكّانًا من حضارةٍ أدْنى من حضارتنا أو مختلفة جدًّا عنها، فإنّ ضرورةَ توفُّر إتنولوجويّين (ذوي نزْعةٍ إتنولوجيّة / (ethnologistes جيّدين فيها تُضاهي ضرورةَ وجود مهندسين جيّدين، وغابيّين (forestiers) جيّدين أو أطبّاءَ جيّدين. [...] كُلُّنا نُقِرُّ بأنّه، من أجل تنمية مستعمراتنا، بشكلٍ تامٍّ واقتصاديٍّ أيضًا، بأقصى حدٍّ ممكنٍ، لا تكفي الرّساميلُ الماليّةُ. يَلزمنا أيضًا علماءُ، وتقنيّون، يقومون بإحصاء الثّروات الطّبيعيّة لتلك المستعمرات (المناجم، والغابات، والثّقافات، إلخ.) ويَدُلّوننا على طرق استغلالها المثلى. وأُولى تلك الثّروات الطّبيعيّة، التي لا يمكن، من دونها، أنْ يكون لغيرها أيُّ قيمة، خاصّةً في المناطق الاستوائيّة والمداريّة، أليْست هي السّكّانَ البلديّين الأصليّين؟ ألا توجد، إذنْ، مصلحةٌ أساسيّةٌ في دراسة هذه الثّروة البشريّة، أيْضًا، بشكلٍ علميٍّ منهجيٍّ، واكتساب معرفةٍ صحيحة معمَّقةٍ حول لُغاتها، وحول أديانها، وحول بِناها الاجتماعيّة التي من الحماقة تحطيمُها بخفّةٍ؟»

يُرتّب هذا النّصُّ الإتنولوجيّين (ذوي النزعة الإتنولوجويّة / (ethnologistes (هكذا هو يسمّيهم، بدل أن يسمّيَهم: إتنولوجيّين (علماء الإتنيّات، أو الأعراق / (ethnologues)، يُرتّبُهم ضمن العلماء والتّقنيّين الذين يسهمون، من خلال نَظْم (mise en ordre) العالَم الاستعماريّ، في تحقيق استغلالٍ عقلانيٍّ للطبيعة الاستوائية والمداريّة. وهكذا نرى أنّ السّكّان البلديّين الأصليّين، لـمّا يُصنَّفون في خانة (الثّروات الطّبيعيّة)، ولـمّا يُعدّون العنصرَ الأساسَ الذي يتوقّف عليه استغلالُ الثروات الأخرى، يصبحُ من الضّروريّ وجودُ خبراءَ مختصّين لدراستهم. بحِذاءِ المهندسين والغابيّين، المُكلَّفين بإخضاع الطّبيعة وتسخيرها، يجب على الأطبّاء و«الإتنولوجيّين» (ethnologistes) أن يعتنوا بالسّكّان البلديّين الأصليّين، أولئك يعالجون الأبدانَ، وهؤلاء ينكبّون

١. يتوافق مصطلحُ «إتنولوجيا» (علم الأعراق / (ethnologie مع التّسمية التي فرضت نفسها، بشكلٍ تصاعديٍّ تدريجيٍّ، في فرنسا خلال هذه الفترة، لِتعنيَ مجموعةَ علم الإنسان، التي تتّخذ موضوعًا مُفضَّلاً لها السّكّانَ «البدائيّين» (primitives) و«البلديّين الأصليّين» (indigènes)، ويندرج تحتها: علمُ الألسنيّة (linguistique)، والإتنوغرافيا (الإتنيّة/العِرْقيّة الوصفيّة / (ethnographie، والأنتروبولوجيا الماديّة (علم الإناسة/علم الإنسان الماديّ / (anthropologie physique و [علم] ماقبل التّاريخ (préhistoire). من أجل التّبسيط، سوف لنْ أدخل هنا في التّفاصيل حول التّسميات المختلفة والتّعريفات المتضاربة للمعارف المتعلّقة بهذه العلوم. سوف أستعمل مصطلح «المعرفة الأنتروبولوجيّة» (savoir anthropologique) للإشارة إلى مجال المعرفة هذا الذي تعدّدت الأسماءُ المشيرةُ إليه، وقتها: الإتنولوجيا، الأنتروبولوجيا، الإتنوغرافيا، الفولكلور، إلخ.، والتي كانت الحدودُ بينها، وتحديدًا بينها وبين الجغرفيا، أحيانًا غيرَ مُحدّدةٍ بدقّةٍ.

على فَهْم (الحضارات). إنّ إعلانًا صريحًا كهذا يُمكن أنْ يُقرَأَ اليومَ بوصفه انتهاكًا شنيعًا لِقيَم استقلاليّة العِلم. إنّ ما يجعل مثل هذه القراءة إشكاليّةً (محلَّ إشكال)، هو مَوقعُ كاتبِه، الذي هو واحدٌ من المواقع الأكثر مرموقيّةً في الوسط الجامعي الفرنسي في ذلك الزّمن. إنّه لوسيان ليفي-بروهْلْ (Lucien LÉVY-BRUHL)، أستاذُ الفلسفة في جامعة السوربون، ومديرُ المجلة المعتبرَة وذات التّأثير «المجلة الفلسفيّة» (Revue philosophique)، والقريبُ من المجموعة الدّوركايميّة (groupe durkheimien)، والعالِمُ المعروفُ دُوَليًّا لأعماله حول «العقليّة البدائيّة» (mentalité primitive).

تلك الفقرةُ التي أوردناها، آنفًا، مُستلَّةٌ من نصٍّ يَعرضُ معهدَ الإتنولوجيا في جامعة باريس، الـمُؤَسَّسَ حديثًا[١]. بدتْ حُججُ ليفي-برُوهْل، الأمينِ العامِّ للمعهد، مُقْنِعةً بما يكفي للحُكّام الاستعماريّين لكيْ يُخصِّصوا للمشروع مبالغَ ماليّةً مهمّةً. سنة ١٩٢٩، مثلاً، تلقّى المعهدُ دعمًا من المستعمرات بقيمة ١٦٦ ٠٠٠ فرنكًا فرنسيًّا، مقابل ١٠ ١٦٠ فرنكًا كإيراداتٍ خاصّةٍ، أيْ بنسبة ١٦ إلى١ [٢]. لقد كان معهدُ الإتنولوجيا متوقّفًا في وجودِه نفسِه على دعم المستعمرات.

يمكننا مقاربةُ هذا النصِّ لمُرافعٍ (plaidoyer) آخَرَ مناصِرٍ للاستعمار العلميّ، سابقٍ زمنيًّا للنصِّ الأوّل ببضع بسنواتٍ:

«اليومَ، [...] بدأ الاستعمارث مرحلتَه العلميّةَ [...]. هنا أيْضًا، يجب أنْ **نعرفَ** لكي **نفعلَ** و**نستشرفَ** [...]. تتطلّب تنميةُ إفريقيا السّوداء، فِلاحيًّا (زراعيًّا)، دراساتٍ فِلاحيّةً مفصّلةً، وتجاربَ تُتابَع باستمرارٍ وبموضوعيّةٍ ونزاهةٍ، بلْ إنّ هذه التّنميةَ تتطلّبُ، أيْضًا، وبالدرجة نفسِها، معرفةَ البيئة الاجتماعية للسكّان البلديّين الأصليّين، ومعرفةَ الفلاّح الأسود، وعقليّتَه، وأساليبَه، ومؤهّلاتِه»[٣].

إنّ هذا التّأكيد على دورِ علمٍ موضوعيٍّ نزيهٍ من أجْل تنمية المستعمَرات لم يكنْ مجرّدَ خطابٍ بلاغيٍّ: فمُؤلِّفُه، جُول بريفْيِي (Jules BRÉVIÉ/١٨٨٠-١٩٦٤)، الحاكمُ العامُّ لإفريقيا الغربيّة الفرنسية (Afrique-Occidentale Française (AOF))، من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٣٧، سوف يقوم بدورٍ مهمٍّ في إنشاء مؤسّساتٍ بحثيّةٍ في العالَـم الاستعماريّ [الفرنسيّ]؛ فقد أسّس سنة ١٩٣٧ المعهدَ الفرنسيَّ لإفريقيا السّوداء (IFAN)، ثمّ في سنة ١٩٤٢ ديوانَ البحوث العلميّة الاستعماريّة،

١. لِيفِيبرُوهْلْ، لوسْيانْ، مجلة الإتنوغرافيا والأعراف والعادات الشّعبيّة، ج ٣٣-٣٤، ٤٢١.

٢. المصدر السابق، ص. ٤٢١.

٣. «العلم والاستعمار»، نصٌّ مُستلٌّ من مجلة العلم والصّناعة، مُستعادٌ في بريفْيِي.

الذي أصبح في ما بعد معهدَ البحوث العلميّة والتّقنيّة لـِ ماوراء-البحار (OSTROM)[١].

كيف يُفسَّر هذا التّشابُهُ الغريبُ بين نصّيْن، كاتباهُما يَشغلان مَوْقعيْن متباعدَيْن جدًّا مبدئيًّا، من الصّفوة (النّخبة) الجامعيّة إلى الإدارة الاستعماريّة العليا؟ يوجد جوابٌ جاهزٌ فوريٌّ لهذا السّؤال، يُذْكَر غالبًا في حلقات الجدل حول موضوع (الأنتروبولوجيا والاستعمار): لقد تمّ وضع الإتنولوجيّين (ethnologues) في خدمة الاستعمار، الذي قدّموا له أدوات للتّلاعب (manipulation) بالمستعمَرين. وهكذا، سوف يصير هذا التّشابهُ في الخطاب الـمُؤشِّرَ على تواطُؤٍ موضوعيٍّ. بينما تَرى قراءةٌ أخرى معارِضةٌ لها، أنّ ذلك التقاربَ كان تعبويًّا (تكتيكيًّا/ tactique) خالصًا: إنّ تصريحاتٍ كتلك التي أعلنها ليفي-بروهل (أو مالينوفسكي) لم تكن سوى محْضِ «خطاباتٍ تملُّقٍ بلاغيّةٍ» (courbettes rhétoriques) للسّلطات الاستعماريّة، فرضتها الضّرورةُ لكيْ يتمكّن الباحثون من متابعة أغراضهم (الحقيقيّة)، العلميّة الخالصة[٢].

إذا ما أعرضْنا عن التّفاسير التّبسيطيّة المتناظرة، سواء المتّسمة منها بالإدانة (dénonciation) أم بالإنكار (dénégation)، يجب علينا أنْ نفهمَ ما الذي يعنيه ذلك التّقاربُ الذي حصل بين علماءَ معروفين ورجالِ استعمارٍ حول المطالبة باستعمارٍ عقْلانيٍّ، قائمٍ على الدّراسة العلميّة للسّكّان البلديّين الأصليّين. لأجل استكشاف هذا الالتقاء، الجزئيِّ، لا أقلَّ، بين العقلانيّة الإداريّة والعقلانيّة العلميّة، أعتقد أنّ مفهوم «الهيمنة العقلانيّة» (domination rationnelle) يقدّم لنا مسارًا للتّحليل والفهم.

٢/ «الهيمنةُ الدِّيوانيّةُ (البيروقراطيّةُ)» و«العقْلنةُ»

في الواقع، من الممكن أنْ نجد لدى ماكس فيبر بعضًا من أدوات التحليل لظاهرة وجود تقاربٍ بين العقلانيّة الإداريّة والعقلانيّة العلميّة، وبشكلٍ خاصٍّ في تحليله لـلهيمنة العقلانيّة، التي تجسّدها الدّيوانيّة البيروقراطيّة (bureaucratie)[٣]. إنّ ما يمنح الغِنى للتّحليل الذي يُقدّمه فيبر للهيمنة، وفي

١. أصبح اسمه مؤخّرًا معهد البحوث من أجل التّنمية. انظر: بُونُّويْ، كرِيسْتوفْ، علماء من أجل الامبراطوريّة، ١٩٩١.

٢. انظر، مثلًا، گُودي، جاكْ، مرحلة التوسّع، الأنثروبولوجيا في بريطانيا وإفريقيا، ص ٤٢-٤٣: راجع التّحليل الذي قدّمه في مقدّمة هذا العدد (من مجلّة الحصيلة)، سابقًا، ص ٢٣٣-٢٦٣.

٣. على وجه الخصوص في فيبر، (أنماط الهيمنة الشّرعية)، ص ٢١٧-٢٢٦، فيبر ماكس، علم اجتماع الأديان، ج٢، الفصل ١١، (البيروقراطيّة)، ص ٩٥٦-١٠٠٥، انظر أيضًا فيبر، ماكس، علم اجتماع الأديان، ص. ٣٦٩-٣٧٥. لا تنشغل قراءتُنا لـ ماكس فيبر بالهمّ التّفسيريّ، بل هي تهدف إلى استخراج أدواتٍ للتحليل، لا أكثرَ.

الوقت نفسِه يلفّه بالغموض، هو طابعُه المزدوج:

- فمن جهةٍ، نجد أن تصنيفيّته (typologie) مبنيّةٌ، صراحةً، لا انطلاقًا من مميِّزاتٍ فعليّةٍ (حقيقيّةٍ) للهيمنةِ، بل انطلاقًا من مبدإٍ (أساسٍ) للشرعيّة (légitimité) مطلوبٍ لأجلِ هذه الهيمنة؛
- ومن جهةٍ أخرى، نجد أنّ فيبر يقدّم، في الحقيقة، في تحليله توصيفًا لـ المميِّزات الشكليّة (traits formels) لمختلف أنماط الهيمنة، وهي مميِّزاتٌ لا يبدو، بالضّرورة، أنّ مبدأَ الشرعيّة المهيْمِنَ هو الذي يُحدّدها.

بإمكاننا، إذنْ، أنْ نحلّلَ مفهومَ (الهيمنة العقلانيّة) مع الأخذ بعين الاعتبار هذيْن الجانبيْن.

يرى فيبر أنَ الهيمنةَ الدّيوانيّةَ (البيروقراطيّة)، هي شكلُ الهيمنة الحديث المحْض (spécifiquement moderne)، الـمُميَّز، تحديدًا، بطابعِه العقلانيِّ، القابلِ للحساب والإحصاء. إنّها تُمثّل درجةَ الكمال، من وجهة نظر الهيمنة، لسيرورة العقلنة التي هي، باعتقاد فيبر، خاصّةٌ بالغرب[١]. وِفق هذا المنظور، نرى أنّ مفهومَ (الهيمنة العقلانيّة) يأخذ، جوهريًّا، معنًى شكليًّا (formel)، نظرًا إلى أنّ الدّيوانيّةَ (البيروقراطيّةَ) تدعم إجراء «عقْلنة» (rationalisation) لطرائق الهيمنة. إنّ ما يجعل من الهيمنة الدّيوانيّة (البيروقراطيّة) شكلًا للهيمنة «عقلانيًّا مَحْضًا» (spécifiquement rationnelle)، هو أنّها، بالتّحديد، هيمنةٌ قائمةٌ على المعرفة[٢].

وهكذا يتبيّن، إذنْ، أنّ الحاجةَ للمعرفة تنخرط ضمن مقتضَيات الإدارة الدّيوانيّة/البيروقراطيّة، وأنّ إنتاجَ نوعٍ خاصٍّ من المعرفة يبدو بمنزلة أحد مميِّزات هذا الشّكل من الهيمنة. لقد شجّع تطوُّر الهيمنة الدّيوانيّة (البيرقراطيّة) نوعًا من التّكوين الاختصاصيّ (formation spécialisée)، من خلال تركيزه على ضرورة تحسين الكفاءة التّقنيّة للموظّفين. وبهذا يتبيّن لنا أنّ للهيمنة الدّيوانيّة/البيروقراطيّة، لدى فيبر، ارتباطًا وثيقًا بظاهرتيْن أُخريَيْن:

- من جهةٍ، بمسارِ عقلنة.
- ومن جهةٍ أخرى، بأهمّيّةِ المعرفة والخِبرة، سواء في الممارسات الإداريّة، أم في تكوين الوكلاء[٣].

---

١. فيبر، ١٩٧١، ص. ٢٢٣: النّمطُ الديوانيُّ (البيروقراطيُّ) المحضُ هو «من وجهة نظرٍ تقنيّةٍ محضٍ، قادرٌ على إدارك الدّرجة العليا من الفّعّاليّة وهو، بهذا المعنى، قطعًا، الأكثرُ عقلانيّةً من بين الوسائل المعروفة لممارسة الهيمنة على الكائنات البشريّة».

٢. فيبر، ماكس، الاقتصاد والمجتمع، ص ٢٢٥.

٣. فيبر، ماكس، الاقتصاد والمجتمع، موجزٌ في علم الاجتماع التّحليليّ، المجلد الثّاني، ص ٩٩٨: «تدعمُ دَيْوَنَةُ (بَرَقْرطةُ / bureaucratisation) أيِّ هيمنةٍ بشدّةٍ تنميةَ الموضوعيّةِ العقلانيّةِ ونمطَ شخصيّةِ الخبيرِ المحترفِ».

وهكذا يتبيّن أنّ عقلنةَ الأدواتِ المعرفيّةِ، في ميدان العمل، المدعومةَ من النّشاط الدّيواني (البيروقراطيّ)، وجدت نفسها تلتقي من قريبٍ مع عقلنة منظومات إنتاج المعرفة التي يقوم بها النّشاط العلميّ[١].

عند هذا المستوى الأوّل من القراءة، يُتصوَّر الطّابعُ العقلانيُّ كمُميِّزٍ إيجابيٍّ، يميِّز هذا الشّكلَ من الهيمنة مقابل الأشكال غير العقلانيّة للهيمنة القُدْسيّة القائمة على الهيبة الشخصيّة (الكاريزميّة / (charismatique والهيمنة التّراثيّة (التّقليديّة / (tradionnelle. ومع ذلك، يكمننا، أيضًا، تحليل الهيمنة ذات الـنّمط «العقلانيّ-الشرعيّ» (rationnel-légal) بإعطاء دورٍ محوريٍّ لمفهومَيْن مُترابطيْن هما الشّرْعنةُ (legitimation) والاعتقادُ (croyance). في الواقع، يؤدّي الاعتقادُ دورًا محوريًّا في تحليل فيبر للهيمنة. تقوم الشرعيّةُ «التّراثيّة/التّقليديّةُ» على الاعتقاد في طابعٍ مقدَّسٍ للتّراث/التّقليد، كما أنّ الشرعيّة القُدْسيّة/الكاريزميّة قائمةٌ على الاعتقاد في وجود هبةٍ فَوْطبيعيّة (فوق- طبيعيّة / (surnaturel في القائد المقدَّس/الكاريزميّ. وعلى هذا المنوال، يرى فيبر أنّ الهيمنةَ الشرعيّةَ تقوم على الاعتقاد في طابعها (المتطابق مع الشرعيّة) والعقلانيّ. إذا ما جاز لنا أن نُعرِّفَ شكلَ الهيمنة الخاصَّ بالحداثة باعتباره (هيمنةً عقلانيّةً)، فإنّ ذلك بمعنى كون الشرعيّة تقوم على الاعتقاد، بما أنّها في الحقيقة قائمةٌ في العقل[٢]. ولذلك فإنّ الرِّهان، وفق هذا المنظور، ليس هو تقويمَ الطابعِ الأكثرِ (أو الأقلّ) عقلانيّةً، فعليًّا، للهيمنة الدّيوانيّة (البيروقراطيّة) الحديثة (كما أنّ الطابع التراثيّ/التقليديّ، حقًّا، للهيمنة التّراثيّة/التّقليديّة» لم يكن هو الشُّغلَ الشّاغلَ لـ فيبر)، بلْ كان الرّهانُ تحليلَ المعنى المقصودِ من كون الهيمنة الديوانيّة (البيروقراطيّة) تفرض نفسَها باسم العقل. وهكذا يستدعينا فيبر إلى التّعامل بجدِّيّةٍ مع خطاب تبرير الهيمنة (عوضًا عن وصْمه، باديَ الرأي، بأنّه خطابٌ إيديولوجيٌّ)، وذلك لأنّ له آثارًا على (اعتقادات) الأطراف المشمولة بعلاقة الهيمنة، وعلى المسار العمليّ لهذه الهيمنة.

من وجهة النّظر هذه، يمكننا القول، متابعةً لتحليل فيبر، أنّ ما يميِّز الدّولةَ الحديثةَ، هو بالتأكيد ادّعاءُ العقلانيّة. لقد أصحبت «مطابقةُ العقل» مبدأً (أساسًا) للشرعيّة، بمعنى أنّها أصبحت، في آنٍ، حُجَّةً للتّبرير، وواحدةً من المعايير الأساسيّة في تقويم الطّابع الشّرْعي للهيمنة: وهذا ما بإمكاننا

١. فيبر، ماكس، علم اجتماع الأديان، ص ٤٩٢.

٢. فيبر، ماكس، الاقتصاد والمجتمع، موجزٌ في علم الاجتماع التّحليليّ، المجلد الثّاني، ص ٩١٩: «النقطة الحاسمةُ الوحيدةُ، بالنسبة لنا، هي أنّه، من حيث المبدأُ، توجد خلف كل فعلٍ إداريٍّ ديوانيٍّ (بيروقراطيٍّ) منظومةُ أسبابٍ قابلةٍ للنقاش بشكلٍ عقلانيٍّ، سواءً بإرجاعها إلى المعايير أو من خلال تقويم الوسائل والغايات.»

أنْ نطلق عليه اسم «النموذج الإرشادي للأنوار» (paradigme des Lumières)، الذي يقوم على تحالفٍ بين الخبراءِ إخصّائِيّي العقل (spécialistes de la raison) ومُحَدْثِني (modernisateurs) الدّولة الملكيّة (monarchique)[١]. لقد صار العلمُ، الذي يُنظَر إليه بوصفه أعلى سلطةٍ للعَقْلنة والتّقدّم، عاملاً أساسيًّا من عوامل الشّرعنة خدمةً لسلطة الدّولة، معوِّضًا في ذلك الدّينَ بشكل تدريجيٍّ تصاعديٍّ يومًا بعد آخَرَ. يُفصِح الدّعمُ الذي تُقدّمه الدّولةُ للعلم عن حقيقة أنّ الدّولةَ مُنحازةٌ تمامًا للعقلانيّة، وبذلك يصحّ القولُ: (الدّولةُ تحتكر العقلَ)، تمامًا كما هو شائعٌ القوْلُ: (الدّولةُ تحتكر القانونَ).

ومع ذلك، من المهمّ أنّ نؤكّدَ أنّ هذه الصّياغةَ الملائمةَ في عبارتَيْ (الدّولة)، و(العلم) لا تُحيل إلى تضادٍّ دائمٍ مستحْكِمٍ بين عالَـمَيْن مُغْلَقيْن بينهما علاقةٌ خارجانيّةٌ (علاقةٌ من خارجٍ/relation d'extériorité) يُصرّ فيبر، بالخصوص، على ضرورة أنْ يُؤْخَذ بعيْن الاعتبار دورُ وكلاء الدّولة، الذين لهم مصلحةٌ خاصّةٌ في العقْلنة الشكليّة (formelle)، نظرًا إلى أنّها تحميهم من تعسّف السّلطة السّياسيّة. يبدو من المفيد أكثرَ أنْ ننتقلَ في نظرتنا إلى الدّولة من كونها فضاءً من الكُتل المتراصّة المتصارعة إلى كونها فضاءً للتّنافس بين مجموعاتٍ متواقِفةٍ (متوقِّفٌ بعضُها على بعضٍ interdépendantes)، حيثُ يتدخّل «أخصّائِيّو المعرفة» (الذين قد يكونون وكلاء للدّولة وقد لا يكونون)، في آنٍ، كـرُوّادَ للعمل (protagonistes) وكـحلفاء كامنين (حلفاء بالقوّة/potentiels[٢]). وبالمثل، فإنّ مفهومَ (العلم) لا يُحيل إلى تعريفٍ ثابتٍ جامدٍ (immutable) للعلم، بل إلى مجموعة التّطبيقات التي توصَف بأنّها (علميّةٌ) في فترةٍ ما، والتي تُمثّل الحدودُ بينها رهانًا أساسيًّا. يجيزُ مفهومُ (الهيمنة العقلانيّة)، كما يستعمله فيبر، إذنْ، قراءةً مزدوجةً:

- من جهةٍ، هو يُميِّز أشكالَ عقلنةٍ لطرائق الهيمنة؛
- ومن الجهةِ الأخرى، هو يُحيل إلى مبدإِ الشّرْعنة الـمُتذرَّع به (invoqué)، أيْ إنّه يُحيل إلى ادّعاء وجودِ هيمنةٍ تَعرض نفسها بتأكيدٍ، بوصفها عقْلانيّةً.

إذا ما حلّلنا الطّريقةَ التي يُمكن للهيمنة العقلانيّة أنْ تُجنِّد بها العلمَ، لنا أنْ نُقابلَ بين بُعْدَيْن:

- من ناحيةٍ، يُزوِّد العلمُ الدّولةَ ووكلاءَها بالموارد الضّروريّة لعقْلنة أدوات التّوجيه والمراقبة

١. بريبَانْ، إيريكْ، قياس الدّولة، المسؤولون الإداريّون وعلماء الهندسة في القرن الثّامن عشر.

٢. ترتكز هذه الرؤيةُ على تحليلٍ قام به فيبر، ماكس، علم اجتماع الأديان، ص ٢٤١-٣٢٨، وهو تحليلٌ للعلاقة بين الهيمنة القَدَاسويّة (hiérocratique) والهيمنة السّياسيّة.

والتّحكّم (contrôle)، أيْ إنّه يقوم بـ الإمداد بالأدوات (instrumetation)؛

• من الناحيةِ الأخرى، يُمكن تجنيدُ العلم في استراتيجيَات الشّرْعنة[١]:

عندما نراجع مختلفَ التّحاليل للعقلانيّة العلميّة، وتحديدًا بالشّكل الذي تأخذه في العلوم الاجتماعيّة، في علاقتها بالأشكال الحديثة للهيمنة، نلاحظ أنّها قد انقسمت في ما بينها، في تفضيل أحد هذَيْن البُعْديْن أو في تفضيل نظِيره، فقسمٌ منها يُصرُّ على بُعْد الشّرْعنة، بينما يُصرُّ القسمُ الثّاني على بُعْد الإمداد بالأدوات، المرتبط بظهور التّقانات السّياسيّة» (technologies politiques). أظنّ أنّه من الأجدى متابعة التّحليل مع الحفاظ على المعنى المزدوج التي يتّخذه مفهومُ (الهيمنة العقلانيّة) لدى فيبر. أحدُ منافع الرّجوع إلى مفهوم الشّرْعنة هو أنّه يسمح بالإفلات من تحليلٍ يُفْرِطِ في حصر الأمر في بُعْد التّسخير (instrumentalisation)[٢]. كما يمكّننا مفهومُ الشرْعنة من تجاوز التّعارض السّاذج (البسيط جدًّا)، والمثقَل جدًّا بالأحكام القيميّة، بين معرفة نفعيّة (utilitaire)، مُنْتَجةٍ مباشرةً لغاياتٍ أداتيّة، ومعرفةٍ «غيرِ نافعة» (inutile)، مفروضٍ أنّها نزيهةٌ مترفِّعةٌ عن الغايات الرِّبحيّة (désintéressé)، وبالتّالي فهي أكثرُ نُبْلًا وسُمُوًّا (plus noble)؛ وفق منظور شرْعنة الهيمنة، قد يتبيّن أن معرفةً «مجّانيّةً» (gratuit)، غيرَ رِبحيّةٍ (non intéressé)، هي أكثرُ فعّاليّةً من معرفةٍ موجَّهةٍ، بشكلٍ سافرٍ، نحو الأغراض العمليّة.

يمثّل هذان البُعْدان نموذجَيْن مثاليَّيْن: يجب عدمُ تصوُّرِهما بوصفهما احتماليْن نقيضَيْن ممنوعَيِ الجمع، يتناوبان الانحصار، بل بالأحرى، يجب التّعامل معهما بوصفهما قُطبيْن متضادّيْن، توجد بينهما الممارساتُ الاستعماريّةُ المتنوّعةُ. وهكذا يتيسّر تحليل ادّعاء عقلنة معرفة السّكّان البلديّين الأصليّين في السّياق الاستعماريّ، لا فقط من وجهة نظر تطوير ترسانةٍ من الأدوات الضّروريّة لفكّ رموز العالَـم المستعمَر، بل أيضًا من وجهة نظر خطاباتِ شرْعنة الهيمنة.

٣/ دراسةُ هويّةِ الأعراق وفهمُ السّكان البلديّين الأصليّين

لقد جرى تحليل عمليّة المعرفة العلميّة للأقاليم المستعمَرة وللسّكّان الخاضعين للاستعمار، بشكلٍ أساسيٍّ، استنادًا إلى البُعْد الأداتيّ (الإمداد بالأدوات): وهكذا، فإنّ المجهودَ المعرفيَّ الضّخمَ، الذي أنجزه، منذ ما قبل عمليّات الغزو وخلالها، أنجزه المستكشفون، ثمَّ العسكريّون، قد

١. من أجْل صياغةٍ أُولى، انظر ليتْوَالْ، بينْوَا دو، حَكْرُ الأنثروبولوجيّين الطّبيعيُّ، ص ٣٤٨.

٢. أعرضْنا عن استعمال مصطلح «التّسخير» (instrumentalisation)، الذي يُستعمَلُ غالبًا بِقصدٍ إدانيٍّ، وسوف نستعمل هنا مصطلَحَ «الإمداد بالأدوات» (instrumentation)، الأقوى دلالةً على المعنى المقصود.

أمكن تحليلُه وفق منهج العمل الاستعلاميّ (جمع المعلومات/renseignement) الذي يمثّل جزءًا من ترسانة تقانات الغزو، ثمّ السّيطرة وإدارة السّكّان البلديّين الأصليّين، الـمُطوَّعين (pacifiés)[١]. بشكلٍ أعمَّ، تتضمّن سياسةُ الأقاليم الـمَغْزُوّة فعلَ عقلنةٍ، بمعنى نَظْمٍ للعالَم المستعمَر. توفّر خطاباتُ علماءِ الأنتروبولوجيا، في نُسَخها المختلفة، مجموعةً من الأدواتِ إلى هذه المهمّة التوجيهيّة وإلى هذا النّظم: تقترح هذه الخطاباتُ معاييرَ لدرْسِ هُويّة السكّان البلديّين الأصليّين وقوالبَ منهجيّةً للتّأويل توفّر فهمًا مُجلِّيًا للسّلوكات التّي تُعدّ غريبةً مُربِكةً.

لقد ادُّعيَ هذا الغرضُ، في أغلب الحالات؛ في الواقع، قد كانت الإدراةُ الاستعماريّةُ تنطلق أوّلاً من منطق الجدوى العمليّة لتبريرِ ضرورة إنتاج المعارف المتعلّقة بالمناطق والسكّان التّي تنوي السّيطرةَ عليها وإدارتَها. توصي الهرميّةُ الإداريّةُ [الاستعماريّة]، بانتظامٍ، بإنتاج أعمال حوْصلة (travaux de synthèse) تصوِّر، في شكل دراساتٍ أُحاديّةٍ (monographies) وافيةٍ، الحالةَ المعرفيّةَ حول مختلف الدّوائر[٢]. وهكذا، نرى أنّ المفوَّضَ [الاستعماريَّ] المعتمدَ في جمهوريّة الكاميرون يُصرّ، سنة ١٩٢٠ على إلحاحيّة (استعجاليّة / (urgence) معرفة هذا الإقليم، الذي سُحِبَ من ألمانيا [المهزومة] ومُنح لفرنسا تحت وصاية عصبة الأمم إثرَ الحرب العالميّة الأولى. لقد طَلب، إذنْ، تحريرَ دراساتٍ أُحاديّةٍ، تضمُّ فصلاً حول الإتنوغرافيا، التّي يقترح لها المخطَّطَ التّاليَ:

«الإتنوغرافيا. التّاريخ - اللّغات – العادات والأعراف - القانون العُرفيّ - الدّين - تجمّع السكّان والزّعامة البلديّة الأصليّة (indigène) - مميّزات العِرق - السكّان [البلديّون الأصليّين] - الكثافة - السّكن - أشكال الحياة العائليّة - الملابس»[٣].

تمثّل دراسةُ مجموعات السكّان البلديّين الأصليّين المتباينة، التّي تُسمّى عُمومًا «أعراقًا» (races) وضرورةُ ملاءَمةِ السّياسة التّي يجب اتّباعها مع كلٍّ منها وِفق مواصفاتها الخاصّة، تمثّل موضوعًا متكرّرًا في الخطابات الاستعماريّة، كما في المراسلات الإداريّة في ما بين الحربين [العالميّتين الأولى والثّانية]. توفّر الشّبكة العِرقيّة (grille ethnique) لغةً تمكِّن من فكّ رموز السكّان البلديّين

١. نورمان وريزونْ، علوم الإنسان والغزو الاستعماريّ: تأسيس العلوم الإنسانيّة واستعمالها في إفريقيا (في القرنين التّسع وعشر والعشرين)، ١٩٨٠.

٢. ومع ذلك، فإنّ تكرارَ هذه الطّلبات، نفسَه، يشي بأنّها لم تكن تُتبع دائمًا بإجراءاتٍ عمليةٍ.

٣. محفوظات وثائق (أرشيف) وكالة الكاميرون الاقتصاديّة (AEC)، أكس-إن-بروفانْس، مركز محفوظات وثائق ماوراء-البحار (CAOM)، مفوَّض الجمهوريّة في الكاميرون، المنشور عدد ٤٣.

الأصليّين. بذلت الإدارةُ جهودًا مهمّةً لتمييز «المجموعات العرقيّة» (groupes ethniques) وتحديد مواقع تمركزها الجغرافي (عوّض هذا المصطلحُ (المجموعات العِرقيّة) العلميُّ، شيئًا فشيئًا، مصطلحَ الأعراق (races))، بوصف ذلك هو الأساس لفهْم الاختلافات الاجتماعية، وهو الفهْمُ الذي ترتكز عليه، في آنٍ، الممارساتُ الإداريّةُ والخطاباتُ العلميّةُ[١]. في الواقع، لقد كان إنتاجُ أدواتٍ لدراسةِ هُويّةِ السّكّان البلديّين الأصليّين وتصنيفِهم أحدَ المجالات التي تجلّى فيها، كأفضل ما يكون، الالتقاءُ وتضافرُ الجهود بين أشكال الوضْعنة (objectivation) الإداريّة والوضْعنة العلميّة، الذي بلغ أوْجَهُ في إنتاج نسخةٍ من الإتنولوجيا، بحَصْر المعنى (تتعهّد بمهمّة إعادة تشكيل أصول الأعراق وهِـجْراتها). لقد كان الغرضُ، من المجهودات المتكرّرة للإدارة الاستعماريّة، هو إنتاجَ جداول إحصاءٍ عِرْقيّةٍ (inventaires ethniques)، توفّر تقويمًا (تقديرًا) بالأرقام للمجموعات المختلفة، وخرائطَ، ترمي إلى تحديد مواضع وجودهم جغرافيًّا[٢]. تكمن إحدى مُميِّزات تلك الأعمال في قدرتها على التّنقّل في فضاءاتٍ متنوّعةٍ. هي تريد، عمومًا، أنْ تحصر اهتمامَها في التّوجّه نحو الممارسة على أرض الواقع، مع الاستجابة لمتطلّبات المبادئ العلميّة: هذه الأعمالُ، بوصفها ثمراتٍ لعقلانيّةٍ إداريّةٍ، بإمكانها، أيْضًا، أنْ تُنْشَرَ في المجلاّت العلميّة، أو كذلك، أنْ تُستعمَل لأغراضٍ دعائيّةٍ.

وهكذا نجد أنّ مكتب الشّؤون السّياسيّة يكتب تقريرًا، في ٣٠ أكتوبر/تشرين الأوّل سنة ١٩٣٣، يرصد فيه (حالةَ مختلف المجموعات اللُّغويّة في الكاميرون)، يسجّل فيه حوْلَها تقديراتٍ رقميّةً، ويقوّم الاتّجاهاتِ الهيمنيّةَ لدى بعض المجموعات اللّغويّة، وعلى وجه الخصوص، لُغتَيْ: الفانگْ (FANG) والدُّوالا (DOUALA)[٣]. إنّ دراسةً كهذه تجد لها مُرْتكَزًا منطقيًّا في هواجس الإدارة الاستعماريّة لإنقاص عدد اللُّغات الإفريقيّة، التي تبدو كعقبةٍ أمام عمليّة التّواصل، ولأجل تعيين اللّغات التي يجب على الموظَّفين الإداريّين تعلُّمها. نُشِر هذا التّقريرُ، نفسُه، بعد بضعة شهورٍ، في جريدة جمعيّة الأفريقانيّين (Jounal de la Société des Africanistes)، لسان حال الجمعيّة

١. انظر، حول هذا الموضوع، التَحاليلَ المجموعةَ في آسْمالْ ومْبُوكولو، في قلب العِرْق. العِرقُ والقَبَليّةُ والدّولة فيلافريقيا، ١٩٩٩، وبشكلٍ خاصٍّ. جون بازِنْ، لِكُـلٍّ بامْباراه ص ٨٧-١٢٧، الذي يبيّن كيف تؤدّي الممارساتُ التّصنيفيّةُ العلميةّ والإداريّةُ إلى إزالة الغموض عن الفئات السّيالة للمجتمع ما قبل الاستعماريّ وإلى إعادة بنائها.

٢. من أجل إجراء مقارنةٍ مع حالة الهند، انظر كوهْنْ، برْنارْد، إحصاء السّكّان، البنية الاجتماعية والوضْعنة في جنوب آسيا، ١٩٨٧.

٣. AEC، CAOM، ١٦٨/٣٥٣ مكرّر، «السّكّان [البلديّون الأصليّون]، الإحصاء»، تقرير مكتب الشّؤون السّياسيّة، ٣٠ أكتوبر/تشرين الثاني ١٩٣٣.

العلميّة الّتي تحمل الاسمَ نفسَه، نُشِر تحت عنوان «جدول الإحصاءِ العِرقيّ واللُّغَويّ لِـ الكاميرون تحت الوصاية الفرنسيّة»[١]. في السّنة نفسِها، قرّر المُفوَّضُ تخصيصَ مكافآتٍ للمسؤولين الإداريّين الذين يتمكّنون من تعلُّمِ اللُّغات المحليّة، من أجل تشجيعهم على اختراقِ عقليّة المستعمَرين الذين يخضعون لإدارتهم»[٢].

في الكاميرون دائمًا، كان من بين المشاكل السياسيّة، التي شخّصتْها الإدارةُ الاستعماريّةُ، وجودُ سكّانٍ بلديّين أصليّين وثنيّين في الشَّمال، يُسمَّوْن الكيرديّين (KIRDIS)، خاضعين لهيمنة مجموعاتٍ من السّكّان البلديّين الأصليّين المسلمين، هم الفُولبيّون (FOULBÉS). قرّرتِ الإدارةُ الاستعماريّة الفرنسيّةُ، بين سنتَيْ ١٩٢٣ و ١٩٢٤، إنشاء مقاطعاتٍ (cantons) خاصّة للكيرديّين، متجانسةٍ عِرْقيًّا، مستقلّةٍ عن الفولبِيّين، وحثّت المسؤولين الإداريّين على دراسةِ (عاداتهم وأعرافهم)[٣]. بعد عشر سنوات، حرّر مديرُ مكتب الشّؤون السّياسيّة، شالور (CHALEUR)، مُذكِّرَةً طويلةً خصّصها لـ «منطقة الشّمال» [في الكاميرون]، وذلك في سياق التّحضير للجولة التي كان مُفوّضُ الجمهوريّة [في الكاميرون] قد قرّر القيام بها في المنطقة. أكّد الكاتبُ، في مُذكِّرته، أنّه «إذا ما كان تركيزٌ خاصٌّ قد انصبّ على قبائل شمال الكاميرون، فذلك لأنّ المسألةَ السّياسيّةَ متوقّفةٌ، بشكلٍ أساسيٍّ، على التّحركات، وعلى العلاقات وعلى ردود الأفعال التي تقوم بها الأعراقُ المتنوّعةُ التي تسكن تلك المنطقةَ».

لقد خصّص شالور، كاتبُ المُذكِّرةِ، ستًّا وعشرين صفحةً للأعراق (races)، التي يُقدّم لها «تقسيمًا عرقيًّا» (repartition ethnique)[٤]، مُعزَّزًا بالأرقام والخرائط. كما حرّر شالور، هذا نفسُه، بين سنتَيْ ١٩٣٥ و ١٩٣٧، انطلاقًا من الوثائق المحفوظة الخاصة بدائرته في العمل، ومن أعمال الأنتروبولوجيا الماديّة (anthropologie physique) التي قام بها الدّكتور ليونْ بُوتْرَنْ (Léon POUTRIN)، ومن أعمالٍ ألمانيّة، حرّر ما سمّاه (دراسةً عامّةً تتعلّق بسكان الكاميرون)، كانت تهدف، بشكلٍ خاصٍّ، إلى إثبات أصولِ مختلَفِ المجموعات العِرْقيّة، وهجراتها وأخْلاطها؛ نُشِرتْ هذه الدّراسةُ بعد ذلك، سنة ١٩٤٣، في نشرة جمعيّة الدّراسات الكاميرونيّة (Bulletin de

١. «جدولُ الإحصاءِ العِرقيُّ واللُّغَويُّ للكاميرون تحت الوصاية الفرنسيّة»، ١٩٣٤.

٢. قرار ٢١ أفريل/نيسان ١٩٣٣، المجلة الرسميّة للمستعمَرات، ص ٢٤٤.

٣. AEC، CAOM، ٢٩٠٣/٩٢٨، (المُذكِّرات)، ملفّ «تطويع شمال الكاميرون» (Pacification Nord Cameroun)، انظر أيضًا التقرير السّنوي لسنة ١٩٢٤ للحكومة الفرنسية حول الإدارة المفوَّضة في أراضي الكاميرون، ص ٢٤.

٤. AEC، CAOM، C٨٨٨، (الـمُذكِّرات)، المنطقة الشَّماليّة، بالآلة الرّاقنة، ص١٤٥.

la Société d'études camerounaises)، تحت اسم (مّخطَّطٌ عِرْقِيٌّ إجماليٌّ للمساعدة في دراسة القبائل الرئيسيّة الموجودة في الأراضي الكاميرونية الخاضعة للوصاية الفرنسيّة)[١].

تعطي حالاتُ مرورِ التّقارير الإداريّة، هذه، من مكاتب الإدارة [الاستعماريّة] إلى نشرها في الدّوريّات العلميّة في شكل دراساتٍ علميّة، تعطي مثلاً على الانتقال من أشكالٍ من المعرفة الإداريّة إلى خطابٍ علميٍّ. إنّ استعادةَ مؤسّسات البحث، التي بدأت شيئًا فشيئًا بالتمركز في الأراضي المستعمَرة، للمهمامِّ التّصنيفيّة لأمْرٌ ذو دلالةٍ هامّة. إنّ تحويل لجنة الدّراسات التّاريخيّة والعلمية الخاّصة بإفريقيا الغربيّة الفرنسيّة (AOF)، وهي جمعيّةٌ علميّةٌ كانت تضمّ، تحت مسؤوليّة الحاكمِ العامِّ، المستعمِرين المـَعْنيّين، إنّ تحويلها إلى «المعهد الفرنسيّ لإفريقيا السّوداء» (Institut Français de l'Afrique Noire / IFAN)، تحت إدارة باحثين مُنْتدَبين (détachés) من المركز الاستعماريّ، يمكن قراءتُها على أنّها عمليّةُ منحٍ تدريجيٍّ تصاعديٍّ للاستقلاليّة لجهاز إنتاج المعارف عن الجهاز الإداريّ، وإعادة ربْطٍ له مع المراكز العلميّة المركزيّة (métropolitains/ المستقرّة في المركز الاستعماريّ). وعلى الرّغم من ذلك فإنّ المعهد (IFAN) استمرّ في إعداد جداولَ إحصاءٍ للسّكّان الأصليّين ودارسة هوّياتهم، من خلال إعداد (ملفّاتٍ تقنيّة)، في مراكزه المتعدّدة، يغذّيها بمعطياتٍ يجمعها مسؤولون إداريّون وباحثون. في الكاميرون، استُعيد عملُ شالور، استنادًا إلى المعلومات المستقاة من محفوظات وثائق (archives) مكتب الشّؤون الخارجيّة، مُطعَّمةً بتقارير الجولات الميدانيّة، وبالإحصائيّات وبمساهمات رؤساء الدّوائر وأعضاء القسم الصحّيّ، وأدّى، سنة ١٩٤٩، إلى نشر (جدول الإحصاء العِرْقيّ لجنوب الكاميرون)[٢]. وحصيلةُ هذه المعرفة، الـمُراكَمة بشكلٍ جماعيٍّ، قامتْ بإعدادها إيديلاتْ دُوگَاسْتْ (Idelette DUGAST)، التي تُجسّد مسيرتُها المهنيّةُ عمليّةَ الانتقال من المعرفة الإداريّة إلى علم الأعراق (الإتنولوجيا / ethnologie الجامعيّ[٣].

١. دُوگَاسْتْ، إيديلاتْ، مقالةٌ حول سكّان الكاميرون ص VI.

٢. دشّن هذا العملُ سلسلة «مّذكّرات المعهد الفرنسيّ لإفريقيا السّوداء» (مركز الكاميرون) المخصَّصة لـ«السّكان البلديّين الأصليّين»، انظر دُوگَاسْتْ، إيديلاتْ، جرْدةُ حسابٍ عِرْقِيّةٌ لجنوب الكاميرون، المقدّمة.

٣. في العقد الرّابع من القرن العشرين (الثّلاثينات)، كانت إيديلاتْ دُوگَاسْتْ تلميذةً في معهد علم الأعراق، الذي أرسلها في بعثة إلى الكاميرون، وهناك تزوّجها روني دُوگَاسْتْ، القائدُ الإداريُّ للمستعمَرات؛ سنة ١٩٤٣، صارت السكريتيرةَ المُوثّقةَ (secrétaire-archiviste) في مجتمع الدّراسات الكاميرونيّة، الذي تحوّل في السنة التّالية إلى مركزٍ محليٍّ لمعهد (IFAN).
قد ساهمت أيضًا في الحملة الواسعة لتكوين حصيلة منهجيّة، التي نسّقها المعهدُ الإفريقيُّ الدُّوَليُّ، ضمن مشروع المسح العِرْقيّ لإفريقيا (Ethnographic Survey of Africa)، انظر دُوگَاسْتْ، بابانْ، وبافْيا، وبالُومْ» في «شعوب وسط الكاميرون»، ١٩٥٤؛ وهي، أخيرًا، مُؤلّفةُ «مُذكّرة حول قبيلة النّديكيّين (بانان الكاميرون)» (Monographie de la tribu des Ndikis (Banen du CAMEROUN))، انظر دُوگَاسْتْ، دراسةٌ أُحاديّةٌ لقبيلة النديكيّين ١٩٥٥-١٩٥٩.

ويَصْدُق هذا التّحليلُ نفسُه بالنّسبة للخرائط العِرْقيّة، الأداة الفعّالة لدراسة الهُويّات العرقيّة، في آن، على المشرب العلميّ وعلى المشرب الإداري[١]. سنة ١٩٣٩، نشرتْ مجلّةُ جمعيّة الأفريقانيّين (خريطةً موجَزةً مُبسَّطةً للسّكّان البلديّين الأصليّين في الكاميرون)، أنجزها إتنوغرافيٌّ (إتنيٌّ وصْفيٌّ/ ethnographe) شابٌّ، عضوٌ في بعثة گرِيوُلْ (GRIAULE) الرّابعة، المعروفة باسم «الصّحراء-الكاميرون» (والرّائدة مستقبلاً في البحث الحَضريّ)، اسمهُ بول- هنري شُومْبارتْ دو لُوْ (Paul-Henry CHOMBART DE LAUWE)، أنجزها بمشاركة المسؤولِ الإداريِّ- القائد للمستعمَرات، ج. دِيبُودُو (J. DEBOUDAUD)[٢]. أشار الكاتبانُ إلى أنّ الغرضَ الأساس من إنشاء هذه (الأداة المؤقّتة) كان هو التّحقيقَ الهُوَويَّ، كما أشارا إلى آثارها على المنهجيّة المختارة:

«ليست المصلحةُ الحاليّةُ، من إنجاز خريطةٍ لتصنيف السّكّان البلديّين الأصليِّين، تصويرَ تصنيفٍ تعسُّفيٍّ اعتباطيٍّ (arbitaire) تقريبًا، بل كانت المصلحةُ هي في ملاحظة الفوارق الأساسيّة المفيدة للإدارة.

«إضافةً إلى ذلك، إنّ كلَّ السِّمات والخصائص نافعةٌ لأجل **تعريف** مجموعةٍ عِرْقيّةٍ و**تحديدها**. وتنفع في ذلك، بشكل أساسيّ، الأعرافُ والعاداتُ الماديّةُ، والسّياسيّةُ والدّينيّةُ، بالإضافة إلى المعطيات الجغرافيّة واللُّغويّة التي تكلّمنا عنها آنفًا»[٣].

وهكذا نرى كيف أنّ الخرائطَ الإتنوغرافيّة (العِرقية الوصفيّة / ethnographiques) قد تمّ اعتمادُها كأدواتٍ للتّدبير الإداريّ (gestion administrative)، تمامًا بقدر اعتمادها كأدواتٍ للتّعميم العلميّ. لقد تمّ تفويض مجهودِ إعداد تلك الخرائط، الذي كانت تُنْجَز من قبلُ في نطاق الإدارة، تدريجيًّا تصاعديًّا، إلى مجموعةٍ من الباحثين المحترفين، والمختصّين في الجغرافيا (géographes) والإتنولوجيّين (علماء الأعراق/ ethnologues)، الذين سيتمّمون عمل الإداريّين

---

١. كانت مجلةُ الطُّوغُو-الكاميرون (Togo-Cameroun)، المخَصَّصةُ لـ«الدّعاية» (propaganda) للأراضي الخاضعة للوصاية (الاستعمار) الفرنسيّة، كانت تنشر بانتظامٍ «خرائطَ عِرْقيّةً» للإقليم (الكاميرون)، والتي كانت تحضر أيْضًا في «التقارير السّنويّة للحكومة الفرنسية حول الإدارة المفوَّضة في أراضي الكاميرون»

(Rapports annuels du gouvernement français sur l'administration sous mandat des territoires du Cameroun).

٢. شُومْبارتْ، دو لُوْ، خريطةٌ موجزةٌ لشعوب الكاميرون، ص ١٩٧-٢٠٣.

٣. شُومْبارتْ، دو لُوْ، خريطةٌ موجزةٌ لشعوب الكاميرون. ص ١٩٧.

ويمنهجونه، ليصبح، منذ سنة ١٩٤٥، في عهدة معهد (IFAN)[١].

في ما وراء مقصد درس الهويّات هذا، كان التصوّرُ الحاكِـمُ على الممارسة الإتنوغرافيّة (عمل الوصف العِرْقيّ) هي أنّها مجهودٌ لفهم السّكّان البلديّين الأصليّين «البدائيّين» (primitives) و«المتخلّفين» (attardées) . ما هو جديرٌ بالملاحظة، هنا، هو أنّ معرفةً ذاتَ أصولٍ إداريّةٍ غالبةٍ يمكن استثمارُها في سياقٍ علميٍّ، أيْ أنّها تحظى بإقرارٍ بكونها وثيقةً صالحةً للأغراض العلميّة. نلاحظ، واقعًا أنّ مِن بين المميِّزات الجوهريّة لتلك المعرفة الاستعماريّة هو غيابُ التّماسك بين مجالَيْن يُعتَبران، عند جامِعيِّي نهاية القرن العشرين، من حيثُ المبدأُ منفصليْن تمامًا. بلْ، لقد وجدنا، تفاعلاً ثابتًا بين المعرفة الإداريّة والمعرفة الإتنوغرافيّة. تمثّل المُذكّرةُ الإداريّةُ التي حرّرها المسؤولُ الإداريُّ فيليكْسْ إيبُوِي (Félix ÉBOUÉ) مثالاً ذا دلالةٍ خاصّةٍ في ما يتعلّق بوجود ذلك الوصْل والاستمراريّة (continuité) بين المعرفة «الاستعماريّة» والمعرفة «العلميّة»[٢]، وذلك نظرًا إلى أنّ تلك المذكّرةَ كانتْ، في آنٍ، تُقدَّم في ذلك الزّمان كمثالٍ «يُحتذى»، وكذلك بسبب السّيرة المهنيّة المُميَّزة لكاتبها[٣]. لقد كانت المُذكّرةُ موضوعَ إطّلاعٍ وتباحثٍ وعرْضٍ، في قسم الإتنوغرافيا في مؤتمر علم الأعراق (الأنتروبولوجيا / Anthropologie) وعلم الآثار (Archéologie) المتعلّق بمرحلة ما قبل التّاريخ، خلال المعرض الاستعماريّ الذي أُقيم سنة ١٩٣١، ونُشرتْ، في ما بعد، في العديد من المجلّات، الاستعماريّة والعلميّة[٤]. وأخيرًا، طُبعتْ في كُتيّبٍ منفصلٍ برعاية الحكومة العامّة.

---

١. انظر، بالخصوص، سلسلةَ الخرائط العرقيّة البشريّة/الإتنو-ديموغرافيّة (ethno-démographiques) لإفريقيا الغربيّة، بمقياس ١/١٠٠ ٠٠٠، التي نشرها معهدُ (IFAN)، مركز داكار (السينغال).

٢. إيبُوِي، كرِيسْتوفْ، علماء من أجل الامبراطوريّة، ١٩٩١.

٣. فيليكْسْ إيبُوِي (١٨٨٤-١٩٤٤)، أصله من غوايانا، أسودُ، مُجازٌ من المدرسة الاستعماريّة سنة ١٩٠٨، ظلّ سنواتٍ عديدةً يشتغل مسؤولاً إداريًّا في مستعمرةٍ تُصنَّف في أسفل درجةٍ في التّراتبيّة الاستعماريّة، وهي منطقة أوبانغي-شاري (Oubangui-Chari/جمهوريّة إفريقيا الوسطى الحاليّة)؛ ثمّ أصبح بعد ذلك الحاكمَ العامَّ لـ التّشاد، ثمّ الحاكمَ العامَّ لـ إفريقيا الإستوائيّة الفرنسيّة (AEF)، حيثُ أرسى سياسةً جديدةً في التعامل مع السّكان البلديّين الأصليّين، قائمةً على احترام المؤسّسات السّياسيّة والأعراف والعادات التّرائيّة المحليّة. وهو «الاستعماريُّ» الوحيد الذي دخل إلى «البانتيون» (Panthéon).

٤. وهكذا فقد ظهرت المذكّرةُ، في آنٍ، في ملحق «نشرة إفريقيا الفرنسيّة. معلوماتٌ استعماريّةٌ ووثائقُ»، وفي مجلة جمعيّةٍ علميّةٍ محليّة، هي «نشرة جمعيّة البحوث الكونغُوليّة»، التي كانت تنشرها الحكومة العامّة لإفريقيا الإستوائيّة الفرنسيّة، وكذلك في مجلةٍ علميّةٍ موجودةٍ في المركز الاستعماريّ، هي مجلة «الإتنوغرافيا».

طلب الحاكمُ العامُّ رافايال أَنْتُونِتّي (Raphaël ANTONETTI)، ممثّلُ أعلى سلطة في التراتبيّة الاستعماريّة، طلب من مرؤوسيه إنجازَ مثل هذا العمل المعرفي كلٌّ في دائرته[١]. كما عُمِّم منشورٌ، ذو طابعٍ رسميٍّ جدًّا، بما أنّه قد أُرسِل إلى جميع المسؤولين الإداريّين، ونُشِر في الجريدة الرسمّة لإفريقيا الإستوائيّة الفرنسيّة، يدعو إلى الاقتداء بمُذكّرة إيبُووِي، التي أُرسلت منها نُسخةٌ إلى كل مركزٍ.

«ألفتُ نظرَكم إلى أنّ العملَ الرّائعَ، الذي نشره السّيّد إيبُووِي، ينبّه إلى أمرٍ ذي صبغةٍ أعمَّ يهمّ كلَّ مَن هم مدعُوّون للقيادة في الرّيف. لن أكفَّ عن التّذكير بأنّ القيادة الإداريّة الجيّدة يجب أنّ تكون قائمةً على معرفةٍ كاملةٍ بسّكّاننا البلديّين الأصليّين (nos indigènes). لا شيءَ آخَرَ يمكنه أنْ يعوِّضَ هذه المعرفةَ، ولأجلِ ذلك أودّ أن أرى المسؤولين الإداريين ينكبّون، في حدود الإمكان، على القيام بتحقيقاتٍ شبيهةٍ بالتّحقيق الذي قام به السّيّد إيبُووِي، بمنهج السّعي، من خلال تحصيل فهْمٍ أكثرَ عُمْقًا لسُكّانهم البلديّين الأصليّين، لا بروح ممارسة الفضول أو التّسلية الفكريّة (التّرف الفكريّ)، بل لأجل الظّفر بالوسيلة التي تقي من الوقوع في الأخطاء، وفي الوقت نفسه يمكنهم أنْ يستعملوا تلك الأعراف والعادات نفسها لكيْ يُفهِموا مرؤوسيهم، بطريقةٍ ما، ومن خلال لغتهم هم، ما نريد منهم أنْ يفعلوا[٢].»

يمثّل الفعلُ الإتنوغرافيُّ، إذن، أحدَ أشكالِ التميُّز، يُقدَّم كمثالٍ للاقتداء إلى جميع المسؤولين الإداريّين[٣]. كان هذا الأمرُ يعني التمكُّنَ من «اللّغة» (تُسمّى اليومَ «الرّمْز» ((code) للمجتمعات المـُدارة. هنا، تبدو المعرفةُ المنهجيّةُ وجهدُ فهم السّكان البلديّين الأصليّين كأداتَيْن للتّواصل وللقيادة يجب أنْ يتمكّن منهما المسؤول الإداريُّ ليُتقن أداء وظيفته.

في الوقت نفسه، أرسل رافايال أَنْتُونِتّي الـمُذكِّرةَ إلى ممثلي مؤسسة الإتنولوجيا في المركز الإستعماريّ، وعلى وجه الخصوص، إلى هنْري لابوري (Henri LABOURET)، الذي كان وقتها يُدرِّس الإتنوغرافيا في المدرسة الاستعماريّة وفي معهد الإتنولوجيا، وكذلك إلى لوسيانْ ليفي-برُوهْلْ. وجّه هذا الأخيرُ رسالةً، لافتةً للنّظر، إلى الحاكم العامّ، مُعربًا له فيها عن امتنانه لدعمه لمعهد الإتنولوجيا:

١. رافايال أَنْتونِتّي (١٨٧٢-١٩٣٨)، هو الحاكم العامُّ لـ إفريقيا الإستوائيّة الفرنسيّة بين سنتَيْ ١٩٢٤ و١٩٣٤.

٢. محفوظات وثائق (أرشيف) الحكومة العامّة لإفريقيا الإستوائيّة الفرنسيّة (CAOM، (GGAEF، ٥D١٠٣، منشور الحاكم العامّ أَنْتُونِتّي، ١٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٣٣.

٣. طلب إيبُووِي من رؤسائه الاعترافَ به كإتنوغرافيٍّ، يقوم بوظيفته، كمسؤول إداريٍّ، بشكلٍ من أشكال التّميّز (فهْم السّكّان البلديّين الأصليّين).

لقد قرأْتُ، بأقصى درجات الاهتمام، تلك الملاحظاتِ المتعلّقةَ بشعوب **أُوبانغِي-شارِي**، الّتي دوّنها رجلٌ يُتقن المشاهدةَ، ويبدو ممّا كتب أنّه يمتلك تجربةً طويلةً وخبرةً عميقةً حول أولئك السّكّان البلديّين الأصليّين. لم يَسبق لعمليّات الإضاءة التي تستطيع الإتنولوجيا أنْ توفّرها، حول عقليّة السّكّان البلديّين الأصليّين، أنْ ارتقت إلى هذه الدّرجة من القيمة. إنّه لممّا يجلب السّعادة أنْ نرى أنّ مسؤولينا الإداريّين تزداد قناعتُهم أكثرَ فأكثرَ بجدوى، بل يمكننا القول بضرورة هذه الدّراسات، وأنْ يحرصوا، هم أنفسُم، على توفير الشروط اللاّزمة لتحقيقها بقدر ما يستطيعون[1].»

بشكلٍ أعمَّ، يبدو أنّ التّشجيعَ والدّعمَ، الذي كانت تقدّمة السّلطاتُ الإداريّةُ الاستعماريّةُ العليا للاهتمام بالدّراسات المتعلقة بسكّانـها البلديّين الأصليّين، يبدو أنّه قد أصبح أوضحَ في العقد الرّابع (ثلاثينات القرن العشرين)، في بعض الأقاليم المستعمَرةِ، في الحدّ الأدنى. هذا الإلحاحُ في التّأكيد على الفهْم يتوافق أيضًا مع قلقٍ: بعد الانتفاضة التي حصلتْ في يانْ-بايْ (Yen-Bay) في الهند الصّينيّة، والّتي عُزِيَتْ إلى النقص في التّواصل بيْن الإدارة الإستعماريّة والسّكّان البلديّين الأصليّين، أَصْدرتْ وزارةُ المستعمَراتِ منشورًا، سنة ١٩٣٠، أمرتْ فيه المسؤولين الإداريّين لكلِّ المناطق بالبقاء على تواصلٍ واحتكاكٍ، بشكلٍ أقربَ، مع السّكّان الخاضعين لإدارتهم، وبمضاعفة جولاتهم الميدانيّة وبإيلاء اهتمامٍ أكبرَ بالسّكّان البلديّين الأصليّين[2]. وهكذا، فقد لاحظنا وجود خطواتٍ تشجيعيّةٍ جدِّيّةٍ جدًّا لإنجاز أعمالٍ إتنوغرافيّةٍ[3].

وهكذا تبيّن لنا كيف أنّ بُعْدَ «التِّقانة السّياسيّة» (technologie politique)، بقصد السيطرة على المجتمعات البلديّة الأصليّة وتغييرها، أمرٌ أساسيٌّ لفهْم سرّ انغماس البعض من وكلاء الدّولة الاستعماريّة في مجال المعرفة الإتنوغرافيّة. هذه المعرفةُ تمنح، في آنٍ، أدواتٍ لدراسة الهويّات وآلاتٍ تأويليّةً، وتساهم بالتّالي في إنتاج وسائلَ عقلانيّةٍ رسميّةٍ لـ«نَظْمٍ» العالَمِ المستعمَر، توجد شعورًا مُطمْئِنًا بالتّحكُّم بواقعٍ معقَّدٍ. وعلى الرّغم من ذلك، نرى أنّ من الواجب علينا توضيحَ أَنّ تلك الإرادةَ، المتعلقةَ باكتسابِ المعرفة بالسّكّان البلديّين الأصليّين، ومنْ ثَمَّ «نظْم» أمورهم، يجب أن تأخذ بعيْن الاعتبار استراتيجيّاتِ المستعمَرين، وأنّها، مع ذلك، قد لا تؤدّي سوى إلى نظْم

١. GGAEF، CAOM، ٥D١٠٣، رسالةٌ مُوجّهَةٌ من لوسيان ليفي-بروهْلْ إلى الحاكم العامِّ لإفريقيا الإستوائيّة الفرنسيّة (AEF)، ٢٤ أكتوبر/تشرين الأوّل ١٩٣٣.

٢. المنشور المؤرّخ في ١٠ جوان/حزيران ١٩٣٠، الجريدة الرّسميّة للمستعمرات، ذكرها كوهين، ص ١٩١.

٣. GGAEF، CAOM، مكتب الشّؤون السّياسيّة، في مواضع متفرّقة (passim). تتّسم بعضُ الشّهادات الأخرى بفقدان الفهْم في ما يتعلّق بالأعمال الإتنوغرافيّة، انظر كوهين، ويليامْ، أباطرةٌ بلا طيف، تاريخُ المسؤولين الإداريّين لفرنسا، ص ١٨٤-١٨٥.

ظاهريٍّ شكليٍّ[١]. وبالتّالي، إنْ كان هناك وجودٌ فعليٌّ لنوعٍ من الوصْل والاستمراريّة (continuité) بين أشكالٍ من العقلانيّة الإداريّة وأشكالٍ من العقلانيّة العلميّة، فإنّ البُعْدَ «الأداتيّ» (dimension instrumentale)، لا يُلغي، على الرّغم من ذلك، الاستعمالَ الاستعماريَّ للمعرفة الأنتروبولوجيّة.

٤/ أزمةُ الهيمنة و«التّفوُّقُ العِلميُّ»

إنّ التّأكيدَ المتجدّدَ، على ضرورة بذل الجهود اللاّزمة لمعرفة السّكّان البلديّين الأصليّين وفهمهم، يجب أنْ يُرْبطَ أيضًا بتغيُّرٍ أعمَّ لشروط الهيمنة الاستعماريّة، وبشكلٍ أخصَّ، لشروط الحاجات الجديدة لشرْعنتها على السّاحة الدُّوَليّة. من المُؤكَّد أنّ حضورَ بُعْدٍ شرْعنةٍ في الممارسات العلميّة ليس أمرًا جديدًا: في ما مضى، كان هذا البُعْدُ يعطي الإتنوغرافيا معنًى يتجاوز هيولى المقصد الأداتي. في الواقع، لقد أصبحت المعرفةُ الأنتروبولوجيّةُ، منذ القرن التّاسع عشر، تؤدّي دوْرًا أساسيًّا في صياغة «رسالة الحَضْرنة» (mission civilisatrice) وفي تبريرها، نظرًا لما تمثّله من ضمانةٍ علميّةٍ لمجال التأويل التطوّري (interprétation évolutionniste)[٢]. وهكذا ظهرت الإتنوغرافيا، من بين التّطبيقات العلميّة الاستعماريّة، كـعاملٍ مُتمِّمٍ لوقائع الغزو الاستعماريّ: تمثّل الإتنوغرافيا، التي تُقْرَن غالبًا بعلم الآثار (الأركيولوجيا)، باعتبارٍ ما «نقطةَ الصّفر»، أيْ مرحلةَ «ما قبل التّاريخ»، التي تُوثَّق وضْعَ الشّعوب البلديّة الأصليّة قبل «دخولها في التّاريخ»، الذي يبدأ مع الغزو نفسه، الذي يمثّل باكورة الأفعال في سيرورةِ حضْرنةٍ مدفوعةٍ من الخارج. لقد كان هذا المُخطَّطُ التّطوُّريُّ وراء أغلب العروض الإتنوغرافيّة التي أُقيمتْ في المعارض الكبرى، الكونيّة والاستعماريّة[٣].

لقد كان السّياقُ العامُّ، لتطوّر الاهتمامٍ بالمعرفة الأنتروبولوجيّة في فترة ما بين الحربيْن العالميّتيْن،

---

١. حول تقلُّب تلك البناءات، انظر: بالْزْ، بيترْ، بَدْجنةُ سياساتِ لُودْكُورو. الإتنوغرافيا الإداريّة ومفارقاتُ الحكم غير المباشر، الإتنولوجيّ الأمريكيّ، ج ٣٣، ص ٧٣٨-٧٦١.

٢. في سنة ١٩٣٠ أيْضًا، صرّح الحاكمُ العامُّ جُولْ كارْدْ (Jules CARDE)، أمام المجلس العام لحكومة إفريقيا الغربيّة الفرنسيّة (AOF): «إذا ما سلّمنا بحقيقة وجود شعوبٍ متطوّرة وبوجود أعراقٍ متخلّفة، وأنّ هناك مصلحةً عامّةً بأنْ ترتقيَ هذه الأخيرةُ إلى مستوى تلك، فإنّ الاستعمار يجد ضمنيًّا تبريرًا لأساس وجوده». هذا القولُ مذكور في مجلة إفريقيا الفرنسيّة (L'Afrique française)، ص ١٤.

٣. گرينْهالْفْ، بول، حول المعرض الاستعماريّ الذي أُقيم سنة ١٩٣١، حيثُ طغت على المشهد عمليّاتُ إخراجٍ مسرحيٍّ (mise en scène) أخرى، انظر ليتْوالْ، بينْوَا دو، أعراقٌ ليست دُنْيا، بلْ مختلفةٌ. حول المعرض الاستعماريّ لمتحف الإنسان ٢٠٠٠.

هو سياقَ الحاجة لشرْعنةٍ جديدةٍ للهيمنة الاستعماريّة. خلال المؤتمر الذي عقدتْه جمعيّةُ السّكّان البلديّين الأصليّين ضمنَ فعّاليّات المعرض الاستعماريِّ الذي أُقيم سنة ١٩٣١، لمْ يتردّدْ أَلْبارْ صارُّو (Albert Sarraut)، وزيرُ المستعمَرات السّابقُ، والـمُنظِّرُ للاستعمار، لمْ يتردّدْ في الكلام حول «الأزمة الأخلاقيّة، وأزمة الهيمنة، وأزمة السّلطة» التي كان يعيشها الاستعمار آنذاك. لقد دخل الاستعمارُ مرحلة التّشكيك في شرْعيّته، وعلى وجه الخصوص بسبب تنامي الحركات الوطنيّة في آسيا (في الهند البريطانيّة، وفي الهند الهولنديّة، بلْ وفي الهند الصّينيّة الفرنسيّة كذلك)، وفي المغرب الكبير (شمال إفريقيا)، وتصاعد مطالب الصّفْوات (النُّخب / élites) الحَضَريّة الجديدة في السّنغال وفي الدّاهومي (البنين حاليًّا)، وتطوّر الدّعاية المعادية للاستعمار التي أطلقتها العالميّةُ الشّيوعيّةُ، وكذلك بسبب ارتفاع أصوات النّقد التي كانت تصدر من الولايات المتّحدة الأمريكيّة وألمانيا وإيطاليا، وهي القوى التي كانت قد أُقصيت من اللّعبة الاستعماريّة.

لقد صرّح صارُّو، سنة ١٩٣٢، وكان آنذلك وزيرًا للمستعمَرات، في خطابه الذي ألقاه بمناسبة العودة الدّراسيّة، أمام طلبة المدرسة الاستعماريّة، صرّح بما يلي:

«لقد ولّت الأزمنةُ حيثُ كانت القوّةُ وحدها هي التي تستطيع أنْ تسودَ [...] يجب علينا ألاّ نضطهد مستعمَرينا، بلْ يجب أنْ نُقنعَهم. بِمَ نُقنعهم؟ نُقنعُهم بأنّ مصلحتَهم العليا تكمن في وصايتنا عليهم، ونُقنعهم بـتفوّقنا العلميّ والأخلاقيّ، وبتجسّد الإنسانيّة العميقة في مشاريعنا.»[١]

يحاكي خطابٌ كهذا تحليلَ ماكس فيبر للهيمنة: فهذه الهيمنةُ لا تتوقّف، حصْرًا، على موازين القوى، إنّها متجذِّرةٌ أيْضًا في الاعتقاد بأنّ لها طابعًا شرْعيًّا. بشكلٍ أدقَّ، إنّ ما يصرّح به هذا النّمطُ من الخطاب هو الحاجةُ إلى شرْعنةٍ قائمةٍ على الاستدلال، في مواجهة «الرأي العامّ» الفرنسيِّ، لكنْ، أيضًا وبشكلٍ أكثر إلحاحًا وحسّاسيّةً، في مواجهة «الرّأي العامّ الدُّوَليّ». لقد لخّص صارُّو الصّياغةَ الجيّدةَ للمنافسة الدُّوَليّة، سنة ١٩٣١ خلال مؤتمر مجموعة السّكّان البلديّين الأصليّين، بقوله: «توجدُ الآن رقابةٌ دُوَليّة جديدةٌ تركّز نظرَها الثّاقبَ على الحدث الاستعماريّ بشكلٍ أدقَّ ممّا كان يحصل في ما مضى». لقد كانت تلك الضّغوطُ الدّوَليّةُ أقوى بشكلٍ خاصٍّ في حالة الأراضي الخاضعة للوصاية التي يتوجبّ على القوى الوصيّة عليها أنْ تُقدِّم جردةَ حسابٍ حولها إلى منظمة عصبة الأمم. تُمكِّن الإتنوغرافيا، بما هي علمٌ موضوعُه المفضَّلُ هو الشّعوب الأكثر «بدائيّةً» (primitives)، من تفسير صعوبات التّغييرات التي يروم المستعمِرون تحقيقها، كما تُمكّن

١. ذُكر هذا في مجلة ماوراء-البحار، ج٣، ص ٣-٥.

من تبرير جوانب «التّأخّر» (retard) و«الفوارق» (écarts) بينها وبين النموذج المعلَن.

لكنّ عمليّة الشّرْعنة بتوسُّل العلم تتوجّه بالخطاب نحو المستعمَرين أيْضًا. يرى الجغرافيُّ إدواردْ دو مارتُونْ (Édouard de MARTONNE)، وهو مؤلّفُ كتابٍ يعرض فيه العالِـم الاستعماريّ (le savant colonial)، يرى أنّ العلم يقيم أيْضًا حاجزًا أمام مطالبات أهل الصّفْوة (النّخبة / élites) الجديدة، المتعلِّمين من أبناء الشّعوب البلديّة الأصليّة، يقول:

في هذا الزّمن حيثُ ترتفع مطالبُ الصّفوةِ (النّخبة)، من السُكّان البلديّين الأصليّين، الـمُنْتشية بما اكتسبته من معرفةٍ حديثة، كَتَـمِلٍ بخمرةٍ جديدةٍ، أرى أنّ من الحكمة تخفيفُ هذا التوقّعِ المتسرِّعِ جدًّا من خلال الاستدلال على تفُّوقنا العلميِّ، الوحيدِ المؤهَّلِ، ربّما، لضبْط العقول من دون الضّغط عليها وخنقها: يجب إقناع تلاميذ الحضارة، هؤلاء، بأنّ درجةَ التّحرّر تنمو بشكلٍ طبيعيٍّ بالتّناسب مع ارتفاع درجة الثّقافة، وأنْ لا شيْءَ بإمكانه تعويضُ النُّضج الذي يحقّقه العلمُ [...][1]».

في هذا السّياق، نستخلص أنّ الممارسة الوحيدةَ لنشاطٍ علميٍّ، أيّا كان موضوعُه، تستمدّ معنًى تبريريًّا لها من وضعٍ مُهيـْمِنٍ/هَيْمنيٍّ[2]. وبالتّالي، فإنّ ما يهمّ في المقام الأوّل، وفق هذا المنظور، ليس هو الجدوى المباشرةَ للممارسة العلميّة في ذاتها، بل إنّ ما يهمُّ هو أنْ تبدوَ هذه الممارسةُ بمثابة استدلالٍ على تفوُّق المستعمِرين، وبالتّالي على أنّ هيمنتَهم شرْعيّةٌ، لأنّ العقل يدعمها ويحالفها[3].

وفي السّياق نفسِه المتعلّق بالسّؤال عن شرعيّة الهيمنة الاستعماريّة، يطالب عددٌ من رجال التّعديل (الإصلاح / reformateurs) بأنْ يزيد الاهتمامُ بالمجتمعات البلديّة الأصليّة، وبأن يَنهج المركزُ الاستعماريُّ سياسةً أكثرَ استباقيّةً. وهكذا نرى أنّه، ومنذ سنة ١٩٢١، اقترح موريس ديلافوسّ (Maurice Delafosse)، الذي أصبح، بعد حياةٍ مهنيّةٍ استعماريّةٍ مديدةٍ في إفريقيا الغربيّة، أستاذًا للإتنوغرافيا وللّغات الإفريقيّة في المدرسة الاستعماريّة، اقترح خطّةً/برنامجًا يهدف إلى اعتماد

١. انظر: مارْتُونْ، إدوارد دو، العالِمُ الاستعماريُّ.

٢. في كتابٍ منشورٍ سنة ١٩١٦ مُوجَّه للمدارس في إفريقيا الغربية الفرنسية (AOF)، بإمكاننا أنْ نقرأ أنّ الفرنسيين «الأكثر تقدّمًا في الحضارة» يساعدون الأفارقةَ من خلال تقاسمهم معهم ثمارَ العلم، «الذي هو صنيعةُ الغرب»، لكنّ السّود يستطيعون الدّراسة للاستفاد منه. هذا مذكورٌ في كُونْكلِينْ، رسالةُ حضْرنة: الفكرة الجمهوريّة للإمبراطوريّة في فرنسا وغرب لإفريقيا، ص ١٣٦.

٣. هذا الادّعاءُ (revendication) كان، في بعض الحالات، موضوعًا لاعتراضاتٍ عنيفة، انظر: ليتْوَالْ، بينْوَا دو، باسم «الأفارقة الجُدُد». الصّفْوة (النّخبة) المتعلِّمة في إفريقيا المستعمَرة في مواجهة الأنتروبولوجيا، ص ٨٧-١٠٢.

«توجُّه جديد في سياسة السّكّان البلديّين الأصليّين في إفريقيا السّوداء»[١]، يُفْتتَح بـ«امتحان للوعي»: «في الواقع، إنّنا نشعر بضرورة أنْ نعتذر عنْ، أوْ في الحدّ الأدنى أنْ نُبرِّرَ بعضَ أفعالنا التي، حتّى أكونَ واضحًا في كلامي، أدّت إلى تجريد الشّعوب [المستعمَرة] من استقلالها لصالح بلدنا».

انطلق ديلافوسْ من رفض الأولويّة المعقودة للأغراض الاقتصاديّة ليصوغَ جرْدةَ حساب نقديّةً للإنجازات الاستعماريّة، وحدّد، كمعيارٍ أساسيٍّ لشرْعيّة الفعل الاستعماريّ الفرنسيّ، آثارَه بالنّسبة للسّكّان البلديّين الأصليّين الخاضعين لـ «الوصاية» الفرنسيّة: «من الضّروريّ، حتمًا، أنْ يكون تدخُّلنا بالنّسبة لهم سببًا للتّقدّم وللسّعادة، وإلاّ فإنّ كلَّ محاولةٍ استعماريّةٍ محكومةٌ بالإدانة.» مثّلت هذه المسألةُ، بالنّسبة له، الحجرَ الأساسَ، لتقويم السّياسة الاستعماريّة:

«الواجب علينا أن نسأل أنفسنا عمّا إذا كانت السّياسيةُ الّتي نهجناها، إلى يومنا هذا، مع السّكّان البلديّين الأصليّين هي فعلاً السياسةَ الّتي تساهم في التّطوُّر العقلانيّ (évolution rationnelle) للمجتمعات السّوداء نحو الأفضل أو أنّها، على العكس من ذلك، سياسةٌ تتسبّ في تفتيت تلك المجتمعات وتسوقها نحو الإفلاس.»

نجد هنا بُعدًا أساسيًّا آخَرَ لشرْعنة الدّولة الحديثة: هو التّصريح بكونها تمارس هيمنتَها بقصد تحقيق رغد العيش والتّقدّم للشعوب الخاضعة لسيطرتها[٢]. إنّ أوّلَ أمْرٍ يتمّ به تبريرُ أفعال الدّولة الاستعماريّة هو ادّعاء كونها تجلب التقدّم للأراضي وللشّعوب التي تخضع لسيطرتها (ومن هنا يبدأ الكلام عن «التّنمية» ((développement). إلى جانب الموضوع الغالب، وهو «التّنمية» (mise en valeur) الاقتصاديّة للمستعمَرات، الذي يبرّر الوجود الأوروبّيّ فيها بالضّرورة الاقتصاديّة لأخذ حصّةٍ من «الثّروات الطّبيعيّة، المنجميّة والفلاحيّة (الزّراعيّة)، التي يعجز السّكانُ البلديّون الأصليّون عن استغلالها، إلى جانب ذلك، يظهر أيضًا، أكثرَ فأكثرَ، عاملٌ آخرُ لشرْعنة الفعل الاستعماريّ، ألا وهو الاهتام بالسّكّان البلديّين الأصليّين[٣].

يندرج الاستثمارُ في «علوم الإنسان»، والتي مشروعُها هو المعرفةُ العقلانيّةُ للسّلوكات البشريّة، يندرج، تحديدًا، في حيّز التّقاطع بين هذين النّمطيْن من الانشغال (عقْلنة الهيمنة وسعادة الشّعوب). في النّطاق الاستعماريّ، تظهر الدّراسةُ العلميّةُ للسّكّان البلديّين الأصليّين كوسيلةٍ مفضّلةٍ، إلى جانب

١. ديلافوسْ، مُوريسْ، حول التّوجُّه الجديد للسّياسة البلدية/الأصلية في إفريقيا السّوداء، ص ١٤٥-١٥٢.

٢. فوكو، ميشال، الحوكمة»، أقوالٌ وكتاباتٌ، ج٣، ص ٦٣٥-٦٥٧.

٣. كُونْكلِنْ، آليسْ ل، رسالةُ حضْرنة: الفكرة الجمهوريّة للإمبراطوريّة في فرنسا وغرب لإفريقيا.

الأعمال المنجَزة في مجالَي الصحّة والتّعليم، كوسيلةٍ لإثبات، في آنٍ، «الإنسانيّة العميقة» (الاهتمام بالسّكّان الأصليّين وبأخلاقهم) و«التّفوُّق العلميّ» للقوّة الاستعماريّة الوصيّة (puissance tutélaire).

الأمرُ الجديدُ هنا، ليس، إذنْ، هو الفكرةَ، الموجودةَ منذ القرن التّاسع عشر، القائلةَ بأنّ التّوسُّعَ الاستعماريَّ يجب أن يرتكزَ على النّشاط العلميّ. بلْ كان التركيزُ مُنصبًّا بشكلٍ أساسيٍّ، حينذاك، على توظيف (تعبئة / mobilisation) العلوم التي تساهم في إحصاء ثروات الطّبيعة الاستوائية والمداريّة، وهي العلوم الطّبيعيّة، وعلم النّبات (botanique)، والجغرافيا، وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا / géologie)[1]. في بداية القرن العشرين تطوّر كثيرًا الطبُّ المداريُّ، الذي ركّز على الرّعاية الطّبّيّة للسّكّان البلديّين الأصليّين، وتطوّرت معه الأنتروبولوجيا الماديّةُ، التي مارسها العديدُ من الأطبّاء. يتوافق الاهتمامُ النّاشئُ بالإتنولوجيا (علم الأعراق)، إضافةً إلى ذلك، مع برزو تأكيدٍ على معرفة السّكّان البلديّين الأصليّين ودراسة أعرافهم وعاداتهم. يرى ديلافوس أنّ «سياسة السّكّان البلديّين الأصليّين» يجب أنْ يحكمها روحُ الاحترام لمؤسّساتهم وأعرافهم وعاداتهم. لكنْ، يغلب نسيانُ حقيقةِ كَوْن ديلافوس، الذي طالما دافع عن الاعتراف بـ«الحضارات الإفريقيّة[2]»، هو أحد مؤسِّسِي «معهد الإتنولوجيا» (Institut de l'ethnologie)، مع مارْسالْ مُوسْ (Marcel MAUSS)، و لوسيانْ ليفي-برُوهْلْ، و بولْ ريفي (Paul RIVET).

وهكذا يتبيّن أن الدّعم الذي تقدّمه الدّولُ للمؤسّسات المهتمّة بالمعرفة العلميّة للشّعوب الأصليّة يمكن فهمه أيضًا في سياق المتطلّبات الجديدة لشرْعنة الهيمنة الاستعماريّة لـفرنسا.

٥/ رهاناتُ العقْلنة

هذا البُعْدُ المزدوجُ في ما يتعلّق بـ«الهيمنة العقلانيّة» - البحث عن أدواتٍ أكثرَ فعّاليّةً، والشّرْعنة بتوسّل «الاستدلال على التفوّق العلميّ» - هو ما يمكننا أنْ نقرأه في العديد من مشاريع العقْلنة الاستعماريّة التي ازدهرت وقتها. لقد دافع العديدُ من رجال التّعديل (الإصلاح) على الفكرة القائلة بأنّه، وأمام التّحدّيات المستجِدّة، قد ولّى عصرُ «العمل الإرتجاليّ»، وأنّ السّياسةَ الاستعماريّةَ يجب أنْ تكون «علميّةً». وهكذا أصبح بريفْيِي (BRÉVIÉ) يطالب بعقلنةٍ لمناهج الاستعمار، لا يمكن أنْ تتمّ إلّا بتحالفٍ مع العلم:

١. بُونْوُيْ، كريسْتوفْ، المتحف الوطنيّ للتّاريخ الطّبيعيّ والتّوسّع الاستعماريّ للجمهوريّة الثّالثة (١٨٧٠-١٩١٤)، ج٨٦، ص ١٤٣-١٦٩.

٢. دِيلافُوسْ، مُورِيسْ، الحضاراتُ الإفريقية الزنجيّة، ١٩٢٥.

«تَطرح مسألةُ تنميةِ المستعمَرات مشاكلَ عامّةً وتقنيّةً، هي ضخمةٌ بحيثُ إنّ التّعاطيَ معها ومعالجتها يوجبان عدمَ الرّكون إلى الحلول المستوحاة من الظروف الآنيّة، وعدمَ اللّجوء إلى الأفعال الارتجاليّة، وإلى المبادرات المتحرّرة كثيرًا من الصبغة التّجريبيّة. يجب أنْ يصبح الاستعمارُ عمليّةً مسلَّحةً بالمنهج، وبالحساب، وبالاستشراف، وبكلامٍ جامعٍ: **(يجب أنْ يصبح الاستعمارُ مُسلّحًا بالعِلم)**. يبقى الاستعمارُ [...] فنًّا سياسيًّا ونفسانيًّا (بسيكولوجيًّا)، لكنْ، يجب أنْ يكون مَقُودًا، ومستنيرًا، بالمعطيات العلميّة الصّحيحة»[١].

في هذا التّركيب المثاليّ المكوَّن من الخصال السّياسيّة والنّفسانيّة (البسيكولوجيّة) للقائد ومن العقلانيّة العلميّة، نرى أنّ بريفْيِي يمنح مكانةً مُميَّزةً لـ(علم الإنسان)، أيْ للمعرفة المنهجيّة لمميِّزات الشّعوب البلديّة الأصليّة.

يَبرز هذ الموضوعُ أيضًا في افتتاحيّة العدد الأوّل من مجلة ماوراء- البحار (Outre-mer)، التي كتبها الحاكمُ العامُّ المتقاعدُ إرنسْتْ رُومْ (Ernest ROUME)، الذي صرّح بضرورة الإسراع بدراسة السّكّان البلديّين الأصليّين، في مواجهة حملات التّشكيك بالهيمنة[٢]، قال: «تكوّنت تيّاراتٌ جديدةٌ من الأفكار، والمشاعر، والرّغبات، وأصابت السّكّانَ البلديّين الأصليّين، الذين كانوا لا يزالون إلى ذلك الزّمن جامدين، لقد أصابتْ حتّى أولئك المتخلّفين جدًّا. وتبيّن أنّ العلاقاتِ، التي تنشأ من عمليّات الاحتكاك بين الحضارات المختلفة جدًّا، هي معقّدةٌ بشكلٍ غريبٍ. وينتج عن هذ الأمر، وبشكلٍ أكثرَ إلحاحيّةً واستعجاليّةً منْ أيِّ وقت مضى، حاجةُ ممثِّلي العِرق، الذي بلغ الدرّجة العليا من الحضارة، أن يُركّزوا جهودَهم على الدّراسة الواعية الدّقيقة لمميّزات الأعراق الأقلّ تطوّرا، وأنْ يتأكّدوا، بأعلى درجةٍ من الواقعيّة من ردود الأفعال، التي غالبًا ما تكون غيرَ متوقَّعةٍ، التي تُسبّبها الإجراءاتُ المطبَّقةُ عليهم: بعبارةٍ موجَزةٍ: يجب أنْ نفْهم، وبالمعنى الأعمِّ للكلمة، يجب أنْ نفهمَ روحَ السّكّان البلديّين الأصليّين (âme indigène)».

تمثّل إرادةُ فهْم (روح السّكّان الأصليّين)، في الوقت نفسه أيْضا، إعادةَ تأكيدٍ على كلّ البوْن، بلغة التّطوّر [الدّاروينيّة]، الموجود بين الذّات [الدّارسة/العالِـمة] والموضوع [المدروس/المعلوم] في الإتنوغرافيا.

إنّ القاسمَ المشترَكَ الذي يقرّب بين أولئك الرّجال ــ لكنْ أيضًا بالخصوص بين ديلافُوس

١. (العلم والاستعمار)، نصٌّ مُستعادٌ في بريفْيِي، ١٩٣٦.

٢. رُومْ، أرْنَسْتْ، الافتتاحيّة»، مجلة ماوراء-البحار، العدد الأول، ص ٣-٥.

ولابوري (LABOURET)، الذي ورثه في مطالبته بسياسةٍ جديدةٍ للسّكّان الأصليّين[١]ــ هو ارتباطُهم بالمدرسة الاستعماريّة[٢]. في الواقع، لقد كانت هذه المدرسةُ تلعب دورًا محوريًّا، في آنٍ، في نموّ اهتمامٍ لدراسة السّكّان البلديّين الأصليّين، كما في إرساء مشاريعَ للتّعديل (للإصلاح) الاستعماريّ. تجلّى هذا التّوجّهُ المزدوجُ من خلال تأسيس مديرها، جورج هارْدِي (Georges HARDY/١٨٨٤-١٩٧٢) لـ(مجلّةٍ عامّةٍ للاستعمار)، باسم، (ماوراء- البحار)، التي اتّخذتْ كخطّةِ عملٍ لها أنْ تنفخ في الاستعمار «روحًا علميًّا ذا عيارٍ سليمٍ» (esprit scientifique de bon aloi).

يمكننا هنا أنْ نستعيدَ تحليلَ فيبر حول الفوائد النّاتجة عن عقْلنة وكلاء الدّيوانيّة (البروقراطيّة). لقد سجّل أنّ «المعرفة التّخصّصية للخبير أصبحت، أكثرَ فأكثرَ، الأساسَ لمقام السّلطة لمن يشغل موقعَ مسؤوليّةٍ [إداريّةٍ]»[٣]. يمثّل امتلاكُ معرفة خاصّةٍ وسيلةً في حوزة رجال الإدارة، تمكّنهم من الدّفاع عن استقلاليّتهم ضدّ الملك أو الوزير: معرفة الملفّات ترسّخ جدارتَهم وتُشرْعن موقعهم. إنّ تأهيلَ الوكيل الدّيوانيّ/البيروقراطيّ، المصدَّق بتكوين خاصٍّ هو، إذنْ، في آنٍ، أداة مراقبةٍ تنفع في التّدقيق في طلبات الالتحاق بالوظائف الإداريّة (ضدّ محاباة الأمير)، وهو كذلك ضمانةٌ ضدّ تجاوزات السّلطة السّياسيّة.

يسلّط تحليلٌ كهذا الضّوءَ على الدّور المحوريّ للمدرسة الاستعماريّة في تطوير المعرفة العلميّة بالسّكّان البلديّين الأصليّين. ترافق هذا المعرفةُ، في الواقع، عملاً آخَرَ يتمثّل في إعادة تعريف وضع الوكلاء الأساسيّين للدّولة الاستعمارية: إنّهم المسؤولون الإداريّون للمستعمرات. قرّر بعضُ الرّجال المرتبطين بالمدرسة الاستعماريّة إطلاقَ حملةٍ لمقاومة الفكرة المشهورة، قليلةِ اللّطف، حول رجال الاستعمار (الذين كانوا يشتكون من النظرة السائدة عنهم بأنّهم «مغامرون»)، فتبنّوْا خطّةً سَوْقيّةً (استراتيجيا / stratégie) لـ «حرْفَنَة» (إضفاء الحِرَفيّة / professionnalisation) الاختصاص وشرْعنته، وتنمية (الحرفة)، و(الموهبة) عند المسؤول الإداريّ [الاستعماريّ]. وهكذا، تمكّنت

١. لابُورِي، هنْرِي، بحثًا عن سياسةٍ بلدية/أصليّةٍ جديدةٍ لغرب إفريقيا ١٩٣١.

٢. جُولْ بريفْيِي هو، مثل فيليكْسْ إيبْوِي، تلميذٌ سابقٌ في المدرسة الاستعماريّة، كما كان أرْنَسْتْ رُومْ رئيسًا لمجلس إدارتها. حول المدرسة الاستعماريّة انظر: كوهين، ويليامْ، أباطرةٌ بلا طيف، تاريخُ المسؤولين الإداريّين لفرنسا ماوراء- البحار وللمدرسة الاستعماريّة ١٩٧٣، وديمْبِي، الخطابُ الاستعماريُّ العلميُّ: الخطاب والرّهانُ. حول الإدارة الاستعماريّة المقارَنة، حواليْ ١٩٣٠-حواليْ ١٩٩٩.

٣. فيبر ماكس، الاقتصاد والمجتمع، موجزٌ في علم الاجتماع التّحليليّ، ج٢، ص ٩٩٤.

المدرسةُ الاستعماريّةُ، ومن خلال إيلائِها الأولويّةَ لضرورة القيام بتكوينٍ تخصّصيٍّ للمسؤولين الإداريّين، تمكّنتْ، تدريجيًّا تصاعديًّا، من الحصول على احتكار الوصول إلى منظومة (جسم) المسؤولين الإداريّين في المستعمَرات[١].

سعى ذلك الفريقُ إلى التشكّل وفق نموذجٍ سمّاه فيبر «الفريق النّظامي» (groupe statutaire)، الذي يتميّز بـ «روح الجسم» القويّ (التّلاحم بين الأعضاء / الفريق المتوحّد المتكامل) وباستبطان الأعضاء للقيم «البّطوليّة» (héroïques). تمّ تطوير هذا الموضوع في النّصوص المختلفة التي سعت إلى تعريف - ومن خلال ذلك بالذّات، إلى تكوين - ذلك «الرّوح الجماعيّ» (ethos) المتعلّق بالمسؤولين الإداريّين الاستعماريّين، وكذلك إلى إيجاد نوعٍ من «كاريزما الوظيفة» (charisme de fonction)، بدأ ذلك يتحقّق منذ المداخلات في المؤتمر المهنيّ الأوّل للمسؤولين الإداريّين الاستعماريّين، الذي انعقد سنة ١٩٣١، وصولاً إلى كتاب روبار دُولافينْياتْ (Robert DELAVIGNETTE، «قادةُ الامبراطوريّة الحقيقيّون. نشيدٌ على شرف المسؤولين الإداريّين»: في قسمٍ من الكتاب، بعنوان «النّظْم البطوليّ للعالَم» (Organisation héroïque du monde)، سعى دُولافينْياتْ (١٨٩٧-١٩٧٦)، مديرُ المدرسة الاستعماريّة بين ١٩٣٧ و١٩٤٧، سعى إلى تعريفِ ما يمثّل الأساسَ للتّفوُّق البطوليّ للمسؤول الإداريّ. إنّ ما يميّز المسؤولَ الإداريَّ الاستعماريَّ عن المستعمَرين وعن المستعمِرين، في آنٍ، هو شخصيّته كـقائد، وطبعُه، الذي اكتسبه من اشتغاله الدّؤوب على بناء ذاته، ولكنْ، ما يميّزه عن البقيّة، أيضًا، هو امتلاكُه لمعرفةٍ علميّةٍ خاصّة: «الاستعماريُّ هو رجلٌ يعرف أشياءَ أكثر ممّا يعرف السّكّانُ البلديّونُ الأصليّون للبلد المستعمَر، وهو الذي يعرف، أيْضًا، أثمانَ تلك الأشياء أفضل ممّا يعرف السّكّانُ البلديّون الأصليّون الآخَرون، أيْ أصليّو البلد المستعمِر»[٢].

يدّعي المسؤولون الإداريّون الاستعماريّون امتلاكَهم مجالَ كفاءةٍ خاصًّا: إنّهم يعرضون أنفسَهم

١. يتمّ أحيانًا استعمال مصطلح «مسؤول إداريّ» (administrateur) ومصطلحَ «وكيل إدارة» (agent de l'administration) على نحوٍ تعاوُضيٍّ (interchangeables). في الواقع، لقد تمّ تخصيص لقب (مسؤول إداريّ) فقط لأعضاء المنظومة الإداريّة (الجسم الإداريّ)، الذين أصبح يُشترط فيهم لقبولهم، منذ سنة ١٩١٢، أن يكونوا مُجازين من المدرسة الاستعماريّة، التي كانت، في ما مضى، تُكوِّن علميًّا ربعَ عدد المسؤولين الإداريّين. أمّا مساعدو الأقسام المدنيّة، الذين يُنتَدبون على عين المكان، فقد أصبحوا مُجبَرين على الخضوع لدورةٍ تكوينيّةٍ تخصّصيةٍ مدّتها سنة واحدة في المدرسة الاستعماريّة، قبل الدّخول في الجسم.

٢. دُولافينْياتْ، الدّائرةُ الإفريقيّة الطّبعة الكاملة لـ«القادة الحقيقيون للإمبراطوريّة، ص ٥٣.

بوصفهم قبل كلِّ شيءٍ مختصِّين في السّكّان البلديّين الأصليِّين. خلال مؤتمر جمعيّة (رابطة المسؤولين الإداريّين الاستعماريّين)، الذي انعقد سنة ١٩٣١ على هامش (المعرض الاستعماريّ)، نرى أنّ هوبارْ دوشانْ (Hubert DECHAMPS/١٩٠٠-١٩٧٩)، وكان وقتها مسؤولاً إداريًّا شابًّا[١]، يُشير إلى الأهميّة الجديدة للأقسام التّقنيّة التي يجب أنْ يُنسِّقَ أعمالَها المسؤولُ الإداريُّ، ويؤكّد أنّ «تطويرَ التّقنيات المتعدّدة يُبقي لنا، مع ذلك، تقنيةً واحدةً هي تتبعنا وتخصّنا، وهي التي تتحكّم بالبقيّة: الإداريُّ الاستعماريُّ هو الخبيرُ المختصُّ في سياسة السّكّان البلديّين الأصليّين». ثُمّ يضيف، في مقطعٍ آخَر من كلامه: «من أجل إتقان المهنة، يجب أنْ نُحبَّها، ومهنتُنا، نحن، هي [سياسة] السّكّان البلديّين الأصليّين»[٢].

بينما كانت كفاءةُ المسؤولين الإداريّين للمستعمرات، إلى حدّ ذلك الزّمن، قائمةً على التمهّر في معرفةٍ إداريّةٍ صرْفٍ، متصوَّرةٍ بوصفها معرفةً كونيّةً (universel)، هي المعرفة بالقانون، أدّى تعريفُ المسؤول الإداريّ، كـخبيرٍ مختصٍّ في السّكّان البلديّين الأصليّين، إلى تغيير التكوين المهنيّ الذي يتلقّاه مسؤولو المستقبل في الإدارة الاستعماريّة، بعد أنْ كان، في ما سبق، قانونيًّا بحْتًا[٣]. لقد شدّد هاردي على أهميّة المعارف الخاصّة التي تتعلّق بـ«البيئات البلديّة الأصليّة» (milieux indigènes): لقد عزّز الاستعانةَ بالجغرافيا البشريّة، والاتنولوجيا، واللّغات البلديّة، والقانون العُرفي البلديّ الأصليّ، كما أنشأ مادّةً دراسيّةً هي «علم النّفس الـمُطبَّق على الاستعمار» (psychologie appliquée à la colonisation)». كما حصل تحت إدارته تقارُبٌ بين (معهد الإتنولوجيا)، و (المدرسة الاستعماريّة).

إنّ الـمُرافِعَ (plaidoyer) عن سياسة عقْلنة الفعل الاستعماريّ هو، أيْضًا، مُرافِعٌ عن قضيّته الشخصيّة، بالنسبة لأولئك الذين يُصرّحون بأنّهم هم الوكلاءُ المميَّزون للعقْلنة. إنّ تعريفَ المسؤول الاستعماريّ بأنّه (خبيرٌ مختصٌّ في السّكّان البلديّين الأصليّين)، بلْ بأنّه هو الـمُدافعُ عنهم، هو أيضًا، مطالبٌ بمنح جسم المسؤولين الإداريّين للمستعمَرات صلاحيّةً أكبرَ في ما يخصّ

١. لقد كان دوشانْ الأوّلَ في دفعته عند تخرّجه من المدرسة الاستعماريّة سنة ١٩٢٤. يمثّل هذا الرّجلُ أحدَ المصاديق للرّجل ذي السيرة المهنيّة المزدوجة، لقد بدأها استعماريًّا، ثمّ صار جامعيًّا: سوف يصبح، إلى غاية سنة ١٩٧٠، مديرَ مركز الدّراسات الإفريقيّة في جامعة السّوربون.

٢. دُوشانْ، هُوبار، النّزعةُ الاستعماريّةُ ووظيفة المسؤول الإداريّ» استعلامات استعماريّة، ص ٤٩٧-٥٠٠.

٣. كوهين، ويليامْ، أباطرةٌ بلا طيف، تاريخُ المسؤولين الإداريّين لفرنسا ماوراء- البحار وللمدرسة الاستعماريّة ١٩٧٣.

تحديد أغراض السّياسة الاستعماريّة ووسائلها، مقابلَ كلّ أولئك الذين يهدّدون استقلاليّتَهم، وهم: السّلطة السياسيّة في المركز الاستعماريّ (البرلمانيّون، بالخصوص)، ووزير المستعمَرات (وهو منصبٌ يُسنَدُ دائمًا إلى رجلِ سياسةٍ لا إلى استعماريٍّ[١]، لكنْ أيْضًا الخبراء المختصّون في القانون الاستعماريّ، الذين لا يَعدّون المسؤولين الإداريين للمستعمرات سوى منفِّذين، المطلوبُ منهم هو تطبيق القواعد الصّالحة كونيًّا (universellement)، وأخيرًا، ممثِّلو المصالح الاقتصاديّة الكبرى، والمستوطنون (المستعمِرون /(colons ، من دون أن ننسى أهل الصّفوة (النّخب) من المستعمَرين.

وكما صرّح هارْدِ، سنة ١٩٣١، في اختتام مؤتمر الجمعيّة البلديّة الأصليّة (société indigène): «يجب [...] أنْ نفرضَ على العمليّة الاستعماريّة صبغةً علميّةً، أيْ فعلاً مَشيدًا على العقل، كانت، إلى حدّ الآن، فاقدةً له، وكانت مدفوعةً إلى الاستخفاف به»[٢]. تؤكّد هذه الصّياغةُ الطابعَ المناضلَ، بل الجدَليَّ، لحركة المطالبة بالعقْلانيّة: لا تبرز العقْلنةُ هنا باعتبارها سيرورةً غيرَ شخصيّةٍ، بل هي تندرج، على العكس، في خضمّ صراعات التّنافس الدّاخليّ في نطاق المشروع الاستعماريّ. لقد عمل المسؤولون الإداريّون، الذين كانوا في وضْع ضعفٍ نسبيٍّ في معادلة القوى تلك، إلى تعبئة العلم وتسخيره كحليفٍ لهم في هذا الصّراع من أجل العقْلنة.

٦/ تقسيمُ العملِ والتّسميةُ الذّاتيّةُ

مثّل هذا التّحوُّل المزدوجُ، الذي مسّ، في آنٍ، شروطَ الهيمنة الاستعماريّة ومهنة المسؤول الإداري، مثّل الخلفيّةَ التي انعقد فيها في ما بين الحربين العلميّتيْن، حول مصلحةٍ عامّةٍ للعقْلنة، تحالُفٌ بين بعض الممثِّلين للعالَم العلميّ وأنصار التعديل (الإصلاح) «العقلانيّ» (reforme rationnelle) للممارسات الاستعماريّة. لقد نظّر بريفْيي لهذا التّحالف الضّروريّ بين خبراء مختصّين في العلم وبين إدارةٍ استعماريّة عقْلانيّةٍ. بالنّسبة له، تستتبع العقْلنةُ تخصُّصًا وتقسيمًا للعمل بين الباحثين ورجال العمل الميدانيّ.

«وهكذا، أصبحت العمليّةُ الاستعماريّةُ تحتاج أكثرَ فأكثرَ، إلى علماءَ، وإلى باحثين حياديّين/ موضوعيّين (نزيهين (impartiaux /، غير نفعيّين (ليس لهم غاياتٌ ربحيّةٌ / (désintéressés،

١. أيْ إنّه لا يتمّ اختيارُه من داخل الجسم. كان الاستثناءُ الوحيدُ لهذا العُرف هو تعيينَ بريفْيي وزيرًا للمستعمَرات من أفريل/ نيسان ١٩٤٢ إلى مارس/آذار ١٩٤٣.

٢. هارْدي، جورج، المؤتمر الدّولي والبَيْن-استعماريّ للجمعيّة البلدية الأصليّة، معرض باريس الاستعماريّ الدّولي، ٥-١٠ أكتوبر

ينظرون إلى الأمور من بعيد، أيْ من خارجِ نطاق الإلحاحيّة والاستعجاليّة، وبعيدًا عن حُـمّى العملِ الميدانيّ. يلزمها مختبراتٌ جيدةُ التجهيز، ومعاهدُ للبحث العلميّ؛ يجب عليها أن تعزِّز فعلَها الميدانيَّ بثقافةٍ علميةٍ استعماريّةٍ حقيقيّةٍ، وأن تستلهم من المنهج التّجريبيّ، وأنْ تأخذ التّوجيهاتِ من علمٍ دقيقٍ وعمليٍّ»[١].

نلاحظ أنّ برِفْيِي يَذكر بالتّحديد صِفتَيْ الحياديّة (الموضوعيّة، النّزاهة)، وعدم النفعيّة اللتين يدّعي الباحثون امتلاكهما. يتقاطع هذه المخطَّطُ مع شروط الانتساب إلى العالَـم العلميّ، وبشكلٍ خاصٍّ إلى عالَـم بولْ رِيفي (Paul RIVET)، الملتزمِ بمشروعٍ يهدف إلى عقْلنة (علم الإنسان) ومَنْهجته[٢]. إذا ما كانت الإتنوغرافيا موجودةً بوصفها ممارسةً معرفيّةً استعماريّةً، فإنّ الإتنولوجيا، باعتبارها تخصّصًا علميًّا جامعيًّا ليْستْ إذنْ سوى علمًا افتراضيًّا (virtuelle)، وتتوقّف في تطوُّرها على دعم الدّولة الاستعماريّة. سوف يسمح مثلُ هذا التّحالف نجاحَ بعض المبادرات التأسيسيّة، التي تُذكَر عمومًا بوصفها عناوينَ لانتصاراتٍ في تاريخ مأْسَسة الإتنولوجيا في فرنسا: إضافةً إلى إنشاء معهد الإتنولوجيا، يمكننا أنْ نذكرَ إنشاءَ جمعيّة الأفريقانيّين (سنة ١٩٣٠)، والدعمَ الماليَّ لبعثة (داكار-جيبوتي)، التي قادها مارْسالْ گرِيوُلْ (Marcel GRIAULE/في سنتَيْ ١٩٣١ و١٩٣٢) - يندرج الاثنان في نطاق التّحضير للمعرض الاستعماريّ -، وأخيرًا، نذكر إنشاءَ متحف الإنسان (سنة ١٩٣٧) الذي أُريد له أنْ يكون، عند تأسيسه، متحفًا استعماريًّا كبيرًا، كما سوف يذكّر رِيفِي بذلك عندما طلب حضورَ جماعاتٍ استعماريّةٍ عند افتتاحه.

لقد كانت ضرورةُ إظهار الدّولة لاهتمامها العلميّ بالشعوب الاستعماريّة [المستعمَرة] تُذكر بشكل دائمٍ لتبرير التّمويل العامّ للمبادرات التأسيسيّة في مجال الإتنولوجيا. وهكذا، نرى أنّ وزير المستعمرات يكتب، سنة ١٩٣٠، رسالةً إلى حاكم إفريقيا الإستوائيّة الفرنسيّة، يطلب فيها منه دعْمَ بعثة (داكار-جيبوتي):

«في هذه الساعة حيثُ يُوجِّه المعرضُ الاستعماريّ [الفرنسيّ]، لسنة ١٩٣١، انتباهَ الجمهور

١. برِيفْيِي، جول، ثلاثُ دراساتٍ للسّيّد الحاكم العامّ بريفْيِي ١٩٣٦.

٢. لقد راكم بولْ رِيفِي العديدَ من الوظائف العلميّة، فقد كان أستاذًا في المتحف الوطنيّ للتّاريخ الطّبيعيّ، وشغل منصبَ الأمين العامّ لمعهدَ الإتنولوجيا، كما كان مديرَ متحف الإتنوغرافيا. كان مشروعُه يهدف إلى توحيد مختلف فروع (علم الإنسان) تحت راية الإتنولوجيا. انظر لِيتْوَالْ، بينْوَا دو، الأفريقانيّة محاولةُ مقارنةٍ بين التجربتين الفرنسية والبريطانية، ص ١٩-٤٢.

العريض والعلماء الأجانب إلى نشاط فرنسا الاستعماريّ، لا بدَّ منْ أنْ نُظهر للعناصر الـمُنبَّهة بهذه المسائل أنّ السّلطاتِ العامّةَ [الفرنسيّة] لا تُهمِل أيَّ أمرٍ يسهم في المعرفة في هذا المجال وأنّها تستعمل، لأجل هذا الغرض، المناهجَ الحديثةَ التي تُغني عن المناهج التي تستعملها معاهد الأمم الأخرى».

تكشف مثلُ هذه الجملة أحدَ مفاتيح الدّعم الضّخم الذي كان يحظى به برنامجُ الإتنولوجيا العلميّة كما كان يجسّده ريفي: يدفع سياقُ المنافسة الدّوليّة في إثبات الاهتمام العلميّ بالشّعوب المستعمَرة إلى تشجيع الاستثمار في المؤسّسات التي تبدو، كما في حالة (معهد الإتنولوجيا)، أو (متحف تروكاديرو "Trocadéro" للإتنوغرافيا)، وبمقتضى قدرتها العالية على تعبئة رأسمالٍ علميٍّ، تبدو الأفضلَ أهليّةً للدّفاع عن راية العِلم الفرنسيّ في ساحة المنافسة العلميّة الدُّوليّة. هنا بالذّات تظهر، إذنْ، الحاجةُ إلى شرْعنةٍ على مستوى السّاحة الدّوَليّة، تمثّل المحرِّكَ الأساسيَّ لتفويض العمل المعرفيّ المتعلّق بالسّكّان البلديّين الأصليّين إلى خبراءَ مختصّين محترفين، يملكون استقلاليّةً مُؤسَّسيّةً (autonomie institutionnelle) إزاءَ الإدارة الاستعماريّة، بدلاً منْ تفويضه إلى المسؤولين الإداريّين الـمُنتدَبين المؤقَّتين للقيام بأعمالٍ بحثيّة. تجلّت حمُّى المنافسة الدُّولية بوضوحٍ خلال مؤتمر العلوم الاستعماريّة المنعقد سنة ١٩٣٧، حيثُ صرّح موريس لِينْهارتْ (Maurice LEENHARDT)، في ما يتعلّق بضرورة تنظيم عمليّات البحث داخل الممتلكات [المستعمَرات] الفرنسيّة في قارة أوقيانوسيا:

«إنّ كل البيبلوغرافيا (مجموعة المراجع البحثيّة) المتعلقة بالأراضي التّابعة لفرنسا (domaines français) مكتوبةٌ باللغة الأنكليزيّة أو باللّغة الألمانيّة: المثالُ الأبرزُ على هذه الحقيقة يتعلق بأرخبيل هيبريدس الجديدة (Nouvelles-Hébrides): حيث إنّه مقابل أعمال **ريفرس** (RIVERS) باللّغة الأنكليزيّة، وأعمال **ديكانْ** (DEACAN)، إلخ.، أو أعمال **سبَيْزَرْ** (SPEISER) باللّغة الألمانيّة، لا يملك مجالُ النشر - لا أقول مجال العِلم - لا يملك مجالُ النّشر الفرنسيّ شيئًا ما عدا رواية «إيرومانْغو» (EROMANGO) لـ **ب. بينْوَا** (P. BENOÎT). لا يكفي في إقناع الأنكليز، الذين يُنازعوننا النّفوذَ والتأثيرَ في هذا الأرخبيل، أنْ نقول أنّنا نعرف جزرَ هذا الأرخبيل أكثر منهم»[١].

١. لِينْهارْتْ، موريسْ، نظْمُ البحث العلميّ في أوقيانوسيا الفرنسيّة»، في مؤتمر البحث العلميّ في أراضي ماوراء-البحار. معرض باريس الدُّولي، ص ٥٢٨.

وهكذا، تظهر المعرفةُ العلميةُ بوصفها وثيقةً للملكيّة. وبالتّالي، فإنَّ إنجازَ أيِّ عملٍ يتعلّق بالمعرفة العلميّة بخصوص أرضٍ ما، يُصبح هو أيضًا امتلاكًا لحقٍّ أخلاقيٍّ في الهيمنة عليها، يُحتجُّ به في صراع المنافسة الاستعماريّة مع الأمم الأخرى.

يتمّ تبريرُ الدّعم الذي تُقدّمه الحكوماتُ الاستعماريّةُ للمؤسّسات العلميّة الموجودة في المراكز الاستعماريّة وفق منظور مزدوجٍ: المطلوبُ هو، في آنٍ، تكوينُ رجالِ الاستعمارِ المستقبليّين، وكذلك أداء دوْر نظْم البحث العلميّ وتنشيطه في المستعمرات. في الواقع، يبدأ الأمرُ مع علماء المؤسّسات المركزيّة [المستقرّة في المركز الاستعماريّ] بمنح أنفسهم، دورًا يتعلّق، أساسًا، بمركْزة (centralisation) إنتاج المعطيات وعقْلنتها؛ إلى جانب البعثات العلميّة، يبقى دورُ الوكلاء الاستعماريّين، في جمع المعلومات على الأرض، أساسيًّا[1].

ومع ذلك، نلحظ أنّه، ومنذ سنة ١٩٤٥، قد برز، تصاعديًّا تدريجيًّا، تقسيمٌ جديدٌ للعمل، يسعى إلى «إرساء تخصّصٍ مهنيٍّ» (spécialisation fonctionnelle)، مع تمييزٍ متنامٍ لدى وكلاء الدّولة بين وظيفة الباحث العلميّ ووظيفة المسؤول الإداريّ[2]. تُحدِث هذه الحركةُ، التي تؤدّي إلى إنشاء جسمٍ خاصٍّ بأصحاب مهنة المعرفة الإتنولوجيّة المدفوع لهم من الدّولة، تُحدث عددًا من التّحوُّلات، التي يُخفي قِناعُ «الـمَهْنَنَة» (professionnalisation)، وقِناعُ «الـمَأْسَسَةُ» (institutionnalisation) الكثيرَ من تعقيداتها. لقد تمّ التّصريحُ بهذا التّقسيم الجديد للعمل بين الدّراسة والإدارة، تخصُّصًا وتكامُلاً، في آنٍ، تمّ التصريحُ به في واحدٍ من أوّل المقرَّرات الجامعيّة الخاصّة بالإتنولوجيا، ومُنِح اسمًا كاشفًا عن جوهره «إتنولوجيا الاتّحاد الفرنسيّ» (Ethnologie de l'Union Française). نَشر هذا الكتابَ، سنة ١٩٥٣، مؤسّسةُ (منشورات فرنسا الجامعيّة)، بتوقيعٍ ثنائيٍّ، من أَنْدري لُورْوَا-كُورْهانْ (André LEROI-GOURHAN)، الذي كان وقتها أستاذًا محاضرًا في الإتنولوجيا في ليون، و جانْ بوَارْيِي (Jean POIRIER)، الأستاذ المدرِّس في المدرسة

١. وهكذا، فقد استخدم متحفُ الإتنوغرافيا ومعهدُ الإتنولوجيا الإدارةَ الاستعماريّة في جمع المعطيات المتنوّعة، سواء أكانت ذات طابع لغويٍّ، أم إتنوغرافيٍّ، أم كانت مواضيعَ بلديّةً أصليّةً (objets indigènes). انظر لِيتْوَالْ، بينْوَا دو، جيشٌ صغيرٌ من العمّال المساعدين. تقسيمُ العمل ورهاناتُه في الإتنولوجيا الفرنسيّة في العقد الرّابع من القرن العشرين ١٩٩٩.

٢. تمثّل ظاهرةُ (التّخصُّص المهنيّ)، مع تعريف «الحقول الخاصّة للكفاءة» (sphères de compétence spécifiques) تمثّل بُعْدًا آخَر من أبعاد سيرورة التّقسيم العقلانيّ للعمل الّتي تميّز الهيمنة الدّيوانيّة (البيروقراطيّة٩. وتوسيعًا لتحليل فيبر، بإمكاننا أنْ نعدّ أنّ التّسمية الذاتيّةَ لجهاز إنتاجٍ للمعارف يسهم في دفع منطق التّقسيم المهني هذا إلى حدّه الأقصى.

الوطنيّة لفرنسا ما وراء البحار (الاسم الجديد للمدرسة الوطنيّة)[١].

نعثر في هذا المؤلَّف الجامعيّ على الموضوع المزدوج الجامع للسّياسة البلديّة الأصليّة [سياسة المستعمَرات] وللشّرْعنة. هكذا تمّ التّقديم للقسم الرابع من الكتاب، (الاتّحاد الفرنسيّ والإتنولوجيا)، بنصٍّ قصيرٍ، ذي عنوانٍ كاشفٍ، (المصلحة الوطنيّة والواجب الدُّوليّ):

«إنّ الإتنولوجيا، وحدها، هي التي تستطيع أنْ تبنيَ سياسةً بشكلٍ فعّالٍ. من العبث أنْ نسعى إلى أنْ نكون مستشارين أو مديرين لمجتمعٍ بلديٍّ أصليٍّ من دون أنْ نعمل على دراسة أخلاقه وعقليّته؛ إنّ الشروط الحقيقيّة للعمل في هذا المجال هي: معرفة الأعراق، ومعرفة الثّقافة المادّيّة وأنماط الحياة، ومعرفة اللّغات، والبني العائليّة، والبني السّياسيّة، ومعرفة المعتقدات الدينيّة، وكذلك الدّراسة المنهجيّة لبسيوكولوجيا تلك الشّعوب»[٢].

تُلحظ هنا، وبشكلٍ صارخٍ، الاستمراريّةُ والوصْلُ مع احتجاج (argumentation) المسؤولين الإداريّين الذين كانوا يشجّعون الإتنوغرافيا ويمارسونها على الأرض بوصفها وسيلةً لفكّ رموز الشعوب البلديّة الأصليّة[٣]. وهنا تبدو الحجّةُ الثانية جليّةً أيضًا:

«لكنْ، إذا تكشّف أنّ معرفة المعطيات الإتنولوجيّة ضروريّةٌ لا غِنى عنها لأجل إنجاح كلّ فعلٍ في ماوراء- البحار، يجب علينا ألّا نَغْفل عن أنّ هذه المعرفةَ تستجيب أيْضًا، مستقبلاً، لالتزاماتٍ ذات طابعٍ دوليّ. في الواقع، لقد التزمتْ فرنسا باتخاذ جميع التّدابير اللّازمة لتنمية الثّقافات البلديّة الأصليّة؛ لقد التزمت باحترام أصالة مجتمعات ماوراء- البحار؛ وكلُّ هذا يستتبع القيامَ بجهودٍ نحو معرفةٍ أفضلَ، بشكل دائمٍ، عن المجتمعات التي تحمّلت مسؤولية رعايتها. في ما يخصّ تفويضات الوصاية القديمة الممنوحة من منظمة عصبة الأمم، تكتسي الالتزاماتُ الموقَّعة دقّةً أكبرَ، ويجب على الحكومات المعنيّة المسؤولة تقديمُ تقاريرَ دوريّةٍ حول أعمالها. بشكلٍ عامٍّ، يمكننا القولُ

١. ستصبح هاتان الشّخصيّتان، مستقبلاً، من الأسماء الكبرى في مجال الإتنولوجيا: لقد سيطر الأوّل على مجال «ماقبل- التّاريخ» (préhistoire) وعلى دراسات «التّكنولوجيا» في فرنسا؛ أمّا الثّاني فقد أدار فريقَ العمل الذي أعدّ المجلدَ المخصّصَ للإتنولوجيا في «موسوعة بلِيَادْ» (Encyclopédie de la Pléiade)، انظر بوَارْيِي، جانْ، إدارة، ج١: الإتنولوجيا العامّة.

٢. لُورْوَا، گُورْهانْ وبوَارْيِي، إتنولوجيا الاتّحاد الفرنسيّ، ج٢، ص ٨٩٧-٨٩٨.

٣. نلاحظ مشابهةَ هذا الأمر للصّياغات البلدويّة الأصلويّة (formulations indigénistes) التي درسها كلٌّ مِنْ كلاوْديُو لُومْنِيتْزْ وأنْطُونْيُو كارْلوسْ دو سُوزا، كما سيأتي لاحقًا في هذا العدد من المجلة (مجلة الحصيلة / synthèse)، على التّوالي، ص ٣٤٥-٣٨٠ و٣٨١-٤١٠.

أنّ السّلطات الفرنسيّة، ومنذ تاريخ تحمّل مسؤوليّة رعاية شعبٍ من شعوب ماوراء- البحار، تبدأ مسؤوليتُها لا فقط على مستوى التّنمية الماديّة للبلد، بل وأيضًا على مستوى تنمية النّاس: دراسة العادات والأعراف، والاستكشاف الآثاريّ (الأركيولوجي) والتّاريخيّ، وتحليل الفنّ والأدب والفكر الفلسفيّ. هذا البحثُ الإتنولوجيُّ هو جزءٌ من واجبات سلطات الوصاية [الاستعماريّة] »[١].

هذا التّبريرُ المزدوجُ لأهميّة البحث الإتنولوجيّ، من خلال المصلحة الوطنيّة والواجب الدّولي، هو هنا أيضًا أشدُّ ارتباطًا، في آنٍ، بأغراض التّعديل (الإصلاح / réforme) الاستعماريّ وبتغيير موازين القوى في الهيمنة الاستعماريّة، مع الاتّحاد الفرنسيّ (Union Française)، الذي ينوي إقامة شكلٍ جديدٍ من العلاقات أكثرَ عدالةً بين المركز الاستعماريّ وأراضي ماوراء- البحار [المستعمَرات][٢]، وكذلك مع ظهورضغوطٍ دُوَليةٍ أقوى في فترة ما بين الحربيْن العالميّتيْن. إنّ السّياق المذكور هنا يتعلّق بإلزام الدّولة الاستعماريّة الفرنسيّة بتقديم تقرير عن عملها على المستوى الدُّولي، وبشكلٍ خاصٍّ بالنسبة للبلدَيْن الأقدمَيْن في الخضوع للوصاية الاستعمارية الفرنسيّة، الطوغُو والكاميرون، اللّذَيْن أصبحا من الأراضي غير المرتبطة الخاضعة لوصاية الأمم المتحدة. إنّ ما له الأهميّة في المقام الأوّل، هنا أيْضًا، هو الحاجة إلى شرْعنة الفعل الاستعماريّ: هنا تبدو الإتنولوجيا بمنزلة الضمانة لحسن النيّة التي تمنح التّصديقَ لاحترام دولة فرنسا للثقافات البلدية الأصليّة. وهكذا وجد مفهومُ «تنمية النّاس» (mise en valeur des hommes)، الـمُقدَّمُ بوصفه مفهومًا مقابِلاً لمفهوم «التّنمية الماديّة» (mise en valeur matérielle)، وجد صداه في حجّة لِيفِي-برُوهْلْ التي قدّمها لتبرير إنشاء معهد الإتنولوجيا، وفوق ذلك، وجد صداه في تثمين المسؤولين الإداريّين التعديليّين (الإصلاحيّين / réformistes) للبُعْد الإنسانيّ للعمليّة الاستعماريّة.

إنّ العلاقةَ بين الإدارة الاستعماريّة والإتنولوجيا، كما يقترحها لُورْوَا-گرُوهانْ وبوَارْيِي، هي علاقةُ تكامُلٍ ودعْمٍ متبادَلٍ: يجب أنْ يعتمد الفعلُ الاستعماريُّ على الإتنولوجيّين (علماء الأعراق / ethnologues)؛ هؤلاء يؤدّون دورَ «الدّائرة الخارجيّة» (service extérieur) للدّولة، التي تقوم،

١. لُورْوَا، گُورْهانْ وبوَارْيِي، إتنولوجيا الاتّحاد الفرنسيّ، ج٢، ص. ٨٩٧-٨٩٨.

٢. أعطى دستورُ ١٩٤٦ اسم (الاتّحاد الفرنسيّ) للكتلة المكوَّنة من فرنسا المركزية وبلدان ماوراء- البحار (مستعمَراتها)، ما يعني منح الجنسيّة الفرنسيّة (مع اختلاف الوضع ونوعيّة الجنسيّة) إلى جميع رعايا الاتّحاد.

نوْعًا ما، بمنح تفويضٍ في مجال العمل المعرفيّ إلى الباحثين المحترفين[١]. إنّ هذا النّموذجَ لمعرفةٍ في خدمة الفعل الاستعماريّ، والتي كانت ثمرةَ عصْفِ أفكارٍ في حواراتٍ تمّت بين مسؤولين إداريّين وباحثين، وجد نفسه في تناقضٍ متنامٍ مع مقتضَياتٍ أخرى. لمّا عرّف الإتنولوجيّون أنفسَهم بأنّهم خبراءُ مختصّون في المجتمعات والعقليّات البلديّة الأصليّة، دخلوا بذلك في منافسةٍ مباشرة مع المسؤولين الإداريّين الاستعماريّين الموجودين في الميدان، الّذي كان هؤلاءُ الأخيرون يسعوْن إلى السّيْطرة عليه. بأمكاننا أن نشخّص علاقاتهم على أنّها تتلاءم مع نموذجٍ للتّواقف التنافسيّ (modèle d'interdépendance concurrentielle) ، المتّسم بصراعات المصالح والحدود.

ومع ذلك، تسبّبتْ مساعي تعزيزِ المؤسّسات العلميّة المركزيّة[٢]، ومجهوداتُ الإتنولوجيّين للتّعريف بأنفسهم في الوسط العلمي- وبشكل أعمَّ، في الوسط الفكريّ المركزيّ، تسبّبتْ، أكثرَ فأكثرَ، في خلق الشّروط لتنافرٍ متنامٍ في ما يتعلّق بمواضيع المعرفة وأشكالها: يتنامى التّباينُ بين الخصائص المطلوبة للاعتراف بكون إنتاجٍ معرفيٍّ ما هو إتنولوجيًّا، وبين مقتضَيات المعرفة الإداريّة، التي أصبحت تتّجه أكثرَ فأكثرَ نحو مسائلَ جديدةٍ، اقتصاديّةٍ على وجه الخصوص[٣]. وهكذا شهدنا تحوُّلاً في المنافسة الأساسيّة: لقد ظهرت المنافسةُ في نطاق الفضاء العلميّ النّاشئ، بين أفرادٍ راسخين في مؤسّسات البحث الاستعماريّة (Ifan أو Ostrom) وآخرين، لكونهم مرتبطين بمؤسسات البحث المركزيّة، يجب عليهم إثبات وضعهم في الوسط العلميّ المركزيّ. لقد تمّت تعبئة ادّعاء «النّقاء العلميّ» (Pureté Scientifique)، واستُعمِل كوسيلةٍ للاحتجاج في الصّراعات العلميّة؛ لقد أدّى هذا، بشكل خاصٍّ، إلى وصْمِ البحوث الـمرفوضة بأنّها تطبيقيّةً، مقابل العلم

١. تمثّل خطّةُ «علم اجتماع الشّعوب التّابعة» (sociologie des peuples dépendants) ، الذي أرساه، في المعهدُ الفرنسيُّ لإفريقيا السّوداء في نهاية العقد الخامس من القرن العشرين (الأربعينات)، مجموعةٌ من الباحثين الشبّان مثل جورج بالانْدِيي و بول مَرْسْيِي، الذي استشرف صياغةَ تعريفٍ للأغراض البحثيّة بالتّعاون بين مسؤولين إداريّين وباحثين، تمثّل هذه الخطّةُ الصّياغةَ النّظريّةَ لهذه الوضعيّة من التّواقف البنيويّ بين فريقَيْن من الموظّفين، كانا يُعتبران متمايزَيْن، انظر مَرْسْيِي، بُولْ، مهامُّ علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، ١٩٥١؛ بالانْدْيِي وبُوفْرِي، القرى الغابونيّة. الجوانب الديموغرافيّة، والاقتصاديّة، والسوسيولوجيّة، مشاريع حدْثنة، مونْبلِي، ١٩٥٢.

٢. سنة ١٩٤٤، تمّ تأسيس قسم (الإتنولوجيا وماقبل-التّاريخ) في المعهد الوطنيّ للبحث العلميّ، وسنة ١٩٤٧ تمّ تأسيس الوحدة السّادسة في المدرسة العمليّة (التّطبيقيّة) للدّراسات العليا، وسنة ١٩٥٨، تمّ تأسيس كرسيٍّ للأنتروبولوجيا الاجتماعيّة والثّقافيّة في معهد فرنسا (Collège de France)، انظر گَايَارْ، جيرالْدْ، الإتنولوجيا قبل إنشاء المركز الوطني للبحث العلميّ، ص ٨٥-١٢٩.

٣. كُوبِرْ، فريديريك، تمدين الديوانيّين/البيروقراطيّين، الأفارقة القدامى ومفهوم التّنمية، ص ٦٤-٩٢.

النّقيّ، والمترفّع عن الغايات الرّبحيّة (science pure et désintéressée)[١].

لقد سهّل مفهومُ (الهيمنة العقلانيّة) بتجاوز هذه الـمُسلَّمة- العقبة التي تفيد بوجود تناقضٍ مستحكِمٍ وثابتٍ بين دواعي المصلحة العلميّة (raison savante) ودواعي المصلحة العليا (raison d'État). يوفّر لنا هذا المفهومُ وسيلةً لتحليل القرابة بين أشكال العقلانيّة الإداريّة وأشكال العقلانيّة العلميّة، بشرط أنْ نعقل هذا المفهومَ لا فقط بمعنى العقلنة الشّكليّة (formelle) لتقنيات الهيمنة، بلْ أيضًا بمعنى اللّجوء إلى نمطٍ خاصٍّ من الشّرْعنة، متميِّزٍ بإعطاء الأولويّة للطّابع القائم على دواعي مصلحة الهيمنة (raison de la domination). تأخذ مسألةُ «الهيمنة بتوسُّل المعرفة» (domination par le savoir) كما طرحه فيبر، دَلالةً مزدوجةً: تستفيد الدّيوانيّةُ (البروقراطيّة)، من جهةٍ، من عقْلنة أدوات المعرفة، ومن جهةٍ أخرى من ضمان الشّرْعيّة الذي يمنحه إيّاها العلمُ. وبين هذَيْن القطبيْن، بالذّات، تندرج العلاقاتُ المعقّدةُ (complexes)، والمفارِقةُ (paradoxales)، أحيانًا، أيْ بيْن المعرفةِ العالِمة بالسّكّان [البلديّين الأصليّين] وإدارتِهم. هذان البُعْدان للهيمنة العقلانيّة ليسا مستقلَّيْن أحدهما عن الآخر: يسهم استعمالُ أدواتٍ عقلانيّةٍ علميّةٍ في توليد قناعةٍ في إمكانيّة التّحكّم في واقعٍ معقَّدٍ، وهذا الأمرُ يُشرْعن الهيمنةَ في نظر الذين يمارسونها.

يُمكّن مفهومُ (الهيمنة العقلانيّة)، أيضًا، من إظهار أنّ العلاقةَ بين الإتنولوجيا، بوصفها تخصُّصًا جامعيًّا، والإدارةِ الاستعماريّةِ بوصفها مؤسَّسةً، معتبَرةً عمومًا نقطةَ الانطلاق للتّفكير في هذا المسائل، ومُسْقَطةً سلفًا، يُمكِّن من إظهار أنّ هذه العلاقةَ يجب عدّها حالةً خاصّةً، أيْ صياغةً تاريخيّةً فريدةً في الرّوابط بين عمليّةِ إنتاجٍ لمعرفةٍ متعلقةٍ بالسّكّان البلديّين الأصليّين، وممارساتٍ ميدانيّةٍ متعلقةٍ بسياسة السّكّان البلديّين الأصليّين[٢]. تكمن فرادةُ هذه الصّياغةِ، الجديدةِ نسبيًّا، في كون هاتيْن المجموعتيْن من الممارسات تقوم بها مؤسّساتٌ، ومن خلال وكلاء، متغايرين منفصلين.

إذا ما كانت الدّولةُ الاستعماريّةُ قد أسهمت في تطوير مقاربةٍ علميّةٍ للسّكّان البلديّين الأصليّين، فإنّ ذلك لم يتمَّ بمقتضى سيرورة عقلنةٍ قاسيةٍ متصلّبةٍ (inéxorable)؛ بل يبدو هذا المشروعُ

١. يخلق هذا الوضعُ شروطَ صراعٍ على القيم (conflit de valeurs)، بالنّسبة لعلماء الأعراق (الإتنولوجيّين / ethnologues) ذوي الطّموحات العلميّة الأعلى، وهو ما يظهر في أعمال بالانْديي ومَرْسْيي الأولى. يدافع الباحثون المحترفون عن استقلاليّتهم إزاء الإدارة، أيْ إنّهم يدافعون عن احتكار تعريف المناهج والمواضيع المناسبة.

٢. يمكّن مجموعُ المساهمات في هذا العدد من المجلة من فَهْم تنوّع هذه الصّياغات.

«رسالةً/بلاغًا» (porté) بالمعنى الذي تكلّم به فيبر عن المبلغين (porteurs) الحاملين لرسالةٍ دينيّةٍ)، وذلك من خلال التقاء مجموعاتٍ مختلفةٍ مرتبطةٍ بالدّولة وتشترك، في آنٍ، في مصلحةٍ في العقْلنة ومصلحةٍ في معرفة السّكّان البلديّين الأصليّين. يبدو الانشغالُ، الذي تجسّده الإتنولوجيا، بإنتاج معرفةٍ علميّةٍ حول السّكّان البلديّين الأصليّين، يبدو، في آنٍ، بمنزلة عنصرٍ مفتاحيٍّ ورمزٍ لتقنيةٍ سياسيّةٍ جديدةٍ، مَشيدةٍ على قاعدة أخذ الاختلاف بين الحضارات بعين الاعتبار. وبهذه الصّياغة المتّميِّزة، في آنٍ، بنوعٍ من التّشكيك في الهيمنة الاستعماريّة وبضغوطٍ دُوليّةٍ قويّةٍ، تبرز الإتنولوجيا كطرفٍ باستطاعته أنْ يجمع ثلاثةَ عواملَ خاصّةٍ بالعقلنة: ممارسة نشاطٍ علميٍّ، وإثبات وجود مصلحةٍ ترجع للسّكّان البلديّين الأصليّين، واحترام عاداتهم وأعرافهم الأصيلة.

لقد أسهم الاشتراكُ في هذه المصالح، في فترة ما بين الحربيْن العالميّتيْن، في إرساء تحالفٍ بين مُطلِقي مشاريع عقلنة الهيمنة الاستعماريّة - الذين استصحبوا تعريف المسؤول الإداريّ بوصفه خبيرًا مختصًّا في السّكّان البلديّين الأصليّين - وبين علماءَ يتوقف نشاطُهم على دعم الدّولة الاستعماريّة في أساس وجود مؤسّساتهم، وفي معيشة وكلائهم، من أجل جمع المعطيات. وهكذا يُمكننا أنْ نحلّلَ العلاقةَ بين الإدارة الاستعماريّة والإتنولوجيا، كما ظهرت خلال سيرورة المأسسة، باعتبارها شكلاً من أشكال التّرابط التّنافسي بين مجموعاتٍ كثيرةٍ مرتبطةٍ بالدّولة، وهو ترابطٌ تتغيّر شروطه مع مرور الزّمن.

بفضل هذا الحلف، القائم على قاعدة تقسيم العمل على أساس التخصّص المهنيّ (يوفّر الخبراءُ المختصّون في المعرفة المعلوماتِ، كما يوفّرون خبراءَ في التّأويل والتّحليل أيضًا، إلى الخبراء المختصّين في الممارسة العمليّة في سياسة السّكّان البلديّين الأصليّين)، بفضل هذا الحِلف أصبح من الممكن تأسيس عددٍ من المؤسّسات، التي أرست، هي نفسُها، الشروطَ اللازمةَ لتطوير جسمٍ جديدٍ من الخبراء المختصّين في السّكّان البلديّين الأصليّين، وهم علماء الأعراق (الإتنولوجيّون / ethnologues)، وساهمت في الاعتراف بهذا الجسم في الوسط الجامعي والفكريّ. من ناحية أخرى ننبّه إلى أنّ تطوير قاعدةٍ مؤسَّسيّةٍ مستقلةٍ نسبيًّا عن الدّولة - وهو ما يفسّر بقاء هذا التخصّص موجودًا في السّاحة العلميّة - يدفع نحو إعادة تعريف هذا التخصّص، عبر صراعاتٍ داخليّةٍ تهدّد التّكاملَ المأمولَ حدوثُه، سلفًا، بين الانشغالات الاستعماريّة والانشغالات العلميّة. ويُضاف إلى ذلك

التّشكيكُ المتصاعدُ في الهيمنة الاستعماريّة في الأوساط الفكريّة المركزيّة، الذي سيعسّر، التّصريحَ بالمكانة المحوريّة للإتنولوجيا في عمليّة التّنمية الااستعماريّة، التي أكّدها ليفي-برُوهْلْ في فترة ما بين الحربيْن العالميّتيْن. وهكذا فإنّ العلاقةَ التأسيسيّةَ بإدارة السّكّان البلديّين الأصليّين أصبحت خفيّةً في ما يقع التصّريح به في هذا العِلم الجديد المتعلّق بالإنسان، الذي يَدّعي وراثةَ الأنوار (Lumières).

لائحة المصادر

١. آسْمالْ (جانْ-لُو) و مْ'بُوكُولُو (إليكيا)، ١٩٩٩، في قلب العِرْق. العِرقُ والقَبَليّةُ والدّولة فيلإفريقيا، ط١، ١٩٨٥، سلسلة هنا باريس، لا ديكوفارْتْ (لا ديكوفارْتْ كتب الجيب، ٦٨، العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة).

AMSELLE (Jean-Loup) et M'BOKOLO (Elikia), dir., 1999, Au coeur de l'ethnie. Ethnie, tribalisme et État en Afrique, 1re éd. 1985, ici Paris, La Découverte (La Découverte Poches, 68. Sciences sociales et humaines).

٢. بالانْدْيِي (جورج) وبوفْرِي (جانْ-كلود)، ١٩٥٢، القرى الغابونيّة. الجوانب الديموغرافيّة، والاقتصاديّة، والسوسيولوجيّة، مشاريع حدْثنة، مونْبلِيي، مطبعة لا شاريتِي (مُذكّرات معهد دراسات إفريقيا الوسطى).

BALANDIER (Georges) et PAUVERT (Jean-Claude), 1952, Les Villages gabonais. Aspects démographiques, économiques, sociologiques. Projets de modernisation, Montpellier, Impr. de la Charité (Mémoires de l'Institut d'études centrafricaines).

٣. بازِنْ (جانْ)، «لِكُـلٍّ بامْبارَاه»، في آسْمالْ و مْ'بُوكُولُو، ١٩٩٨.

BAZIN (Jean), 1998, «À chacun son Bambara», in AMSELLE et M'BOKOLO, 1999.

٤. بُونُّويْ (كرِيسْتوفْ)، ١٩٩١، علماء من أجل الامبراطوريّة، باريس، أوستروم.

BONNEUIL (Christophe), 1991, Des savants pour l'Empire, Paris, ORSTOM.

٥. بُونُّويْ (كرِيسْتوفْ)، ١٩٩٩، «المتحف الوطنيّ للتّاريخ الطّبيعيّ والتّوسّع الاستعماريّ للجمهوريّة الثّالثة (١٨٧٠-١٩١٤)»، مجلّة تاريخ فرنسا ماوراء- البحار.

BONNEUIL (C.), 1999, «Le Muséum national d'histoire naturelle et l'expansion colonial de la IIIe République (1870-1914)», Revue d'histoire de la France d'outre-mer, t. LXXXVI, 322-323.

٦. بريفْيِي(جول)، ١٩٣٦، ثلاثُ دراساتٍ للسّيّد الحاكم العامّ بريفْيِي، داكار مطبعة الحكومة العامّة لإفريقيا الغربيّة الفرنسيّة.

BRÉVIÉ (Jules), 1936, Trois études de Monsieur le gouverneur général Brévié, Dakar, Imprimerie du gouvernement général de l'AOF.

٧. بريِيَانْ (إيريكْ)، ١٩٩٤، قياس الدّولة، المسؤولون الإداريّون وعلماء الهندسة في القرن الثّامن عشر، باريس، ألْبَنْ ميشال (تطوُّر الإنسانيّة).

BRIAN (Éric), 1994, La Mesure de l'État. Administrateurs et géomètres au XVIII e siècle, Paris, Albin Michel (L'Évolution de l'humanité).

٨. شالور، ١٩٤٣، «مخطّطٌ إتنولوجيٌّ إجماليٌّ من أجل دراسة القبائل الأساسيّة في الأراضي الكاميرونيّة تحت الوصاية الفرنسيّة»، نشرة جمعيّة الدّراسات الكاميرونيّة.

CHAULEUR, 1943, «Esquisse ethnologique pour servir à l'étude des principales tribus des territoires du Cameroun sous mandat français», Bulletin de la Société d'études camerounaises.

٩. شُومْبارْتْ دو لُوْ (بول-هنرِي)، ودِيبُودُو (ج.)، ١٩٣٩، «خريطةٌ موجزةٌ لشعوب الكاميرون»، جريدة جمعيّة الأفريقانيّين.

CHOMBART DE LAUWE (Paul-Henry) et DEBOUDAUD (J.), 1939, «Carte schématique des populations du Cameroun», Journal de la Société des africanistes.

١٠. كوهِين (ويليامْ ب.)، ١٩٧٣، أباطرةٌ بلا طيف، تاريخُ المسؤولين الإداريّين لفرنسا ماوراء- البحار وللمدرسة الاستعماريّة، ترجمة من الأنكليزيّة لـ«سلطات الإمبراطوريّة. الدّائرة الفرنسية الاستعماريّة في إفريقيا»، ستانْفورد، ١٩٧١»، هنا باريس، سُويْ.

COHEN (William B.), 1973, Empereurs sans sceptre. Histoire des administrateurs de la France d'outre-mer et de l'École coloniale, trad. de Rulers of Empire. The French colonial service in Africa, Stanford, 1971, ici Paris, Seuil.

١١. كُوهْنْ (برْنارْد)، ١٩٨٧، «إحصاء السّكّان، البنية الاجتماعية والوضْعنة في جنوب آسيا» في أنثروبولوجيّ بين مؤرِّخين، أوكسفورد، منشورات جامعة أكفورد.

COHN (Bernard), 1987, «The census, social structure and objectification in South Asia», in An anthropologist among the historians, Oxford, Oxford University Press.

١٢. كونْكْلِنْ (آليسْ ل.)، ١٩٩٧ ، رسالةُ حضْرنة: الفكرة الجمهوريّة للإمبراطوريّة في فرنسا وغرب لإفريقيا، ١٨٩٥-١٩٣٠، ستانْفوردس. أيْ. منشورات جامعة ستانفورد.

CONKLIN (Alice L.), 1997, A mission to civilize. The republican idea of empire in France and West-Africa, 1895-1930, Stanford, CA, Stanford University Press.

١٣. كُوبر (فريديريك)، ١٩٩٧، «تمدين الديوانيّين/البيروقراطيّين، الأفارقة القدامى ومفهوم التّنمية»، في فريديريك كوبرْ ورنْدالْ باكارْدْ، إدارة، التّنمية الدّوليّة والعلوم الاجتماعيّة، باركلي، منشورات جامعة كاليفورنيا.

COOPER (Frederick), 1997, «Modernizing bureaucrats, backward Africans and the Development concept», in Frederick COOPER et Randall PACKARD, dir., International development and the social sciences, Berkeley, University of California Press.

١٤. دِيلافُوسْ (مُوريسْ)، ١٩٢١، «حول التّوجُّه الجديد للسّياسة البلدية/الأصلية في إفريقيا السّوداء»، استعلاماتٌ استعماريّةٌ ووثائقُ نشرتها لجنةُ إفريقيا الفرنسيّة.

DELAFOSSE (Maurice), 1921, «Sur l'orientation nouvelle de la politique indigène dans l'Afrique noire», Renseignements coloniaux et documents publiés par le Comité de l'Afrique française.

١٥. دِيلافُوسْ (مُوريسْ)، ١٩٢٥، الحضاراتُ الإفريقية الزنجيّة، باريس، لاروز.

DELAFOSSE (M.), 1925, Les Civilisations négro-africaines, Paris, Larose.

١٦. دِيلافِينْيات (رُوبارْ)، ١٩٤٦، الدّائرةُ الإفريقيّة (الطّبعة الكاملة لـ«القادة الحقيقيون للإمبراطوريّة»، الممنوع من النّشر سنة ١٩٤٠)، باريس، گالّيمارْ.

DELAVIGNETTE (Robert), 1946, Service africain (éd. compl. de Les Vrais Chefs de l'Empire, censuré en 1940), Paris, Gallimard.

١٧. دِيشَنْ (هُوبارْ)، ١٩٣١، «النّزعةُ الاستعماريّةُ ووظيفة المسؤول الإداريّ» استعلامات استعماريّة.

DESCHAMPS (Hubert), 1931, «La vocation coloniale et le métier d'administrateur», Renseignements coloniaux.

١٨. ديمِيي (فيرونيك)، ١٩٩٩، الخطابُ الاستعماريُّ العلميُّ: الخطاب والرّهانُ. حول الإدارة الاستعماريّة المقارَنة، حواليْ ١٩٣٠-حواليْ ١٩٥٠، أطروحة دكتوراه، گرونوبْلْ، جامعة گرونوبْلْ.

DIMIER (Véronique), 1999, Construction et enjeu d'un discours colonial scientifique sur l'administration coloniale comparée, vers 1930-vers 1950, thèse de doctorat, Grenoble, Université de Grenoble.

١٩. دوگاسْتْ (إيديلاتْ)، ١٩٤٨، «مقالةٌ حول سكّان الكاميرون»، نشرة جمعيّة الدّراسات الكاميرونيّة، المجلدان الحادي عشر والثّاني عشر.

DUGAST (Idelette), 1948, «Essai sur le peuplement du Cameroun», Bulletin de la Société d'études camerounaises, vol. XXI-XXII.

٢٠. دُوگاسْتْ (إيديلاتْ)، ١٩٤٩، جرْدةُ حسابٍ عِرْقِيّةٌ لجنوب الكاميرون، كاهورْ، مطبعة أ. كوسْلَنْ (مُذكّرات المعهد الفرنسيّ لإفريقيا السّوداء. مركز الكاميرون).

DUGAST (I.), 1949, Inventaire ethnique du Sud-Cameroun, Cahors, Impr. De A. Coueslant (Mémoires de l'Institut français d'Afrique noire. Centre du Cameroun).

٢١. دُوگاسْتْ (إيديلاتْ)، ١٩٥٤، «بابانْ، وبافْيا، وبالُومْ» في «شعوب وسط الكاميرون»، لندن، المعهد الإفريقي الدّوليّ (نظرة إتنوغرافيّة عامةٌ لِـ إفريقيا).

DUGAST (I.), 1954, «Banen, Bafia and Balom», in Peoples of the Central Cameroons, Londres, International African Institute (Ethnographic Survey of Africa).

٢٢. دُوگاسْتْ (إيديلاتْ)، ١٩٥٥-١٩٥٩، دراسةٌ أُحاديّةٌ لقبيلة النديكيّين (منطقة بانان الكاميرون)، باريس، معهد الإتنولوجيا.

DUGAST (I.), 1955-1959, Monographie de la tribu des Ndiki (Banen du Cameroun), Paris, Institut d'ethnologie, 2 vol.

٢٣. إِيبْوِي (فيليكْسْ)، ١٩٣١، «شعوب أُوبانْغي-شاري. دراسةٌ في الإتنوغرافيا، وفي اللّسانيّات، وفي الاقتصاد الاجتماعيّ»، نشرة إفريقيا الفرنسيّة. استعلاماتٌ استعماريّةٌ ووثائقُ، مستعادٌ في نشرة جمعية البحوث الكونْگُوليّة، مطبعة الحكومة العامّة لِـ لإفريقيا الاستوائيّة الفرنسيّة، ١٧، ١٩٣٢.

ÉBOUÉ (Félix), 1931, «Les peuples de l'Oubangui-Chari. Essai d'ethnographie, de linguistique et d'économie sociale», Bulletin de l'Afrique française. Renseignements coloniaux et documents, repr. Bulletin de la Société des recherches congolaises, Imprimerie du gouvernement général de l'AEF, 17, 1932.

٢٤. فوكو (ميشال)، ١٩٩٦، «الحوكمة»، أقوالٌ وكتاباتٌ

FOUCAULT (Michel), 1996, «La gouvernementalité», Dits et écrits.

٢٥. گايّارْ (جيرالْدْ)، ١٩٨٩، «الإتنولوجيا قبل إنشاء المركز الوطني للبحث العلميّ»، كـرّاساتٌ من أجل تاريخٍ للمركز الوطني للبحث العلميّ.

GAILLARD (Gerald), 1989, «L'ethnologie avant le CNRS», Cahiers pour une histoire du CNRS.

٢٦. گُودي (جاكْ)، ١٩٩٥، مرحلة التوسّع، الأنثروبولوجيا في بريطانيا وإفريقيا، ١٩١٨-١٩٧٠، كامْبْرِيدْجْ، منشورات جامعة كامْبْرِيدْجْ.

GOODY (Jack), 1995, The Expansive Moment. Anthropology in Britain and Africa, 1918-1970, Cambridge, Cambridge University Press.

٢٧. گرِينْهالْفْ (بول)، ١٩٨٨، المشاهدُ المؤقَّتة (الصُّوَرُ الزائلةُ). المعارض الكونيّة، معارضُ عالميّةٌ عظيمةٌ، ١٨٥١-١٩٣٩، مانشستر، منشورات جامعة مانشستر.

GREENHALGH (Paul), 1988, Ephemeral vistas. The Expositions universelles, great exhibitions and world's fairs, 1851-1939, Manchester, Manchester University Press.

٢٨. هارْدِي (جورج)، ١٩٣٢، المؤتمر الدّولي والبَيْن-استعماريّ للجمعيّة البلدية الأصليّة، معرض باريس الاستعماريّ الدّولي، ٥-١٠ أكتوبر/تشرين الأوّل ١٩٣١، باريس.

HARDY (Georges), 1932, Congrès international et intercolonial de la Société indigène, Exposition coloniale internationale de Paris, 5-10 oct. 1931, Paris.

٢٩. «جردةُ حسابٍ عرقيّةٌ (إتنيّةٌ) ولسانيّةٌ للكاميرون تحت الوصاية الفرنسيّة. وثائقُ مُحَيَّنَةٌ يوم ١٩٣٣/١٢/٣١، ومُرْسَلةٌ من السّيد مُفوَّض الجمهوريّة»، ١٩٣٤، جريدة جمعيّة الأفريقانيّين، الـمَلزمة الثّانية.

«Inventaire ethnique et linguistique du Cameroun sous mandat français. Documents mis à jour au 31/12/1933 et communiqués par M. le commissaire de la République», 1934, Journal de la Société des africanistes, fasc. II.

٣٠. لابُورِي (هنْرِي)، ١٩٣١، بحثًا عن سياسةٍ بلدية/أصليّةٍ جديدةٍ لغرب إفريقيا، باريس، طبعةلجنة إفريقيا الفرنسيّة.

LABOURET (Henri), 1931, À la recherche d'une nouvelle politique indigène dans l'Ouest africain, Paris, Éd. du Comité de l'Afrique française.

٣١. لِينْهارْتْ (موريسْ)، ١٩٣٨، «نظْمُ البحث العلميّ في أوقيانوسيا الفرنسيّة»، في مؤتمر البحث العلميّ في أراضي ماوراء-البحار. معرض باريس الدُّولي، ١٩٣٧، باريس، مؤسّسة الاستعمار-العلوم (علوم الاستعمار).

LEENHARDT (Maurice), 1938, «L'organisation de la recherche scientifique en Océanie française», in Congrès de la recherche scientifique dans les territoires d'outre-mer. Exposition internationale de Paris, 1937, Paris, Association Colonie-Sciences.

٣٢. لوروا-گُورْهانْ (أنْدرِي) وبوارْيِي (جانْ)، ١٩٥٣، إتنولوجيا الاتّحاد الفرنسيّ، باريس، منشورات فرنسا الجامعيّة.

LEROI-GOURHAN (André) et POIRIER (Jean), 1953, L'Ethnologie de l'Union française, Paris, Presses universitaires de France.

٣٣. ليتْوالْ (بينْوَا دو)، ١٩٩٤، الأنتروبولوجيا أمام العالم الحديث. مالينوفْسْكِي وعقْلنة الأتنروبولوجيا والإدارة»، جينازْ.

L'ESTOILE (Benoît de), 1994, «L'anthropologue face au monde moderne. Malinowski et la rationalisation de l'anthropologie et de l'administration», Genèses.

٣٤. ليتْوالْ (بينْوَا دو)، ١٩٩٧أ، «الأفريقانيّة. محاولةُ مقارنةٍ بين التجربتين الفرنسية والبريطانية»، في آنْ بِيرْيُو وإيمّانُووَالْ سِيبُو، إدارة، جدلٌ حول الأفريقانيّة، مدرسة الدّراسات العليا في العلوم الاجتماعيّة، مركز الدّراسات الإفريقيّة (ملفّات إفريقيّة).

L'ESTOILE (B. de), 1997a, «Africanisme et Africanism. Esquisse de comparaison franco-britannique», in Anne PIRIOU et Emmanuelle SIBEUD, dir., L'Africanisme en questions, Paris, École des hautes études en sciences sociales, Centre d'études africaines (Dossiers africains).

٣٥. ليتْوالْ (بينْوَا دو)، ١٩٩٧ب، «باسم «الأفارقة الجُدُد». الصّفْوة (النّخبة) المتعلِّمة في إفريقيا المستعمَرة في مواجهة الأنتروبولوجيا (١٩٣٠-١٩٥٠).

L'ESTOILE (B. de), 1997b, «Au nom des "vrais Africains". Les élites scolarisées de l'Afrique coloniale face à l'anthropologie (1930-1950)», Terrain.

٣٦. ليتْوالْ (بينْوَا دو)، ١٩٩٧ت، «حَكْرُ الأنثروبولوجيّين الطّبيعيُّ». الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة، والتّخطيط العلميّ والتّنمية». نشرة العلوم الاجتماعية.

L'ESTOILE (B. de), 1997c, «The "natural preserve of anthropologists". Social anthropology, scientific planning and development», Social Sciences Information.

٣٧. ليتْوالْ (بينْوَا دو)، ١٩٩٩، «جيشٌ صغيرٌ من العمّال المساعدين. تقسيمُ العمل ورهاناتُه في الإتنولوجيا الفرنسيّة في العقد الرّابع من القرن العشرين»، بحثٌ مقدَّمٌ في مؤتمر مركز البحوث التّاريخيّة حول البحوث الجماعيّة في العلوم الاجتماعيّة، باريس، نوفمبر/تشرين الثّاني ١٩٩٩.

L'ESTOILE (B. de), 1999, «Une petite armée de travailleurs auxiliaires. La division du travail et ses enjeux dans l'ethnologie française des années 1930», communication au colloque du Centre de recherches historiques sur les recherches collectives dans les sciences sociales, Paris, nov. 1999.

٣٨. ليتْوالْ (بينْوَا دو)، ٢٠٠٠، «أعراقٌ ليست دُنْيا، بلْ مختلفةٌ. حول المعرض الاستعماريّ لمتحف الإنسان»، في كلودْ بلانْكارْتْ، إدارة، سياساتُ الأنتروبولوجيا، خطابٌ وممارساتٌ في فرنسا (١٨٦٠-١٩٤٠)، باريس، لَارْماتّانْ، تحت الطّبع.

L'ESTOILE (B. de), 2000, «Des races non pas inférieures, mais différentes. De l'Exposition coloniale au musée de l'Homme», in Claude BLANCKAERT, dir., P politiques de l'anthropologie. Discours et pratiques en France (1860-1940), Paris, L'Harmattan, sous presse.

٣٩. لِيفِي-برُوهْلْ (لوسْيانْ)، ١٩٢٥، «معهد الإتنولوجيا التّابع لجامعة باريس»، مجلة الإتنوغرافيا والأعراف والعادات الشّعبيّة.

LÉVY-BRUHL (Lucien), 1925, «L'Institut d'ethnologie de l'université de Paris», Revue d'ethnographie et de traditions populaires.

٤٠. لِيفِي-برُوهْلْ (لوسْيانْ)، ١٩٢٩، «تقرير نشاط معهد الإتنولوجيا لسنة ١٩٢٩»، حوليّات جامعة باريس.

LÉVY-BRUHL (L.), 1929, «Rapport d'activité de l'Institut d'ethnologie pour 1929», Annales de l'université de Paris.

٤١. مالِينُوفْسْكي (برونِيسْلافْ)، ١٩٣٠، «عقلنةُ الأنثروبولوجيا والإدارة، آفْرِيكا.
MALINOWSKI (Bronislaw), 1930, «The rationalization of anthropology and administration», Africa.

٤٢. مارْتُونْ (إدوارد دو)، ١٩٣٠، العالِمُ الاستعماريُّ، باريس، لارُوزْ (حَيَوَاتٌ استعماريّةٌ).
MARTONNE (Édouard de), 1930, Le Savant colonial, Paris, Larose (Vies coloniales).

٤٣. مُوبوَالْ (برنارْد)، ١٩٣٩، «دراسةُ الأعراف القانونيّة لـ إفريقيا الغربيّة الفرنسيّة AOF (دراسةٌ إداريّةٌ)»، في مجموعة الأعراف القانونيّة في إفريقيا الغربيّة الفرنسيّة. في ت. إ.: السنغال، باريس، لاروز (منشورات لجنة الدّراسات التّاريخيّة والعلميّة لـ إفريقيا الغربيّة الاستوائيّة AOF).
MAUPOIL (Bernard), 1939, «L'étude des coutumes juridiques de l'AOF (étude administrative)», in Coutumiers juridiques de l'Afrique occidentale française. T. I: Sénégal, Paris, Larose (Publications du Comité d'études historiques et scientifiques de l'AOF).

٤٤. مَرْسْيِي (بُولْ)، ١٩٥١، مهامُّ علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، داكار، المعهد الفرنسيّ لإفريقيا السّوداء.
MERCIER (Paul), 1951, Les Tâches de la sociologie, Dakar, Institut français d'Afrique noire.

٤٥. نُورْمانْ (دانيالْ) ورِيزونْ (جان-بيارْ)، ١٩٨٠، علوم الإنسان والغزو الاستعماريّ: تأسيس العلوم الإنسانيّة واستعمالها في إفريقيا (في القرنين التّسع وعشر والعشرين)، باريس، منشورات دار المعلّمين العليا.
NORDMAN (Daniel) et RAISON (Jean-Pierre), 1980, Sciences de l'homme et conquête coloniale. Constitution et usage des sciences humaines en Afrique (XIXe-XXe siècles), Paris, Presses de l'École normale supérieure.

٤٦. بالْسْ (بيتْر)، ١٩٩٦، «بَدْجنةُ سياساتِ لُودْگُورو. الإتنوغرافيا الإداريّة ومفارقاتُ الحكم غير المباشر»، الإتنولوجيّ الأمريكيّ
PELS (Peter), 1996, «The pidginization of Ludguru politics. Administrative ethnography and the paradoxes of Indirect Rule», American Ethnologist.

٤٧. بِيرْيُو (آنْ)، ١٩٩٧، البلَدويّةُ الأصلويّةُ والعلومُ الاستعماريّةُ والتغييرُ الاجتماعيُّ. حالة مجلة ماوراء-البحار». في آنْ بِيرْيُو وإيمّانووَالْ سِيبُو، إدارة، جدلٌ حول الأفريقانيّة، مدرسة الدّراسات العليا في العلوم الاجتماعيّة، مركز الدّراسات الإفريقيّة (ملفّاتٌ إفريقيّةٌ).

PIRIOU (Anne), 1997, «Indigénisme, sciences coloniales et changement social. Le cas de la revue Outre-mer», in Anne PIRIOU et Emmanuelle SIBEUD, dir., L'Africanisme en questions, Paris, École des hautes études en sciences sociales, Centre d'études africaines (Dossiers africains.

٤٨. بوَارْيِي (جانْ)، إدارة، ١٩٦٨، الإتنولوجيا. المجلد الأوّل: الإتنولوجيا العامّة، باريس، گالّيمارْ (موسوعة بلِييَادْ، ٢٤).

POIRIER (Jean), dir., 1968, Ethnologie. Vol. I: Ethnologie générale, Paris, Gallimard (Encyclopédie de la Pléiade, 24).

٤٩. التّقريرُ السّنويّ للحكومة الفرنسيّة حول الإدارة المفوَّضة في أراضي الكاميرون لسنة ١٩٢٤، ١٩٢٥، باريس، لاروزْ.

Rapport annuel du gouvernement français sur l'administration sous mandat des territoires du Cameroun pour 1924, 1925, Paris, Larose.

٥٠. رُومْ (أرْنَسْتْ)، ١٩٢٩، «الافتتاحيّة»، مجلة ماوراء-البحار، العدد الأول، مارس/آذار.

ROUME (Ernest), 1929, «Avant-propos», Outre-mer, 1, mars, p. 3-5.

٥١. سُوزَا لِيما (أنْطُونْيُو دو)، ١٩٩٥، حصارٌ عظيم للسّلام. قوّة الوصاية، الهنود وتشكّل الدّولة في البرازيل، بَتْرُوبُولِيسْ، فُوزسْ.

SOUZA LIMA (Antonio Carlos de), 1995, Um grande cerco de paz. Poder tutelar, indianidade e formaça˜o do Estado no Brasil, Petropolis, Vozes.

٥٢. فيبر (ماكس)، ١٩٦٨، الاقتصاد والمجتمع، موجزٌ في علم الاجتماع التّحليليّ، نشره گُونْتَرْ رُوثْ وكلاوْسْ وِيتِّيشْ، باركلي، منشورات جامعة كاليفورنيا.

WEBER (Max), 1968, Economy and society. An outline of interpretative sociology, éd. par Guenther ROTH et Claus WITTICH, Berkeley, University of California Press, 2 vol.

٥٣. فيبر (ماكس)، ١٩٧١، الاقتصاد والمجتمع، منشور بإدارة جاك شايْفِي وإرِيكْ دُو دامْبيار، المجلد الأول، باريس، بلونْ (بحوثٌ في العلوم الانسانيّة).

WEBER (M.), 1971, Économie et société, publ. sous la dir. de Jacques CHAVY et d'Éric DE DAMPIERRE, t. I, Paris, Plon (Recherches en sciences humaines).

٥٤. فيبر (ماكس)، ١٩٩٦، علم اجتماع الأديان، نشر وترجمة من اللغة الألمانيّة: جانْ-بيارْ گرُوسَّيْنْ، باريس، گالِّيمارْ (مكتبة العلوم الإنسانيّة).

WEBER (M.), 1996, Sociologie des religions, éd. et trad. de l'allemand Jean-Pierre GROSSEIN, introd. Jean-Claude PASSERON, Paris, Gallimard (Bibliothèque des sciences humaines).

وثائق

يتناول هذا الباب إعادة نشر الوثائق القديمة والصور التي تعنى بالاستعمار بالنقد والتحليل

ما بعثه المجاهدون الليبيّون إلى المرجعيّة الشيعيّة في النجف الأشرف

رئيس اللجنة الطرابلسية بمصر

ما بعثه المجاهدون الليبيّون إلى المرجعيّة الشيعيّة في النجف الأشرف

رئيس اللجنة الطرابلسية بمصر

نداءٌ من الأمة الطرابلسيّة إلى العالم الإسلامي تستغيث من فظائع الإيطاليين

إلى العالم الإسلامي، إلى الأمّة الإسلامية، وملوكها وأمرائها، وأرباب الوجاهة فيها.

إلى الزعماء المسلمين، وذوي النفوذ، ومن في قلبه ذرةٌ من الإيمان.

إلى العلماء وطلبة العلم، وإلى كلّ من تجمعه بالإمة الطرابلسية جامعةُ الإسلام وأخوته.

إلى الأمّة العربيّة وقوادها والمفكّرين منها. إلى كلّ من يجري في عروقه دم العروبة الطاهرة.

إلى حماة الإنسانية وإلى كلّ من في قلبه ذرة رحمةٍ، ويحب العدل والإنصاف.

إلى كلّ هؤلاء ترفع الأمة الطرابلسيّة استغاثتها من فظائع الايطاليين وهجمتهم، وتستنهض فيهم الغيرة على الإنسانية المعذّبة والأعراض المنتهكة والدماء المهراقة، وتوقظ فيهم همّة المعتصم وتناديهم بأعلى صوتها: وامعتصماه.

لقد نزل بالأمة الطرابلسيّة منذ عشرين سنة قومٌ لا عهد لهم ولا وفاء، فأنزلوا بها من البلاء ما يذهب العقول ويحير الألباب، وقد دافعت عن دينها وشرفها نحو العشرين سنة حتى أتت على آخر سهمٍ في جعبتها، وسطّر لها التاريخ في صحائفه أحسن ما سطّره لأمةٍ دافعت عن نفسها، وهي اليوم تلفظ نفسها الأخير بعد أنْ تمكّن منها الإيطاليون فجرحوها في عزتها وكرامتها، وضربوا منها ملبس العفة بعصاهم التي لا تحترم الإنسانية ولا الشعور.

وقد انتهزوا غفلة العالم الإسلامي عنها فجاسوا خلال ديارها، ومثّلوا فيها أدوار الفظائع، ما يدلّ على الوحشيّة الأوربيّة، فإنّ تاريخ الإنسانية، بل تاريخ البربرية، بل تاريخ الهمجية لم يسجل إلى الآن أفظع ولا أدنى ولا أوحش ممّا فعله الإيطاليون في طرابلس وبرقة.

فقد بقيت المشانق في طرابلس بين الزاوية، والعزيزية، وغريان، وترهونة، ومصراته، وأرفلة،

وسرت، وجدابية، وبنغازي، وفزان، والكفرة عشرة أعوام، وهم كلّما احتلوا ناحيةً من هذه النواحي نصبوا فيها المشانق، وساقوا إليها الناس جماعات، وأطلقوا الجنود في البلاد يقتلون ويهتكون، فلا يبقون على شيخٍ فانٍ، ولا على عاجزٍ مقعد، وكأنّي بالحرائر وهنّ يلقين بأنفسهم في الآبار تقديمًا للموت على ما يرادٍ بهن. وما دخلوا قريةً إلّا أحرقوها واستباحوها. وزجّوا بالناس في أعماق السجون حتى ملئت. واغتصبوا الأراضي وأعطوها للمستعمرين الإيطاليين. ومدوا أيديهم إلى ما في أعناق النساء من حلي فنهبوه، وكانوا إذا اخذوا رجلاً إلى السجن أخذوا جميع ما في بيته من متاع، بل لم يكتفوا بهذا فأخذوا النساء وسجنوهن، والأمر الذي لم يعرف عند أيّ أمةٍ متوحشة، ولم يسجنوا من النساء إلّا كريمات العقائل اللاتي لم يخطين في حياتهن خطوةً خارج بيوتهن.

أيّها المسلمون: إخوانكم، إخوانكم، قد طحنهم الاستعمار بكلكله، واعتزم الإيطاليون أفناءهم، فاستباحوا منهم كلّ محرم، وقصدوا إلى موضع العزة منهم فداسوه بنعالهم، وعملوا على إبادتهم بكلّ وسيلةٍ ليحلوا محلّ الجنس العربي جنسًا ايطاليًا. فلم يتركوا قتلاً ولا شنقًا ولا تمثيلاً ولا هتكًا إلّا ارتكبوه وسط هتاف الجنود وتصفيقهم. وقد مرَّ بعض جنودهم بجماعةٍ من الضعفاء نحو العشرين يحصدون زرعًا لهم بقرب أجدابية فما هو إلّا أنْ عملوا فيهم الرصاص حتى أبادوهم عن آخراهم.

أيّها المسلمون: دونكم هذه الأمة العريقة في الإسلام، العريقة في العربية، قد استأصل الإيطاليون شأفتها، واستعملوا معها سياسة الإبادة والمحو؛ فسلّطوا عليها براكين الأرض وصواعق السماء، وإنّ أخوانكم ليرمون من الطيارات كما ترمى أعقاب اللفافات، فقد فعلوا هذا مع الشيخ سعد الفائدي من قبلة الفوائد، فشدّوا وثاقه هو و ١٥ شخصًا من رفقائه وحملوهم في الطيارات وألقوا بهم إلى الأرض واحدًا بعد واحد، وكلّما وقع واحدٌ منهم إلى الأرض صفّق الجنود والضباط وقهقهوا ساخرين منه، وهم ينادون بأعلى أصواتهم: فليأتِ محمدٌ ذلك البدوي نبيّكم الذي أغراكم بالجهاد ويخلّصهم من أيدينا.

أيّها المسلم: إنّ أخاك في طرابلس غريبٌ في وطنه، وفي بيته بين أهله وذويه، ففي بنغازي لا يسمح له بركوب السيارات إلى جنب إيطالي مهما كان شأنه. ومهما كان الإيطالي سائقًا أو كنّاسًا أو غير ذلك، وكثيرًا ما أنزلوه بحجة أنّه لا يصح أنْ يركب إلى جنب الأيطالي، ولا يسمح له أنْ يدخل إلى سوق الخضروات ويشتري ما تتوق إليه نفسه من الفواكه إلّا بعد أنْ يشتري الإيطاليون حاجتهم، ويختارون من الفواكه ناضجها وأحلاها. وإنّ الطرابلسي ليتحاشا المرور في الطرقات خوفَ أنْ يتحرّش به الإيطاليون فيهينوه أو يقتلوه.

ولما أرادوا أنْ يغتصبوا أرض الجبل الأخضر من أيدي أهلها - وكانوا نحو الثمانين ألفًا - أجلوهم عنها إلى أرض سرت، وهي أرضٌ قاحلةٌ ضيّقةٌ لا تتسع لمرعى حيواناتهم، وحصروهم في منطقةٍ منها لا يتعدونها، فصارت مواشيهم تموت من الجوع والعطش حتى فنيت، ومات أكثر هؤلاء المساكين جوعًا، ومن بقي منهم يعاني الآن آلامًا تذوب لها الصخور. وكانوا وهم في طريق انتقالهم تنزل بهم الجنود الإيطالية أنواع الإهانة، ونهبوا كلّ ما على نسائهم من حلي، ومن أعياه التعب منهم كان الايطاليون يضربونه بالرصاص ويتركونه يتخبط في دمه.

وقد ذكر لنا (كنود هليموا) الدانمركي لمّا مرّ بمصر بعد سياحته في طرابلس وبرقة: أنّه مرّ بعشرين عربيًّا يرسفون في قيودهم، ويساقون إلى المشتقة بدون أنْ يُحكم عليهم من محكمة، وإنّما هي إرادة ضابطٍ فقط لا يشاركه في رأيه أحد، وكانوا يسألون كلّ واحدٍ منهم قبل إعدامه ماذا تريد؟ فقال أحدهم أريد ألاّ أشنق حتى أعيش وأخدم وطني: وقد شُنقوا كلّهم بين سخرية الجنود وقهقهتهم. وقد نشرت جريدة الضياء يوم ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٩ أنّه عثر على ١٤ جثة من العرب الطرابلسيين مصفّدين في سلسلةٍ واحدةٍ قذف بهم البحر على جهة النجيلة بالأراضي المصرية بالقرب من مرسى مطروح.

أيّها المسلم: هذه صورةٌ مصغّرةٌ ممّا عليه أخوانك في طرابلس، وإنّهم ليستغيثون بك في ما نزل بهم، فلترفع ظلامتهم إلى ملوك الإسلام وأمراء المسلمين، ولتؤذن في الناس بنصرتهم، فإنّ أعظم ما أصيب به المسلمون قعودهم عن التناصر، وتركهم المستعمرين ينخرون في عظامهم حتى قطعوا أوصالهم، وباعدوا بين أسفارهم، وازدردوهم لقمةً بعد دفع لقمةٍ فما وجدوا صعوبةً في هضم هذه اللقم المتفرقة.

أيّها المسلمون: إنّ آخر نقطةٍ احتلّها الايطاليون في طرابلس هي الكفرة، وقد فعلوا فيها ما شاءت لهم همجيتهم أنْ يفعلوه، فقد قتلوا الشيوخ وبقروا بطون النساء، ومثّلوا بالعائلات، وشنّعوا بها، وهتكوا أعراضها، وجعلوا زاوية السنوسي المسماة بالتاج خّمارةً سكروا فيها وشربوا نخب إفناء الطرابلسيين، وأحرقوا جميع ما فيها من الكتب والمصاحف وداسوها بسنابك خيلهم. وممّن قتلوا من الأعيان الشيخ محمد أبو شنّه؛ والشيخ حامد الهامة، والشيخ غيث أبو قنديل، والشيخ محمد أبو يونس، والشيخ سليمان الشريف، والشيخ سليمان أبو مطاري، وغيرهم كثيرون. ومن العلماء وحملة القرآن الشيخ عمار الغدامسي قاضي الكفرة، والشيخ عثمان السدح، والشيخ محمد أبو عمر الفضيل، والشيخ حميدة الفضيل، والشيخ محمد الفضيل الزوبي، وأكثرهم قُتل شنقًا.

وقد حدوا من العائلة السنوسية في زواية التاج السيد حسونه ابن السيد على الخطاب هو ومعه بعض نساء العائلة فنقلوه في طيارةٍ إلى بنغازي، وأمسكوا الحريم، ولا يدري ما فعلوا بهم إلّا الله. وقد بدأت الطيارات ترمي قذائفها على البلد حتى هدمت البيوت على النساء والأطفال؛ ثم لمّا دخلوا أسرحوا فيها الخيل والبغال والإبل التي كانت تحمل أمتعة العسكر، حتى لم تبق فيها خضراء، وكلّ هذا قليلٌ في جانب ما هتكوا من أعراض السيدات، ولم يفرّقوا بين صغيرةٍ وكبيرة، ولمّا جاء بعض الشيوخ إلى القائد يرجونه أنْ يضع حدًا لهذه الحالة أمر بقتلهم بدعوى أنّهم خائنون؛ فذبحوهم ذبح الشياه، وقد وجدوا في يد طفلٍ صغيرٍ خرطوشة فكان جزاؤه أنْ ذبحوه، وجمعوا أثاث البيوت وجردوا النساء من كلّ ما وجدوه في أيديهم وآذانهن. وبعد هذا كلّه حجزوا كثيرًا من النساء لمن يقي من جنودهم هناك، هذا محمل ما فعلوه في الكفرة، وقد فعلوا مثله في كلّ بلدٍ احتلوه.

أيّها المسلمون: إنّ الايطاليين لم يكتفوا بما ذكرناه من فظائعهم في طرابلس، بل شرعوا في تنصير إخوانكم، وانتزاع الهداية الإسلامية من قلوبهم، وأجبروهم على اعتناق النصرانية المُثّلثة حتى لا يبقى في طرابلس وبرقة من يقرّ بوحدانية الله ورسالة محمد، فقد أخذوا الأولاد الصغار ممّن سنّه دون ١٤ من بين آبائهم وأمهاتهم ورفعوهم إلى رومة بحجة تعليمهم، والحقيقة أنّهم أخذوهم لأجل تنصيرهم لأن الفاشست يريدون أنْ يطفئوا نور الإسلام من طرابلس وبرقة، أمّا من تجاوز سنه ١٥ سنة إلى ٤٠ سنة، فأدخلوه في الجيش كرهًا.

وقد أرغموا البنات البالغات على التزوّج من جنودهم وضبّاطهم، وساقوا منهم عددًا إلى مواخير الزنا في المدن؛ زيادةً في التنكيل بالمسلمين وإهانتهم، وقد صرّح كثيرٌ من كبرائهم بأنّهم يؤملون تنصير البربر من أهل طرابلس، فإذا تحقق حلمهم هذا فسيرغمون العرب أيضًا على اعتناق المسيحية، وسيصبح شمال أفريقيا مسيحيًّا كلّه، وستُمد أيديهم إلى غيره من الأقطار الاسلامية، وسيبوء المسلمون بخزي الدنيا وعذاب الآخرة.

أيّها المسلمون: إنّ طرابلس لا تزال فيها طائفةٌ بقيادة السيد عمر المختار تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله، وقد أحاط بها العدو من الجهات الأربع منذ سنتين، وهي في الجبل الأخضر إلى الجنوب الشرقي من بنغازي، وتبعد على ساحل البحر بنحو خمس ساعاتٍ، وكلما حاول الايطاليون أنْ يقضوا عليها فشلت محاولاتهم، ورجعوا بالخيبة والخذلان، وهم الآن متحصنون في جبلهم لا ينقذ إليهم أحد، وليس عندهم ما يأكلون إلّا ما يغنمونه من الإيطاليين، وهذه الفئة القليلة

لو فكّر المسلمون في إعانتها بالمال لانضمّ إليها الكثير ممّن هجروا أوطانهم، وتمكّنوا من الدفاع عن أنفسهم، ولهاجموا الإيطاليين في حصونهم، وأرجعوهم إلى حماية الأسطول، كما كانوا من قبل، وإنّ الفقر ليعمل في تلك البلاد عمله، فمنذ عشر سنين أمسكت السماء غيثها، والأرض نباتها حتى هلك الزرع والضرع.

وليس على المسلمين بعزيز أنْ يجمعوا شيئًا من المال فيعينوا به هذه الطائفة؛ حتى تتمكن من الثبات أمام هذا العدو الطاغية، وبذلك يكونون تداركوا بعض ما أهملوه من واجباتهم، ولولا تخاذل المسلمين لما تشتت شمل الأمة الطرابلسية، وملأ مهاجروها السودان، والجزائر، وتونس، ومصر، والشام، ولما بُتر هذا العضو من جسم المسلمين الذي كان يملأ ما بين الصين والبحر المحيط.

أيّها المسلمون: أما لهذا الأمر من آخر؟ نفوسٌ تُزهق، وحرماتٌ تُنتهك، وأموالٌ تُسلب، وشعوبٌ تُفنى، وأممٌ تستأصل شأفتها، ودينٌ يُهان بعد عزّ، وملايين من الموحّدين يجبرون على اعتناق عقيدة التثليث، ثم لا تغارون ولا تغضبو!!

أيّها المسلمون: سيعمد الإيطاليون إلى تكذيب هذه الحقائق الناصعة، وسيكلفون بعض أذنابهم ومن ينطقون بلسانهم ممّن هم تحت سيطرتهم بأنْ ينشروا هذه الحقائق غير صحيحة، وسيضطرون تحت الخوف والوعيد إلى نشر مثل هذا التكذيب وإنكار الحقائق، ولكن هذه الحقائق لا يشك في صحتها إلّا من أعماه الباطل وحب التعصب للمدنية الكاذبة، فإنّ هذه الأمة التي هجرت أوطانها وملأت بلاد السودان، والجزائر، وتونس، ومصر، والشام وبلاد الترك، ومُلئت صحراء أفريقيا بجثث النساء والأطفال الذين ماتوا عطشًا، هذه الأمة التي تتكبد هذه الصعوبات المهلكة لا يحملها على ذلك إلّا هول أعظم من هذا الهول، فليعتقد العالم الاسلامي وأنصار الانسانية أنّ هذه الحوادث صحيحة لا شك فيها، وأنّ الأمة الطرابلسية هي في النزع الأخير من حياتها. وهي ترفع هذا الصوت تستغيث كلّ من في قلبه ذرةٌ من إيمان قبل أنْ يُجهز عليها، فيفقد المسلمون شعبًا إسلاميًا ويفقد العرب أمةً عربيّة.

رئيس اللجنة الطرابلسية بمصر

A Plea from Libyan Freedom Fighters to the Shiite Religious Authority in Najaf

The President of the Tripolitanian Committee in Egypt

This text contains a heartfelt appeal from the people of Tripolitania (Libya) to the Islamic world, shedding light on the atrocities committed by Italian colonial forces during their occupation. The plea, directed at Islamic leaders, intellectuals, and the broader global Muslim community, highlights the grave injustices faced by Libyans, including massacres, destruction of villages, forced displacement, and the systematic undermining of their identity, faith, and culture. The appeal emphasizes the following:

- The extensive violence and oppression by Italian forces, including the use of executions, forced labor, and the destruction of cultural and religious heritage.
- The Italian strategy of forced conversion, particularly targeting children and women, as part of their efforts to eradicate Islamic beliefs in Libya.
- A call to action for Muslims worldwide to provide material and moral support to Libyan resistance fighters, especially under the leadership of Omar Mukhtar, as they continued their jihad against Italian occupation despite limited resources.

The text serves as a critical historical testimony to the resilience of the Libyan people and their plea for solidarity from the Islamic world during a time of immense suffering and oppression.

Keywords: Libyan Resistance, Italian colonialism, Tripolitania, Omar Mukhtar, Islamic solidarity.

Human Science and "Rational Domination": Ethnological Knowledge and Indigenous Politics in French Colonial Africa

Benoît de L'ETOILE

This article discusses the concept of "rational domination" as articulated by Max Weber and the development of scientific rationality. It explains that rationality serves as a tool to analyze the relationships and connections between colonial powers and indigenous populations. The focus of scientific rationality is the indigenous peoples, while instrumentation and legitimation are essential elements in the emergence of knowledge about indigenous societies and cultures.

The author draws inspiration from Bronislaw Malinowski, who formulated a program for the "rationalization of anthropology and administration" on two levels: theoretical and empirical. Theoretical tools, according to Max Weber, assert that domination—a defining characteristic of modernity—is marked by knowledge and rationality. Bureaucratic domination represents the pinnacle of domination and is the specifically modern form of pure domination. Moreover, one of the most significant features of the modern state is its claim to rationality.

Empirical tools are employed to analyze the relationships concerning the development of knowledge about indigenous populations and the colonial state in French Africa from 1920 to the 1950s.

The researcher addresses several key topics, including bureaucratic domination and rationalization, the study of racial identity and understanding indigenous populations, the crisis of domination and scientific superiority, the stakes of rationalization, and the division of labor and self-naming.

Keywords: rationality, domination, Max Weber, ethnicity, indigenous populations.

A Review of the First Volume of the Series We and the Times of Colonialism”

Ali Raad

This brief review focuses on the series We and the Times of Colonialism (Nahnu wa azminat al-istiʿmar), which examines the colonial forces that swept through the Islamic world. This study, from various perspectives, addresses issues related to the nature of colonialism, including classical, modern, and post-colonial forms, through the views of a group of Arab and foreign thinkers.

The review highlights that the Islamic world remains under the yoke of colonialism, despite having achieved apparent independence. The concept of colonialism has evolved and is now exercised through indirect means, relying on science, philosophy, and soft power. Consequently, many populations feel inferior and weak, glorify everything foreign, and disdain their own national values. This phenomenon has reached the point of denying history, identity, and uniqueness in favor of blindly imitating the West. Thus, contemporary colonialism continues to reap the fruits of seeds sown by classical colonialism in the Islamic world.

The mentioned series stands out as a significant intellectual contribution aimed at constructing a liberatory and critical mindset that opposes the philosophies of both classical and modern colonialism. These philosophies have sought to weaken the collective consciousness of oppressed peoples. Therefore, this series serves as a roadmap to awaken subjugated nations from the grip of colonialism.

Keywords: colonialism, occupation, mandate, coloniality, post-colonialism, imperialism, secularism, knowledge, domination.

Examples of Jihad Against Colonialism According to the Vision of Sayyid Hibat al-Din al-Shahrastani

Mohammad Baqer al-Bahadeli

At the dawn of the 20th century, Iraq experienced profound transformations on political, economic, and social levels due to the growing influence of European colonial powers, particularly Britain, and the decline of Ottoman authority. Amid these historical changes, prominent figures emerged who sought to preserve national and religious identity and confront colonial domination. Among the most notable was Sayyid Hibat al-Din al-Shahrastani (1884–1967), who exemplified a distinguished model of a scholar, thinker, politician, and reformer.

Sayyid Hibat al-Din is considered one of the most significant figures in Iraq during the first half of the 20th century. Known as a distinguished scholar with expertise spanning traditional religious sciences, rational sciences, mathematics, and astronomy. His jurisprudential, intellectual, and social views formed a cornerstone in resisting cultural and economic colonialism. He played a pivotal role in the national movement that culminated in the 1920 Revolution, followed by efforts advocating for independence. This study aims to present a detailed account of the life of this esteemed scholar, his scholarly capabilities, his perspective on concepts of jihad and resistance, and his views on the early stages of European incursion into Iraq. It examines his stance on the arrival of British forces, his role in preparing for and supporting the 1920 Revolution, and his contribution to establishing intellectual revival. Additionally, it highlights his role in the Ministry of Education, representing his intellectual jihad against British colonialism, all supported by relevant historical documents and sources.

Keywords: Hibat al-Din al-Shirazi, colonialism, Sheikh Mubdir Al Firʿawn, Ajmi Al-Saadoun, British occupation.

The Hidden Face of French Colonial Education in Algeria (Methods, Mechanisms, and Outcomes)

Abdelkader Bouhassoun

Since its occupation of Algeria on July 5, 1830, the French colonial administration sought to implement a unique policy encompassing various domains. The objective was to subjugate Algerians and ensure their loyalty to France, thereby fulfilling the dream of a "French Algeria."

Thus, in addition to military and political control and economic exploitation, the colonial administration worked relentlessly to integrate Algeria as an inseparable part of French territory—culturally, linguistically, and religiously. The colonial leaders recognized that achieving this goal required dismantling the fundamental elements of Algerian identity, especially religion and language. To this end, the French relied heavily on education as a central and effective tool for realizing their insidious objectives. The aim was to establish a colonialism whose effects could not easily be erased by undermining the structure of Algerian society, eliminating its material and spiritual foundations, neutralizing its civilizational values, suppressing religious sentiment, combating the Arabic language, and inciting tribal divisions as a prelude to settler colonization.

This study seeks to elucidate the features of French educational policies in Algeria by addressing their concept, objectives, and the methods and mechanisms used for their implementation, as well as examining Algerians' attitudes and reactions to these policies.

Keywords: French colonialism, Algerian colonization, Algerian Revolution, Christianization, Francization.

The Three British Invasions of Egypt: Occupation Events and Methods of Popular Resistance

Muhammad Shawqi Uthman

Egypt was subjected to three British invasions during the 19th century. The first occurred at the beginning of the century during the French campaign in Egypt (1798–1801), lasting approximately two years. The second invasion took place in 1807, when Egypt faced a British campaign led by Alexander Mackenzie Fraser, which lasted six months. The third and longest occupation began in 1882 and lasted seventy-four years.

Following the third British occupation, Egypt experienced two distinct phases: (1) The first decade of occupation (1882–1892) — the collapse of the national movement, and (2) the awakening of the national movement after the ascension of Abbas Hilmi II on January 8, 1892.

The researcher addresses several significant topics, including the precursors of the Egyptian national movement, the first decade of occupation (1882–1892) marked by the decline of nationalist efforts, the revival of the movement after Abbas Hilmi II's ascension, and the national efforts of Mustafa Kamil (1874–1908), among other issues.

Keywords: Britain, Ahmed Urabi, 1919 Revolution, Saad Zaghloul, 1936 Treaty, 1952 Revolution.

The Geopolitics of Syria and Its Significance from the Perspective of French Colonialism

Professor Dr. Ibrahim Ahmed Saeed

Given Syria's prominent location in the Levant and the eastern Mediterranean, its proximity to the Ottoman Empire's capital, its historical richness, and its central position between the Mediterranean and Mesopotamia, France placed great strategic importance on Syria, considering it a cornerstone of its interest in the Ottoman Empire and the region's future.

This study aims to highlight the geopolitical situation of Greater Syria and the geopolitical changes during the period preceding French and British colonialism, characterized by the decline of Ottoman authority and the rise of Arab nationalist consciousness across the Arab world, particularly in Syria. The study focuses on the conspiracies crafted by colonial powers, notably France and Britain, as evidenced by the Sykes-Picot Agreement, followed by the Balfour Declaration. It also underscores Syria's astronomical, geographical, economic, and cultural significance.

The research delves into the factors that precipitated events in Syria and led to geopolitical transformations before World War I. These include the deposition of Sultan Abdul Hamid II, the rise of the Young Turks to power, the ensuing Turkish extremism and discrimination against Arabs, the internal conflicts among the Young Turks (Talat, Enver, and Jamal Pasha), their policies of Turkification within the Ottoman state, and the execution of Arab nationalists in 1916.

Keywords: Sykes-Picot Agreement, Balfour Declaration, Jamal Pasha, Sharif Hussein, French and British colonialism.

The Prelude to the British Occupation of Iraq

Professor Dr. Yaseen Shihab Shukri

Britain's interest in Iraq and its desire to control its resources began over a century and a half before its direct occupation in 1914. This interest stemmed from Iraq's strategic position as a link between the Arabian Gulf and the Mediterranean Sea, as well as its economic potential, including navigation, transportation, and trade along Iraq's rivers, in addition to communications and telegraph lines. Britain also pursued projects such as constructing railways to connect its interests in India and the Far East with Europe.

These interests conflicted with the Ottoman presence in Iraq and with competition from other powers, such as Germany. This rivalry prompted Britain to devise plans and prepare for an invasion of Iraq at the dawn of the 20th century. The onset of World War I and the Ottoman Empire's entry into the war provided the opportunity for Britain to initiate its military campaign to occupy Iraq. This campaign began in India, advanced towards the Gulf, and then proceeded to southern Iraq. However, British forces required four years to gain full control of Iraq due to the popular resistance, which was galvanized by jihad fatwas issued by the religious authority.

Keywords: British occupation, Jewel of the British Crown, Euphrates Valley Railway, German influence, Ottoman Empire.

The Confrontation Between England and Scholars in the Constitutional Revolution

Sayyed Abbas Al-Radawi

In every country, constitutionalism signifies that the authority of the monarchy and governmental institutions is restricted and conditioned by established boundaries and laws. Conversely, despotism implies unchecked and arbitrary sovereignty, where the monarchy wields absolute power, governs at will, subjugates its subjects, and is unaccountable for its actions.

The reasons behind the emergence of constitutionalism in Iran are multifaceted: first, the overt and covert interference of foreign powers in Iran›s politics and economy; second, the Tobacco Protest; and third, the disregard for religious traditions. Constitutionalism had clear objectives: justice, the rule of law, and freedom; political and economic independence; and the revival of Islamic traditions.

England, unable to tolerate these spiritual goals, began extending its malign influence. Its aim was to remove religious scholars from the public sphere, spreading false rumors that England had played a role in the success of the constitutional movement. England and Russia sought to consolidate their influence by exploiting the state›s economic vulnerabilities. As a result, vigilant scholars sensed the impending threat and called upon the people to resist this onslaught.

This study delves into several critical topics, including the confrontation between England and scholars over Iran›s independence, the legitimacy of the movement, British strategies in opposing scholars, and intimidation of key figures, accusations of foreign affiliations.

Keywords: constitutionalism, England, Sheikh Fazlullah Nuri, Sayyed Hassan Modarres, Akhund Khurasani, Tobacco Protest.

The 2030 Agenda for Sustainable Development: A Step Toward New Colonialism

Dialogue with Dr. Sayyid Hashim al-Milani

This dialogue presents a critical analysis of the 2030 Sustainable Development Agenda adopted by the United Nations in 2015. Dr. Sayyed Hashim al-Milani delves into the ideological and practical dimensions of this agenda, evaluating its potential as a genuine developmental initiative versus its alignment with Western neo-colonial interests. Dr. al-Milani explores the background of the agenda, which evolved from the Millennium Development Goals, outlining its 17 goals and 169 associated targets. He critiques the overarching framework, which he argues is designed to globalize Western values and consolidate global dominance under the guise of sustainability. The dialogue systematically evaluates the agenda on two levels:

1. Holistic Perspective: The agenda is viewed as a colonial strategy aimed at enforcing Western hegemony.

2. Specific Goals and Targets: While recognizing certain positive elements, Dr. Al-Milani highlights discrepancies between the stated objectives and the cultural and religious values of non-Western societies.

The discussion also addresses critical issues such as economic dependency, cultural imperialism, and environmental policies. Dr. al-Milani argues that Western-driven initiatives often prioritize donor interests over beneficiary needs, perpetuating inequalities rather than alleviating them. Dr. al-Milani concludes with a call for inclusive and culturally sensitive approaches to global development, emphasizing the necessity of engaging Islamic scholars and intellectuals in crafting alternative frameworks that align with local traditions and values.

Keywords: Sustainable Development 2030, neo-colonialism, Western hegemony, cultural imperialism, Islamic perspective on development.

ترجمة ملخّصات المحتوى بالإنجليزيّة

Abstracts

Aims and Scope

This journal is dedicated to exploring the complex history of Western colonialism, encompassing both classical and modern periods, as well as the post-colonial era. It aims to provide a comprehensive analysis of the political, economic, educational, cultural, and intellectual motivations behind colonial endeavors, supported by robust documentation.

The journal critically examines the destructive nature of colonial military campaigns and their profound impact on colonized nations, including the displacement and mass killing of populations, and the long-term consequences of cultural invasions. It highlights how these invasions undermined cultural, religious, and social identities, weakened concepts of citizenship, questioned core values, alienated national consciousness, and fractured unity through the promotion of divisions, sectarianism, and discord. Additionally, the journal investigates the deliberate fabrication of crises by colonial powers and the enduring effects of these policies, which continue to shape contemporary realities. By offering a clear and detailed understanding of colonial policies and their devastating legacies, the journal aims to contribute to the development of independent national awareness and informed perspectives for the present and future.

Furthermore, the journal emphasizes the significance of resistance movements—whether religious, intellectual, scientific, literary, field-based, or political—in opposing colonial projects. It seeks to document the struggles and resurgence of nations as they resisted Western colonial expansion, highlighting their resilience and contributions to the fight for independence and justice.

2

Colonialism

A journal dedicated to the analysis and critique of classical and new colonialism and post-colonialism.

Issued by the Islamic Center for Strategic Studies.

Deposit Number at the National Library and Archives in Baghdad 2024 (2767)

Editor-in-Chief

Dr. Hashim Al-Milani

Managing Editor

Dr. Ammar Abdul-Razzaq Al-Sagheer

Editorial Secretary

Dr. Furqan Al-Husseini

Editorial Board

Dr. Sheikh Jamal Ammar, Professor of Contemporary Thought, Tunisia.

Dr. Hassan Abdallah Hassan, Professor of Educational and Psychological Sciences, Egypt

Sheikh Hassan Al-Hadi, Researcher in Islamic Thought and Professor at the Islamic Seminary, Lebanon

Dr. Mahmoud Haidar, Professor of Philosophy and Contemporary Thought, Lebanon

Dr. Yassine Shihab Al-Bajwani, Professor of Contemporary History, Iraq.

Dr. Yahya Abu Zakaria, Professor of Islamic Civilization, Algeria

English Language Proofreading

Dr. Hamed Fayazi

Arabic Language Proofreading

Dr. Fadhaa Thiab

Contact Information

Website : http://www.iicss.iq

Journal Website : colonialism.iicss.iq

Email : info@colonialism.iicss.iq

2

Colonialism

A journal dedicated to the analysis and critique of classical and new colonialism and post-colonialism.

Issued by the Islamic Center for Strategic Studies.

Deposit Number at the National Library and Archives in Baghdad 2024 (2767)

The views expressed in this journal do not necessarily reflect those of the center.

Colonialism

quarterly journal
dedicated to the analysis and critique of old and new forms of Colonialism,
as well as post-colonialism

Winter – 2025 A.D.
1446 A.H.

Issued by
The Islamic Center for Strategic Studies
Committed to Religious Strategy
Al-Najaf Al-Ashraf

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
يعنى بالاستراتيجية الدينية و المعرفية
http://www.iicss.iq

colonialism.iicss.iq
info@colonialism.iicss.iq
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية 2767 لسنة 2024م